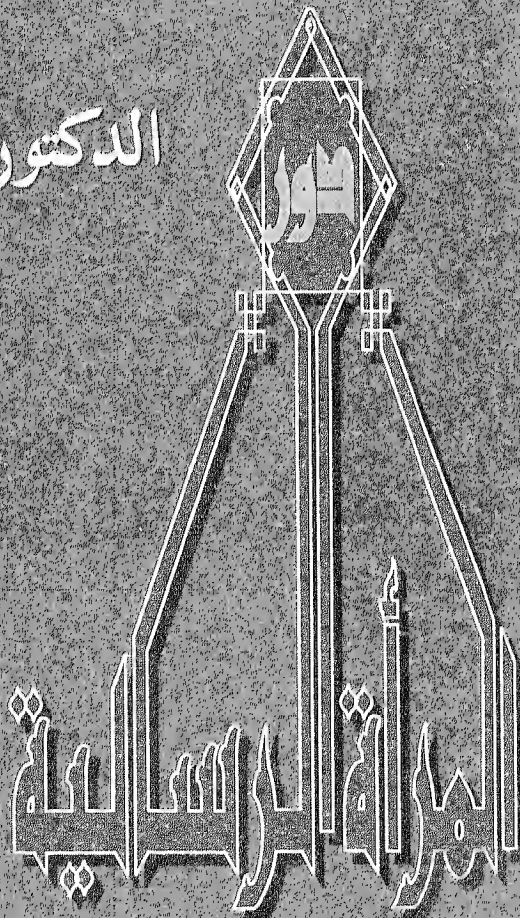


الدكتور سعيد هاشم

في
دولة
النبيوة



مؤسسة الفجر

دَوْلَةُ الْمَرْكَاةِ الرَّسَالِيَّةِ
دَوْلَةُ النَّسَبِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

مؤسسة الفجر
لندن

AL-FAJR

B.M. BOX 1505 LONDON WC1N 3XX ENGLAND U.K.

297.64
16
1

493

قَوْلُ الْمَرْأَةِ الرَّسَائِلِيَّةِ في دولة النبوة



GOAL
Organization of the Alexandria Library
Bibliothèque d'Alexandrie

الدكتور سعيد هاشم

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
297.64	رقم الز
د. هـ	
569.89	رقم التسجيل

مؤسسة الفجر
لندن



الإهداء

إلى كل سيدة وكل فتاة في جميع أنحاء المعمورة، إلى الأمهات الحريصات على تربية أولادهنَّ وفقاً لقيم الدِّين المحمّدي والقيم الإنسانية، لإعدادهم الإعداد الأمثل لخدمة مجتمعاتهم.

إلى الأمهات اللّواتي ينتظرن بصبر وإيمان راسخ إطلالة أبنائهن من خلف قضبان السجون في صراع الحق مع الباطل، من أجل غد أفضل.

إلى الفتيات الحريصات، على انتهاج النهج القويم، والتطلّع لخدمة مجتمعاتهن، وفقاً للقيم الإنسانية الأصيلة.

إليهن جميعاً، أقدم هذه الدراسة عرفاناً بدورهنّ العظيم في خدمة البشرية وتطوّرها، عبر التاريخ الإنساني.

10

11

12

13

14

15

16

17

18

19

20

21

22

23

24

25

26

27

28

29

30

31

32

33

34

35

36

37

التمهيد

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

المرأة نصف المجتمع ، ولا يمكن أن تقوم حياة المجتمعات بدونها . فإذا كان الأطفال ، قناديل الحياة الزوجية فإن المرأة هي عطر الحياة بل ملحها . ولا يمكن لأي مجتمع أن يحقق تقدماً ، أو رقياً حقيقياً ، دون مشاركة المرأة عن طريق إعدادها الإعداد الأمثل . إن رقي المجتمع ، يبدأ من إعداد المرأة إعداداً سليماً صحياً ونفسياً وعقلياً . وهذه الدراسة محاولة متواضعة لبحث أحوال المرأة التي كانت عليها في العصر الجاهلي ومعرفة كيف كانت مكانتها في ظل الدين الجديد الذي كان بمثابة ثورة ليس على حياة مجتمع شبه الجزيرة العربية فحسب ، وإنما على حياة المجتمع البشري بشكل عام ، وتقديم تعاليم ومبادئ جديدة تشمل حياة الإنسان الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية^(١) . ثم دراسة نماذج للمرأة الرسالية التي قدمتها دولة النبوة للمجتمع البشري .

وعلى الرغم من التغيير الجذري الذي أحدثه الإسلام ، فيما يتعلق بمكانة المرأة إلا أن الضيم الذي لحقها والذي لا يزال يصيبها يعتبر ظاهرة شنيعة . سواء كان ذلك في العالم الإسلامي أم في باقي دول العالم ، فبالنسبة للعالم الإسلامي هناك الكثير من الانتهاكات لحقوق المرأة التي لا تتسع هذه الدراسة لبحثها ولا تهدف لمناقشتها ، ونادراً ما تمتعت المرأة بحقوقها السياسية مثلها مثل الرجل . فغياب الحريات العامة سمة من سمات غالبية أنظمة الحكم في العالم الإسلامي منذ وفاة الرسول (ص) وحتى الآن ، عدا استثناءات قد يغمرها التاريخ . فإذا كانت وسيلة القمع والإرهاب ، هي أهم وسائل أنظمة الحكم في العالم الإسلامي في جميع العهود ، فلا

شك في أن المرأة هي في مقدمة الضحايا . ولم تكن المرأة في العالم الغربي أحسن حالاً من أختها في العالم الإسلامي ، إلا من الناحية الشكلية ، أما النتيجة فهي واحدة في نهاية المطاف ، على الرغم من توفر الحقوق السياسية مؤخراً للمرأة في العالم الغربي وبعض دول العالم الثالث .

ونتيجةً لسوء ممارسات الأنظمة الحاكمة في العالم الإسلامي وابتعادها عن النهج النبوي في تطبيق المبادئ التي قامت عليها دولة النبوة ، وهي : الحق ، العدل ، المساواة والحرية . فقد أدى ذلك إلى تشويه صورة الدين الإسلامي وسمعة مجتمعاته بحيث سوَّغوا للمجتمعات خارج العالم الإسلامي أن تعتقد أن الإسلام سجن المرأة في دارها وجعلها أسيرة جدران البيت ، وأن رسالتها في الحياة تقتصر على تربية الأطفال وخدمة الزوج ، وهذا في حد ذاته تشنيع على الإسلام ، وإساءة لصاحب الرسالة ومؤسس دولة النبوة النبي محمد (ص) .

إنّ الكتابَ المستشرقين الذين يقومون بنقل تراث العالم الإسلامي وتاريخه إلى شعوبهم ، يأخذون نماذجهم من حياة الحكّام المسلمين . إنهم مخطئون في اعتبارهم الحكّام ممثّلين للمجتمعات الإسلامية ، علماً بأنّ أغلبهم يمثلون حكومات سياسية بحتة ، ربما لا تمت إلى الدين بصلة ، وقد فرضت نفسها بقوة السلاح . فمثلاً الحكّام الأمويون ، عدا عمر بن عبد العزيز ، والعباسيون ، والعثمانيون عدا سليمان القانوني وغيرهم يعتبرون سُبّة في تاريخ الأمة الإسلامية^(٢) . وعلى أي حال فإنّ المرأة في العالم الإسلامي في الوقت الحاضر ، لا تزال متأرجحة بين التطرّف في الانفتاح باتباع دعوات دينية تناشدها التقوقع وبين التحرر المطلق وتقليد المرأة الغربية في ملابسها وحياتها الاجتماعية ؛ دون معرفة الحقيقة المؤلمة التي تعيشها هذه المرأة .

لذا ، فإنّ هذه الدراسة ستقدم بإيجاز صورة واضحة للمرأة في العصر الجاهلي وتبيّن كيف كانت مكانتها ودورها ، وماذا قدّم لها الإسلام .

المحور الأساسي الذي يقوم عليه هذا البحث ، هو مناقشة الدور الذي قامت به بعض النماذج النسائية للمرأة الرسالية والتي آمنت بدينها عن وعي وإدراك كاملين على أنّه عقيدة ومنهج للحياة - من داخل البيت النبوي وخارجه - وأن ذلك الدور

الذي لعبته هذه النماذج هو نتاج لتعاليم دولة النبوة ومفخرة للمجتمع النسائي الإسلامي والعالمي، من حيث التضحية والبذل والجهاد في سبيل الله انطلاقاً من المبادئ التي قامت عليها دولة النبوة، وهي: الحق والعدل والمساواة والحرية التي تهدف إلى تحقيق السعادة للإنسان، مهما كان لونه أو عرقه أو دينه، وفي أي مكان وفي أي زمان.

وتتكوّن هذه الدراسة من مقدمة وأربعة فصول وخاتمة:

١ - مقدمة: تناقش وضع المرأة في العصر الجاهلي، ثم تلقي الضوء على حقوقها وواجباتها في ظل الدين الجديد الذي جاء به النبي محمد (ص)، ونبذة عن الدور الذي قامت به المرأة، خلال العهد النبوي، كنموذج لما يجب أن تكون عليه المرأة، من حيث رسالتها في الحياة والدور الذي يجب أن تضطلع به.

٢ - الفصل الأول: يناقش حياة السيدة خديجة بنت خويلد، بوصفها رائدة النضال الأولى للمرأة الرسالية في دولة النبوة.

٣ - الفصل الثاني: يناقش حياة السيدة فاطمة الزهراء بنت محمد (ص)، بوصفها رائدة النضال الثانية للمرأة الرسالية في دولة النبوة، ويوضح مبررات تلك الريادة.

٤ - الفصل الثالث: يناقش ظروف نشأة السيدة زينب بنت علي بن أبي طالب، بوصفها رائدة النضال الثالثة للمرأة الرسالية في دولة النبوة ومهامها في الملحمة الاستشهادية، ويوضح مبررات ريادتها النضالية.

٥ - الفصل الرابع: يناقش مجموعة من النماذج النسائية لنضال المرأة الرسالية في دولة النبوة في فترات مختلفة، وهي عشرة نماذج.

٦ - الخاتمة العامة: تتضمن الاستنتاج العام لما تمت مناقشته، بالإضافة إلى تقديم المقترحات التي تبلورت من خلال هذه الدراسة فيما يتعلق بدور المرأة.

٧ - الملاحق التوثيقية للخطب، وتشتمل على مجموعة من خطب آل

الرسول (ص)، إضافةً إلى قصيدة انتظمت فيها تواريخ ولادة زعماء دولة النبوة ووفاتهم وأماكن ذلك .

وتهتم الدراسة، بالتركيز على الجانب السياسي لنضال المرأة، من خلال النماذج المقدمة .

كما اتبعت الدراسة المنهج التحليلي، واعتمدت على مجموعة من المصادر الأولية والثانوية الهامة .

أما المصادر الأولية فتشمل :

أ- المخطوطات وأهمها :

- ١- بيان في خلافة النبي (ص)، للأصفهاني .
- ٢- التتمة في تواريخ الأئمة، لتاج الدين بن علي العاملي .
- ٣- زبدة الأصول، لبهاء الدين محمد العاملي .
- ٤- اللهوف على قتلى الطفوف، لابن طاووس .
- ٥- مشارق الأنوار النبوية من صحاح الأخبار المصطفوية للصفاني .
- ٦- مشكاة المصابيح للكيداتي .
- ٧- المستطرف من كل شيء مستطرف، للأبشيهي .
- ٨- الجامع الصحيح للبخاري، إضافة إلى عدد آخر من المخطوطات ستكون مدونة جميعها ضمن مصادر الدراسة .

ب- مجموعة من الدراسات الأولية أهمها :

ابن حجر في صواعقه، الطبري في ذخائره، الردة للواقدي، خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب للنسائي، الإمامة والسياسة لابن قتيبة، الأئمة الاثنا عشر لابن طولون .

ج- المصادر الأولية الموسوعية، وتشمل: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، بحار الأنوار للمجلسي، وأعيان الشيعة للأمين .

إضافة إلى مجموعة هامة من الدراسات الثانوية، التي اعتمدت على مصادر أولية منها: معالم المدرستين للعسكري؛ علي إمام المتقين للشرقاوي؛ الصراط المستقيم لليياضي؛ الأنوار النعمانية للجزائري؛ الإنصاف في النص على الأئمة الاثنى عشر من آل محمد (ص) للبحراني؛ أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ للقرماني.

وستكون ملاحظات القراء الموضوعية والبناءة، من الجنسين، موضع تقدير المؤلف واهتمامه.

ويسر المؤلف، أن يوجه شكره وتقديره، إلى كل من سهّل مهمته لإعداد هذه الدراسة، خصوصاً العاملين في المكتبات الآتية بجامعة (ماكجيل) في (مونتريال) (بكندا):

أ- مكتبة معهد الدراسات الإسلامية، ويخصّ المؤلف بالشكر، من بين العاملين فيها، الدكتور (آدم جاسك) مدير المكتبة.

ب- دائرة الكتب النادرة والمجموعات الخاصة، ويخصّ بالشكر الدكتور (ريجود فير) أمين المخطوطات.

ج- مكتبة (بلاكروود) للأحياء، ويخصّ بالشكر السيدة (آن هابك) مشرفة المكتبة.

د- مكتبة (أوسلر) لتاريخ الطب، ويخصّ بالشكر السيد (وين لبل)، مساعد أمين المكتبة.

كما، ويسعد المؤلف أن يوجه عظيم شكره وفائق امتنانه للأخ الوفي الدكتور علي أحمد العريبي على تكمّله بقراءة الدراسة، وملاحظاته القيّمة. والأخ العزيز الدكتور عبد الحسين عوّاد الذي بذل جهداً كبيراً في المراجعة النهائية لهذه الدراسة، وتحملّ عناء متابعة النّشر.

إليهم جميعاً إكباراً وتقدير.

سعيد هاشم

مونتريال، في ٢ ربيع الأول ١٤١٣هـ

الموافق ٣١ آب/ أغسطس ١٩٩٢م

1. The first part of the document is a list of the names of the persons who have been appointed to the various offices of the government of the State of New York for the year 1900. The list is arranged in alphabetical order of the names of the persons.

2. The second part of the document is a list of the names of the persons who have been appointed to the various offices of the government of the State of New York for the year 1900. The list is arranged in alphabetical order of the names of the persons.

المقدمة

أولاً: المرأة في العصر الجاهلي:
نبذة تاريخية عن حياة المرأة ونظرة
المجتمع إليها، في العصر الجاهلي.

ثانياً: المرأة في ظل الإسلام:
الحقوق والواجبات.

أولاً: المرأة في العصر الجاهلي :

نبذة تاريخية عن حياة المرأة، ونظرة المجتمع إليها، في العصر الجاهلي :

على الرغم من الدور الإنساني والتاريخي الذي كانت تقوم به المرأة في العصر الجاهلي ، وهو رعاية الأسرة والقيام بأعباء المنزل ، إلا أن بيئة المجتمع في شبه الجزيرة العربية ، على الأقل ، لم تكن ترى للبنت وزناً ولا للمرأة قدراً مهما بلغ شأنها .

وبلغ إسراف الجاهليين في كراهية الأنثى أن فريقاً من العرب كانوا يدفنون الوليدة حية لأنهم كانوا يعتبرونها عاراً عليهم في حياتهم أما الأسباب التي تدعوهم إلى ارتكاب هذه الجريمة فهي :

أ - الفقر؛ حيث أنهم كانوا يعتبرون البنت عالة على الأسرة تحتاج لمن ينفق عليها .

ب - خوف العار والفضيحة فيما لو شذت البنت في سلوكها وخرجت على عادة الأسرة وتقاليدها .

ج - احتمال تعرّض القبيلة للغزو والنهب وسبي النساء ، على عكس الولد ، الذي يمكن أن يتعلّم فنون القتال والدفاع عن القبيلة .

ويرى بعض المؤرخين أنّ أوّل مَنْ ارتكب الرّأد هو لقمان بن عاد ، من العرب البائدة ، بعد أن رُوّج بخيانة نسائه ، فقتلهن انتقاماً وتشفياً كما قتل بناته^(٣) .

ويرى القرطبي والنيسابوري أنّ النعمان بن المنذر أغار على تميم حينما امتنعت عن دفع الضريبة التي كان قد فرضها عليها ، فكانت نتيجة تلك الغارة أن قتل عدداً من

رجالهم وسبى نساءهم . ولما ذهب قيس بن عاصم ، شيخ القبيلة ، ليستر نساءه المسيبات تمنعت إحدى بناته من الرجوع معه مفضلة البقاء مع النعمان بن المنذر الذي ألحق الذل والهوان بقيلتها . فعاد قيس والدها وكأنها أصيب بحالة هستيرية فوآد كل بناته . ومضى على ذلك ، لا تولد له بنت إلا وأدها ، ففدا ذلك النمط السلوكي لشيخ تميم قدوة لرجال هذه القبيلة وغيرها من القبائل (٤) .

ويرى فريق آخر من المؤرخين أن وأد البنات انتقل إلى العرب فيما انتقل إليهم من الأمم السابقة الذين كانوا يقدمون البنات قرابين إلى الآلهة ، كما كان يفعل المصريون القدماء الذين يقدمون كل عام عروساً من أجل فتياتهم قرباناً إلى النيل لتخفيف حدة فيضانه . كما أن بعضهم كان يقتل البنت أو يحرقها هبة لله ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ﴾ (٥) ، أم له البنات ولكم البنون (٦) ، ألكم الذكر وله الأنثى (٧) .

وكان وأد البنات شائعاً قبيل نزول الوحي على النبي (ص) عند بعض القبائل العربية كتميم وقيس وأسد وهذيل وبكر بن وائل ونظراً لبشاعة تلك المأساة وعنفا صدها حاول بعض الكتاب تطويقها في مناطق محدودة وظروف خاصة (٨) . وعلى أي حال ، ليس باستطاعة أحد أن ينفي هذه الظاهرة من تاريخ العرب بعد أن تناولتها كتب التاريخ وندد بها القرآن الكريم في عدد من الآيات لتعريف المجتمعات عبر العصور بالمستوى المتدني الذي كانت عليه حياة المجتمع الذي بُعث فيه النبي محمد (ص) من حيث القوة والعنف حتى مع فلذات أكبادهم . قال تعالى : ﴿ وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت ﴾ (٩) .

وقال ، أيضاً ، واصفاً ردود فعل الأب ، حينما يُبشّر بالأنثى ، بقوله تعالى : ﴿ وإذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظلَّ وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به أيمسكه على هونٍ أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾ (١٠) .

ويصف أحد الشعراء العرب بعض دوافع الوأد بقوله (١١) :

وزادني رغبة في العيش معرفتي ذلَّ اليتيمة يحفوها ذوو الرحم

أخشى فظاظة عمّ أو جفاء أخٍ وكنتُ أبكي عليها من أذى الكلمِ
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً والموت أكرمُ نزال على الحرمِ
إذا تذكرتُ بنتي حين تنديبني فاضت لعة بنتي عبرتي بدمِ
في البيت الأخير، يصف الشاعر مدى قسوته ومقاومته لعاطفته الأبوية، وهو
ينفذ جريمته، بينما ابتته تتوسل إليه أن يخلّصها فلا يرحم ضعفها ولا دموعها،
فأصبح الآن يبكيها بعبراتٍ من دم.

ثم يصف حالته بعد وأدها، بقوله (١٢):

فالآن، نمت فلا همٌّ يؤرّقني بعد الهدوء بلا وجد ولا حُلُمِ
فيقول أنّه بدفنها هدأ باله، وزال ما يعكر صفو عيشه.
وقد جاء، في القرآن الكريم، أن بعض دوافع الرأد، الفاقة أو الحاجة، وقد نهى
الله عن اللجوء إلى مثل تلك الجريمة بقوله:

﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾ (١٣).

وكانت قريش تئد بناتها في جبل بمكة يقال له: «أبو دلامة». وجاء في أخبار
العرب أن صعصعة بن ناجية (جد الفرزدق) وعمرو بن زيد بن نفيل قد استنقذا
عشرات البنات من آبائهن وتعهّدا لهن بتربيتهن. وكان أول عمل من هذا النوع قام
به صعصعة بن ناجية أنه مرّ برجل من تميم يحفر حفرة، وإلى جواره امرأة تبكي وهي
متعلّقة بوليدة لها. ولما سألها عما بها قالت: «إنّ زوجي هذا يريد أن يثدّ ابنتي»،
فانثنى صعصعة على الرجل يسأله عن السبب، فأجابه: إن الفقر قد دعاني إلى
ذلك فافتداهما منه بناقتين معهما أولادهما. وظلّ لا يسمع بعمل من هذا النوع، إلا
وأقبل عليه. وفي ذلك يقول بعض من يتنسّب إليه، وربما الفرزدق:

ومنا الذي منع السوائدات وحيّا الوئيد فلم يُؤادِ (١٤)

وفاخر الفرزدق، حفيد صعصعة، رجلاً عند بعض خلفاء بني أمية، فقال:

«أنا ابنُ محبي الموتى» فأنكر ذلك . فقال : إن الله عز وجل يقول : ﴿ومن أحيائها فكأنها أحياء الناس جميعاً﴾ (١٥).

وعلى الرغم من انتشار هذه العادة، في مجتمع شبه الجزيرة العربية، إلا أن وجود شخصيات أمثال صعصعة بن ناجية وعمرو بن زيد بن نفيل لإنقاذ أرواح الكثيرات من الإناث وتخليصهن من الوأد بدافع إنساني يعكس النزعات الخيرة التي لم يكن يخلو منها المجتمع العربي في العصر الجاهلي . وقد روى البخاري في صحيحه قال : قال الليث : كتب إلي هشام عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت : «رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : «يا معشر قريش ، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري» . وكان يحمي الموءودة ، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها ، فيأخذها ، فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيئت مؤونتها» (١٦).

وقد حارب الإسلام الوأد، وندد به كما جاء في الآيات المذكورة حتى اختفى إلى الأبد .

وقد عرف العرب ، في العصر الجاهلي ، أنواعاً متعددة من الزواج . ويروي البخاري ، في صحيحه ، عن عائشة زوج النبي (ص) أن النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء :

« ١ - فنكاح منها ، نكاح الناس اليوم ؛ يخطبُ الرجل إلى الرجل وليته ، فيصدّقها ثم ينكحها .

٢ - ونكاح آخر ، كان الزوج يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها : أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها زوجها لا يمسه أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه . فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحبب وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد . فكان هذا النكاح ، نكاح الاستبضاع .

٣ - ونكاح آخر ، يجتمع الرهط ما دون العشرة ، ويدخلون على المرأة كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ومرت ليالٍ بعد أن تضع حملها ، أرسلت إليهم ، ولا يستطيع رجلٌ منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم قد عرفتم الذي كان

من أمركم، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع عن ذلك الرجل.

٤ - والنكاح الرابع، يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها . . . وهن السبايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة [كذا . .]، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتا [كذا . .] به ودُعي ابنه لا يمتنع من ذلك، فلما بُعث محمد (ص) بالحق، هدم نكاح الجاهلية، كله، إلا نكاح الناس اليوم» (١٧).

ثانياً: المرأة في ظل الإسلام:

حقوقها وواجباتها.

تمتعت المرأة في ظل الإسلام، بمكانة مرموقة فقد انتشلها من الهوان والإبادة، فأول حق صانه الإسلام للمرأة هو تحریم وأدها كما خصص الله في كتابه العزيز سورة كاملة تشتمل على معظم شؤون المرأة وما تحتاج إليه من أمور دينها ودنياها.

وكانت المرأة أول من آمن وصدق بالدعوة إلى الإسلام وتلك هي السيدة خديجة بنت خويلد، كما سيأتي تفصيل ذلك لاحقاً في الفصل الأول.

وقد ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في كثير من شؤون الحياة - عدا الميراث والشهادة - رفعاً لشأنها وقال الرسول (ص) موصياً بها: «إن أحسن الناس عند الله من أحسن صحبة أزواجه وبناته» (١٨).

وروى البخاري عن أبي هريرة في وصية الرسول (ص) أيضاً بالمرأة قال: قال رسول الله (ص): «استوصوا بالنساء خيراً فإن المرأة خلقت من ضلع وإن اعوج شيء في الضلع أعلاه قال فإن ذهبت تقيمه أو كسرتة وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء» (١٩).

وكانت المرأة تؤدي الصلاة في عهد الرسول بالمسجد وخصوصاً في الأعياد، وروى أبو داود، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله (ص): «لا تمنعوا نساءكم المساجد فهو خير لهن» (٢٠).

وروى البخاري عن ابن عباس قال : شهدت الصلاة يوم عيد الفطر مع رسول الله (ص) وأبي بكر وعمر وعثمان فكلهم يصلونها قبل الخطبة ثم يخطب بعد فنزل نبي الله (ص) فكانني أنظر إليه حين يجلس الرجال بيده ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال : ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبائعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن﴾ حتى فرغ من الآية كلها ، ثم قال حين فرغ : «أنتن على ذلك» .

وقالت امرأة واحدة لم يحبه غيرها : «نعم يا رسول الله» لا يدري الحسن من هي قال : فتصدّقن . قال : وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفتح والخواتيم في ثوب بلال» (٢١) .

وكانت المرأة تباع الرسول على الولاء لله ورسوله واتباع سنته . وفي ذلك روى البخاري عن عائشة قالت : كان النبي (ص) يبائع النساء بالكلام بهذه الآية : ﴿لا تشركوا بالله شيئاً﴾ . قالت : «وما مسّت يد رسول الله (ص) يد امرأة إلا امرأة يملكها» (٢٢) ومن اهتمام الإسلام بالمرأة واحترامها وتقديرها أن الرسول (ص) كان يشجعهن على الاستفسار عما يحول بخاطرهن فيما يتعلّق بشؤون الدين والدنيا دون أن يكون بينه وبينهن قيود .

فقد روى البخاري عن أبي سعيد ، قال : جاءت امرأة إلى رسول الله (ص) فقالت : «يا رسول الله ذهب الرجال بحديثك ، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه تعلّمنا ممّا علّمك الله» . فقال : «اجتمعن في يوم كذا وكذا ، مكان كذا وكذا» ، فاجتمعن . فأتاهن رسول الله (ص) فعلمهن ممّا علمه الله ثم قال : «ما منكن امرأة تقوم بين يديها من ولدها ثلاثة إلا كان لها حجاباً من النار» فقالت امرأة منهن يا رسول الله اثنين قال : فأعادتها مرتين ثم قال : «واثنين واثنين واثنين» (٢٣) .

وهناك مشاهد ومواقف كثيرة دلّل الرسول (ص) من خلال سنته الكريمة المشتملة على أقواله وأفعاله وتقاريراته على حب الأمة الإسلامية بل والبشرية على احترام المرأة وعدم انتقاصها لأنها لا تقلّ عن الرجل في شيء . روى أحمد بن حنبل عن جرير أن النبي (ص) مرّ على نسوة فسلمّ عليهن (٢٤) .

ومما يؤكد حرص الرسول على توجيه الأمة ولفت انتباهها للعناية بالمرأة كونها صانعة الأجيال وصاحبة التضحيات الكبرى في كل زمان ومكان، فقد حثّ الأجيال على إيثار الأم بالطاعة والرعاية وتقديم طاعتها على طاعة الأب اعترافاً من النبي (ص) بتضحياتها الجليلة فعن أبي هريرة قال: قال رجل: يا رسول الله من أحقّ بحسن صحابتي؟ قال: أمك. قال: ثمّ من؟ قال: أمك. قال: ثمّ من؟ قال: أمك، قال: ثمّ أباك ثم أدناك أدناك» (٢٥).

إنّ تأكيد الرسول (ص) على الامتثال والإحسان للأم دليل قاطع على الاعتراف بدورها المقدس في التربية والإعداد للحياة. فالإسلام يقدّس المهمة الإنسانية للمرأة، ولذا حثّ الأولاد على العناية بها وبرّها أكثر من الأب.

وروى أحمد وابن ماجه عن أبي أمامة أنّ رجلاً قال يا رسول الله ما حقّ الوالدين على ولدهما؟ قال: «هما جنتك ونارك» (٢٦).

ولتعزيز وصايا الرسول بالوالدين فإنّ القرآن الكريم أيضاً قد حثّ على طاعة الوالدين والعناية بهما خصوصاً حينما يبلغان سن الشيخوخة قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا. إِمَّا يَلْفَنَ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَخَفَضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (٢٧). بهذه النصائح يؤدّب الرسول (ص) بأقواله وأقوال كتاب الله أجيال الأمة المتعاقبة ليغرس في نفوسهم قيماً جليلة كالحب والوفاء ويلزمهم بالطاعة ويحذّره من نكران الجميل لمن وهبهم حياتهم. فالوالدان كالشمعتين تحترقان من أجل إعطاء الضوء للأولاد، ويذبل شبابهما من أجل أن يتبرعم الأبناء.

وحياة الرسول (ص) كلها عظات وعبر ودروس للأمة، فيواصل تعليمهم وتربيتهم على الوفاء لمن يحسن إليهم، فتكون الأم، وكذلك المرضعة، صاحبة القدر المعلى. روى أبو داود عن أبي الطفيل قال: رأيتُ النبي (ص) يقسمُ لحماً بالجعرانة؛ إذ أقبلت امرأة حتى دنت إلى النبي (ص)، فبسط لها رداءه فجلست عليه فقلتُ:

مَنْ هي؟ فقالوا؛ هي أمُّه التي أرضعته (٢٨). هكذا يعلم الرسول (ص) الأمة ليقْتدوا بسيرته.

وفي حجة الوداع لم ينس الرسول (ص) المرأة، فقد حظيت باهتمامه وهو يؤدي فريضة الحج. فقد أبى إلا أن يسجل للأمة الإسلامية وللعالم عبر الأجيال إلى نهاية الحياة مكانة المرأة التي تحتلها في رسالته ودعوته إلى الحق والهداية، لقد كان الرسول (ص) يخاطب الأجيال المتعاقبة من خلال الحجاج الذين حضروا حجة الوداع وأوصاهم بالنساء خيراً في بعض خطبته في حجة الوداع، ومما قاله كما روى جابر بن عبد الله الأنصاري:

«إنّ دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا أن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع. ودماءُ الجاهلية موضوعة وإن أول دم أضعُ من دمائنا دمُ ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتله هُذيل. وربا الجاهلية موضوع وأوّل ربي أضعُ ربانا ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوعٌ كُلُّهُ. فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهنَّ بأمان الله واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله. ولكم عليهنَّ أن لا يُوطئنَ فراشكم أحداً تكرهونه فإن فعلن ذلك فإنه يوهنُ غير مبرجٍ ولهنَّ عليكم رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف. وقد تركتُ ما لن تضلُّوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله أنتم تُسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهدُ أنك قد بلغت وأديت ونصحت فقال بإصبعه السَّبَّابة يرفعها إلى السماء وينكيها إلى الناس اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد» (٢٩).

وتبقى وصية الرسول (ص) بالنساء مصانةً عبر تعاقب الزمن، خصوصاً في ذاكرة المصلحين والغيورين على تراث الأمة من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. فيجدّدون وصاياهم لتبقى لازماً وقبساً لأجيال الأمة المتعاقبة. فهذا أحمد الخوي، أحد المفكرين المسلمين، يحدث في كتابه: «أطباق الذهب» مقتفياً أثر سنة الرسول (ص) فيصف طبيعة المرأة وأهميتها للرجل فيوصي بكيفية التعامل معها كما يدعو إلى تعمير بيتي الدنيا والآخرة فيقول:

«النساء عوايق الحجال شقائق الرجال. الرجال قوامون والنساء قواعد. وهم أعضاء الدين وهنَّ سواعد. ما هنَّ إلا مكاريب زروعهم وشراسيف ضلوعهم. ألا فارفقوا بهنَّ فإنهنَّ لحم على خوان واستوصوا بهنَّ خيراً فإنهنَّ عوان. ورجل بلا بعل

كرجل بلا بغل . والعزوبة مفتاح الزنا . والنكاح ملواح الغنى . ومن نكح صفد بعض شياطينه . ومن تزوج فقد حصّن نصف دينه ، ألا فاتّقوا الله في النصف الثاني ، فإنّ خراب الدين بشهوتين ، شهوة الفرج وهي الكبرى وشهوة البطن وهي الصغرى . فاعمر الركنين واحكم الحصنين . وإذا فرغت من الرّواق والصفة فلا تهمل السقيفة والأسكعة . واعلم أن الدنيا والآخرة ضرّتان ، لك إليهما كرّتان ، إحداهما حرّة حريرة ، والأخرى أمة مريرة . فاجعل للحرّة يومين فإنّ لهما قسمين ، وللاّمة قسماً فإنّ لها في كتابك اسماً وأضعف نصيب العقبي ولا تنس نصيبك من الدنيا ؛ واحفظ القسمة العادلة ولا تكن ممّن يحبّون العاجلة . فالويل كل الويل أن تميلوا كل الميل فاتقي الميل بالقلب ، فكُلّ أولئك كان عنه مسؤولاً . وإن كان ولا بد فللاّخرة خيرة لك من الأولى ، وإن اتقيت الزيف فطلق الدنيا ، إنها زائدة . وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة» (٣٠) .

الزواج في الإسلام :

سبق ذكر أنواع الزواج ، أو النكاح ، الذي كان معروفاً في العصر الجاهلي ، وقد هدمه الإسلام وأبقى على نوع واحد فقط وهو نكاح الناس اليوم ، إجلالاً وإعظاماً لكرامة المرأة .

وقد رغب الرسول المسلمين في الزواج فقال : «الزواج سنيي فمن رغب عن سنيي فليس مني» .

وقال أيضاً : «أحبُّ من دنياكم ثلاث : الطيبُ والنساء وقرةُ عيني الصلاة» .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله (ص) : «تنكحُ المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين لا تربت يداك» (٣١) . يؤكد الإسلام على أنّ المرأة هي اللبنة الأولى لبناء الأسرة ، والأسرة هي أساس المجتمع ، والتنشئة السليمة للأجيال مرهونة بالمرأة المدركة والواعية لأمر دينها ودنياها . فإذا صلحت المرأة صلحت الأسرة . وإذا صلحت الأسرة صلح المجتمع . فالمرأة الصالحة هي منبع الخير والعطاء وصمام الأمان للأسرة من عوادي الأيام .

وروى ابن ماجه ، عن أبي أمامة ، عن النبي (ص) أنه قال : «ما استفاد المؤمن ،

بعد تقوى الله، خير له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها نصحتة في نفسها ومالها» (٣٢).

وقد وصف الله، سبحانه وتعالى، الزواج بالرحمة بالعباد لتحقيق الطمأنينة بينهم فقال: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (٣٣).

وقد شرع الإسلام للحياة الزوجية قوانين تحمي الزوجة من جور الزوج وتجاوزاته في جميع الظروف، سواء كان ذلك في الظروف العادية أم في غيرها، كالحمل والولادة والطلاق وغيرها.

وقد حارب الإسلام غلاء المهور منذ العهد الأول لدولة النبوة، وخير مثال لذلك السيدة فاطمة الزهراء بنت النبي محمد (ص)، زوجة الإمام علي بن أبي طالب؛ إذ لم يتجاوز مهرها خمسمئة درهم. وحكى ابن الجوزي، في كتابه «المنتظر في مناقب عمر (ر)» قال: لما ولي عمر (ر) الخلافة بلغه أن صداق أزواج النبي (ص) خمسمئة درهم. وأن صداق فاطمة (ع) كان على علي بن أبي طالب (ع) أربعمئة درهم. فأدى اجتهاد عمر أن لا يزيد أحد على صداق البضعة النبوية فاطمة (ع). فصعد المنبر فحمد الله تعالى وقال: «أيها الناس، لا تزيدوا في مهر النساء على أربعمئة درهم فمن زاد ألقيت زيادته في بيت مال المسلمين». فهاب الناس أن يكلموه. فقامت امرأة في يدها طول فقالت له: كيف يحلُّ لك هذا والله يقول: ﴿وَأْتِيتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً﴾. فقال عمر (ر): «امرأة أصابت ورجل أخطأ» (٣٤).

يتضح، من الرواية المذكورة، أن السلطة الإسلامية، وعلى أعلى المستويات كانت تتصدى لظاهرة غلاء المهور بهدف جعل الزواج ميسوراً لكل طبقات المجتمع حتى لا يكون ارتفاع المهور من السلبيات التي تلحق بالمجتمع كتأخر سن الزواج عند الجنسين أو اتجاه الرجال للزواج من مجتمعات أجنبية. كما توضح هذه الرواية أيضاً غياب الحواجز بين الحاكمين والمحكومين، وحق المرأة في التعبير عن رأيها ومخاطبة أعلى سلطة في المجتمع الإسلامي آنذاك، والتعبير عما يجالها في نفسها بكل صراحة دون أن يلحقها أي ضرر.

وقيل أيضاً: جاءت امرأة إلى عمر فقالت: «يا عمر إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل». فقال لها: نعم الرجل زوجك. وكان في مجلسه رجل يسمى كعب، فقال: يا عمر: إن هذه تشكو زوجها في أمر مباحته إياها عند الفراش. فقال له: كما فهمت كلامها احكم بينهما. فقال عليّ بزوجها فأحضر. فقال له: «إن هذه المرأة تشكوك. قال: أفى أمر طعام أم شراب؟» قال: «بل في أمر مباحتك إياها عند فراشك»، فأنشأت تقول شعراً:

يا أيها القاضي الحكيم أنشده ألهى خليلي عن فراشي مسجده
نهاره وليله لا يبرقه لست في أمر النساء أحده
فأنشأ الزوج يقول شعراً:

زهدني في فرشها وفي الحلل إني امرؤ أذهلني ما قد نزل
في سورة النحل وفي السبع الطول وفي كتاب الله تخويف نحل
فأنشأ القاضي يقول شعراً:
إنّ لها حقاً عليك لم يزل في أربع نصيها لمن عقل

تعاطها داع، ودع عنك العلل
ثم قال له: إنّ الله أحلّ لك من النساء مثني وثلاث ورباع، فلك ثلاثة أيام بلياليهن. ولها يوم وليلة^(٣٥).

هكذا حظيت المرأة، في ظل الدولة النبوية، وفي الصدر الأول لهذه الدولة بكل احترام وتقدير وفقاً لتشريعات سنّها مؤسس هذه الدولة. فكانت شكاوى المرأة وتظلمها من زوجها، أو استفساراتها عن أمور الدين والدنيا، تلقى صدوراً رحبة لتشجيعها على الحوار دونها خجل أو خشية، لخلق الثقة بالنفس وإعطائها المكان اللائق بها كعضو فاعل في المجتمع.

وأتى رجل إلى الإمام علي بن أبي طالب (ع) فقال له: «إنّ لي امرأة كلما غشيته تقول: قتلني قتلتي» فقال اقتلها بهذه القتلة وعلى أتمها^(٣٦). هكذا حرص

النبي (ص) والخلفاء من بعده على تربية رجال الأمة ونسائها، وعلى الحوار المفتوح والبناء الذي كان يرمز إلى مجتمع الأسرة الواحدة. وتكرر دروس المربي العظيم للأمة رجالاً ونساءً.

وروى البخاري، في صحيحه عن أم سلمة (ر)، أن أم سليم قالت: «يا رسول الله، إن الله لا يستحي من الحق هل على المرأة غسل إذا احتلمت؟ قال: نعم. إذا رأت الماء فضحكت أم سلمة فقالت: أتَحْلِمُ المرأة؟ فقال النبي (ص): فيم يشبه الولد» (٣٧). بهذه الصراحة ربّى النبي (ص) أبناء الأمة وبناتها. إن تلك الدروس هي رسالة موجهة إلى كل الأجيال، وإلى كل الأمم، وإلى كل القادة حتى يرث الله الأرض ومن عليها، لأنه بُعث إلى الناس عامة بصفته خاتم الأنبياء. فقد ورد في الحديث الشريف الذي يرويه البخاري عن جابر، قال: «قال رسول الله (ص) أُعْطِيتُ خَمْسًا لم يعطهن أحد قبلي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مسيرة شهر وجُعِلَتْ لي الأَرْضُ مَسْجِدًا وطهوراً، فَأَيُّا رجُلٍ من أمتي أدركته الصلاة فليصل. وأُحِلَّت لي المغنم ولم تحل لأحد قبلي. وأُعْطِيتُ الشفاعة. وكان النبي يُبْعَثُ إلى قومه خاصة، وبُعث إلى الناس عامة» (٣٨).

ولم ينبج الرسول (ص) إلا من السيدة خديجة، ومنها استمر نسله عن طريق السيدة فاطمة الزهراء زوجة الإمام علي بن أبي طالب. ومارية هي الوحيدة بعد خديجة التي أنجبت ابنه إبراهيم، وتوفي قبل أن يبلغ الثانية من عمره (٣٩)، وكان زواجه بها في السنة السابعة للهجرة، وقد أهداها المقوقس ملك مصر إلى النبي، ومعها أختها سيرين وعبد خصي اسمه مابور وألفٌ مثقال ذهباً وعشرون ثوباً من قباطي مصر، وبغلة سميت (دلّ دل) وحمار اسمه (يعفور)، فأهدى النبي (ص) أختها سيرين إلى شاعره حسان بن ثابت (٤٠).

ومن الجدير بالذكر أن معظم زيجات الرسول (ص) كانت لأسباب إنسانية حيث أن غالبية نسائه أرامل، والزوجة البكر الوحيدة هي عائشة بنت أبي بكر. ومع ذلك فقد عدل بين الجميع. فمشلاً حينما وهبت زوجته سودة بنت زمعة ليلتها لعائشة وافقها رسول الله (ص) أول الأمر، وجعل ليلتها لعائشة حتى يشعرها أنه قبل

هبتها، ثم قسم لها ليلتها مثل بقية أزواجه بعد حين ليشعرها بأنه لا يحفوها ولا يهملها^(٤١).

وعاش الرسول (ص) مع زوجاته، عيشة الكفاف، زاهداً قانعاً، ليشترك فقراء الأمة عيشتهم وليضرب المثل الأعلى للقيادة الراشدة عبر العصور. فقد روى عروة عن عائشة أنها كانت تقول: «والله، يا ابن أخي، كنا ننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال ثلاث أهله في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله (ص) نار. قلت: يا خالة فما كان يعيشتكم؟ قالت: الأسودان، التمر والماء، إلا أنه كان لرسول الله (ص) جيران من الأنصار وكانت لهم منائح، وكانوا يرسلون إلى الرسول (ص) من ألبانها فيسقينها». (متفق عليه).

وعن زهده (ص)، أيضاً، روى البخاري عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة: «أنه مرَّ بقوم بين أيديهم شاة مصلية، فدعوه فأبى أن يأكل، وقال: خرج رسول الله (ص) من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير»^(٤٢).

ولم يكن تقشفه عن عُسر، فقد جاءته الغنائم من أقاليم الدولة وكثرت لديه الأموال، وشبع أفقر الناس وفاضت يداه بالعطاء السخي. عن جابر (ر): «ما سئل رسول الله (ص) شيئاً قط فقال لا». (متفق عليه). وعن أنس (ر) قال: ما سئل رسول الله (ص) على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: «يا قوم أسلموا فإنَّ محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وإن كان الرجل يسلم ما يريد إلا الدنيا فما يلبث إلا يسيراً حتى يكون الإسلام أحبَّ إليه من الدنيا وما عليها»^(٤٣).

لقد اختار النبي (ص) هذا النمط من العيش رغبة فيما أعدَّه الله لعباده المتقين، وليكون قدوة حسنة لجميع طبقات المجتمع في كل زمان ومكان. قال تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾^(٤٤). ولقد ضاقت بعض زوجاته ذرعاً بهذه الحياة المتقشفة مثل عائشة وحفصة حتى تدخل أبوهما: أبو بكر وعمر وزجراهما منعاً لتذمرهما من نمط الحياة النبوية الزاهدة^(٤٥). حتى نزل قوله تعالى مخاطباً رسوله (ص) في تذمرهن وتخييرهن بين الحياتين: ﴿يا أيها النبي، قل لأزواجك: إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها

فتعالين أمتعنن وأسرحكن سراحاً جميلاً. وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً» (٤٦).

وعلى الرغم من علو منزلته عند الله وعند الناس، ومن هيئته، فإن حياته في بيته مع زوجاته تعتبر نموذجاً يحتذى به. عن عائشة (ر) قالت: كان رسول الله (ص) يَخْصِفُ نعله ويخيطُ ثوبه ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته. وقالت: «كان بشراً من البشر يغلي ثوبه ويحلبُ شاته ويخدمُ نفسه» (٤٧).

وكما كانت حياة الرسول (ص)، في بيوته مع نسائه، دروساً للمجتمعات البشرية: رجالاً ونساءً، كذلك كانت حياته مع مجتمع المدينة كلها عظات وعبر. وعن أنس قال: «خدمتُ النبي (ص) عشر سنين فما قال لي: أف ولا لم صنعت ولا إلّا صنعت» (متفق عليه).

وعن أنس أيضاً قال: «كان رسول الله (ص) إذا صلى الغداة جاء خدماً المدينة بآئيتهم فيها الماء فما يأتون بإناء إلا غمس يده فيها فربما جاؤوه بالغداة الباردة فيغمس يده فيها» (٤٨).

قبل أن ينزل القرآن بتحديد الأزواج بأربع، وكان ذلك في السنة السابعة من الهجرة. فقد كانت ميمونة بنت الحارث الهلالية هي آخر من تزوج من النساء. وهي خالة عبد الله بن عباس وخالد بن الوليد، وأيضاً خالة أولاد جعفر بن أبي طالب الملقب بالطيار، وأخت أم المؤمنين زينب بنت خزيمة لأُمها. وكان اسمُها بَرّة فسماها النبي (ص) ميمونة. وترملت ميمونة وهي شابة في السادسة والعشرين وكان زوجها أبا رهم بن عبد العزى العامري من بني عمومتها (٤٩). ويروي الرواة أنه لما جاءها البشير بخطبة الرسول (ص) لها، كانت على بعير فألقت بنفسها فرحة وهي تقول: «البعير وما عليه لرسول الله (ص)» (٥٠). فلما نزل القرآن بتحديد الأزواج بأربع لم يؤمر النبي (ص) بتطليق أي من زوجاته، بل نزل القرآن الكريم بالنص على حلهن بلا حرج لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ، إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِكَ وَبَنَاتِ عَمَاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسُهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا

فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً
رحيماً ﴿٥١﴾.

إن بقاء أزواج النبي (ص) التسع خصوصية من خصوصياته، وخصوصية
نسائه كخصوصية وجوب قيامه الليل وتحريم الصدقة على أهل بيته، وخصوصية
نسائه في مضاعفة العذاب على الفاحشة، ومضاعفة الأجر على أعمالهن الصالحة.
قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ، مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ يضاعف لها العذاب
ضعفين، وكان ذلك على الله يسيراً. وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتَعْمَلْ صَالِحاً
تُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَاعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً﴾ ﴿٥٢﴾.

ثم نزل القرآن الكريم بتحريم زواجه بغيرهن، لقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ
مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تُبَدِّلَ مِنْهُنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حَسَنُهنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ
اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾ ﴿٥٣﴾. فالأمر الإلهي لنبيه الكريم بالاحتفاظ بنسائه للحفاظ
على المستوى العالي لخلقه الكريم، لأن الطلاق يتناقض مع سمو أخلاقه وسنته
الكريمة، فقد قال حقاً للمسلمين على الزواج: «تناكحوا وتناسلوا أباهي بكم الأمم
يوم القيامة» (متفق عليه). وقال أيضاً: «إِنَّ أَبْغَضَ الْحَلَالِ عِنْدَ اللَّهِ الطَّلَاقَ». كما
أنه لو كلف بتطليق بعض نسائه لربما وقع هذا الطلاق على النسوة المهاجرات
اللواتي ترملن وهن غير مشهورات بجمال مثل سودة بنت زمعة أول امرأة تزوجها بعد
وفاة السيدة خديجة. ويكون ذلك خلاف ما كان قد قصد إليه (ص) حين
تزوجهن، كما يكون خطأ لقد رهن بعد أن تشرفن بالانتساب إلى أعظم شخصية
عرفتها البشرية. وهو خاتم النبيين. وكرامة للنبي (ص) أصبحت نساؤه أمهات
للمؤمنين لقوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ ثم حرم
زوجاته على المؤمنين من بعده وعد ذلك إيذاء للرسول (ص) لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ
أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا، إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ
عَظِيماً﴾ ﴿٥٤﴾.

وظل الرسول (ص) محتفظاً بزواجه جميعهن حتى فارق الحياة، دون أن يسيء إلى
واحدة منهن، على الرغم من المتاعب التي واجهها من بعضهن، بسبب غيرتهن.
وكن منقسمات إلى حزبين، فقد روى البخاري عن عائشة: «أَنَّ نِسَاءَ رَسُولِ

الله (ص) كنَّ حزبين، فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة والحزب الآخر أم سلمة وسائر نساء رسول الله (ص)» (٥٥).

وقد تسبَّب جناح عائشة، في خلق بعض المتاعب للرسول (ص)، منها اختلاق قصة المغافير، التي نسجتها عائشة، مع نصيراتها، حين رآته يتأخر في طوافه اليومي على بيوت نساؤه؛ إذ يلبث عند السيدة زينب بنت جحش أطول مما يجلس عند غيرها، فعلمت أنها تستبقه لتسقيه عسلاً، وكان يجب ذلك، فاتفقت مع قريناتها إذا دنا منهن الرسول (ص) أن يقلن له: أكلت مغافير؟ (٥٦)، وكان النبي (ص) يكره أن تصدر عنه رائحة كريهة، فلما أخبرهنَّ أنه إنما يشربُ عسلاً، قلن له أو قال بعضهنَّ: «لعل نحلّه جرس العرفط»، فحرم على نفسه ذلك العسل (٥٧).

وكذلك يوم أن جاءت حفصة، فوجدت مارية مع النبي (ص) في بيتها، فغضبت حتى استرضاهما بأن حرّم مارية على نفسه واستكتمها الأمر، فأبلغته إلى عائشة، فأنبأ الله نبيه (ص) بالأمر وفرض له تحلة يمينه كما في أول سورة التحريم، وزجرهنَّ الله على ذلك الفعل لما لهن من منزلة عند رسول الله (ص) وهذَّهْنَّ بالطلاق وأن يبدله خيراً منهنَّ، وهجرهنَّ النبي (ص) جميعاً شهراً، وأنزل الله في شأنهن هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ؟ تَتَّبِعِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَأَ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ، فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ: مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا؟ قَالَ: نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ، إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا. وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ، عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثِيَابٍ وَأَبْكَاراً﴾ (٥٨).

وقد تُعذر عائشة على تلك المواقف والقصص التي تنم عن الغيرة الشديدة لجمالها وصغر سنّها. فأما أم رومان بنت عامر. وقد رُوي عن الرسول (ص) أنه قال: «مَنْ سَرَّه أَنْ يَنْظُرَ إِلَى امْرَأَةٍ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى أُمِّ رُومَانَ» (٥٩).

وعن عائشة أن النبي (ص) تزوّجها وهي بنت سبع سنين وُفِّت إليه وعمرها

تسع سنين ولعبتها معها ومات عنها ولها ثماني عشرة سنة^(٦٠).

تلك نبذة مختصرة جداً لحياة الرسول مع زوجاته الكريهات وهي حياةٌ يحقُّ لكل أسرة التأسي بها، إذ أنَّ الحياة الزوجية لا تخلو مطلقاً من خلافات شكلية ويمكن معالجتها بحكمة وروية. كما عودهن على حياة الكفاف واستطعن أن يتكيفن طمعاً في عشرة رسول الله، لأنه بسيرته الكريمة أراد أن يسنَّ للبشرية نظاماً للحياة، فبصفتهم زوجاته تحتم عليهنَّ أن يسرن على نهجه، فأصبحن القدوة للمرأة الوفية الصابرة المتمسكة بزوجها وبيتها في كل الظروف: في الشدة والرخاء.

وإلى جانب الزواج الدائم شرَّع الإسلام زواجاً آخر هو زواج المتعة منذ عهد النبي (ص). قال تعالى: ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحلَّ لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ، فما استمتعتم به منهنَّ فأتوهنَّ أجورهنَّ فريضةً ولا جُنَاحَ عليكم فيما تراضيتُم به من بعدِ الفريضة إن الله كان عليماً حكيماً﴾^(٦١).

وزواج المتعة، من المسائل المختلف عليها بين مدرستي الإمامة والخلافة. فمع أنَّ المدرستين تتفقان على أن رسول الله (ص) قد شرَّع زواج المتعة، كما تصرُّ الآيات الكريمة إلا أنَّهما تختلفان في استمراريته. فبينما ترى مدرسة الإمامة أن التشريع دائم، ترى مدرسة الخلافة أن هذا التشريع قد نسخ. ومع أن البحث لا يتسع لمناقشة هذا الموضوع بشكل تفصيلي ولكن يمكن تناوله بشكل موجز.

إنَّ تشريع زواج المتعة جاء لحل المشكلة الجنسية في العالم، وذلك لقصور الزواج الدائم عن معالجتها. وتبرز هذه المشكلة بشكل جَدِّي في حالات السفر أو حالات الحرب. إنَّ حاجة الناس اليوم إلى زواج المتعة (الزواج المنقطع) هي أكثر من حاجة الناس أيام الرسول (ص). فتتقدم وسائل النقل سهَّلت عملية السفر والاتصال بين جميع أرجاء المعمورة، كما أن الحروب هي أكثر ضراوة مما كانت عليه أيام الرسول (ص). فالتشريعات الإسلامية لم تأتِ لمجتمع معين وزمان معين وإنما وضعت هذه التشريعات لخدمة البشرية منذ مبعث الرسول (ص) وحتى يرث الله الأرض ومن عليها. إنَّ المجتمع البشري اليوم هو أكبر حجماً بكثير مما كان عليه أيام

الرسول (ص)، ومن الطبيعي أن تكون جميع مشاكله المختلفة قد تعددت وازدادت
كماً وكيفاً، ومشاكل الجنس تأتي في مقدمتها.

إن تشريع زواج المتعة جاء لخدمة المجتمع البشري؛ إذ كان المجتمع المسلم
العربي في مرحلته الأولى نواة لمجتمع دولة النبوة التي كان من المفروض أن تشمل
المعمورة قاطبة. وكان زواج المتعة مباحاً عند جميع المسلمين في عهد رسول الله (ص)
وأبي بكر وجانب من خلافة عمر^(٦٢). وقد حرمه عمر بن الخطاب خلال خلافته
بقوله: «متعتان كانتا على عهد رسول الله أنا أحرمهما وأعاقب عليهما»^(٦٣). والمتعتان
هما: متعة النساء ومتعة الحج.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل يحق لأي إنسان مهما بلغت سلطته
السياسية أو العلمية أن يغير تشريعاً إلهياً جاء به النبي (ص) عن الله؟ علماً بأن الله
يقول في كتابه: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾^(٦٤) وقال
أيضاً: ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾^(٦٥).

وعلى كل حال، فالإجابة على هذا السؤال ومناقشته تخص الفقهاء ولا تخص هذه
الدراسة المتواضعة. وربما واجهت الخليفة عمر ظروف القاهرة دفعته للتحريم. أما
الإمام علي بن أبي طالب، فكان موقفه واضحاً في إعلان رأيه عن الآثار السلبية التي
تترتب على تحريم عمر بن الخطاب لزواج المتعة فقد روي عنه أنه قال: «لولا ما نهى
عنه عمر من أمر المتعة ما زنى إلا شقي»^(٦٦).

وهناك أحاديث منقولة عن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، تدل على
أنهما تمتعا على عهد أبي بكر وقسم من عهد عمر^(٦٧).

روى البخاري عن أبي حمزة قال: «سمعتُ ابن عباس سُئل عن متعة النساء
فرخص فقال له مولى له إنها ذلك في الحال الشديد وفي النساء قلة أو نحوه فقال ابن
عباس: نعم»^(٦٨).

وروى البخاري أيضاً عن جابر بن عبد الله وسلمة بن الأكوع قالاً: «كُنّا في
جيش فأتانا رسول الله (ص) أنه قد أُذن لكم أن تستمتعوا فاستمتعوا»^(٦٩).

وأخرج البخاري عن عمران بن حصين قال: «نزلت آية المتعة في كتاب ففعلناها

مع رسول الله (ص) ولم يتزل قرآن يحرمها ولم ينه عنها حتى مات (ص) قال رجل برأيه ما شاء». وحين يصل الرازي إلى تفسير هذه الآية، يقول معقبا قول عمران: «قال رجل برأيه ما شاء»^(٧٠).

وفي صحيح مسلم جاء عن عطاء قال: «قدم جابر بن عبد الله معتمرا فجنناه في منزله، فسأله القوم عن أشياء ثم ذكروا المتعة فقال: نعم استمتعنا على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر»^(٧١).

أما ابن رشد الأندلسي فقد نقل عن ابن عباس أنه قال: «ما كانت المتعة إلا رحمة من الله رحم بها أمة محمد (ص). ولولا نهي عمر ما اضطر إلى الزنا إلا شقي»^(٧٢). وذكر ابن رشد في الموضع نفسه أيضاً قال: «سمعتُ جابر بن عبد الله يقول: تمتعنا على عهد رسول الله وأبي بكر ونصفاً من خلافة عمر. ثم نهى عنها عمرُ الناس». ويسأل رجل من أهل الشام عبد الله بن عمر عن متعة النساء فيقول له: «إنَّ أباك نهى عنها». فقال ابن عمر: «أرأيت إن كان أبي نهى عنها، وصنعها رسول الله، أنترك السنَّةَ ونتبع قول أبي»^(٧٣). هذه نبذة من أقوال بعض الصحابة الموثوق بهم الذين عاصروا النبي (ص) وفترة لاحقة ليست قصيرة من عمر دولة النبوة.

أما عن حدود زواج المتعة (المؤقت أو المنقطع) فيمكن الاستعانة برد العلامة السيد عز الدين بحر العلوم على مجلة العربي حول زواج المتعة^(٧٤) وذكر نقط الافتراق والاشتراك بين الزوجين الدائم والمنقطع. فبالنسبة لنقاط الاشتراك فهي^(٧٥):

١ - العقد: ولا يستغني كلا الزوجين عنه، ولا بد فيهما من الاشتغال على الإيجاب والقبول. فتقول الزوجة: زوّجتك نفسي في الدائم، ومتعتك نفسي في المنقطع، ويكون القبول في كلا الحالتين من الزوج.

٢ - المهر: وتستحق كل من الدائمة والمنقطة جميع المهر على الزوج بعد الدخول. أما قبل الدخول فيثبت نصف المهر لو طلق في الدائم، أو وهبها المدة في المنقطع.

٣ - عدم المانع: ولا بد لكلا النكاحين: الدائم والمنقطع من عدم وجود مانع شرعي من النكاح من سبب أو نسب أو رضاع أو إحصان أو غير هذه من الموانع الشرعية.

٤ - العدة : وتشترك الزوجتان : الدائمة والمتمتع بها في الخضوع إلى العدة ، وإن اختلفت المدة بينهما فهي في الدائمة التي تحيض ثلاثة أطهار إن كانت حرة وإن كانت أمة فطهران ، وفي المنقطة حيضتان أو خمسة وأربعون يوماً وعلى الزوجتين عدة الوفاة . وتسقط العدة عن كليهما فيما لو لم يحصل الدخول أو كانت صغيرة كأن يكون عمرها أقل من تسع سنين أو كانت آيساً ولو قدر أن اجتمع حمل ووفاة كان أبعد الأجلين هو المفروض في حق تلك الزوجة .

٥ - النسل : ولا فرق عند الإمامية بين أولاد الدائمة أو المتمتع بها فالكل يلحق بأبيه .

٦ - الحضانة : وهي الولاية على الطفل حيث تقوم الأم بتربيته وما يتعلق بها من مصلحته والمحافظة عليه ولكل من الدائمة والمتمتع بها ذلك الحق وإن اختلفت كلمتهم في أصل مدة الحضانة مع غرض النظر عن كون الأم دائمة أو منقطة .

٧ - الميراث : وحيث كان ما يتولد ملحقاً بالأب فلا بد من المساواة بينهما في الإرث فيقف ولد المتعة إلى جانب أخيه من الزوجة الدائمة ليأخذ نصيبه من الميراث على حد سواء .

٨ - نشر الحرمة : إذ تنطبق على الولدين من الدائمة والمنقطة جميع الآيات والعمومات الشرعية الواردة في تحريم الآباء والأمهات والأبناء والإخوة والأخوات والأعمام والعلمات والأخوال والخالات بعضهم على بعضهم الآخر عملاً بما صرحت به الآية الكريمة :

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ...﴾ (٧٦).

أما موارد الافتراق فهي (٧٧) :

١ - ذكر الأجل ، فلا أجل للدائم ولا بد منه في عقد المتعة .

٢ - العدد ، فهو في الدائم أربعة وفي المنقطع إلى ما شاء .

٣ - الطلاق ، فإن المستمتع بها لا طلاق لها بل لزوجها أن يبيها المدة المتبقية . وعند انتهاء المدة تنقطع العلاقة الزوجية بين الطرفين . أما الطلاق فهو من مختصات الزوجة الدائمة .

٤ - النفقة، وتكون للزوجة الدائمة، أما المستمتع بها فلا نفقة لها، مهما كانت المدة التي قدر لها الارتباط الزوجي فيها.

٥ - الواقعة والمضاجعة، فليس للمستمتع بها ليلة أي حق في المطالبة في الواقعة، بل يعود أمر ذلك إليه فهو إن شاء أقدم وإلا فليس لها إلا السكوت أما الدائمة فلها الحق في ليلة من أربع مضاجعة ومرة في الواقعة في ضمن كل أربعة أشهر.

٦ - ميراث الزوجة، فإن الزوجة الدائمة تشارك بقية الورثة في أخذ ما لها من الحق المفروض لها. أما المتمتع بها فلا ميراث لها. وقد عصفت بالعالم الإسلامي منذ ثلاث عشرة سنة وحتى الآن عدة حروب وما تزال هناك حروب أخرى حديثة. وقد خلفت هذه الحروب الكثير من الويلات على المجتمعات الإسلامية في هذه الدول كانت النساء والأطفال في مقدمة الضحايا المتضررين. فهناك حرب أفغانستان التي انتهت في ربيع عام ١٩٩٢، وخلفت أكثر من مليون قتيل ولا شك في أن هناك أكثر من نصف مليون أرملة، هذا إلى جانب المطلقات. وحرب الخليج الأولى بين إيران والعراق والتي دامت ثماني سنوات أيضاً خلفت ما يقارب من مليون قتيل وأكثر من نصف مليون أرملة في كلا البلدين إضافة إلى المطلقات. وحرب الخليج الثانية أيضاً طحنت الأخضر واليابس في العراق والكويت وخلفت أيضاً عشرات آلاف القتلى والمفقودين، ونجم عن ذلك عشرات الآلاف من الأرمال وتشتت عشرات الآلاف من الأسر. أيضاً هناك الحرب الأهلية في جمهورية أذربيجان وفي جمهورية البوسنة والهرسك التي يقطنها المسلمون الأتراك والتي أعلنت استقلالها عن يوغوسلافيا. يتعرض المسلمون لحرب إبادة من قبل الصرب لمنعهم من تأسيس كيان مستقل لهم. كل هذه الحروب خلّفت ما لا يقل عن مليون أرملة، هذا إلى جانب المطلقات والعوانس والأرامل قبل الحروب. فما هي الوسائل الناجحة للمّ شمل هذه الأسر المشتتة التي أصبحت تتكون من أطفال ونساء ومسنين؟ وإذا كانت مشكلة الجنس من المشاكل التي يواجهها كل إنسان امرأة أو رجل في السلم وفي الحرب فكيف يمكن حل المشاكل الجنسية الملحة لكل من الأرمال والمطلقات والعوانس؟

هناك أربعة خيارات، وهي:

أ- التبتل .

ب- الإباحة الجنسية .

ج- الزواج الدائم .

د- زواج المتعة .

فبالنسبة للتبتل فإنه مرحلة إيمانية راقية لا يمكن لأي فرد مسلم بلوغها بسهولة ، خصوصاً في المجتمعات الغربية التي تنتشر فيها الإباحة الجنسية ، وقد حثّ الرسول (ص) على كبح غريزة الجنس بالصوم فقال (ص) : «مَنْ استطاع منكم الباءة فليتزوج ، وَمَنْ لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» (متفق عليه) .

وبالنسبة للإباحة الجنسية فلا يقرها الإسلام . ولذلك فإن المجتمع المسلم يأبأها .

أما بالنسبة للزواج الدائم فمع توفر جميع الإمكانيات المادية فمن النادر أن يقبل شاب على الزواج من ثَيِّب أرملة كانت أم مطلقة أم عانساً في حال توفر البكر . فإذا كان إقبال الشباب على الزواج من البكر فما هو مصير الثيبات والعوانس؟ إنهنَّ جزء من المجتمع ولا بد أن يحنو كل فرد فيه على الآخر . وهذا القرآن الكريم يخاطبُ المسلمين : لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة . ألم يحتضن الرسول زوجات الشهداء وتزوجهن بغية لم شملهن مع أطفالهن؟ هل كان هدف الرسول الجنس من تعدد زوجاته؟ كلا بل كان لهدف إنساني تربوي . إنه يسنُّ نظاماً للحياة البشرية في ظل شريعة الله العادلة .

ويبقى زواج المتعة ، أحد الخيارات المتاحة لحل المشاكل الجنسية عند الجنسين في المجتمعات الإسلامية ، عبر أرجاء المعمورة ، إذا التزم الزوجان بالحدود الشرعية لهذا النوع من الزواج ، كما سبقت مناقشتها .

ومن الجدير بالذكر أن زواج المتعة (المنقطع) معمول به في نطاق محدود لدى المجتمعات الإسلامية في الوقت الحاضر بين أتباع مدرسة الإمامة وخصوصاً في إيران ، والعراق ، ودول الخليج ، ولبنان ، وأفغانستان وأذربيجان ، ودول أوروبا

الغربية ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وكندا .

وعلى كل حال ، فليس هناك تفاضل بين مدرستي الإمامة والخلافة ، فالجميع يستمدون تشريعاتهم الدينية والاجتماعية من مصدرين أساسيين هما : القرآن والسنة ، وإنما يتحتم على الجميع أن يتعاملوا مع العصر بروح مرنة بعيدة عن التعصب والتشنج ، وكل ما يسيء إلى وحدة الأمة الإسلامية .

دور المرأة المسلمة في الحرب :

لعبت المرأة المسلمة ، خلال العهد النبوي وإبان تأسيس دولة النبوة ، دوراً بارزاً في خدمة المقاتلين في ساحات القتال دفاعاً عن الدين والوطن والأمة الوليدة . لقد أثبتت المرأة المسلمة أنها جديرة بالمشاركة في تحمل المسؤولية خلال العقد الأول من عمر دولة النبوة ، وهي الفترة التي صاغ فيها النبي شخصية مجتمع دولته من رجال ونساء وأراد أن يثبت لأجيال الأمة المتعاقبة ، وهو يؤسس نواة دولته ، أن الدفاع عن الدين والوطن والأمة واجب على كل مسلم ومسلمة في كل زمان ومكان ، كل وفق قدراته . وهناك أحاديث كثيرة تثبت مشاركة المرأة المسلمة لإخوانها المدافعين عن حرمة الدين والدولة .

روى البخاري عن حفصة بنت سيرين قالت : « كنا نمنع جوارينا أن يخرجن يوم العيد فجاءت امرأة فنزلت قصر بني خلف فأتيها فحدثت أن زوج أختها غزا مع رسول الله (ص) اثنتي عشرة غزوة فكانت أختها معه في غزوة بدر قالت : فكنا نقوم على المرضى فنداوي الكلى فقالت : يا رسول الله أعلى أحد منا بأس إذا لم يكن لها جلباب أن لا تخرج فقال : لتلبسها صاحبها من جلبابها فيشهدن الخير ودعوة المؤمنين قالت حفصة : فلما قدمت أم عطية أتيها فسألته : أسمعيت كذا وكذا قالت : نعم بأبي - وقل ما ذكرت النبي (ص) إلا وقالت بأبي - قال : ليخرج العوايق ذوات الخدور العوانق - وذوات الخدور شك أيوب والحيض - [كذا .] ، فيعتزل الحيض المصلى ، وليشهدن الخير ودعوة المؤمنين . قالت : فقلت لها الحيض ؟

قالت : نعم . أليس الحائض تشهد عرفات وتشهد كذا وتشهد كذا» (٧٨).

يتّضح من الحديث الشريف دعوة المرأة المسلمة للوقوف جنباً إلى جنب مع المقاتل المسلم لرد المعتدين ، إذ أنه في سبيل سلامة الدين والوطن يرخّص كل شيء حتى الروح التي تعتبر أعلى ما يملكه الإنسان ، إلا أن سلامة الدين والوطن أعلى من حياة الإنسان فمن هنا جاءت الدعوة النبوية لافتداء الدين والوطن بكل غال ونفيس . وقد شملت الدعوة النبوية جميع شرائح المجتمع من رجال ونساء دون استثناء ، كما يتّضح من الحديث الشريف المذكور .

وروى البخاري عن سهيل أنه سُئل عن جُرح النبي (ص) يوم أُحُد فقال : «جُرح وجهُ النبي (ص) وكُسِرَت رِباعيته وهشمت البيضة على رأسه ، فكانت فاطمة (ع) تغسلُ الدم وعلي (ع) يمسحُ . فلما رأت أن الدم لا يزيدُ إلا كثرةً ، أخذت حصيراً فأحرقته حتى صار رماداً ، ثم ألزقته فاستمسك الدم» (٧٩).

وروى الطبري عن ابن مسعود قال : «إنّ النساء كنَّ يوم أُحُد خلف المسلمين يجهزن على جرحى المشركين ، فلو حلفت يومئذٍ لرجوت أن أبرأه لئلا يكون أحد منا يريد الدنيا حتى أنزل الله تعالى : ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة...﴾» (٨٠).

هكذا كان التسابق بين الرجال والنساء والاستماتة في سبيل الذود عن العقيدة والكرامة والأمة ، فالجميع يشعرون بمسؤولياتهم الدينية التي تعلموها من صاحب الرسالة للدفاع عن دولتهم البكر ودينهم ونبئهم .

وروى البخاري عن الربيع بنت مَعُوذ بن عَفراء قالت : «كُنّا نغزو مع رسول الله (ص) نسقي القوم ونخدمهم ونردُّ القتلى والجرحى إلى المدينة» (٨١).

وروى مسلم عن أنس قال : «كان رسول الله (ص) يخرج بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا فيسقين الماء ويداوين الجرحى» (٨٢).

وروى مسلم أيضاً عن أم عطية (ر) قالت : «غزوتُ مع رسول الله (ص) سبع غزوات أخلفهم في رحالهم ، فأصنعُ لهم الطعام وأداوي الجرحى وأقومُ على المرضى» (٨٣).

كانت المرأة المسلمة ، في هذه الغزوات خلال العهد النبوي ، تقوم بدور الأم والمرضة وبعضهن يتزوجن زواجا منقطعاً ، فكان توفير راحة المقاتل المسلم الشغل الشاغل للمرأة المسلمة . ولذلك حفظ المسلمون للمرأة دورها العظيم الذي قامت به خلال حروب العزة والكرامة التي تزامنت مع تأسيس صرح دولة الحق والعدالة والمساواة والحرية ، إنها دولة النبوة فلا غرابة أن يحفظ للمرأة حقها ويصان على أعلى المستويات .

هذا هو دور المرأة المسلمة الذي قامت به على أكمل وجه ودولة النبوة في طور التأسيس ، وهذه معاملتها الكريمة من قادة الأمة بعد رسول الله (ص) الذين حفظوا لها حقها وحرمتها اعترافاً لها بدورها المشرف وتفانيها في خدمة الدين والأمة دون أن تعيقها أنوثتها . فهل يأتي اليوم الذي يستمد منه المسلمون : حكاماً ومحكومين قسماً من النظام المحمدي لبناء المجتمع وخلق الهوية الأصيلة لإنسان دولة النبوة التي تفخر بانتهاها العقائدي دون خجل ؟ إن المرأة المسلمة اليوم ليست أقل حماساً لدينها ووطنها وأمتها من نساء صدر الإسلام . وإن توفير الظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية السليمة كقيلة بخلق أجيال ماثلة من النساء لنساء الصدر الأول من دولة النبوة . عندها يمكن أن تقوم المرأة المسلمة بدورها الصحيح الذي صاغه لها صاحب الرسالة ومؤسس الدولة النبي محمد (ص) ، وما نزول سورة النساء بالقرآن على الرسول إلا دليل واضح على الدور العظيم الذي هيأه التشريع الإسلامي كي تلعبه المرأة وتمارس رسالتها الإنسانية وفقاً لحقوق وواجبات محددة . إن هذه السورة ، بآياتها البالغة مئة وست وسبعين ، تعتبر ركيزة التشريع الإسلامي الذي يشمل جميع القضايا الأساسية للمرأة لتبلغ مستوى يليق بتطلعاتها الإنسانية الراقية .

هوامش التمهيد والمقدمة

- (١) ستصدر دراسة لاحقة للمؤلف يتناول فيها بشكل تفصيلي التحليل الأكاديمي لمصطلح دولة النبوة التي كانت نتاج تشريع سماوي يعتبر ثورة على أوضاع المجتمع البشري بشكل عام، انطلافاً من مجتمع قريش في مكة وحتى تأسيس نواة هذه الدولة في المدينة؛ حيث شملت جميع مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتبريرات التاريخية والمنطقية لجدوى استمرارية استخدام هذا المصطلح حتى نهاية عهد مهدي الأمة المحمدية الإمام محمد بن الحسن (ع).
- (٢) سيتناول المؤلف، في الدراسة اللاحقة المشار إليها، صوراً من حياة بعض الحكام الذين تعاقبوا على حكم دولة النبوة والذين أساءوا إلى الدين والأمة.
- (٣) الحسني: سيرة الأئمة الاثني عشر (القسم الأول، ص ٦٥).
- (٤) نفسه.
- (٥) سورة النحل: ٥٧.
- (٦) سورة الطور: ٣٩.
- (٧) سورة النجم: ٢١.
- (٨) الحسني: المرجع نفسه، ص ٥٥.
- (٩) سورة التكويد: ٩.
- (١٠) سورة النحل: ٥٨، ٥٩.
- (١١) الحسني: المرجع نفس، ص ٥٥.
- (١٢) نفسه، ص ٥٦.
- (١٣) سورة الإسراء: ٣١.
- (١٤) الحسني: المرجع نفسه، ص ٥٧؛ أيضاً الأبيهي: المستطرف من كل فنٍ مستظرف، ص ٢٢٢.
- (١٥) نفسه، سورة المائدة: ٣٢.
- (١٦) البخاري: الجامع الصحيح، مجلد ١، ج ١٥، ص ٢٩٩.
- (١٧) نفسه، مجلد ٢، ج ٢١، ص ٤٢٥-٤٢٦.
- (١٨) الحسني: المرجع نفسه، ص ٥٧.
- (١٩) البخاري: مجلد ١، ج ١١، ص ٢١٩، ج ١٦، ص ٣١٩؛ أيضاً، الصَّغاني: مشارق الأنوار النبوية من صحاح الأخبار المصطفوية، ص ٢٢٤.
- (٢٠) الكبداتي: مشكاة المصابيح، ص ٥٦.

- (٢١) البخاري: المرجع نفسه، مجلد ٢، ج ٢٠، ص ٤٠٣؛ أيضاً، الكبداتي: نفس المرجع، ص ٧٥.
- (٢٢) البخاري: المرجع نفسه، مجلد ٢، ج ٢٩، ص ٥٧٩.
- (٢٣) نفسه، ص ٥٨٧.
- (٢٤) الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٢٣٨.
- (٢٥) نفسه، ص ٢٥٠، متفق عليه.
- (٢٦) نفسه، ص ٢٥٢.
- (٢٧) سورة الإسراء: ٢٣، ٢٤.
- (٢٨) الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٢٥١؛ أيضاً، الطبري: ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، ص ٢٥٩.
- (٢٩) الصّغاني: المرجع نفسه، ص ٤٧-٤٨؛ أيضاً الكبداتي: المرجع نفسه، ص ١٣٥.
- (٣٠) الخوي، أحمد بن محمد بن علي: أطباق الذهب، ص ٣٨-٣٩.
- (٣١) الكبداتي: المرجع نفسه، ص ١٥٨.
- (٣٢) نفسه.
- (٣٣) سورة الروم: ٢١.
- (٣٤) الألباني: المرجع نفسه، ص ٤٠.
- (٣٥) نفسه.
- (٣٦) نفسه، ص ٣١٩.
- (٣٧) البخاري: المرجع نفسه، مجلد ٢، ج ٢٥، ص ٤٩٣، ٤٩٥.
- (٣٨) الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٣٠٧، متفق عليه.
- (٣٩) يابني: علموا أولادكم محبة آل البيت (ص) ص ١٧٩-١٨١.
- (٤٠) نفسه، ص ٢٣٢.
- (٤١) الكبداتي: المرجع نفسه، ص ١٦٤.
- (٤٢) يابني، المرجع نفسه، ص ٢٣٠.
- (٤٣) نفسه، ص ٢٢٨. رواه مسلم.
- (٤٤) سورة الأحزاب: ٢١.
- (٤٥) يابني: المرجع نفسه، ص ٢٢٩.

- (٤٦) سورة الأحزاب: ٢٨، ٢٩.
- (٤٧) الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٣١١، رواه الترمذي.
- (٤٨) نفسه، ص ٣١٠، رواه مسلم.
- (٤٩) الأمين: أعيان الشيعة، مجلد ٣، ج ١١، ص ٣٠٦، مجلد ١٠، ج ٤٧، ص ١٩٩؛ أيضاً، بيان: المرجع نفسه، ص ٢١٦.
- (٥٠) بيان: المرجع نفسه، ص ٢١٧.
- (٥١) سورة الأحزاب: ٥٠.
- (٥٢) سورة الأحزاب: ٣٠، ٣١.
- (٥٣) سورة الأحزاب: ٥٢.
- (٥٤) سورة الأحزاب: ٥٣.
- (٥٥) البخاري: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ١٠، ص ١٩٧، أيضاً، الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٣٤٣.
- (٥٦) بيان: المرجع نفسه، ص ١٨٩. المغافير: ثمر كربه الرائحة.
- (٥٧) نفسه، ص ١٩٠، جرس العرفط: أي رعى زهر المغافير، وهذا الزهر يسمى العرفط.
- (٥٨) سورة التحريم: ١ - ٥، تعددت الروايات في سبب نزول هذه الآيات، هل كان سبب النزول تحريم النبي (ص) العسل بعد تلك القصة التي حبكها حزب عائشة، كما جاء في رواية الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة، أو تحريم مارية واعتزالها، كما رواه النسائي بسند صحيح عن أنس والحاكم عنه، وصححه ووافقه الذهبي والدارقطني عن ابن عباس، وأخرج الطبري له شاهداً مرسلًا بسند صحيح عن زيد بن أسلم - التابعي الشهير، عن بيان، المرجع نفسه، ص ١٩٠.
- (٥٩) الاستيعاب لابن عبد البر (٤/٤٤٩)؛ «الإصابة» لابن حجر (٤/٤٥١)؛ طبقات ابن سعد (٨/٢٢٠)؛ كنز العمال (٨/٣٤٤)، عن بيان: المرجع نفسه، ص ١٨٨.
- (٦٠) الكبداتي: المرجع نفسه، ص ١٦٠.
- (٦١) سورة النساء: ٢٤.
- (٦٢) المتعة ومشروعيتها في الإسلام: تحقيق الشيخ عبد الله نعمة، ص ٢٢٦.
- (٦٣) نفسه، ص ٢١١.
- (٦٤) سورة الحشر: ٧.
- (٦٥) سورة النجم: ٤.
- (٦٦) المتعة ومشروعيتها في الإسلام: ص ٢١٢، أيضاً، البخاري: المرجع نفسه مجلد ٢، ج ٢١، ص ٤٢٤.

- (٦٧) نفسه، ص ٢١١ .
- (٦٨) البخاري: المرجع نفسه، مجلد ٢، ج ٢١، ص ٤٢٤ .
- (٦٩) نفسه، أيضاً: ابن حنبل: المسند، ج ١، ص ٣١٢-٣١٣ .
- (٧٠) الفكيكي: المتعة وأثرها في الإصلاح الاجتماعي، ص ٤٢، يريد عمر بن الخطاب .
- (٧١) نفسه، نقلاً عن صحيح مسلم، ص ٥٣٥ .
- (٧٢) نفسه، نقلاً عن كتاب ابن رشد الأندلسي، ج ٢، ص ٤٧ .
- (٧٣) نفسه .
- (٧٤) نشر هذا الرد في مجلة الإبيان، العدد ١، الخامس والسادس من سنة ١٩٦٤، وتم نقله من كتاب المتعة ومشروعيتها في الإسلام، ص ٢١٧-٢٤٤ .
- (٧٥) نفسه، ص ٢١٩-٢٢١ .
- (٧٦) سورة الأنفال: ٥٠ .
- (٧٧) المتعة ومشروعيتها في الإسلام، ص ٢٢١-٢٢٢ .
- (٧٨) البخاري: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٤، ص ٧٤ .
- (٧٩) نفسه، مجلد ١، ج ١١، ص ٢٢٦، ج ١٢، ص ٢٣٥ .
- (٨٠) سورة آل عمران: ١٥٢؛ الطبري: المرجع نفسه، ص ١٨١ .
- (٨١) البخاري: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ١١، ص ٢٢٤؛ مجلد ٢، ج ٢٣، ص ٤٦٧ .
- (٨٢) الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٢٠٢، رواه مسلم .
- (٨٣) نفسه .

الفصل الأول

خديجة بنت خويلد رائدة النّضال الأولى للمرأة الرّسالية في دولة النبوّة

- ١ - نسبها وبيئتها الأسرية .
- ٢ - زواجها قبل الرسول (ص) .
- ٣ - حياتها الزوجية مع الرسول (ص) وتضحياتها .
- ٤ - وفاء الرسول (ص) للسيدة خديجة .
- ٥ - الإسلام يقدّم نموذجاً للحياة الزوجية .

تعتبر السيدة خديجة بنت خويلد رائدة النضال الأولى للمرأة الرسالية في دولة النبوة، لأنها أولى مَنْ ضحّت في سبيل العقيدة بلا حدود، وأعطت لنساء العالم بشكل عام، ولنساء دولة النبوة بشكل خاص، عبر تعاقب الأجيال، النموذج الأمثل للتضحية من أجل نصرة العقيدة والسمو بها على كل الماديات.

وتعتبر سيرتها، بعد زواجها من النبي (ص)، ترجمة عملية لإثبات هذا الدور. لقد رفضت حياة الترف والنعيم، واختارت الحياة الخشنة المليئة بالآلام مع رسول الله (ص) ومَنْ آمَنَ به، لأنها فضلت الخلود في الدارين، فاستحقت أن تكون واحدة من سيدات نساء العالمين.

هي سيدة قريش، والمسلمة الأولى، وأم المؤمنين الأولى وإحدى سيدات نساء العالمين، وجدة الأئمة الاثني عشر (عليهم السلام). وقد شاء الله أن تكون رفيقة درب الرسول (ص) في حياته الزوجية والرسالية. فكانت الزوجة والأم والصديقة، ورفيقة النضال الرسالي من أجل إحقاق الحق وتثبيت حكم الله في الأرض.

١ - نسبها وبيئتها الأسرية:

إنها السيِّدة خديجة، ولدت من أبوين قرشيين، فأبوها خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر. وأمُّها فاطمة بنت زائدة بن الأصم (واسمه جندب) بن رواحة الهرم بن حجر بن عبد معيص بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر. كما وأنَّ أم فاطمة هي هالة بنت عبد مُناف بن الحارث، وتنتهي أيضاً إلى فهر بن لؤي بن غالب. وبذلك تكون خديجة قد وُلدت لأبوين كلاهما من أعرق الأسر في شبه الجزيرة العربية. وقد اجتمع لها، بالإضافة

إلى هذا النسب الرفيع ، الخلق الكريم والصفات الحميدة كالكرم والعفة . وبلغ من علو شأنها قيل أن تتزوج النبي (ص) أنها كانت تُعرف بالطاهرة وسيدة نساء قريش^(١) . وتجتمع مع رسول الله (ص) في النسب الشريف في قصي من جهة أبيها ، وفي لؤي من جهة أمها ، فهي قرشية أباً وأماً^(٢) .

وكانت خديجة من أثرياء قريش وأوسعهم جاهاً . كما كانت لها رؤية خاصة في التعبد ، تخالف ما كانت عليه قريش وقبائل العرب من عبادة الأصنام والأوثان . فقد نشأت تواقفة للتدين ، يرشحها لذلك عاملاً : الوراثة والتربية . فأبوها خويلد هو الذي نازع تَبَعاً الآخر ملك اليمن ، حين أراد أن ينقل الحجر الأسود معه إلى اليمن ، فتصدى له ، ولم تُرهبه قوته وكثرة جنوده حرصاً منه على هذا المنسك من مناسك دينه . وابن عمها ، ورقة بن نوفل ، كان يعكف على دراسة كتب النصارى واليهود ويعمل بها يستحسنه منها ، لا لأنه كان يعاشر النصارى واليهود ، ولا لأن مكة كانت مقراً لهما ، بل لأنه - كما عرفت خديجة - كان يسخر من عبادة الأصنام والتماثيل ، ويبحث عن دين يطمئن إليه . فقد رأى ورقة بن نوفل أن عبادة الأصنام والتماثيل التي لا تضر ولا تنفع تخالف ما في الخيفية الأولى التي كان عليها إبراهيم وإسماعيل (ع) ، كما تخالف ما ورد في الإنجيل والتوراة من التوحيد الخالص لله وحده . فكانت خديجة تراقب مع ابن عمها ورقة ظهور النبي الخاتم الذي بشرت به التوراة والإنجيل .

٢ - زواجها قبل الرسول (ص) :

تزوجت السيدة خديجة ، قبل الرسول (ص) ، مرتين . فزواجها الأول ، كان من أبي هالة هند بن زرارة بن نباش التميمي ، فأولدت منه ولداً أسمته هنداً ، أدرك الإسلام وكان من السابقين إليه ، وروى عنه الحسن بن علي (ع) حديث وصف النبي ، وتناقله عنه أكثر الرواة والمحدثين وشاع عنه أنه كان يقول : «أنا أكرم الناس أباً وأماً وأخاً وأختاً» .

وقد اشترك مع النبي (ص) في جميع حروبه وغزواته ، وكان مخلصاً للدعوة

الإسلامية كأُمّه متفانياً في سبيل عقيدته . لازم علياً (ع) بعد وفاة النبي (ص) وقتل في حرب الجمل بالبصرة في خلافة الإمام علي سنة ست وثلاثين للهجرة^(٣) . وبعد وفاة زوجها الأول أبي هالة تزوجت من عتيق بن عابد بن عبد الله المخزومي ، وولدت له بنتاً أسمتها هند أيضاً ، بقيت في أحضان أمّها وأسلمت منذ ظهور الإسلام . وكانت من المسلمات اللواتي أخلصن للإسلام ونذرن أنفسهن لخدمته^(٤) .

وقد تأملت السيدة خديجة بعد وفاة زوجها الثاني ، وظلت عقيلة القرشيين وأشرف امرأة في المجتمع النسائي المكي . ومع تطلع نفوس سادة القبائل القرشية الذين كانوا يتطلعون إلى شرف الاقتران بها ، إلا أنها أعرضت عن الزواج في إباء سمح على الرغم من عروضهم المغرية ، وعلى الرغم من أنها كانت لا تزال في ريعان الشباب . وظلت تعيش بعيدة عن الحياة الزوجية راضية ، مفضلة التفرغ لرعاية أسرتها واستثمار أموالها في التجارة حتى بلغت سن الأربعين . وربما كان غالبية الخاطبين لها يطمعون في ثروتها الطائلة ، إلا أن إرادة الله شاءت أن يدّخرها شريكاً ومؤازراً لنبيه (ص) . وقد شاء الله أن يعوّضها على صبرها وعزوفها عن الزواج وتفرغها لأسرتها ، بأن اصطفاه زوجة لخاتم أنبيائه ورسله ، فنالت بذلك الاصطفاء ، درجة عظيمة تغبطها عليها نساء قومها .

٣ - حياتها الزوجية مع الرسول (ص) وتضحياتها :

قد يكون عزوف السيدة خديجة عن الزواج ، مع أنها كانت في ريعان شبابها ، ليس فقط للتفرغ لاستثمار أموالها في التجارة وتربية ولديها أو الخوف من الأزواج الطامعين في ثروتها . ولكن قد يكون لكرم أخلاقها وفاء لعشرتها مع زوجها الراحلين أو ربما يكون لعامل نفسي بسبب وفاتها وهما شابان أيضاً . وعلى كل حال فهناك روايات مختلفة بشأن الظروف الذاتية والموضوعية التي هيأت لزواج النبي (ص) من السيدة خديجة . فبعد وفاة زوجها الثاني كان استثمار أموالها يتم عن طريق رجال محترفين تستأجرهم للعمل في مالها ، ويرتحلون بغيرها وقوافلها مع القوافل التجارية العربية التي كانت تتعامل مع الشام صيفاً واليمن شتاءً تكيّفاً مع الظروف المناخية .

فهناك مَنْ يرى أن استئجار السيدة خديجة للنبي محمد (ص) ليتاجر لها في مالها كان هو الوسيلة التي أدت إلى زواجها منه . ذلك لأنه كان حديث المجتمع القرشي : رجاله ونسائه ، في أمانته وصدقه واستقامته ، حيث كان يلقب بالصادق الأمين . فأرادت السيدة خديجة أن تتعامل معه عن كُتب لتتأكد من مصداقية صيته الذائع بين الناس ، فاستأجرته وبذلت له من المال ضعفي ما كانت تبذله لغيره ، فوافق على طلبها بعد استشارة عمه أبي طالب ، كفيله ومربيه بعد جدّه عبد المطلب . ومن الجدير بالذكر أن النبي (ص) قد رافق عمه أبا طالب في طفولته في رحلة تجارية إلى الشام ، وأرسلت خديجة مع النبي محمد (ص) غلامها ميسرة لخدمة القافلة ورعايتها . وحققت الرحلة التجارية نجاحاً باهراً . وحينما صارت القافلة على مشارف مكة ، أسرع ميسرة إلى سيدته - قبل دخول القافلة مكة - يخبرها بأخبار القافلة وما حدث لمحمد في طريقه مع الراهب بحيرا ، وغيره من الأحداث التي لم يتفق أن تحدث من قبل . ثم إن نفيسة بنت منبه ، صديقة السيدة خديجة ، لاحظت تعلّق صديقتها بالصادق الأمين ، فكانت مراسال الخير ، فعرضت عليه الزواج من خديجة . وتمّ الزواج^(٥) .

يرى بعض المؤرخين أن زواج النبي (ص) من خديجة لم يكن من نتائج رحلته إلى الشام في تجارتها ، ولم تكن الوساطة صديقتها نفيسة بل كان بواسطة أختها هالة ، وبناءً على طلب خديجة . فقد جاء في تاريخ اليعقوبي عن عمار بن ياسر أنه قال :

«أنا أعلم الناس بزواج خديجة بنت خويلد من رسول الله ، لقد كُنْتُ صديقاً له وإنا لنمشي يوماً بين الصفا والمروة وإذا بخديجة وأختها هالة معها ، فلما رأَت رسول الله جاءني أختها هالة وقالت : يا عمار ما لصاحبك رغبة في خديجة؟ فقلتُ لها : والله لا أدري . فرجعتُ إليه وذكرتُ ذلك له ، فقال لي : ارجع فواضعها وعدّها يوماً نأتيها فيه ، فلما كان ذلك اليوم أرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ودهنت لحيته وألقت عليه حبراً ، ثم حضر رسول الله في نفر من أعمامه يتقدّمهم أبو طالب فخطب في الحاضرين وتمّ الزواج بينهما» .

وأضاف عمار بن ياسر إلى ذلك أنها لم تستأجره في تجارتها ولم يكن أجيراً لأحد أبداً، كما أورد حديث زواجه منها على هذا النحو ابن كثير في تاريخه بعد أن أورد الصورة الشائعة بين المحدثين^(٦).

أما بالنسبة لخطبتها فإن الرسول (ص) بعد أن أبدى استعداداه لتلبية رغبتها أخبر أعمامه فأسرعوا لتحقيق رغبتهم والتقى أعمامه حمزة والعباس وأبو طالب وذهبوا خاطبين إلى بيت خديجة، فكان مما قال أبو طالب بعد أن قام خطيباً:

«الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئىء^(٧) معد وعنصر مضر، وجعلنا حفظة بيته وسوَّاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوباً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس. ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به، فإن كان في المال قل، فإن المال ظل زائل، محمد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها الصداق ما آجله وعاجله من مالي، وهو بعد هذا، والله، له نبأ عظيم وخطر جليل»^(٨).

ومهما كان تعدد الروايات والملابسات، التي اقترنت بهذا الزواج فالواضح أنه تم بناءً على طلب خديجة، ورغبتها بعد أن ردَّت العديد من الخطَّاب من سادة قريش وأشراف مكة. كما وأن الرصيد الذي امتلكه محمد (ص)، من الشباب والجمال ومكارم الأخلاق والنسب الرفيع والصيت الذائع في مكة وما جاورها يمكنه من بلوغ أي فتاة يريد لها. فقد كان حلم عذاري مكة وزهرات الهاشميين. وكان عمر الرسول (ص) آنذاك خمسة وعشرين عاماً وعمر خديجة أربعين عاماً. فكان محمد (ص) يصغرها بخمسة عشر عاماً. وبعد مرور خمسة عشر عاماً على حياتهما الزوجية السعيدة، بُعث النبي محمد (ص) برسالة الإسلام وهو في سن الأربعين^(٩).

لقد كان لهذه السيدة الجليلة أكبر الفضل وأعظم الأثر في الترويح عن زوجها ومساندته على استقبال رسالة السماء. فلم تشغله بنفسها ولم تضايقه بطلباتها، ولم تندمر من قلة إقامته إلى جوارها، وحملت عنه مسؤولية البيت وأغنته عن طلب المعاش، حتى يكون مع ربه في خلوته ومحتته. كانت كالواحة التي يستريح عندها

ليخفف من متاعبه وكالشجرة التي يتفياً ظلالها . وكانت تشجعه بالثبات والصبر . فكانت تغدق عليه مشاعرها الرقيقة وعواطفها الصادقة حتى في لحظات الخوف وهو يتلقى أمر الله وكلماته ، فكانت مواساتها ومواقفها المخلصة مصدر دعم ومساندة واعتزاز بهذه الزوجة العظيمة التي كان زواجه بها من متطلبات مهمته الرسالية والتمهيد لنجاحها^(١٠) .

بعد هذه الأعوام وبعد أن بلغ الزوج الأربعين ، استقبل الزوجان حدث الرسالة العظيم لا في حياة قريش والعرب بل في حياة الإنسانية جمعاء . إن هذا الحدث ثورة على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بشكل عام فقد تلقى الزوج العظيم رسالة السماء إيذاناً بحياة جديدة شاقّة مليئة بشتى أنواع الاضطهاد والمتاعب والنضال المرير .

وظلّ النبي (ص) يتابع تأملاته ومواقفه هذه وألف الخلوة في غار حراء واستطابها . وما كانت خديجة وقد قاربت الستين من عمرها لتضيق بهذه الخلوات التي تحجبه عنها في أكثر الأحيان ، فلم تعكر عليه صفو تأملاته ، بل على العكس من ذلك كانت تحوطه بالرعاية والطمأنينة ما دام في بيتها ، فإذا انطلق إلى حراء ظلّت عيناها تشخصان إليه ، فلا تفكر بشيء سوى سلامته ، بل وترسل إليه في أغلب الأحيان مَنْ يعمل على حراسته ولو من بعيد ، دون أن يقتحم عليه خلوته أو يفسد عليه تأملاته . وهكذا كان حال محمد بن عبد الله (ص) ، وهو يتهيأ لاستقبال رسالة السماء ، فما إن فاجأه الوحي ، في رمضان سنة ٦١١ م ، وهو معتكف في الغار ، حتى انطلق يلتمس الدفء والحنان والأمان في بيته مع ظلمة الفجر مرتعد الأوصال ، حتى بلغ حجرة زوجته نموذج الوفاء والصبر ورمز التضحية . فأحسّ وكأنه قد بلغ مأمنه . وجلس يحدثها بكل ما جرى وما حدث معه في الغار ، وقد بدا عليه الإجهاد . فأقبلت عليه بلهفة الأم الرؤوم وهتفت به في ثقة و يقين قائلة :

«أبشر يا ابن العم وثق بأنّ الله لا يخذلك أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكّل ، وتكسب المعدوم ، وتقرّي الضيف ، وتعين على نوائب الدهر»^(١١) .

وما زالت به حتى هدا روعه، وأحس بالطمأنينة، وهي تهىء له فراشه وتأخذ بيده إليها، كما تفعل أم بطفلها الوحيد، وما زالت به حتى استسلم لنوم عميق. فانسلت من الحجرة ثقيلة الخطى، حرصاً على راحته حتى إذا بلغت الطريق اندفعت تسرع نحو بيت ابن عمها ورقة بن نوفل، ومكة في ذلك الوقت لا تزال تغطى في نوم عميق هادئة يلفها ظلام دامس، حتى بلغت ابن عمها فأيقظته من فراشه، وقد بدت عليه آثار الشيخوخة، فأخذت تحدثه وهو يصغي إليها يستمع إلى أنباء محمد (ص) وما جرى له في الغار، فأشرفت أساريه لحديثها وانتفض يقول:

«قدوس، قدوس، والذي نفس ورقة بيده، لئن صدقتني يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي يأتي موسى وعيسى بن مريم، وإنه لنبي هذه الأمة. قولي له: فليثبت، وليكن على يقين من أمره» (١٢).

فانطلقت نحو بيتها بسرعة، من غير أن تنتظر من ابن عمها مزيداً من البيان، وانطلقت لتزف بشائر النبوة لحبيبها ورقة عينها محمد (ص) تلك النبوة، التي كان يترقب ظهورها في شبه الجزيرة العربية، رجال أمثال ابن عمها ورقة، وعمرو بن نفيل وغيرهما من المتألمين والكهنة والرهبان، فإذا به لا يزال نائماً كما تركته. فوقفت إلى جواره وهي مفعمة بالفرح، بعد القلق، الذي عاشته نتيجة حالة الخوف، التي كان عليها الرسول (ص) بعد عودته من الغار.

لقد عز عليها أن توقظه وهي مغمورة بأسارير الفرح وسابحة في الخيال والتفكير بمستقبله العظيم. وإذا بحالة غريبة تتأهب لم ترها من قبل. فقد انتفض في فراشه وثقل تنفسه وتقاطر العرق من جبينه، واستمر في تلك الحال فترة من الوقت قبل أن يعود إلى حالته الطبيعية فكان وكأنه يستمع إلى محدث كل ذلك والصديقة الكبرى تنظر إليه وقد عاودها القلق مرة أخرى لحاله (١٣). لقد نزل عليه الوحي بهذه الآية: ﴿يا أيها المدثر، قم فأندر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر﴾ (١٤).

نظر الرسول (ص) إليها ملياً نظرة تفيض بالامتنان، وقد بدا عليها القلق لحاله فرغبت إليه أن يستمر في نومه، فقال لها: «لقد انتهى يا خديجة عهد النوم والراحة،

هذا الأمين جبريل يأمرني أن أنذر الناس ، وأدعوهم إلى الله وعبادته ، فمن ذا أدعوه
ومن يستجيب لدعائي؟» (١٥).

لم تكتفِ الزوجة البارة بتأييد الرسول (ص) وتصديق ما رأى وما سمع بل مضت
به من ساعته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل لتقص عليه ما جرى له ، ولم يكذب يراه حتى
صاح : «والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ولتكدبن ولتؤذين ولتخرجن
وتقاتلن ، ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله فيك ، ثم دنا منه وقبل نافوخه ، فقال
له النبي (ص) : «أو مخرجي هم؟» .

فقال له : «نعم . لم يأت رجل بمثل ما حثت به إلا عودي ، ليتني كنت جذعاً .
ليتني أكون فيها حياً» (١٦).

فطابت نفس النبي (ص) بما سمع وعاد إلى بيته لبدأ دعوته الرسالية المباركة التي
سيناضل فيها في سبيل الله لينقذ البشرية من الغواية ويهدي الناس إلى الصراط
المستقيم ، وهو يعلم أن قريش لا تتنازل عن كبرياتها وجبروتها وهي ترى
محمد (ص) يسخر من الأصنام والأوثان التي وجدوا آباءهم لها عابدين منذ سنوات
عديدة ، ويدعو إلى عبادة إله واحد لا شريك له . إن رسالة محمد (ص) ثورة بكل
المعايير إنها لا تقتصر على ما يعبد الناس وإنما تمتد لتشمل تغييراً جذرياً لجميع أنماط
سلوكهم وحياتهم وبنائهم الاجتماعي والسياسي إنها ثورة شاملة لخلق مجتمع جديد
ودولة جديدة تقوم على الحق والعدل والمساواة والحرية .

ووقفت زوجته تشد أزره منذ اللحظات الأولى لمبعثه العظيم وتشاركه كل أنواع
الأذى والحرمان في جميع مراحل نضاله التي مرّ بها بإجماع المؤرخين .

تحدّث الدكتورة بنت الشاطيء بشأن تفاني السيدة خديجة في سبيل زوجها
ومساندته في دعوته قائلة : «هل كان لزوجها عداها أن تستقبل دعوته التاريخية من
غار حراء بمثل ما استقبلته هي به من حنان مستثار ، وعطف فيّاض وإيمان قوي ،
دون أن يساورها في صدقه أدنى ريب ، أو يتخلّى عنها يقينها في أن الله غير مخزيه
أبداً؟ وهل كان في طاقة سيدة غير خديجة غنية مترفة منعمة ، أن تتخلّى راضية عن

كُلَّ مَا أَلَقَتْ مِنْ رَاحَةٍ وَرِخَاءٍ وَتَقَبَّلَ عَلَى أَفْذَحِ أَلْوَانِ الْأَذَى وَصَنُوفِ الْأَضْطِهَادِ، فِي سَبِيلِ مَا تُؤْمِنُ بِأَنَّهُ الْحَقُّ، كَلَّا بَلْ هِيَ - وَحْدَهَا - وَلَا امْرَأَةٌ غَيْرُهَا الَّتِي أَعَدَّتْهَا الْأَقْدَارُ لَتَمْلَأَ حَيَاةَ الرَّجُلِ الْمَوْعُودِ بِالنَّبُوءَةِ، وَتَكُونَ لِلْيَتِيمِ أُمًّا، وَلِلْبَطْلِ مَلْهُمَةً، وَلِلْمُجَاهِدِ مَلَاذَأَ وَسَكَنًا، وَلِلنَّبِيِّ الْمَبْعُوثِ ثِقَةً وَطُمَأْنِينَةً وَسَلَامًا. « (١٧).

تِلْكَ كَانَتْ مَوَاقِفَ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ، مِنْذُ أَنْ اخْتَارَ اللَّهُ زَوْجَهَا لِلدَّعْوَةِ لَدِينِهِ الْحَنِيفِ. عَطَاءٌ بِدُونِ حُدُودٍ، لَقَدْ أَحَبَّتْ زَوْجَهَا فَتَفَانَتْ فِي حُبِّهِ وَآمَنْتْ بِدَعْوَتِهِ، فَضَحَّتْ بِكُلِّ مَا تَمْلِكُ لِلثَّبَاتِ عَلَى الْعَقِيدَةِ وَالِدِفَاعِ عَنْهَا. إِنْ سَيِّدَةُ قُرَيْشٍ، وَالطَّاهِرَةِ، أَصْبَحَتْ الْآنَ شَرِيكةً وَسِنْدًا لِلنَّبِيِّ فِي دَعْوَتِهِ، فَنَالَتْ مِنْ أَذَى قُرَيْشِ الْكَثِيرِ، فَصَبَرَتْ حَتَّى آخَرَ نَفْسِهَا فِي الْحَيَاةِ.

وَلَمَّا اشْتَدَّ أَذَى الْكُفَّارِ لِلنَّبِيِّ (ص) وَالْمُسْلِمِينَ، أَمَرَهُمُ الرَّسُولُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْحَبْشَةِ. وَمَعَ أَنْ زَعَمَاءَ قُرَيْشٍ حَاولُوا تَحْرِيزَ النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبْشَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ - وَكَانُوا ثَمَانِينَ رَجُلًا وَثِنَايَ عَشْرَةَ امْرَأَةً، بَيْنَهُمْ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَزَوْجَتُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ عَمِيسَ - إِلَّا أَنَّ مَسَاعِيَهُمْ بَاءَتْ بِالْفُشْلِ لَتَعَاطُفِ مَلِكِ الْحَبْشَةِ مَعَهُمْ وَاعْتِنَاقِهِ الْإِسْلَامَ فِيمَا بَعْدَ. وَعَاشَ الْمُسْلِمُونَ الْمُهَاجِرُونَ فِي الْحَبْشَةِ عَيْشَةً رَاضِيَةً آمِنِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَعَقِيدَتِهِمْ (١٨).

لَقَدْ ضَاقَ زَعَمَاءُ قُرَيْشٍ ذَرْعًا بِفُشْلِ مَسَاعِيهِمْ لِلْقَضَاءِ عَلَى مُحَمَّدٍ (ص) وَدَعْوَتِهِ، فَقَدْ رَأَوْا أَتْبَاعَهُ فِي ازْدِيَادٍ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ مِمَارَسَتِهِمْ شَتَّى أَنْوَاعِ الْقَمْعِ وَالتَّعْذِيبِ مَعَهُمْ. فَفِي الْخَارِجِ وَجَدَ مُحَمَّدٌ (ص) وَأَتْبَاعَهُ مَنْ يَنَاصِرُهُمْ وَيَسَانِدُهُمْ، وَهُوَ النَّجَاشِيُّ، وَفِي الْبَاطِنِ يَقِفُ أَبُو طَالِبٍ كَالْجَبَلِ الْأَشْمِ يَذُودُ عَنْ ابْنِ أَخِيهِ وَيَشُدُّ أَرْزَهُ لِتَبْلِيغِ دَعْوَتِهِ السَّمَاوِيَّةِ. لِذَلِكَ اتَّفَقَتْ قُرَيْشٌ عَلَى مَقَاطَعَةِ الْهَاشِمِيِّينَ وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِمْ وَحَرَمَانِهِمْ حَتَّى مِنْ ضَرُورَاتِ الْعَيْشِ، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ مَكَّةَ إِلَى شَعْبِ أَبِي طَالِبٍ وَضَيَّقَتْ عَلَيْهِمُ الْحَصَارَ حَتَّى يَمُوتُوا جُوعًا أَوْ يَسْلَمُوا إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ (ص). وَكَانَ نَصُ الصَّحِيفَةِ الَّتِي كَتَبَهَا مَنصُورُ بْنُ عَكْرَمَةَ الَّذِي شَلَّتْ يَدُهُ لَاحِقًا:

«إِنَّ عَلَى قُرَيْشٍ أَنْ تَقَاطَعَ بَنِي هَاشِمٍ فَلَا يَبِيعُونَ لَهُمْ وَلَا يَشْتَرُونَ، وَلَا يَتَزَوَّجُونَ

منهم أو يزجونهم، ولا يتقدمون إليهم أبداً بعون ولا مساعدة، ولا يعرضون عليهم طعاماً ولا شرباً، حتى يموتوا جوعاً ويهلكوا ظمأً، أو يسلموا محمد للقتل والهلاك» (١٩).

ولم يتأخر أحدٌ من عظماء مكة عن الموافقة على هذه الصحيفة بل ختمها أربعون من ساداتهم ورؤسائهم، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة. فدخل بنو هاشم الشعب، مسلمهم وكافرهم عدا أبي لهب وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب لشدة عداوتها للرسول (ص)، ثم أسلم أبو سفيان بعد ذلك وانحاز إلى بني هاشم بنو المطلب بن عبد مناف فكانوا أربعين رجلاً. وحصّن أبو طالب الشعب وكان يحرسه ليلاً ونهاراً، وأخافتهم قريش فكانوا لا يخرجون ولا يأمنون إلا من موسم إلى موسم، موسم العمرة في رجب وموسم الحج في ذي الحجة وقطعوا عنهم الطعام إلا ما كان يُحمل سراً، وهو شيء قليل لا يسد رمقهم حتى بلغ بهم الجهد وشُمِعت أصوات صبيانهم من وراء الشعب يتضورون جوعاً، وذلك أشد ما لقي رسول الله (ص) وأهل بيته بمكة، وكان دخول بني هاشم وبني المطلب الشعب في أول محرم السنة السابعة لبعثة الرسول (ص) وبقوا فيه مدة تتراوح بين سنتين أو ثلاث سنوات (٢٠). وحينما أراد الله الفرج لنبيه (ص) ومَن معه أرسل الله على الصحيفة الأرضة فلحستها إلا عبارة «باسمك اللهم»، فأخبر الله تعالى نبيه بذلك فذكره لعمه أبي طالب فنقل أبو طالب ذلك النبا لقريش فقال لهم: «إن ابن أخي أخبرني أن الله قد سلط على صحيفتكم الأرضة فأكلتها غير اسم الله فإن كان صادقاً نزعتم عن سوء رأيكم، وإن كان كاذباً دفعته إليكم» قالوا: «قد أنصفتنا» ففتحوها فإذا هي كما قال. فقالوا: «هذا سحر ابن أخيك». وتلاوم رجال من قريش على ما صنعوا ببني هاشم، فمشى هشام بن عمرو، إلى زهير بن أبي أمية المخزومي، وزهير ختن أبي طالب على ابنته عاتكة، وقال: «أرضيت أن يكون أحوالك هكذا؟» قال: «فما أصنع وأنا رجل واحد؟» قال: «وجدت ثانياً». قال: «ابغنا ثالثاً». فما زالوا كذلك حتى صاروا خمسة، بينهم - إضافة لهشام وزهير - مطعم بن عدي وأبو البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود. فأقبلوا إلى أندية قريش، فقال زهير: «يا أهل مكة، أناكل

الطعام ونشرب الشراب ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكت؟ والله لا أقعد حتى تُشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة». فقال أبو جهل: «كذبت والله لا تشق»، فقال زمعة: «أنت والله أكذب»، فقال أبو البختری: صدق والله زمعة. وقال مطعم وهشام مثل ذلك. فقال أبو جهل: «هذا أمر قضي ليل» وقام مطعم إلى الصحيفة فشققها، وخرج بنو هاشم من حصار الشعب، في السنة التاسعة أو العاشرة للنبوّة إلى مساكنهم^(٢١). وقال أبو طالب، في أمر الصحيفة وأكل الأرضة ما فيها من ظلم وقطيعة رحم أبياتاً منها^(٢٢):

وقد كان في أمر الصحيفة غبرة وما نعموا من ناطق الحق معرب
محا الله منهم كفرهم وعقوقهم متى ما بخير غائب القوم يعجب
فأصبح ما قالوا من الأمر باطلاً ومن يختلق ما ليس بالحق يكذب

كانت السيدة خديجة شريكة زوجها في حصار الشعب وأهوال الحصار، فلم تتردّد لحظة عن البذل والتضحية فتخلّت عن دارها والتحقت بنساء بني هاشم وبني المطلب مؤمنة بأن النصر في النهاية سيكون حليف المؤمنين والصابرين على الأذى في سبيل الله. وأقامت معه طوال فترة الحصار وقاست مرارة الجوع والحرمان. تلك سيدة قريش الطاهرة، وقد أشرفت على الشيخوخة تغالب الضعف الذي بدأ يعتري جسمها وقد تحطّطت الستين عاماً. لقد صبرت على مرض الأطفال وصراخهم من الجوع والحرمان، وصمدت تعزّز صمود محمد (ص) وأتباعه متحدّية وإياهم جبروت القرشيين وهمجيتهم.

لقد تخلّت السيدة خديجة عن كلّ متاع الدنيا، وصبرت على شظف العيش وقسوة الحياة، وهي سليلة مجد ورييبة نعمة، من أجل إحقاق الحق، ونصرة أتباعه، وهزيمة الشرك والمشركين.

لقد دأبت قريش على إلحاق الأذى بالرسول (ص) بكل الوسائل، ومنها تحريض أزواج بناته على تطليق نسائهم. فقد كانت زينب من نصيب العاص بن الربيع، وأمه هالة شقيقة خديجة، وكان زواجها ناجحاً. فلم يتأثر بضغوط قريش، ولا

بالمغريات التي بذلتها له مقابل فراقها . أما رقية وأم كلثوم فقد تزوجها أبناء عبد العزى ، المعروف بأبي لهب «عم النبي (ص)» : عتبة وعتيبة وقد استجابا لطلب قريش على الفور تنفيذاً لرغبة أمهما أم جميل التي كانت تؤكد لبني هاشم الذين استأثروا بالمجد والجاه دون قومها بني عبد شمس ، وفي الوقت نفسه أرادت أن تشفي غليلها وحقدّها من خديجة التي كانت السيدة الأولى بمكة بلا منازع .

ولذلك كان أشد ما صبرت عليه السيدة خديجة حصار الشعب ، وتطليق ابنتيها رقية وأم كلثوم إمعاناً في إيذاء النبي (ص) والكيد له^(٢٣) . ولذلك نزلت في أبي لهب وزوجته أم جميل سورة اللهب لشدة إيذائهما لرسول الله (ص) كما هو معروف : ﴿تَبَّتْ يُدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۚ﴾ .

أما السيدة خديجة فقد جاء جبريل لها بالبشرى بما أعدَّ الله لها في الجنة جزاء صبرها وجهادها وثباتها على المبدأ . فقد جاء عن أبي هريرة أنه قال : «أتى جبريل (ع) إلى النبي (ص) فقال له : يا رسول الله هذه خديجة قد أتت ، ومعها إناء فيه آدم أو طعام أو شراب ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب» . فأخبر الرسول (ص) السيدة خديجة بما قال جبريل ، فردّت رداً حكيماً ينم عن كمال العقل فقالت : «الله هو السلام وعلى جبريل السلام»^(٢٤) .

مرضت السيدة خديجة في الشعب ثم غلب عليها المرض والضعف بعد خروجها ، فلم تمكث سوى فترة قصيرة وودعت الدنيا راضية مرضية . فقام الرسول بدفنها في منطقة الحجون ونزل معها في قبرها ، ثم عاد إلى البيت ليشارك بناته الثلاث زينب وأم كلثوم وفاطمة مرارة الحزن ولوعة الفراق . وكانت رقية آنذاك في الحبشة مع زوجها عثمان^(٢٥) . وبكاها رسول الله (ص) كما لم يبك أحداً أبداً ، فقد كانت له الزوجة والحبيرة والصديقة والأم . ومما أصاعف أحزان رسول الله (ص) أنه فقد عمه أبا طالب أيضاً في العام نفسه ، فكان عاماً حزيناً سُمّي عام الحزن ، لأنه فقد برحيلها أكبر نصيرين قل أن يجود الزمان بمثلها^(٢٦) .

لقد كان أبو طالب حامياً الرسل وصاحبها رسول الله (ص)، بينما كانت السيدة خديجة حاضنة الرسول (ص) وملاذه لتفريج كروبه وهمومه. هذا يكشف الكرب عنه بالسيف وهذه تسر عنه همومه بالكلمة الحانية والعطف. تلك المواساة الصادقة من هذه الزوجة المؤمنة التي تجمعت فيها شمائل الأم وحنانها، وبرُّ الزوجة الصالحة وتفانيها وعطفها والحيبة التي كانت تغدق عليه حباً ينبع من سويداء قلبها.

وجد الرسول (ص) مكة خاليةً من حامى حماه الذي كانت قريش تهابه ولا تجرؤ على إيذائه في وجوده. ووجد البيت مقفراً من السراج الذي أظلم بعد رحيل رفيقة دربه في نضاله الرسالي. فكان وقع ذلك عظيماً عليه، إلا أن عزاء الرسول (ص) في ذلك أن الدعوة الإسلامية وصلت إلى مرحلة تمكنها من النهوض بأعبائها والاعتماد على رجالها المخلصين. فقد تخطت الدعوة مكة إلى ما جاورها من المدن، حيث شملت الحجاز، وأصبحت حديث الناس في رقعة واسعة، خصوصاً بعد الهجرتين الأولى والثانية إلى الحبشة، حيث بلغت قوة العقيدة في نفوس المسلمين درجة التضحية بأموالهم ونسائهم وديارهم من أجل سلامة العقيدة والمبدأ. لأنهم وجدوا أن سلامة عقيدتهم أثمن من كل متاع الدنيا. هكذا كان الرجال الذين اعتنقوا دين الله. إنه ثمرة حماية أبي طالب واحتضان خديجة وصبر التابعين وتضحياتهم.

٤ - وفاء الرسول (ص) للسيدة خديجة :

لقد رحلت السيدة خديجة (رض) وغابت عن دنيا الناس، ولكنها ظلت ماثلة بين عيني زوجها العظيم الوفي، ودخلت في حياته عديدات ولكن مكانها ظل في سويداء قلبه، وفاء لعشرتها الطيبة الطاهرة. ولم تستطع أية امرأة من نساؤه أن تصل إلى مكانة خديجة عنده، أو تزحزح مكانتها من قلبه. إنه نموذج الوفاء العظيم للحب العظيم. إن ذكريات خديجة وتضحياتها وعطاءها، ظلّ ماثلاً في ذهنه يرّده على لسانه وبين زوجاته. فقد أعطاها عمره وزهرة شبابه ولم يتزوج غيرها حتى فارقت الحياة وفاءً لتضحياتها الجليلة في سبيل الدين. وجاء في سيرة ابن إسحاق: «كان رسول الله (ص) لا يسمع شيئاً يكرهه، من ردّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك

إلا فَرَّجَ عنه بخديجة (ر) إذا رجع إليها تثبته ، وتخفف عنه وتصدقه . وَثَبُّونَ عليه أمر الناس حتى ماتت رضي الله عنها» (٢٧) . وقال الكاتب كتاني ، في كتابه الزهراء :

«لقد أعطته خديجة حباً وهي لا تشعر بأنها تعطي ، بل تأخذ منه حباً فيه كل السعادة ، وأعطته ثروة وهي لا تشعر بأنها تعطي ، بل تأخذ منه هداية تفوق كنوز الأرض وهو بدوره أعطاها حباً وتقديراً رفعهاها إلى أعلى مرتبة وهو لا يشعر بأنه قد أعطاها» ، بل قال : «ما قام الإسلام إلا بسيف علي ومال خديجة» (٢٨) .

وكان وفاء الرسول (ص) لزوجته الأولى ، الراحلة خديجة ، موضع غيرة من بعض زوجاته ومنهن عائشة ، فقد شهد بيته عائشة بنت أبي بكر ، وهي في مطلع صباها ونضرة شبابه ، تستبد بها الغيرة من خديجة ، التي سبقتها إلى قلبه لأنه ظل يردد اسمها وفاء لها كل صباح ومساء .

روى البخاري عن عائشة قالت : «ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة من كثرة ذكر رسول الله (ص) إياها» . قالت : «وتزوجني بعدها بثلاث سنين وأمره ربُّه أو جبريل أن يبشِّرَها ببيت في الجنة من قصب» (٢٩) .

ولقد وفدت أخت السيدة خديجة هالة على المدينة ، فما أن سمع النبي (ص) صوتها حتى تذكر صوت أختها الراحلة ، فخفق قلبه وصاح : مرحباً بك يا هالة فلم تملك عائشة نفسها حتى هتفت به تقول : «ما زلت تذكر بحسرة وألم عجوزاً من عجائز قريش ، حمراء الشدقين ، هلكت من عدة سنين وقد أبدلك الله خيراً منها» .

وعلى الرغم من حلم رسول الله (ص) ، إلا أن وفاءه وحبه الخالد لخديجة أدى إلى انفعاله وتغيُّر لونه فقال : «لا والله ، ما أبدلني الله خيراً منها ، لقد آمنت بي حين كفر الناس ، وصدَّقْتَنِي حين كذَّبَنِي الناس ، وواستني بها لما إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء» .

فأمسكت عائشة عن الكلام ، وهي تقول : «والله لا أذكرها بعد اليوم» (٣٠) .

وعن عائشة أيضاً قالت : «كان رسول الله (ص) إذا ذكر خديجة لم يكن يسأم من ثناء عليها واستغفار . فذكرها ذات يوم فاحتملتنِي الغيرة ، فقلْتُ : لقد عوضك الله

من كبيرة السن . قالت : فرأيت النبي (ص) تغيرت معالم وجهه الكريم ، وسقطت من جلدي ، فقلتُ : اللهم إنك إذا أذهبت غضب رسولك عني لم أعد لذكرها بسوء ما بقيت . قالت : فلما رأى رسول الله (ص) ما لقيتُ ، قال : كيف قلت ؟ والله لقد آمنت بي إذ كذبني الناس ، وآوتني إذ رفضني الناس ، ورزقتُ منها الولد وحرمتموه مني . قالت : فغدا وراح عليَّ شهراً^(٣١) .

وعن عائشة (ر) : قالت : «ما غرتُ على أحد من نساء النبي (ص) ما غرتُ على خديجة وما رأيْتُها ولكن كان يكثر ذِكْرُها وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدياق خديجة . وقلت له : كأنه لم تكن في الدنيا امرأة إلا خديجة ! فيقول : إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد»^(٣٢) .

ويستمر الرسول (ص) في التعبير عن وفائه في مواقف متعددة ، فحين أعز الله دينه وأذن للمسلمين بفتح مكة ودخلها مرفوع الرأس يحيط به ما يزيد على عشرة آلاف مقاتل ، فأراد أن يكون قريباً من قبر زوجته وحبه الكبير خديجة ، بعد أن مضى على وفاتها أكثر من عشر سنين حافلة بالنضال في سبيل الله وثبات دولة النبوة ، فبنيت له قبة إلى جوار القبر لينزل فيها حتى يسهل عليه التردد لزيارة قبرها وليشرف على فتح مكة من تلك القبة^(٣٣) .

وعن مكانتها عند الله ، نتيجة صبرها ومواساتها لرسول الله (ص) وإخلاصها له ، روى البخاري عن عائشة قالت : «ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة ، ولقد أمره ربُّه ، تبارك وتعالى ، أن الله يبشّرها ببيت في الجنة»^(٣٤) .

وروى الترمذي عن أنس أن النبي (ص) قال : «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسيا امرأة فرعون»^(٣٥) .

٥ - الإسلام يقدم نموذجاً للحياة الزوجية :

لقد شاءت إرادة الله أن يكون زواج محمد (ص) من خديجة وسيلة فعالة من وسائل نجاح رسالته الإلهية من جانب أوّل وأن تكون تلك العشرة بكل حلاوتها ومُرّها نموذجاً يحتذى به لبناء الأسرة في الإسلام من جانب آخر .

لقد قدمت خديجة ومحمد (ص) نموذجاً للزوجين المثاليين فخديجة قدمت

نموذج الزوجة التي شاركت النبي (ص) حلاوة الحياة ومرّها دون أي تغيير لسيرتها مع زوجها في السراء والضراء، فكان تطبيق بنتيها وحياتها في الشعب أكبر امتحان لها تميز بالقسوة فواجهته بكل صلابة دون أن تستسلم أو تضعف، فقد شاء الله من خلال هذه الزوجة المؤمنة أن تكون حياتها مع رسول الله (ص) نموذجاً لجميع الزوجات عبر العصور التاريخية إلى قيام الساعة. وبالمثل فقد كان النبي (ص) أيضاً هو الزوج النموذج للإسلام والبشرية جمعاء عبر تعاقب العصور. لقد قدم الرسول (ص) من نفسه الزوج النموذج لكل الأزواج في العالم. ومهما تعاقبت الأزمنة سيكون الزوج النموذج، فقد عاش عيشة راضية معها وصان عهدها وودها ليس فقط في حياتها بل وبعد مماتها، وعلى الرغم من تعدد زوجاته وسراريه، كما مر ذكره وعلى الرغم من هجرته إلى المدينة وابتعاده عن مكان ذكرياته الزوجية، إلا أن ذكرها وتضحياتها وعشرتها وحبها، كل ذلك ظلّ محفوراً في ذاكرته وقلبه. والأحاديث التي تُروى عنه وعن بعض زوجاته، لهي خير دليل على صيانتها العهد وحفاظه على الود. إن تضحيات خديجة ستبقى دروساً قيمة للزوجة الصالحة وحافزاً لكل زوجة أياً كانت ديانتها للاقتداء بها. وحرّيّ بكل زوج أياً كانت ديانته أن يقتدي بوفاء محمد (ص) لخديجة وحبه الخالد لها. ولا شك في أن نجاح أي مجتمع واستقراره مرهون بنجاح الأسرة واستقرارها، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال حياة زوجية سعيدة. إن تضحيات السيدة خديجة لزوجها، إنها كانت تضحيات لرسائله السماوية، ولم تصل إلى ذلك المستوى السامي من البذل المتواصل، وإنكارها لذاتها إلا لقوة إيمانها، فكان انتصار دين الله هدفها السامي، ولذلك تلاشت كل رغباتها الدنيوية في ذات الله، فأصبحت بحق رائدة المرأة الرسالية الأولى في الإسلام، ودعامة من الدعائم التي أدّت إلى قيام دولة النبوة، كما شهد بذلك النبي (ص) نفسه. فكان ثوابها، على أعمالها الجليلة الخلود في الدارين: خلود الذكر، والقدوة الحسنة لنساء العالم في دار الدنيا والدرجات الرفيعة ونعيم جنات الله في دار الآخرة. قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(٣٦). ولكل تضحياتها وما تمخض عنها من إنجازات، استحققت أن تكون رائدة النضال الأولى للمرأة الرسالية في دولة النبوة.

هوامش الفصل الأول

- (١) ابن الجوزي: صفة الصفوة، مجلد ٢، ص ٧.
- (٢) الذهبي: تاريخ الإسلام (السيرة النبوية)، ج ٢، ص ٦٣.
- (٣) دلائل النبوة للبيهقي (٢٨٣/٧)؛ السير والمغازي لابن إسحاق ص ٢٤٥، عن الحسن بن علي: الأئمة الاثنى عشر، القسم الأول، ص ٤٣.
- (٤) الذهبي: المرجع نفسه، ص ٦٥.
- (٥) ابن حنبل: المسند (٣١٢/١)، دلائل النبوة للبيهقي (٩٠/١، ٦٨/٢)، عن يئاني: المرجع السابق، ص ٦١ - ٦٦.
- (٦) الحسني: المرجع نفسه، ص ٤٥ - ٤٦.
- (٧) ضئضىء: المعدن الأصيل.
- (٨) دلائل النبوة للبيهقي (٤٢٤/١، ٦٨/٢)؛ الطبقات لابن سعد (٨٤/١)، عن يئاني: المرجع نفسه، ص ٦٥.
- (٩) الذهبي: المرجع السابق، ص ٦٤.
- (١٠) الذهبي: نفس المرجع، ص ٦٣ - ٦٤.
- (١١) نفسه، ص ١٢٨ - ١٢٩.
- (١٢) نفسه، ص ١٢٨.
- (١٣) نفسه، ص ١٢٨، ١٣٢.
- (١٤) سورة المدثر: ١ - ٧.
- (١٥) الحسني: المرجع نفسه، ص ٤٩.
- (١٦) العسقلاني: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج ١، ص ٢٣ - ٢٤.
- (١٧) بنت الشاطيء: تراجم سيدات بيت النبوة، عن يئاني: المرجع السابق، ص ٦٧.
- (١٨) ابن هشام: السيرة النبوية، مجلد ١، ج ١، ص ٣٥٣ - ٣٥٤؛ أيضاً، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد ١، ص ٥٩٨؛ أيضاً، الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٢٢؛ أيضاً، الأمين: أعيان الشيعة، مجلد ١، ج ٢، ص ٢٣٣ - ٢٣٤.
- (١٩) الأمين: نفسه، ص ٢٣٥.
- (٢٠) نفسه.
- (٢١) ابن هشام: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ١، ص ٣٥٢ - ٣٥٣؛ أيضاً، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مجلد ٣، ج ١٤، ص ٣٠٨ - ٣٠٧؛ أيضاً، الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ٢٣٥.
- (٢٢) ابن الأثير: المرجع نفسه، مجلد ١، ص ٦٠٦.

- (٢٣) الحسنی: المرجع نفسه، ص ٥٥-٥٨.
- (٢٤) البخاری: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ١٥، ص ٢٩٨.
- (٢٥) یبانی: المرجع نفسه، ص ٧٠.
- (٢٦) دلائل النبوة للبيهقي (٣٥٢/٢)؛ السير والمغازي لابن إسحاق، ص ٢٤٣؛ المستدرك للحاكم (١٨٢/٣) عن الیمانی: المرجع نفسه، ص ٧٠.
- (٢٧) یبانی: المرجع نفسه، ص ٦٧.
- (٢٨) الحسنی: المرجع نفسه، ص ٤٧.
- (٢٩) البخاری: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ١٥، ص ٢٩٨، مجلد ٢، ج ٣٠، ص ٦٠٢.
- (٣٠) الحسنی: المرجع نفسه، ص ٥٢.
- (٣١) نفسه.
- (٣٢) متفق عليه، انظر البخاری: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ١٥، ص ٢٩٨؛ أيضاً، الكبدي: المرجع السابق، ص ٣٤٣.
- (٣٣) الحسنی: المرجع نفسه، ص ٥٣.
- (٣٤) البخاری: المرجع نفسه، مجلد ٢، ج ٣٠، ص ٦٠٢.
- (٣٥) الطبري: ذخائر العقبی فی مناقب ذوی القربى، ص ٤٣، خرجه أحمد والترمذی.
- (٣٦) سورة الزلزلة: ٧، ٨.

الفصل الثاني

فاطمة الزهراء بنت محمد (ص) رائدة النضال الثانية للمرأة الرسالية في دولة النبوة

- ١ - مولدها وتميزها عن سائر نسل النبي محمد (ص).
- ٢ - طفولة الزهراء وحياتها في مكة.
- ٣ - زواجها.
- ٤ - حياتها الزوجية وتضحياتها.
- ٥ - مكانة السيدة الزهراء عند الله ورسوله (ص).
- ٦ - فاطمة الزهراء والغزوات.
- ٧ - الزهراء المناضلة.
- ٨ - فاطمة الزهراء وحضور حجة الوداع.
- ٩ - حضور الزهراء مرض أبيها (ص) ووفاته.
- ١٠ - فاطمة الزهراء وموت أبيها.
- ١١ - فاطمة الزهراء وسلطة الخلافة.
- ١٢ - سلطة الخلافة.
- ١٣ - سلطة الخلافة والعرة.
- ١٤ - علي بوذع فاطمة.

السيدة فاطمة الزهراء هي رائدة النضال الثانية للمرأة الرسالية في دولة النبوة، بعد أمها خديجة؛ وذلك لسبيين: الأول: معاناتها مع والدها إيذاء قريش ومطاردتهم، إلى جانب تضحياتها خلال حياتها الزوجية التي فاق تحملها طاقة البشر، علماً بأن الإمام علياً (ع) كان يمكنه أن يوفر لها جميع أسباب الترف والراحة التي كان يتمتع بها البيتان الكسروي والقيصري في كلتا الإمبراطوريتين آنذاك. والسبب الثاني أنها وقفت بكل شجاعة وشموخ - على الرغم من جميع المصائب التي تراكمت عليها كما سيتضح ذلك من خلال مناقشة سيرتها - لنصرة إمامها ووصي والدها (ص) الإمام علي (ع) حينما خذلت الأمة وتخلت عن الثقل الأصغر. فأوضحت في خطبها أبعاد المؤامرة والتتائج الخطيرة التي ستلحق بالدين والأمة نتيجة الانقلاب والتخاذل. ومن المعلوم أنها، في نضالها وتضحياتها، في سبيل نصره الدين، فاقت أمها. إن المواقف النضالية التي وقفتها الزهراء (ع) في وجه سلطة الخلافة لم تكن دفاعاً عن مصالح شخصية بل كانت من وحي العقيدة التي تمكنت من نفسها وجعلتها تنسى كل مصائبها. إنه الدفاع عن مستقبل رسالة والدها وتضحيات السلف العظيمة.

اتفق رواة الحديث المسلمون، من مدرستي الإمامة والخلافة، في مجاميعهم وصحاحهم، أن السيدة فاطمة الزهراء قد فضلها الله على نساء العالمين، لا لأنها بنت الرسول (ص) وزوجة وصيه بل لأنها قد عملت بما أراد الله وأحب وأخلصت في عملها كأماها الصديقة الكبرى، بما لم تعمله امرأة قبلها من الأولين والآخرين. واختارها الله لتكون أمّاً للذرية الطاهرة، تلك الذرية التي تعتبر امتداداً لحياة الرسول (ص) لتحمل عبء الكفاح لمواصلة نشر تعاليم الرسالة النبوية بنصوصها الحقيقية من أجل سعادة البشرية.

لقد كانت الزهراء أول ثمرة لأبويها يقدمانها للبشرية بشكل عام وللمجتمع النسائي المسلم بشكل خاص ، بعد مرحلة النضال المشتركة التي مرَّ بها الزوجان . لقد كانت السيدة الزهراء أول نموذج للبيت النبوي ، بل لدولة النبوة بعد أمها ورمزاً فريداً للنضال والتضحية ونكران الذات . فقد تجرعت مرارة الظلم والأذى منذ طفولتها في الشعب ؛ حيث قاست ما قاساه أطفال الهاشميين من آلام الجوع والعطش نتيجة حصار قريش لهم . كما شاهدت بأم عينها ممارسات قريش الهمجية مع والدها قبل الهجرة إلى المدينة . كما تعرضت لإيذاء قريش عند هجرتها إلى المدينة . كذلك قدمت السيدة الزهراء لنساء العالم ، من خلال حياتها الزوجية مع ابن عمها علي بن أبي طالب ، نموذجاً فريداً من نوعه للزهد والإيثار والصبر والطاعة ، فكانت زوجة مثالية بكل المقاييس تتباهى دولة النبوة بأن تقدمها وأمها القدوة الحسنة كأفضل زوجتين عرفتهما البشرية . كما برزت السيدة الزهراء ، بعد وفاة أبيها (ص) ، امرأة جريئة رفضت الإساءة إلى المبادئ التي على أساسها قامت دولة النبوة . تلك الدولة كان يجب أن تكون نموذجاً للبشرية من خلال العمل بتلك المبادئ . وكما تجرعت السيدة الزهراء مرارة الظلم وقسوة الأذى ولوعة اليتيم في طفولتها فقد تجرعت أيضاً ، في بداية شبابها ، أيضاً ، لوعة فراق والدها وإنكار المسلمين وصيته واغتصاب حقها ، بل وقسوة القوم بضربها وإسقاطها جنينها . ولذلك لحقت بوالدها بعد وقت قصير نحيلة مهضومة غاضبة على دولة الخلافة لتخاذل المسلمين عن نصرة العترة . مخالفين بذلك أمر الله ورسوله بمودتهم واتباعهم ، ومتجاهلين أوامر الله ورسوله بعدم إيذائهم وستتم دراسة ذلك كله بشكل تفصيلي .

١ - مولدها وتميُّزها عن سائر نسل رسول الله (ص) :

أمها خديجة بنت خويلد أم المؤمنين الأولى ، وكانت أصغر بنات رسول الله (ص) وأحبهنَّ إليه ، وانقطع نسلُ رسول الله (ص) إلا من فاطمة ، ولم يخلف من بنيه غيرها . ومع أن السيدة خديجة أنجبت لرسول الله (ص) القاسم وعبد الله إلا أنها توفيا في سن الطفولة ولم يبق سوى البنات . في تلك البيئة التي كانت لا ترى للبنات وزناً ، مهما بلغ شأنها ، كان المجتمع العربي يعتبر مَنْ لا عقب له من الذكور مبتوراً .

فكانوا يستهزئون بالنبي (ص) حينما مات ولداه وقالوا: لقد أصبح يتيم عبد المطلب مبتور الذكر وسموه الأبتَر، فأنزل الله عليه بهذه المناسبة سورة الكوثر: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ، إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾^(١) ولذلك اقتضت مشيئة الله أن يجعل عقب النبي محمد (ص) وذريته من صلب علي وفاطمة (عليهما السلام). وذكر ابن حجر أن الطبراني أخرج عن ابن عمر قول الرسول (ص): «كل بني آدم يتمون إلى عصبتهم إلا ولد فاطمة فإنني أنا أبوهم، وأنا عصبتهم»^(٢).

كما ذكر ابن حجر أن الطبراني أخرج عن فاطمة الزهراء قول النبي (ص): «لكل بني أنثى عصبة يتمون إليها إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم»^(٣).

كذلك أخرج الطبراني عن جابر والخطيب عن ابن عباس أن النبي (ص) قال: «إن الله جعل ذرية كل نبي في صلبه وجعل ذريتي في صلب علي بن أبي طالب»^(٤).

وليس من شك في أن انفراد السيدة فاطمة الزهراء بإنجاب نسل النبي (ص) هو مكرمة إلهية من مكارمها العظيمة التي لا يمكن أن تدانيها فيها امرأة على وجه الأرض. فهي أم الأئمة المعصومين (عليهم السلام).

أما بالنسبة لتاريخ مولدها، فهناك روايات مختلفة بعضها ينص على مولدها قبل البعثة النبوية تروي ذلك وترجحه غالبية محدثي مدرسة الخلافة، بينما محدثو مدرسة الإمامة يرون أن مولدها كان بعد البعثة المباركة.

فقد روى الطبري عن أبي جعفر قال: «دخل العباس بن عبد المطلب على علي وفاطمة وأحدهما يقول للآخر: أينما أكبر؟ فقال العباس: وُلدت، يا علي، قبل بناء قريش البيت بسنوات. وولدت ابنتي وقريش تبني البيت ورسول الله (ص) ابن خمس وثلاثين سنة قبل النبوة بخمس سنين»^(٥). وجاء في الكافي للكليني عن الحسن بن محبوب عن حبيب السجستاني أنه قال: «سمعت أبا جعفر يقول: وُلدت فاطمة بنت محمد بعد مبعثه بخمس سنين، وتوفيت ولها ثمان عشرة سنة وخمسة وسبعون يوماً»^(٦).

وفي رواية الشيخ الطوسي، في مصباح المتعجد وغيره، أن ولادتها بمكة كانت في

العشرين من جمادى الآخرة، بعد المبعث بستين، في يوم الجمعة. وقال في رواية أخرى: سنة خمس من المبعث^(٧).

وقد تزامن مولدها يوم أن أتمت قريش بناء البيت الحرام وأراد كل زعيم من زعمائها، أن يكون له شرف وضع الحجر الأسود في مكانه. . . وقد نتج عن ذلك شجار وقع بينهم بسبب الاختلاف، وكادوا يقتتلون. ثم أجمعوا على تحكيم أول من يدخل عليهم المسجد، فكان الداخل محمداً فقالوا: هذا محمد الأمين قد رضينا به حكماً. وحين علم سبب اختلافهم، بسط رداءه وقال: ضعوا الحجر على هذا الثوب ففعلوا فقال: لياخذ كل رئيس قبيلة بطرف الرداء ولترفعوه جميعاً، ففعلوا، فأخذه حين رفعوه فوضعه مكانه، ولم ينازعه في ذلك، وتلاشت الفتنة^(٨).

ولما عاد إلى بيته وجد خديجة قد ولدت فاطمة، وبُشِّرَ بها ففرح فرحاً عظيماً، واتفاءل بمولدها خيراً. إنها حدثان عظيمان في يوم واحد^(٩).

وتقول الدكتورة بنت الشاطيء في وصف هذين الحدثين: «لقد شاء الله أن يقترن مولدها بالحادث الجليل الذي ارتضت فيه قريش محمداً حكماً فيما شجر بينها من خلاف على وضع الحجر الأسود، عند تجديد بناء الكعبة المكرمة، فاستبشر أبواها بمولدها واحتفالا به احتفالاً لم تألفه مكة في مولد أنثى سبقتها ثلاث أخوات ليس بينهما ولد، وأمضت طفولتها سعيدة بحب أبويها وتدليل أخواتها لها وبخاصة كبراهن زينب، التي كانت لها بمثابة أم صغيرة»^(١٠).

إن تميز فاطمة على بقية نسل رسول الله، في سلوكها، ربما يعود إلى أصل تكوينها ونظفها. ولذلك كانت لها منزلة عند النبي (ص) لا يضاهيها أحد، وتعلق بها إلى درجة لفتت انتباه بعض زوجاته. روى الطبري عن عائشة (ر): «أن النبي (ص) قبل يوماً نحر فاطمة». أخرجه الحربي وأخرجه الملا في سيرته وزاد. . . فقلتُ له: «يا رسول الله فعلت شيئاً لم تفعله». فقال: «يا عائشة إني إذا اشتقت إلى الجنة قبلتُ نحر فاطمة»^(١١).

وروى الطبري عن ابن عباس (ر) قال: «كان النبي (ص) يكثر القبل لفاطمة، فقالت له عائشة: إنك تكثر تقبيل فاطمة. فقال (ص): إن جبريل، ليلة أُسري بي

أدخلني الجنة فأطعمني من جميع ثمارها، فصار ماءً في صليي فحملت خديجة بفاطمة، فإذا اشتقت لتلك الثمار قَبَلْتُ فاطمة فأصبْتُ من راثحتها جميع تلك الثمار التي أكلتها»^(١٢).

ومّا يدلُّ على أن مولد السيدة فاطمة الزهراء، بعد البعثة النبوية، ما رُوِيَ من أن نساء قريش قاطعن خديجة في ولادتها، ولا شك في أن تلك المقاطعة لم تحدث إلا بعد البعثة النبوية لممارسة الضغوط على رسول الله، كما حصل في أمر حصار الهاشميين في شعب أبي طالب. فقد روى الطبري عن الملا في سيرته: «أن النبي (ص) قال: أتاني جبريل بتفاحة من الجنة فأكلتها، وواقعْتُ خديجة فحملت بفاطمة فقالت: إني حملتُ حملاً خفيفاً فإذا خرجت حدثني الذي في بطني. فلما أرادت أن تضع، بعثت إلى نساء قريش ليأتينها فيلين منها ما يلي النساء ممن تلد، فلم يفعلن، وقلن: لا نأتيكِ وقد صرّت زوجة محمد (ص). فبينما هي كذلك إذ دخل عليها أربع نسوة، عليهن من الجمال والنور ما لا يوصف، فقالت لها إحداهن: أنا أمُّكِ حواء، وقالت الأخرى: أنا آسية بنت مزاحم، وقالت الأخرى: أنا كلثم أخت موسى وقالت الأخرى: أنا مريم بنت عمران أم عيسى جئنا لنلي من أمرك ما يلي النساء. قالت: فولدتُ فاطمة، فوقعَت حين وقفت على الأرض ساجدة رافعة إصبعها»^(١٣). وإذا صحَّت هذه الرواية فإنَّ ولادة السيدة فاطمة الزهراء بعد البعثة وبعد الإسراء والمعراج، وأن الله أراد أن يخلق لذرية نبيه (ص) أمّاً طاهرة مطهرة.

وقد سمّاها رسول الله (ص) فاطمة، وعلَّل تلك التسمية. روى الطبري عن علي (ع) قال: «قال رسول الله (ص) لفاطمة: يا فاطمة أتدريين لم سميت فاطمة؟ قال علي: يا رسول الله، لم سميت فاطمة؟ قال: إنَّ الله عز وجل قد فطمها وذريتها عن النار يوم القيامة». أخرجه الحافظ الدمشقي، وقد رواه الإمام علي بن موسى الرضا (ع) في مسنده، ولفظه أن رسول الله (ص) قال: «إنَّ الله عز وجل فطم ابنتي فاطمة وولدها، ومَن أحبَّهم، من النار. فلذلك سميت فاطمة»^(١٤).

هذا جانب يسير من تميُّز السيدة فاطمة الزهراء على باقي أخواتها. ولا شك في

أن هناك سرّاً ربّانياً لهذا التميّز وهذه الفضيلة كما سيّضح ذلك فيما بعد من خلال مناقشة الدور الذي ستقوم به في بقية حياتها . وما تلك الطهارة إلا تأهيل إلهي لدورها العظيم الذي ستقدم من خلاله العظات والعبر للمرأة عبر العصور.

لقبها الزهراء البتول والبضعة وعديلة مريم وسيدة النساء^(١٥). وروي عن الإمام الصادق (ع) : «أن لفاطمة تسعة أسماء : فاطمة، الصديقة، المباركة، الطاهرة، الزكية، الرضيّة، المرضيّة، المحدثّة، والزهراء»^(١٦). أما نقش خاتمها فهو: أمن المتوكلون^(١٧).

٢ - طفولة الزهراء (ع) وحياتها في مكة :

عاشت الزهراء حياة معذبة منذ نعومة أظفارها، فقد لمست عن قرب جميع صنوف اضطهاد قريش لوالدها وجميع المؤمنين به من المسلمين نساءً ورجالاً. وفي مقدمة تلك المعيشة تجربة المقاطعة التي فرضتها قريش على بني هاشم وحاصرهم في شعب أبي طالب مدة ثلاث سنين تقريباً. كانت تجربة كلها حرمان شملت الرجال والنساء والأطفال. فشاركت أطفال الهاشميين آلام الجوع والحرمان والمرض لما تجرّعته من آلام أيضاً لمرض أمها وتدهور صحتها إضافة إلى مرضها هي نفسها خلال الحصار. فكان حصار الشعب أول تجربة قاسية في حياة هذه الطفلة البريئة المعذّبة التي تجرّعت غصصاً منذ طفولتها^(١٨).

أما التجربة المُرّة الثانية، فكانت وفاة أمها الرؤوم التي رُزئت بفقدائها وقاست آلام اليتيم ومحتته. فتحملت أعباء بيت والدها، وهي لم تتجاوز بعد مرحلة الطفولة المبكرة. والمصيبة الثالثة، التي قاستها موت أبي طالب عم أبيها، وحامي حمى النبوة في مكة. فشاركت والدها أحزانه ولوعته لفقد أكبر نصيرين له وللإسلام. ويروى أن السيدة خديجة توفيت بعد ثلاثة أيام من وفاة أبي طالب^(١٩).

وشاءت الأقدار، لهذه الطفلة أن تتصدى للحياة القاسية بصبر وجلد. لقد تولت دور أمها فكنيت بأم أبيها^(٢٠). نشأت في ظلال الدعوة، وأمنت بالله ورسوله، منذ اكتحال عينيها بنور الحياة. ووقفت إلى جانب والدها، تعاضده وتشدّد أزره، بعد رحيل أمها وعم أبيها أبي طالب.

وقد شهدت مواقف عديدة لإيذاء القرشيين لأبيها كان وقعها على نفسها شديداً. فقد تسببوا في ترويعها بتلك المعاملة القاسية مرات عديدة، شهد جانباً منها بعض المسلمين. وكان عقبة بن أبي معيط أشدهم إيذاءً للنبي (ص).

روى البخاري في صحيحه، عن عبد الله، قال: «بينما رسول الله (ص) قائم يصلي عند الكعبة وجمع قريش في مجالسهم؛ إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟! أيكم يقوم إلى جزور آل فلان فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها فيجيء به يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه. فانبعث أشقاها^(٢١)، فلما سجد رسول الله (ص) وضعه بين كتفيه وثبت النبي (ص) ساجداً، فضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمة وهي جويرية، فأقبلت تسعى. وثبت النبي (ص) ساجداً حتى ألقته عنه وأقبلت عليهم مسرعة. فلما قضى رسول الله (ص) الصلاة قال: اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش. ثم سمى اللهم عليك بعمر بن هشام وعقبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأميه بن خلف وعقبة بن أبي معيط وعُمارة بن الوليد. قال عبد الله: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سُحبوا إلى القليب قليب بدر. ثم قال رسول الله (ص): «واتبع أصحاب القليب لعنة»^(٢٢).

وكانت الزهراء بجوار والدها يوماً، حيث كان يصلي في المسجد الحرام، ويطوف البيت، فانتظر عدوُّ الله عقبة بن أبي معيط حتى سجد رسول الله (ص). فقام هذا الخبيث فوطىء بقدمه عنق النبي (ص) ورأى أبو بكر بن أبي قحافة ذلك فدفعه عنه، وقال متمثلاً بقوله تعالى: ﴿... أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله...﴾^(٢٣).

وروى الطبري، أن أحد سفهاء قريش مرّ بالرسول في الطريق، فاغترف بكلتي يديه من التراب والأوساخ وألقاها على رأسه، فدخل الرسول (ص) بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه ابنته فاطمة وجعلت تغسل التراب عن رأسه وتبكي، وهي حديثة عهد بفراق أمها خديجة. ومع أن بكاء طفلته كان مؤلماً لقلبه ومشاعره إلا أن صبر النبوة يفوق كل احتمال، فكان صبره وتشجيعه لها بالثبات، خير زاد لها لتجاوز تلك الصعاب، فالتفت إليها وعيناها تفيضان بالدموع، وقال:

«لا تبكي يا بنية، إن الله مانع أباك وناصره على أعداء دينه ورسالته» (٢٤).

هذه بعض الأمثلة، المقتضبة، التي شاهدها طفلة النبوة المعبودة بالنسبة لما عانى والدها من صنوف إيذاء قريش وتعذيبهم له. فكانت تلك المواقف خير زاد لها لتستمد منها الصلابة والثبات على المبدأ وتعمق إيمانها برسالة أبيها وتزيدها إصراراً على مساندته وتحدي أعداء الحق مع صغر سنها. كما تجرعت الآلام لما عاناه المسلمون الأوائل من اضطهاد مرير، فلقد شاهدت الصخور الملتهبة وهي تلقى على صدور المسلمين والمسلمات في حر الصيف وساعات اللهب المحرقة، وألم السياط التي كان رجال قريش يلهون بها ظهور المعذيين من أتباع والدها من مختلف الأعمار ذكوراً وإناثاً، وكانت ترى أباه عاجزاً عن نصرتهم خصوصاً بعد أن رحل عنه عمه أبو طالب وشريكة نضاله خديجة. ها هي طفلة رسول الله تشاهد جميع تلك المواقف المؤلمة، وتعيش فترة انفراد قريش بوالدها وتحس بالفراغ الكبير الذي خلفه رحيل الأم والعم، فتحس بمسؤولية ضخمة تجاه والدها لمساندته والتفاني في سبيل إنجاح دعوته. وقد حفظ لها والدها هذا الموقف العظيم ووفى لها. كيف لا وهو نموذج الخلق الكريم الذي لم ينل غيره من الأنبياء والرسل هذه المرتبة حينما مدحه الله بقوله تعالى: ﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾ (٢٥). وسيتضح فيما بعد كيف تم تعويض فاطمة من الله ورسوله نتيجة معاناتها وتضحياتها والدرجات العالية التي نالتها في الدنيا والآخرة.

لم يكن رحيل الرسول (ص)، من داره، وهجرته إلى المدينة المنورة مرغماً نهاية المطاف لإيذائه وأهله والمسلمين. فبعد أن شاءت إرادة الله لرسوله الهجرة إلى يثرب بقيت نساؤه في مكة، فاستخلف ابن عمه علياً ليقوم بثلاث مهام عظمى، وهي:

١ - النوم في فراش الرسول (ص) ليفتديه بنفسه ويوهم المشركين أنه موجود ويطمئنهم إلى ذلك حتى الصباح.

٢ - أن يكون نائباً للرسول (ص) في رد الأمانات والودائع التي كانت عند النبي (ص) إلى أصحابها.

٣ - أن يصحب الفواطم من مكة إلى المدينة.

إنَّ المهام الثلاث، الآتفة الذكر، التي عهد بها رسول الله (ص) لابن عمه علي مهام خطيرة، وهو لم يبلغ العشرين آنذاك، فكانت أول امتحان حقيقي لعلي نتيجة العهد الذي قطعه على نفسه عندما اجتمع الرسول (ص) مع الهاشميين في أول تكليف إلهي له بالدعوة إلى دين الله ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ (٢٦).

لقد تمّت هجرة أبيها إلى المدينة بسلام، وفشلت جميع مخططات قريش في ملاحقة الرسول (ص). وبعد أن أتمّ علي مهمتي النوم في الفراش ونجاة الله من شر كيد القرشيين، وأعاد الأمانات والودائع إلى أصحابها هياً الرواحل للفواطم وهنّ: فاطمة الزهراء (ع) وفاطمة بنت أسد - والدته - وفاطمة بنت الحمزة وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب. واتفق علي مع مَنْ بقي من المؤمنين في مكة - تنفيذاً لأوامر الرسول (ص) - أن يتسلّلوا ليلاً إلى ذي طوى حيث يسير الركب من ذلك المكان باتجاه المدينة (٢٧). وخرج علي بالفواطم في وضح النهار، ومعه أيمن بن أم أيمن وأبو واقد الليثي - مبعوث رسول الله (ص) - متحدياً غطوسة قريش على الرغم من صغر سنه. فجعل أبو واقد يجذّ السير مخافة أن تلحقهم قريش وتحول بينهم وبين اللحاق بمحمد (ص)، فقال له علي (ع): ارفق بالنسوة يا أبا واقد، وقد ارتجز يقول:

ليس إلا الله فارفع ظنك
يكفيك ربُّ الخلق ما أهمك

فلما قارب ضحجان أدركت الركب عصابة لقريش تتكون من ثمانية فرسان معهم مولى لحرب بن أمية يدعى جناح، فقال علي لأيمن وأبي واقد: أنيخا الإبل واعقلاها. وتقدم هو فأنزل النسوة ناحية واستقبل القوم بسيفه فقال له القرشيون: أظننت أنك ناج بالنسوة؟ وناشدوه الرجوع بهن طوعاً قبل أن يضطروه للرجوع بهنّ مكرهاً. ولكن علياً استقبل القوم بسيفه، وشدّ عليهم حتى فرقهم عن الركب يميناً وشمالاً، ومضى في أثرهم الواحد تلو الآخر وضرب جناحاً مولى بني أمية على عاتقه ففقد نصفين ودخل السيف إلى كتف فرسه ولاذ الباقون بالفرار. وعاد علي (ع) يتابع المسيرة بمن معه من النسوة حتى دخل المدينة بمن معه، وقد أجهده السير على قدميه فرقاً النبيّ لحاله (٢٨).

وجاء في رواية أن الحويرث بن نقيير بن عبد قصي، كان أحد الفرسان الذين كانوا

ضمن عصابة قريش التي كلفت بمطاردة ركب علي والفواطم . وكان ذلك الرجل قد عُرف عنه أنه ممن يُؤذي النبي (ص) في مكة ، فأقبل الخويزث على البعير الذي يحمل فاطمة ومعها إحدى الفواطم فرماها إلى الأرض فأضرَّ بها ، وكانت نحيلة الجسم قد أنهكت جسمها الأحداث المتلاحقة المؤلة التي سبقت هجرة أبيها وبخاصة بعد وفاة أمها (٢٩) .

ويستمر إيذاء قريش للرسول (ص) دون توقف . فبعد هزيمتهم في معركة بدر الكبرى وقع ضمن الأسرى أبو العاص بن الربيع ، زوج ابنة الرسول الكبرى زينب ، وأطلقه النبي (ص) بدون فداء وشرط عليه أن يرسل ابنته زينب إلى المدينة عند رجوعه إلى مكة ، فوفى للنبي بذلك فور وصوله . إلا أنَّ قريشاً تعرَّضت لها عند خروجها من مكة ، يقود بعيرها كنانة بن الربيع أخو زوجها ، وكان هبار بن الأسود ونافع بن عبد قيس أشدَّهم وقاحة . فنخس هبار البعير ورُوِّع زينب بالرمح فسقطت من هودجها وكانت حاملاً فأجهضت ، وتصدى كنانة لهبار ونثر سهامه بين يديه متحدِّياً ، فناداه أبو سفيان أن يكفَّ سهامه حتى يكلمه ، ثم دنا منه ، وحاوره قائلاً : «خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية ، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا ، وما دخل علينا من محن ، فيظن الناس أن ذلك عن ذل أصابنا ، وأن ذلك ضعف منا ووهن ، وأشار عليه أن يرجع بها حتى إذا سكن الناس خرج بها سراً» ورأى كنانة زوجة أخيه تنزف دماًؤها ، وقد ألقت جنينها ، فرجع بها . وبقيت عند أبي العاص أياماً ثم رحلت إلى المدينة (٣٠) . وقد أسلم زوجها في العام السادس للهجرة ، وهاجر إلى المدينة ورد عليه الرسول (ص) زوجته ، وظلَّ وفيّاً لها إلا أن زينب توفيت في العام الثامن للهجرة متأثرة بعلتها التي نجمت عن سقوطها ، عن البعير وإجهاضها الجنين (٣١) .

بهذه الصور البشعة كانت تتعامل قريش مع رسول الله (ص) . إنها محاولات لإضعافه والحيلولة بينه وبين تأدية رسالته الربَّانية . وما علموا أن تلك الأعمال التي يندى لها جبين الإنسانية ستكون عاراً لتاريخ العرب بسبب محاولتهم الحيلولة بين الرسول وبلوغه أهدافاً سامية تحقق للبشرية كلها الخير في الدارين : الدنيا والآخرة .

٣ - زواجها :

استقر النبي (ص)، بعد وصوله المدينة حيث بركت ناقته على باب بيت أبي أيوب الأنصاري، ونزل ضيفاً عليه، وشرع في بناء مسجده. واشترك مع المسلمين في العمل حتى أتموا بناءه. وبعد ذلك بنى بيته المتواضع المؤلف من عدة حجرات بعضها بالأحجار وبعضها الآخر من جريد النخل والطين، وكلها مسقوفة بجريد النخل، أما ارتفاع الحجرات فقد وصفه الإمام الحسن سبط رسول الله (ص) حيث قال :

«كنتُ أدخل بيوت النبي (ص)، وأنا غلام، فأنال السقف بيدي» (٣٢).

أما الأثاث الذي هياهُ النبي لبيته الجديد فكان في منتهى البساطة والخشونة؛ إذ أعد لنفسه سريراً مؤلفاً من أخشاب مشدودة بالليف، كما جاء في بعض الروايات (٣٣).

كان بإمكان رسول الله (ص) أن يسكن في أفخم المباني ويقتني أفخر الأثاث، كما دعاه وجهاء الأنصار. ولكنه فضّل أن يعيش عيشة بسيطة ليواسي أفقر أسرة في المجتمع. يريد الرسول (ص) أن يعطي الناس درساً بأن على قادة الأمم أن يتعدوا عن التعالي والجبروت وأن متاع الدنيا مهما عظم فهو زائل. إنه نبي البشرية فلا بد وأن يواسي البائسين والضعفاء. لقد كان المضطهدون والمستضعفون من أبناء المجتمع المكّي أول مَنْ آمَنَ به لأنهم وجدوا في هذا الدين الخلاص من حياة العبودية، وجدوا فيه مبادئ لم يألّفوها من قبل، فتمسكوا به وقدموا أرواحهم فداءً له. هاجر النبي إلى المدينة التي أصبحت المكان الجديد لنشر دين الله، والقاعدة التي أصبحت نواة لدولة النبوة التي خرجت منها جيوش الإسلام لا للجور ولا للنهب، ولكن للدفاع عن مجتمع هذه الدولة البكر وتحرير المجتمعات المجاورة من الظلم والجور والتسلط، وضمهم إلى مجتمع دولة النبوة التي قامت على مبادئ الحق والعدل والمساواة والحرية.

إلى هذا البيت المتواضع جاءت فاطمة بنت محمد (ص) من مكة لترى أباهما بين أنصاره في يشرب مرفوع الرأس، يفدونه بأعز ما يملكون، ويتقاسمون مع المهاجرين كل ما يملكون من متاع الدنيا من مال وعقار، بل وحتى الزوجات. كان بعضهم

يتنازل عنهن لأخيه المسلم عن طيب خاطر (٣٤).

أراد النبي (ص) أن يثبت لمجتمع المدينة، بشكل خاص، والمجتمع العالمي في ذلك الوقت وفي العصور المتعاقبة، أن الدولة التي كان بصدد إنشائها هي دولة المحرومين والمستضعفين. وقد ترجم مبادئ تلك الدولة التي أراد إنشاءها بسيرته العظيمة التي تشتمل على أفعاله وأقواله. فأول مبنى قام بإنشائه، قبل أن يستقر بالمدينة، هو مسجد قبا قرب المدينة؛ حيث مكث فيها كما يروى أسبوعين ولم يغادرها إلا بعد مقدم علي والفواطم. وقد تفتطرت قدماه، فاعتنقه النبي (ص) وبكى رحمة لما بقدميه من الورم، فمسحهما من ريقه فلم يشكهما بعد ذلك (٣٥).

أما المسجد الثاني الذي بناه فهو المسجد النبوي المعروف ولم يشرع ببناء سكنه إلا بعد أن أتم بناء المسجد الذي شارك (ص) في بنائه مع المهاجرين والأنصار. من هنا تأتي أهمية المسجد في حياة مجتمع دولة النبوة، فهو مركز التجمع العبادي والسياسي والاجتماعي والثقافي والعسكري، حيث تعلن منه قرارات الحرب والسلام. فهو مقر للحكم ومقر لمجتمع الدولة النبوية. إنه المقر الدائم للحاكمين والمحكومين. ومن هنا تأتي رسالة المسجد وأهميتها في دولة النبوة.

وحرصاً من النبي (ص) على وحدة مجتمع دولته الناشئة فقد آخى بين الأنصار ليزيل أحقاد الجاهلية والحروب التي نشأت بين الأوس والخزرج، كما آخى بين كل مهاجر وأنصاري على الحق والمواطنة. وكان الرسول (ص) قد آخى بين المسلمين في مكة قبل الهجرة إلى المدينة على الحق والمواطنة بغية جمع كلمتهم ووحدتها، وقد اختص النبي (ص) علياً في المواخاة الأولى في مكة والثانية في المدينة (٣٦).

أثبت النبي (ص)، أنه رجل دولة، فهيما هو يجعل الحب والمواخاة بين المسلمين أساساً قوياً لبناء مجتمع دولته، فتسابق الأنصار يضحون بكل ما ملكت أيديهم لتوفير الراحة وإزالة وحشة الغربة عن إخوانهم في الدين ودولة الإيوان من المهاجرين فعاشوا أخوة متحابين؛ قال تعالى: ﴿... واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها...﴾ (٣٧) فالأخوة في الدين كانت أهم الدعائم التي قام عليها مجتمع دولة النبوة.

ها هي زهرة البيت النبوي تغادر مسقط رأسها ومكان أحلام طفولتها مكة، بعد أن لوّعتها الأيام عذاباً وألماً ومرارة، نتيجة قسوة قریش ووقوف رجالها بكل قوة في وجه والدها ليمنعوه من نشر دين الله . عاشت حياة قاسية بعد فراق أمها ورحيل أبي طالب حامي حمى النبوة . كيف سيكون مصير هذه الزهرة؟ هل تنصفها الأيام وتعوّضها مرارة اليتيم وإذلال القرشيين لو والدها والمسلمين؟

عاشت فترة من الزمن مع والدها، وابن عمها علي بن أبي طالب، في بيت أبي أيوب الأنصاري، بعد استقرارهم بالمدينة وقبل الانتقال إلى منزل والدها . استقبلت فاطمة الزهراء الحياة في المدينة بتفاؤل منذ وطأت قدمها أرض المدينة . فكم كانت بهجتها عظيمة، حين تحرّك والدها بناقته من قبا وهي ترى حشد المسلمين حوله عن يمينه وشماله حاملين أسلحتهم . واستمر يخترق أحياء المدينة حيث كان يلاقي الاستقبال الحار من الأنصار ودعوة كل حي يمر به للإقامة عندهم، فكان يشكرهم على دعوتهم وحسن استقبالهم، وكان يقول لهم عند مروره بكل حي : «خلوا سبيلها فإنها مأمورة»، يعني ناقته، حتى بركت على باب مسجده، وهو يومئذ مربد ليتيمين هما سهل وسهيل ابنا عمرو، فجعل الناس يسألون رسول الله (ص) في النزول عليهم، فاحتمل أبو أيوب الأنصاري رحله فوضعه في بيته، فقال رسول الله (ص): «المرء مع رحله» (٣٨).

ولما تم إنشاء بيت والدها انتقلت إليه، مع ابن عمها علي بن أبي طالب للعيش في ذلك البيت المتواضع . وعاشوا عيشة بسيطة، ولكنها أحسّت بالعزة والطمأنينة . وقامت بأعباء بيت والدها خير قيام قبل أن تلحق به زوجته سودة بنت زمعة التي بقيت في مكة، وقبل زواجه بعائشة بنت أبي بكر.

أما بالنسبة لزواج فاطمة الزهراء (ع) فقد ورد أن أبا بكر وعمر خطباها إلى النبي (ص)، مرة بعد أخرى، فردهما . فمرة يقول: إنها صغيرة، ومرة يقول: أنتظر بها أمر الله (٣٩).

روى ابن حجر عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: «خطب أبو بكر وعمر فاطمة، فقال رسول الله (ص): «إنها صغيرة»، فخطبها علي (ع) فزوجها منه» (٤٠).

وورد في مناقب ابن شهر آشوب، عن ابن عباس وعبد الله بن مسعود والبراء بن عازب وغيرهم، بصيغ مختلفة في تركيبها وألفاظها، وتتفق في مضامينها، أن أبا بكر وعمر بن الخطاب كانا ممن خطب فاطمة من النبي بعد أن استقر في المدينة، وألحاً عليه في الطلب فردهما بقوله: «إني أنتظر فيها أمر الله»^(٤١). وكان علي بن أبي طالب قد بلغ سن الزواج فيها هو قد ذرف على العشرين حين وطأت قدماه المدينة. فلم لم يتقدم لخطبة فاطمة الزهراء (ع)؟

يُروى، أن الأسباب، التي حالت دون خطبته لها الحياء والفقر. فشجعه نفر من الأنصار على خطبتها. فدخل على النبي (ص) يوماً فسلم عليه، وهو مطرق برأسه إلى الأرض من شدة الحياء. فسأله النبي (ص) برفق عن حاجته. فقال: «ذكرتُ فاطمة يا رسول الله»، ولم يزد على ذلك، فرد النبي بقوله: «مرحبا وأهلاً». ثم ودّع رسول الله (ص) وخرج. وحين التقى بأصحابه وأخبرهم برد رسول الله (ص) قالوا له: «لقد أجابك النبي إلى ما تريد»^(٤٢).

وحينما التقى الرسول (ص) بابنته، كما في رواية ابن سعد في طبقاته، قال لها: «لقد سألتُ ربي أن يزوّجك خير خلقه وأحبهم إليه، وقد عرفت علياً وفضله ومواقفه، وجاءني اليوم خاطباً فما ترين؟ فأمسكت ولم تتكلم بشيء، فخرج النبي (ص) وهو يقول: سكوتها رضاها وإقرارها»^(٤٣).

قبل تكلمة مناقشة زواج علي من فاطمة، هناك سؤالان يجدر طرحهما والإجابة عليهما، وهما:

١ - ما مغزى استشارة النبي (ص) لابنته فاطمة في أمر زواجها؟

٢ - لماذا كان علي موضع موافقة لفاطمة؟

بالنسبة للسؤال الأول، فإن النبي (ص) يريد أن يشرّح للناس، نهجاً يسرون عليه، ويقتدون به من خلال سنته. فعليّ ليس شخصاً غريباً عنه بل هو خريج حجره، فقد التحق به منذ أن كان في السادسة من عمره، حين أخذه من عمه أبي طالب لتخفيف مسؤولية الأسرة عن كاهله، فشخصية علي قد صاغها رسول الله (ص)، ولكن أراد الرسول أن يعلم الأمة الإسلامية بشكل خاص والبشرية

بشكل عام أن الإسلام يحترم المرأة ويحافظ على كرامتها، وأنها هي صاحبة القرار في اختيار زوجها وليس لأي فرد من أسرتها قهرها كما كان عليه الحال في الجاهلية .
أما بالنسبة للجواب على السؤال الثاني فإن موافقة الزهراء على علي تعود لأسباب عديدة، وهي:

١ - عاش علي (ع) منذ سن السادسة من عمره في رعاية النبي (ص) وخديجة زوجته . ومنذ أن ولدت فاطمة الزهراء في مكة وحتى هجرتها إلى المدينة تَعَوَّدَتْ أن ترى علياً منذ طفولته حتى أصبح شاباً في مقتبل العمر فتعمقت وشائج القرى ومشاعر الود على مر الأيام، وها هي الآن تتوجّج بالزواج .

٢ - إن فاطمة الزهراء عاشت مع علي تجربة أدائه للمهام الكبرى التي أناطها به الرسول (ص) بعد هجرته، وهي المبيت على الفراش ليلة الهجرة فادياً له بروحه ومعرضاً نفسه للخطر، ونائباً عنه (ص) في رد الودائع والأمانات إلى أصحابها، ثم إلحاقه الهزيمة بعصابة قريش التي لحقتهم وروعتهم خلال خروجهم من مكة . لقد شاهدت علياً وهو يبارز أفراد العصابة بنفسه ليس معه ظهير إلا إيمانه القوي بالله . وكان يحاربهم وهو راجل فكان يقول خلال حملته عليهم :

خلو سبيل الجاهد المجاهد آليت لا أعبدُ غير الواحد

حتى تفرق القوم ووصل عليٌ والفواطمُ إلى المدينة سالمين . ولا شك في أن فاطمة الزهراء لا تنسى تلك المواقف البطولية لابن عمها علي (ع) .

٣ - وفي المدينة سمعت عن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وأن والدها اختص علياً بمؤاخاته فلا شك في أن ذلك زادها تعلقاً بعلي .

٤ - إضافة إلى هذا وذاك فإن علياً هو أول مَنْ آمَنَ بأبيها بعد والدتها خديجة ، ووقف لمناصرتها هو ووالده للدفاع عن الرسول ودعوته الإلهية .

٥ - رابطة القرى التي تجمعها به تضيف حقاً لابن عمها عليها . أما بالنسبة للرسول (ص) فقد اختاره له أخاً ووصياً منذ تبليغه الدعوة لعشيرته تنفيذاً لأمر الله تعالى بقوله : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٤٤) واتخذ أخاً له حينما أخى بين المسلمين

المواخاة الأولى في مكة قبل الهجرة، وفي المواخاة الثانية بعد الهجرة^(٤٥).

فالتقت خيرة كل من الأب والزوج والزوجة لهذا الزواج. ولذلك قال النبي (ص): «لولا علي لم يكن لفاطمة كفؤ»^(٤٦).

وجاء، في كشف الغمة، عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «لولا أن الله خلق أمير المؤمنين ما كان لفاطمة كفؤ على وجه الأرض»^(٤٧).

وفي شأن زواج علي من فاطمة روى ابن حجر قال: «أخرج الطبراني عن ابن مسعود أن النبي (ص) قال: «إن الله تبارك وتعالى أمرني أن أزوّج فاطمة من علي»^(٤٨). فيأتي هذا الزواج بأمر إلهي لمكانة الزوجين عند الله وما لتضحياتهما من أثر كبير في سبيل نشر الدين وتوطيد أركانه».

ويبرر الرسول (ص) لابتته سبب اختياره لعلي (ع) زوجاً لها، كما ورد في الاستيعاب لابن عبد البر، بقوله لها: «لقد زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة. وإنه لأول أصحابي إسلاماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حليماً»^(٤٩).

فالرسول (ص) يعدّد لابتته مزايا علي التي جعلته يختارها بعلاً لها وهو يتصرّف، في هذا المقام، بمكانة الأب والصدّيق، فيوضح لها تاريخ حياته لتكون على بيّنة. إنه درس للأبناء عبر الزمان من خلال تعامله مع زهرة النبوة بل زهرة دولة النبوة وزهرة البشرية جمعاء.

وعلاوة على كفاءة علي وأهليته لزهرة النبوة: خلقاً وإيماناً وشجاعة فإنّ رسول الله (ص) لم ينسَ بعد كفالة أبي طالب له منذ أن رحل جده عبد المطلب إلى الدار الآخرة، والنبي في سن الثامنة من عمره الشريف، وبقي في كفالته وحمايته حتى السنة العاشرة لبعثته المباركة مدة اثنتين وأربعين سنة تقريباً يخصه بحبه العظيم دون أبنائه ويحيطه برعايته ويذود عنه ويفديه بكل ما يملك حتى فارق الحياة، فكان الأب والصدّيق وحامي حمى النبوة. وكان أبو طالب شديد الحرص على سلامته منذ طفولته لشدة حبه له ولوالده عبد الله، فكان يضحي بعلي في سبيل سلامته. حكى ابن أبي الحديد، في شرح النهج، عن أمالي أبي جعفر محمد بن حبيب، أن أبا طالب كثيراً ما كان يخاف على رسول الله (ص) البيات فكان يقيمه ليلاً من منامه،

ويضع ابنه علياً مكانه . فقال له علي ليلة : يا أبة ، إني مقتول . فقال له أبو طالب^(٥٠) :

اصبرن يا بني فالصبر أحجى	كل حي مصيره لشعوب
قد بذلناك والبلاء شديد	لفداء الحبيب وابن الحبيب
لفداء الأغر ذي الحسب الثا	قب والباع والكريم النجيب
إن تصبك المنون فالنبل تربي	فمصيب منها وغير مصيب
كل حي وإن غلي بعمـر	أخذ من مذاقها بنصيب

وكما كان أبو طالب حصناً منيعاً للنبي (ص) ، كذلك كانت زوجته فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي بن أبي طالب ، فقد تولّت دور الأم لرسول الله (ص) بعد وفاة أمه آمنة بنت وهب وهو في سن السادسة . فكانت تبرّه على سائر بنيتها . كان أولادها يصبحون شعناً رمضاً ويصبح رسول الله (ص) كحياً دهنياً^(٥١) . روى الحاكم ، في المستدرک بسنده ، «أنها كانت بمحل عظيم من الإيمان في عهد رسول الله (ص)»^(٥٢) . وكانت من السابقات إلى الإسلام . ولذلك لم ينس الرسول (ص) فضلها في تربيته وسبقها إلى الإسلام . فقام بتكفينها ، يوم وفاتها في المدينة ، بقميصه وأمر من يحفر قبرها . فلما بلغوا لحدها حفره بيده واضطجع فيه وقال : «اللهم اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها ووسّع عليها مدخلها» فقليل : «يا رسول الله ، رأيناك صنعت شيئاً لم تكن تصنعه بأحد قبلها» . فقال : «ألبستها قميصي لتلبس من ثياب الجنة» أو قال هو أمان لها يوم القيامة أو قال ليدراً عنها هوام الأرض واضطجعت في قبرها ليوسعه الله عليها وتأمين ضغطة القبر . إنها كانت من أحسن خلق الله صنعا إليّ بعد أبي طالب^(٥٣) . إذا كان أبو طالب وفاطمة بنت أسد بن هاشم قد ألبيا بلاء عظيم في تربية رسول الله (ص) ورعايته وحمايته وتفضيله على أبنائها : طالب وعقيل وجعفر وعلي وأختها أم هاني (فاخنة) فإن رسول الله (ص) هو رمز الوفاء ، فما هو يعبر عن ذلك الحب وتلك التضحيات بالأقوال والأفعال لتعريف الأجيال المتعاقبة من المسلمين بدورهما العظيم في خدمة الرسالة وصاحبها . وما هو يوطّد تلك الوشائج ويتوجّها بزواج زهرة البيت النبوي من علي الذي أصبح

آية من آيات النبوة كما أصبح هو وأبناءؤه الأئمة ورثة علمه وأوصيائه في دولته العظيمة . لهذه الأسباب مجتمعة كانت موافقة كل من النبي (ص) والزهاء على هذا الزواج الميمون .

فالزهاء وعلي كلاهما صيغت شخصيته في بيت النبوة تحت ظل سقف واحد ورعاية وحنو وعطف الزوجين العظمين النبي (ص) وخديجة . إنه زواج الند للند . وستتضح نتائج تلك التربية الرسالية في حياتهما الزوجية التي أصبحت نموذجاً تفتخر دولة النبوة بأن تقدمه رمزاً لأجيال البشرية المتعاقبة لتضحيات الأسرة المؤمنة في سبيل الدين ومواساة المحرومين بل وإيثارهم على أنفسهم لقوله تعالى : ﴿... ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة...﴾ (٥٤).

وبالنسبة لتاريخ زواج علي من فاطمة يروى أن النبي زوّجه بها بعد مقدمه المدينة بخمسة أشهر في دار أبي أيوب الأنصاري إذ أن النبي لم يكن يملك بيتاً وكذلك علي ، فاقترن الزوج على العقد ودخل بها بعد خروجه من دار أبي أيوب وانتقاله إلى سكنه الخاص ، حيث أن الدخول قد تمّ بعد معركة بدر كما يذكر الطبري (٥٥) . وكان علي فقيراً لا يملك من حطام الدنيا شيئاً حينما أقدم على الزواج ؛ حيث كان نموذجاً صادقاً للنبي (ص) فلم يرث مالا من والده الذي كان على الرغم من علو منزلته في قومه إلا أنه كان يعيش عيشة تقشف . لذا فلم يكن لعلي مال لا عن طريق تجارة ولا عن طريق إرث . ولم يكن يملك غير فرسه ودرعه . فباع درعه لعثمان بن عفان بأربعمئة وسبعين درهماً فحملها جميعها ووضعها بين يدي رسول الله (ص) ، فقبض النبي (ص) منها قبضة ودفعها إلى بلال وقال له : ابتع لفاطمة طيباً وقبض قبضة خصصها لمتاع البيت . ثم قبض منها مبلغاً ودفعه لأبي بكر وعمار وطلب منها شراء ما يصلحها من ثياب وأثاث للبيت ، والباقي من المهر دفعه إلى أم سلمة وقال أبقه عندك (٥٦) . بهذه الروح الأسرية البسيطة كان يتعامل رسول الله (ص) مع أصحابه يشركهم في خصوصياته لخلق الألفة والمحبة بين قمة الدولة النبوية وقاعدتها . وقد حضر عقد النكاح كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار . وقال النبي (ص) في خطبة النكاح :

«الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المطاع بسلطانه ، المهوب من

عذابه ، المرغوب إليه فيما عنده ، النافذ أمره في أرضه وسماؤه ، الذي خلق الخلق بقدرته ، وميّزهم بأحكامه ، وأعزهم بدينه ، وأكرمهم بنبيه محمد (ص) . ثم إن الله جعل المصاهرة نسباً لاحقاً وأماً مفترضاً وشج بها الأرحام والأزهار الأنام فقال تبارك اسمه وتعالى جده : ﴿ وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً ﴾ ثم إن الله أمرني أن أزوّج فاطمة من علي وإني أشهد أني قد زوّجتها على أربعمئة مثقال فضة أرضيت قال : قد رضيت يا رسول الله ثم خر ساجداً . فقال رسول الله (ص) : بارك الله عليكما وبارك فيكما وأسعد جدكما وجمع بينكما وأخرج منكما الكثير الطيب» (٥٧).

قال أنس بن مالك : «والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب» (٥٨).

وبعد أن فرغ رسول الله (ص) من إلقاء خطبته ألقى علي الخطبة التالية :

«الحمد لله الذي قرب حامديه ، ودنا من سائليه ، ووعد الجنة من يتقيه ، وأنذر بالنار من يعصيه ، نحمده على قديم إحسانه وأياديه ، حمد من يعلم أنه خالقه وباريه ، ومميته ومحبيه ، وسأله عن مساويه ، ونستعينه ونستهديه ، ونؤمن به ونستكفيه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، شهادة تبلغه وترضيه ، وأن محمداً عبده ورسوله (ص) ، تزلفه وتحطيه ، وترفعه وتصطفيه ، وهذا رسول الله (ص) زوّجني ابنته فاطمة على خمسمئة درهم ، فاسألوه واشهدوا» .

قال رسول الله (ص) : «قد زوّجتك ابنتي فاطمة على ما زوّجك الرحمن ، وقد رضيت بما رضي الله ، فنعم الختن أنت ، ونعم الصاحب أنت ، وكفاك برضى الله رضى» .

ثم أمر النبي (ص) بطبق تمر وأمر بنهبه (٥٩).

أبرز الرسول (ص) لأصحابه ، خلال عقد القران مكانة الزوجين عنده وعند الله من ناحية والمهر المتواضع الذي أراد للأمة الإسلامية أن تقتدي به ولا تبالغ فيه . وبين أن المبالغة في المهور خروج على سنة الرسول (ص) وعقبة من العقبات التي يعاني منها الشباب في المجتمعات الإسلامية في الوقت الحاضر وتؤدي لتأخير زواجهم .

وتكوّن جهاز الزهراء من قميص بسبعة دراهم، وخمار بأربعة دراهم وقطيفة سوداء خيبرية (دثار له خل)، وسرير مزمل (ملفوف) بشریط (خوص مفتول)، وفراشين من خيش مصر (وهو مشاقة الكنان) حشو أحدهما ليف، وحشو الآخر من صوف الغنم. وأربع مرافق (متكآت) من آدم الطائف (الجلد) حشوها أذخر (نبات طيب الرائحة)، وستر رقيق من صوف، وحصير هجري^(٦١)، ورحى لليد، ومغضب من نحاس (إناء لغسل الثياب)، وسقاء من آدم (قربة صغيرة)، وقعب (قدح من خشب) للبن، وشن للماء (قربة صغيرة عتيقة لتبريد الماء)، ومطهرة (إناء يطهر به) مرفقة، وجرّة خضراء، وكيزان -خزف، ونطع من آدم (بساط من جلد)، وعباءة قطوانية^(٦٢)، وقربة للماء. فلما وضع ذلك الجهاز بين يديه جعل يقلبه بيده وبكى وقال: «اللهم بارك لقوم جُلّ أنيتهم الخزف»^(٦٣). أما تجهيز علي لبيته وتأثيثه فقد اشتمل على: رمل لين ونصب خشبة من حائط إلى حائط وبسط أهاب كبش ومخدة ليف وقربة ومنخل ومنشفة وقدح^(٦٤). وهكذا كان جهاز الزوجة وأثاث بيت الزوجية.

روى الطبري عن أسماء بنت عميس قالت: «لقد جهزت فاطمة بنت رسول الله (ص) إلى علي بن أبي طالب وما كان حشو فرشهما ووسائدهما إلا ليفاً»^(٦٥). وقد أكد علي على ذلك الجهاز بقوله: «جهز رسول الله (ص) فاطمة في خميلة وقربة ووسادة من آدم حشوها ليف»^(٦٥).

وقال علي أيضاً: «لقد تزوجت فاطمة وما لي ولها فراش غير جلد كبش ننام عليه بالليل ونعلف عليه الناضج»^(٦٦) بالنهار وما لي ولها خادم غيرها»^(٦٧).

وروى الطبري أيضاً عن أبي بكر بن فارس عن جابر قال: «كان فراش علي وفاطمة ليلة عرسهما إهاب كبش»^(٦٨).

بهذا البيت المتواضع بنى علي بزوجه الزهراء بعد معركة بدر التي هزم الله فيها فلول الشرك على يد جيش دولة النبوة وكان علي في مقدمة أبطال تلك الغزوة الحاسمة. فكانت معركة بدر في الشهر التاسع عشر للهجرة يوم السابع عشر من رمضان أما علي فبنى بزوجه في ذي الحجة في الشهر الثاني والعشرين من الهجرة،

وسنة يومئذ إحدى وعشرون سنة وخمسة أو ستة أشهر وعمر فاطمة خمس عشرة سنة وخمسة أو ستة أشهر كما يذكر ذلك الطبري . كانت فرحة البيت النبوي بزواج علي وفاطمة في غمرة أفراح المسلمين بالانتصار على قريش الذين لحقت بهم هزيمة منكرة واستجاب الله لدعاء النبي (ص) حينما دعا عليهم يوم أن وضع عليه عقبة ابن أبي معيط سلا الجزور وهو يصلي ساجداً عند الكعبة كما مر ذكره . وألقى أولئك النفر الذين سخروا برسول الله (ص) في بئر بدر . وقد رثاهم شاعرهم بالأبيات التالية (٦٩):

فماذا بالقلب قلب بدر	من الفتيان والقوم الكرام
وماذا بالقلب قلب بدر	من الشيزى تكلل بالسنام
أخبرنا ابن كبشة أن سنحياً	وكيف حياة أصداء وهام
إذا ما الرأس زال بمنكبيه	فقد شبع الأنيس من الطعام
أيقتلني إذا ما كنت حياً	ويحيني إذا رمت عظامي

الشاعر هنا يرثي قتلى المشركين الذين ألقى بهم في بئر بدر كما يسخر من الرسول (ص) والمسلمين وإيمانهم بالبعث والحساب بعد الموت .

ها هي فاطمة الزهراء التي شهدت يوم استهزاء قريش بأبيها تعيش فرحتين فرحة والدها ومجتمع الدولة البكر وإعزاز الله لدينه وفرحة زواجها بابن عمها علي أفضل رجل بعد أبيها وهو الذي أثبت وفاءه لرسول الله (ص) وتفانيه في سبيل الله في مواقف عديدة : المبيت على الفراش ليلة الهجرة ، وذوده عن الفواطم يوم الهجرة وقاتله المير يوم بدر . إذا كان أبو طالب حامي حمى الإسلام قبل الهجرة ، فما هو بعلمها اليوم يثبت في أول مواجهة عسكرية مع كفار قريش أنه حامي حمى الإسلام بعد الهجرة . لقد تزوجت فاطمة فخر الرجال : أخلاقاً وعلماً وشجاعة فدونه يهون كل متاع .

وفي يوم زواج علي من فاطمة أقام المسلمون من المهاجرين والأنصار حفلاً كبيراً ، فأقيمت وليمة تبرع لها المهاجرون والأنصار بالبر والسمن والبقر والغنم فتم عمل

وجبة شهية من الخبز واللحم وهي الشريد، حضرها أربعة آلاف رجل وجميع نساء المدينة، وعمّت الأفراح بني هاشم وجميع المسلمين فكانت أفراح المدينة بأسرها^(٧٠).

وليلة الزفاف أمر النبي ببغلة الشهباء وثنى عليها قطيفة وقال لفاطمة اركبي فأركبها وأمر سلمان الفارسي أن يقودها ومشى (ص) خلفها ومعه عمه الحزمة وبنو هاشم شاهرين سيوفهم. ونساء النبي (ص) وبنات عبد المطلب ونساء المهاجرين والأنصار في صحبة فاطمة يرحزن ويكبرن ويحمدن كما أمرهن الرسول (ص). ثم إن النبي (ص) بعث إلى علي ثم هتف بفاطمة، فأخذ علياً بيمينه وفاطمة بشماله وضمهما إلى صدره فقبل بين أعينهما وأخذ بيد فاطمة فوضعها في يد علي وقال: «بارك الله لك في ابنة رسول الله». وقال: «يا علي، نعم الزوجة زوجتك»، وقال: يا فاطمة نعم البعل بعلك» ثم قال لهما: «إذهبا إلى بيتكما جمع الله بينكما وأصلح بالكما». وقام يمشي بينهما حتى أدخلهما بيتهما. وقال: لا تبيجا شيئاً حتى آتيكما وجلس علي في البيت وفيه أمهات المؤمنين يفصلهن حجاب عن علي. وجلست فاطمة مع النساء حتى قدم رسول الله (ص). ثم أتى له بإناء فيه ماء فملاً فاه ثم مجه فيه. ثم قال: «إنها مني وأنا منهما اللهم كما أذهبت عني الرجس وطهرتني تطهيراً فطهرهما». ثم أمرها أن تشرب منه وتمضمض وتستنشق وتتوضأ ثم دعا بإناء آخر وصنع كالأول. وقال: اللهم إنهما أحب الخلق إليّ فأحبهما وبارك في ذريتهما واجعل عليهما منك حافظاً وإني أعيدهما بك وذريتهما من الشيطان الرجيم، ودعا لفاطمة فقال: «أذهب الله عنك الرجس وطهرك تطهيراً». وقال: «مرحباً ببحرين يلتقيان ونجمين يقتربان». وقال: «اللهم إن هذه ابنتي وأحب الخلق إليّ، وهذا أخي وأحب الخلق إليّ اللهم اجعله لك ولياً وبك حفيظاً وبارك له في أهله»، ثم قال: «يا علي ادخل بأهلك بارك الله تعالى لك ورحمة الله وبركاته عليكم إنه حميد مجيد». ثم خرج من عندهما فأخذ بعضادتي الباب فقال: «طهركما الله وطهر نسلكما أنا سلم لمن سالمكما وحرب لمن حاربكما أستودعكما الله وأستخلفه عليكما». ثم أغلق عليهما الباب بيده ولم يزل يدعو حتى توارى في حجرته ولم يشرك معها أحداً في الدعاء^(٧١). إن علياً وفاطمة هما شأمتاه من نصيره أبي طالب وخديجة، إن دعاءه

يترجم ويعبر عن حبه الكبير للزوجين والوفاء العظيم للنصيرين اللذين نذرا نفسيهما لخدمة الإسلام. ها هو رمز الخلق العظيم كما وصفه الله في محكم كتابه يسجل الله وللتاريخ حبه ووفاءه. إنه يضع للبشرية سنة في صيانة العهود وحفظ الجميل. وفي الوقت نفسه فإنه قد أوضح لمجتمع دولة النبوة في عهده وللأجيال المتعاقبة مكانة هذين الزوجين وذريتهما عنده وعند الله لما سيحملانه من مسؤولية تجاه الله وتجاه الأمة.

٤ - حياتها الزوجية وتضحياتها :

ها هي الطفلة النحيلة التي خلفتها خديجة يتيمة بيت النبوة تصبح زوجة بطل دولة النبوة، ذخيرتها الإيمان العميق بالله ورسوله، وبما جاء به من شريعة سمحاء لهداية البشرية، وكذلك أخلاقها الفاضلة وسلاحها الصبر لمواجهة مصاعب الحياة، حيث كان لتجربتها القصيرة في مكة أثر كبير في نفسها؛ إذ كانت كلها مليئة بالمتاعب والآلام. لم تجلب فاطمة الزهراء معها إلى بيت الزوجية الحقائق الملية بالملايس الفاخرة، أو المجوهرات الثمينة، أو صكوك العقارات والأموال الكثيرة، وإنما جلبت معها خلاصة خبرتها القصيرة في حياة كلها غبن واضطهاد. جاءت وذهنها مليء بأحاديث والدها ونصائحه وتوجيهاته التي كانت نعم الزاد لها لتتوير طريقها وتمكينها من التعامل مع مختلف الظروف الحياتية. جاءت وهي تتذكر قول رسول الله (ص) لها: «يا فاطمة اصبري على مرارة الدنيا لتفوزي بنعيم الآخرة»^(٧٢).

ولم تكن تستشرف بنظرها إلى ما ليس من حقها، أو تنزل إلى سؤال أحد غير ربها، بل كانت غنية بنفسها قانعة بما قسم الله لها، لأنها سمعت أباه يقول: «ليس الغنى كثرة المال إنما الغنى غنى النفس»^(٧٣).

ولم تكن تحفل بزخارف الحياة وزينتها لأنها سمعت أباه يقول: «مَنْ أصبح وهمه الدنيا شئت الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يُؤْتِه من الدنيا إلا ما كُتِبَ له، ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة»^(٧٤). وقال يوماً لعلی وفاطمة تسمعه: «يا علي، مَنْ عُرِضَتْ له دنياه وآخِرته فاختر الآخرة على الدنيا فله الجنة وَمَنْ اختار الدنيا استخفافاً بآخِرته

فله النار»^(٧٥). وسمعت أباها يقول ذات يوم: «إن ربي عز وجل عرض عليّ أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يا رب، ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرّع إليك وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمد وأثني عليك»^(٧٦).

وروت عن أبيها أنه قال: «إن الله إذا أحبَّ عبداً ابتلاه، فإن صبر احتباه وإن رضي اصطفاه»^(٧٧). وروت عنه أيضاً أنه قال: «إن الله أوحى إلى موسى بن عمران وقال له: أنا أعلم بما يصلح عبدي المؤمن فليصبرن على بلائي، وليشكر نعمائي، وليرض بقضائي أكتبه في الصديقين عندي»^(٧٨).

أحاديث والدها الشريفة وتجربتها القاسية جعلت الصبر من أبرز الصفات التي تحلّت بها، كما تعلمت من والدها السخاء لأنها سمعته (ص) يقول: «السخاء شجرة من أشجار الجنة أغصانها متدلية إلى الأرض، فمن أخذ منها غصناً قاده ذلك الغصن إلى الجنة بعيداً عن النار. وإن الله جواد يحب الجواد»^(٧٩).

وسمعت زوجها الإمام علياً (ع) يقول: «من ييسط يده بالمعروف، إذا وجده، يخلف الله له ما أنفق في دنياه ويضاعف له آخرته»^(٨٠). وروى الإمام الحسين (ع) عن أمه الزهراء عليها السلام أنها قالت: قال لي أبي رسول الله: إياك والبخل فإنه عاهة لا تكون في كريم، إياك والبخل فإنه شجرة في النار وأغصانها في الدنيا، فمن تعلق بغصن من أغصانها أدخله النار»^(٨١).

وتتأصل فيها صفات البيت النبوي يوماً بعد يوم، فقد تعلمت الكثير خلال طفولتها حينما كانت تنعم بدفء الحياة مع الأبوين، ولكنها لا تزال تكتسب الكثير من العبر من سيرة والدها العظيم وسداد رأي زوجها علي. روى الطبري عن أسماء بنت عميس أنها كانت عند فاطمة إذ دخل عليها النبي (ص) وفي عنقها قلادة من ذهب أتى بها علي بن أبي طالب (ع) من سهم صار إليه فقال لها: «يا بُنية لا تغترّي بقول الناس فاطمة بنت محمد وعليك لباس الجبارة». فقطعتها لساعتها، وباعتها ليوها، واشترت بالثمن رقبة مؤمنة فأعتقتها، فبلغ ذلك رسول الله (ص) فسر بعثتها وبارك عليها»^(٨٢).

هذه هي فاطمة بنت رسول الله الزوجة التي حملت أعباء الحياة الزوجية ، وزيّنت بيتها وجلته بذكر الله وعبادته كما زينت نفسها بأجل الصفات الحميدة بالتواضع والزهد والصبر والجود ، إلى جانب إيمانها العظيم ومعرفتها الحقيقية العميقة بشرائع الدين والقرآن والحديث . بهذه الذخيرة تولّت إدارة بيتها وتولّت استقبال الأولاد وتربيتهم تربية صارت حديث الأجيال وفخراً لدولة النبوة . حيث كان أولادها مصدر فرح وسرور وافتخار للنبي محمد (ص) طوال حياته الميمونة ، كما عبر عن ذلك في أحاديثه الشريفة في عدة مواقف . وتخرّج من حجر هذه المرأة العظيمة رجال فرض الله ورسوله محبتهم واتباع سيرتهم بل والتمسك بهم لعمق إيمانهم وقوته وغزارة علمهم وسمو أخلاقهم وتضحياتهم في سبيل الله وصاروا أعلم المسلمين جميعاً بتفسير كتاب الله وسنة رسوله (ص) . كما سيتضح لاحقاً من خلال تأكيدات رسول الله (ص) في مواقف وأحاديث عديدة . كما أن المكانة العظيمة التي نالها آل محمد لم تكن لصلتهم برسول الله (ص) فحسب ولكن لسيرتهم الطاهرة ونكران ذاتهم في سبيل الله .

كان الإمام علي (ع) يساعد الزهراء في قضاء أعمال البيت ما أمكنه ذلك مقتضياً سيرة رسول الله (ص) مع أم المؤمنين الأولى خديجة . وكان يتألم حينما يرى آثار الرحي في يدي فاطمة الزهراء الناعمتين لأنه لم يكن يملك المال ليستأجر لها من يخدمها ويخفف عنها أعباء المنزل . روى الطبري عن علي أنه قال لابن أم عبد : «ألا أحدثك عني وعن فاطمة بنت رسول الله (ص) وكانت أحب أهله إليه وكان عندي فجرت بالرحا حتى أثرت في يدها واستقت بالقربة حتى أثرت في نحرها وقمت البيت حتى اغبرت ثيابها وأصابها من ذلك ضرر فسمعنا أن رقيقاً أتى بهم إلى النبي (ص) فقلْتُ لو أتيت أباك فسألته خادماً يكفيك فأتته فوجدت عنده حدّاثاً (جماعة يتحدّثون) فاستحت فرجعت . فغدا علينا ونحن في لفاعنا (لحافنا) فجلس عند رأسها فأدخلت رأسها في اللفاع حياءً من أبيها ، فقال : ما كان حاجتك إلى محمد فسكت مرتين . فقلْتُ أنا والله أحدثك يا رسول الله ، إنَّ هذه جرّت عندي بالرحا حتى أثرت في يدها واستقت بالقربة حتى أثرت في نحرها وقمت البيت حتى اغبرت ثيابها وأوقدت القدر حتى دكنت (اتسخت واغبر لونها) ثيابها وبلغنا أنه أتاك رقيق وخدم فقلْتُ لها سليه خادماً ، فقال : ألا أدلكما على خير مما سألتما إذا أخذتما مضاجعكما

فكبرا ثلاثاً وثلاثين وسبحا ثلاثاً وثلاثين واحداً ثلاثاً وثلاثين فهو خير لكم من خادم يخدمكم» (٨٣).

وروى الطبري عن عطاء قال : «إن كانت فاطمة لتعجن وإن قصّتها (خصلة من الشعر) تكاد تضرب الجفنة» (٨٤) (القدر). وروي عن الإمام الصادق (ع) أن علياً كان يحطب ويستسقي ويكنس ، وكانت الزهراء تطحن وتعجن وتخبز وترقع (٨٥). وروى الطبري أيضاً عن أنس : «أن بلالاً أبطأ عن صلاة الصبح فقال له النبي (ص) : ما حسبك؟ قال مررت بفاطمة تطحن والصبئي يبكي فقلْتُ لها : إن شئت كفيْتُكِ الرحا وكفيتني الصبي وإن شئت كفيْتُكِ الصبي وكفيتني الرحا . فقالت : أنا أرفق بابني منك فذاك الذي حبسني . قال : فرحمها رَحِمَ اللهُ» (٨٦). وروى الذهبي عن أبي البخري قال : قال علي لأمة : «اكفي فاطمة الخدمة خارجاً وتكفيكِ هي العمل في البيت ، والعجن والخبز والطحن» (٨٧).

هذا هو نموذج الحياة الذي اختارته فاطمة الزهراء وعاشت قاعة قريرة العين طالما أنها ضمنت سعادة زوجها وبنيتها وكذلك رضا الله ووالدها فمن أجل ذلك تهون كل آلامها ومعاناتها . ولم يقتصر الأمر في معاناتها على التعب الجسمي إنما تعدّى ذلك إلى لقمة العيش التي لم تكن تتوفّر بشكل دائم ، ومع ذلك فقد عاشت راضية . روى الطبري عن أسماء بنت عميس عن فاطمة بنت رسول الله (ص) : «أن رسول الله (ص) أتاه يوماً فقال : أين ابنائي يعني حسناً وحسيناً؟ قالت : قلْتُ أصبحنا وليس في بيتنا شيء يذوقه ذائق فقال علي : أذهب بهما فإني أتحوّف أن يبكي عليك وليس عندك شيء . فذهب بهما إلى فلان اليهودي . فوجّه إليه رسول الله (ص) فوجداهما يلعبان في مشربة (غرفة) بين أيديهما فضل من تمر فقال : يا علي ألا تقلب ابني (تراجعهما) قبل أن يشتد الحر عليهما؟ قال : فقال علي : أصبحنا وليس في بيتنا شيء فلو جلست يارسول الله حتى أجمع لفاطمة تمرات فجلس رسول الله (ص) وهو ينزع لليهودي كل دلو بتمرة حتى اجتمع له شيء من تمر فجعله في حجّزته . ثم أقبل فحمل رسول الله (ص) أحدهما وحمل علي الآخر عليهم السلام» (٨٨).

هذا هو نبيّ الأمة وقائدها ومبلّغ رسالة السماء إلى البشرية يراقب عن كثب حياة الأسرة التي أعرضت عن الدنيا ومفاتها لتكون أهلاً للتربية النموذجية للأمة ، ولتكون أهلاً للقيادة والنموذج لدولة النبوة بعد النبي (ص) ، ولتكون نبراساً يقتدي بسيرتها المؤمنون والمحرومون والمستضعفون من أجيال البشرية وعبر تعاقب العصور.

كانت هذه الأسرة كلها تضحيات . فكأنما الله ورسوله أراد لهذه الأسرة أن تكون نموذجاً لحياة الأسرة وبنائها في دولة النبوة . كأن الرسول (ص) يخاطب نساء العالم من خلال حوار مع فاطمة بشأن تحمل أعباء الحياة والاستعاضة عن الخادمة بذكر الله ، وكأنه (ص) يخاطب الزوجين ، في كل زمان ، بتربية أبنائهم على بساطة العيش والبعد عن الترف . وهما الحسنان يتحملان حياة الكفاف برضا ويتعودان القناعة في العيش بأبسط الأشياء مقتفين سيرة جدهما ووالديهما .

روى الطبري عن أبي سعيد قال : « قال [كذا] علي (ع) ذات يوم فقال : يا فاطمة ، هل عندك من شيء تغدينه ؟ قالت : لا والذي أكرم أبي بالنبوة ما أصبح عندي شيء أغديكه ولا أكلنا بعدك شيئاً ولا كان لنا شيء بعدك منذ يومين إلا شيء أوثرك به على بطني وعلى ابني هذين . قال : يا فاطمة ألا أعلمتيني حتى أبغيكم شيئاً ؟ قالت : إني أستحي من الله أن أكلفك ما لا تقدر عليه . فخرج من عندها واثقاً بالله ، حسن الظن به ، فاستقرض ديناراً . فبينما الدينار في يده أراد أن يتنازع لهم ما يصلح لهم إذ عرض له المقداد في يوم شديد الحر قد لوّحته (٨٩) الشمس من فوقه وأذته من تحته . فلما رآه أنكره فقال : يا مقداد ما أزعجك من رحلك هذه الساعة ؟ قال : يا أبا الحسن ، خلّ سبيلي ولا تسألني عما ورائي . وقال : يا ابن أخي ، إنه لا يحلّ لك أن تكتمني حالك . قال : أما إذا أبيت فوالذي أكرم محمداً بالنبوة ما أزعجني من رحلي إلا الجهد ، ولقد تركت أهلي ييكون جوعاً . فلما سمعت بكاء العيال لم تحملني الأرض فخرجت مغموراً ، راكباً رأسي ، فهذه حالتي وقصتي ، فهملت عينا علي بالبكاء حتى بلغت دموعي لحيتي . ثم قال : أحلف بالذي حلفت به ما أزعجني غير الذي أزعجك ، ولقد اقترضت ديناراً فهاك : وأوثرك به على نفسي فدفعت له الدينار ورجع حتى دخل على النبي (ص) فصلى الظهر والعصر والمغرب فلما قضى النبي (ص) صلاة المغرب مر بعلي في الصف الأول فغمزه برجله فسار خلف النبي (ص) حتى لحقه عند باب المسجد ثم قال يا أبا حسن ، هل عندك شيء تعشينا به ؟ فأطرق علي ولم يجر جواباً حياءً من النبي (ص) . قد عرف الحال الذي خرج عليها . فقال له النبي (ص) : إما أن تقول لا فنصرف عنك أو نعم فنجيء معك . فقال له : حباً وتكريماً فاذهب بنا ، وكأن الله سبحانه وتعالى قد

أوحى إلى نبيه (ص) أن تعشَى عندهم ، فأخذ النبي (ص) بيده فانطلقا حتى دخلا على فاطمة (ع) في مصلاًها وخلفها جفنة تفور دُخاناً . فلما سمعت كلام النبي (ص) خرجت من المصلى فسلمت عليه وكانت أعزَّ الناس عليه فردَّ عليها السلام ، ومسح على رأسها ، وقال : كيف أمسيت ؟ عشينا غفر الله لك ، وقد فعل . فأخذت الجفنة فوضعتها بين يديه . فلما نظر علي وشم ريحه رمى فاطمة ببصره رميا شحيحاً^(٩٠) فقالت : ما أشحَّ نظرك وأشدَّه ! سبحان الله هل أذنبت فيما بيني وبينك ما أستوجبُ به السخطة ؟ قال : وأيُّ ذنب أعظم من ذنب أصبته اليوم ؟ أليس عهدي بك اليوم وأنتِ تحلفين بالله مجتهدة ما طعمت طعاماً يومين ؟ فنظرت إلى السماء فقالت : إلهي يعلم ما في سمائه ويعلم ما في أرضه ، إني لم أقل إلاَّ حقاً . قال : أتى لك هذا الذي لم أر مثله ولم أشم مثل رائحته ولم أكل أطيب منه ؟ فوضع النبي (ص) كفَّه المباركة بين كتفي علي ثم هزَّها وقال : «يا علي هذا ثواب الدينار ، وهذا جزاء الدينار . هدامن عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب» .

ثم استعبر^(٩١) النبي (ص) باكياً ، وقال : الحمد لله كما لم يخرجكما من الدنيا حتى يجريك في المجرى الذي أجرى فيه زكريا ، ويجريك يا فاطمة المجرى الذي أجرى فيه مريم كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال : يا مريم أتى لكِ هذا^(٩٢) .

إن هذه الرواية توضح حالة التقشف التي كانت تحياها هذه الأسرة النبوية العظيمة ، وتوضح أيضاً سمو الأخلاق عند الزوجين ، فبالنسبة لعلي أثر المقداد وأسرته ، وفرج عن ضائقته بإعطائه الدينار الذي كانت أسرته بأمس الحاجة إليه ، وأوكل أمر أسرته إلى الله وذهب إلى المسجد لتأدية صلواته متوكلاً على الله في تفريع ضيقه .

فكيف ينسأه الله وينسى أسرته والرسول (ص) يقول : ﴿والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه﴾ . كما أن علياً رَحَّب برسول الله لتناول العشاء مع علمه بخلو البيت من أي طعام . لذلك فإن المائدة التي نزلت عليهم هي مكرمة من الله لرسوله وللزوجين ، فلم يُرد الله أن يخرجهما أو يمجلهما مع النبي (ص) وقد وكلا أمرهما إلى الخالق .

أما بالنسبة لفاطمة فكانت في منتهى الأدب والصراحة مع زوجها فكانت صادقة القول، وخاطبت زوجها باحترام وأدب وهو يستفسر باستغراب عن وجود المائدة.

هكذا كانت كرامة الزوجين وآل رسول الله عند الله. لقد كانت حياة هذين الزوجين العظيمين وسيرتهما دروساً وعبراً وتربية ليس للأسرة المسلمة فقط وإنما لكل أسر العالم على مدى العصور.

إذا كانت هذه الرواية تعطي نموذجاً لإيثار علي أسرة المقداد على آل رسول الله، فكذلك فعلت فاطمة الزهراء في مواقف عديدة منها أن جماعة رووا عن عاصم بن كليب عن أبيه - واللفظ له - عن أبي هريرة أنه (٩٣).

«جاء رجل إلى رسول الله (ص) فشكا إليه الجوع، فبعث رسول الله (ص) إلى أزواجه فقلن: ما عندهنّ إلا الماء، فقال (ص): من لهذا الرجل الليلة؟ فقال علي: أنا يارسول الله، فأتى فاطمة وسألها: ما عندك يا بنت رسول الله؟ فقالت: ما عندنا إلا قوت الصبية، لكننا نؤثر ضيفنا به، فقال علي: يا بنت محمد (ص) نومي الصبية وأطفئي المصباح، وجعلا يمضغان بألستهما. فلما فرغ من الأكل أتت فاطمة بسراج فوجدت الجفنة مملوءة من فضل الله. فلما أصبح صلى مع النبي (ص)، فلما سلّم النبي (ص) من صلاته نظر إلى علي وبكى شديداً، وقال: «يا أمير المؤمنين لقد عجب الربّ من فعلكم البارحة، اقرأ ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه﴾ (٩٥) فأولئك هم المفلحون» (٩٦).

ليس غريباً أن يحرم أفراد العترة أنفسهم من سد الرق حتى الأطفال فهم نتاج تربية النبوة الذين يباهي الرسول (ص) بسيرتهم البشرية عبر تاريخها. إن سيرة آل رسول الله (ص) تعتبر ترجمة أصيلة لسيرة الرسول (ص) قولاً وفعلًا، ولم يبلغ أحد من المسلمين، بمن فيهم جميع الصحابة، أن يلتزم بمثل ما التزمت به العترة النبوية من اتباع لخطى الرسول (ص). وما نزول آية التطهير (٩٧) وآية المباهلة (٩٨) إلا تأكيداً لدور العترة المميز الذي هيأهم الله كي يقوموا به لأنهم نموذج الرسالة النبوية الذي يجب أن يقتدي به المسلمون في حياتهم بعد رسول الله (ص).

روى أحدهم أن علياً أصابه وعائلته الجوع، يوماً، فلم يجدوا في البيت شيئاً يأكلونه. فخرج علي ليعمل في سبيل كسب القوت، وأجر نفسه ليلة يسقي نخلاً

بشيء من شعر حتى أصبح واستلم الشعر، وطحنوا ثلثه فجعلوا منه شيئاً لياكلوه ويقال له الحرية. فلما تم نضجه أتى يتيماً يرجو طعاماً فأطعموه، وطووا يومهم ذلك دون طعام^(١٠٩). فنزلت هذه الآية^(١٠٠):

﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾.

هذه هي سيرة النماذج الرسالية التي أعدها الله ورسوله لقيادة دولة النبوة. وروت فاطمة الزهراء عما كانت تعانيه من متاعب جسدية نتيجة خدمة أسرتها فقالت: «لقد حجلت^(١٠١) يداي من الرحي، أطحن مرة وأعجن مرة^(١٠٢)».

هكذا كانت حياة فاطمة الزهراء الزوجية كلها تعب ونصب وزهد وتقشف. وكان دأبها الصبر، فلم يحدث أي من أرباب السير أنها تضايقت يوماً من تلك الحياة الخشنة القاسية. وإن ذهابها لوالدها لطلب الخادمة، لم يكن من وحي إرادتها وإنما تنفيذاً لرغبة زوجها علي لشقيقته عليها مما حل بجسدها من أضرار بسبب خدمة البيت. وحينما نصحتها والدها بالتسبيح وذكر الله اعتبرت ذلك خير معين لها عن اقتناع وطيب خاطر لتقدم للبشرية درساً من دروس النبوة للمرأة وكيفية صمودها لاستقبال الحياة، والتكيف معها مهما كانت قسوتها. هذه حياة بنت النبي وقائد الأمة وزوجة البطل وأم السبطين: الحسن والحسين.

لقد وجدت فاطمة الزهراء، بعد قدوم الأولاد عليها، سلوة ومتعة تخفف عنها شظف العيش وقسوة الحياة التي كانت تعيشها. ولم يكن أولادها مصدر سلوة ومتعة لها ولزوجها وحدهما إنما كان أولادها مصدر سرور وبهجة وراحة لوالدها محمد (ص) الذي حُرِم من الولد، فجعل نسله في ذريتهما الطاهرة.

فقد ولد الحسن ليلة النصف من رمضان في السنة الثالثة للهجرة^(١٠٣) كما ولد الحسين في الثالث من شعبان السنة الرابعة للهجرة، وتلتها زينب الكبرى بطلة كربلاء، ثم زينب الصغرى المكناة بأم كلثوم^(١٠٤). وجاء في أسد الغابة أن النبي سمى المولود الأول لعلي وفاطمة الحسن. ولم يكن يعرف هذا الاسم في الجاهلية^(١٠٥). وقال النبي (ص)، في أول استقباله لهذا المولود: «اللهم إني أعيدُهُ بك وولده من الشيطان الرجيم وأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى^(١٠٦)». وعن

الزبير بن بكار في كتاب أنساب قريش ، أن رسول الله (ص) سمى حسنا وحسينا يوم سابعهما واشتق إسم حسين من إسم حسن^(١٠٧). وفي اليوم السابع لولادة الحسن عق عنه بكبش ، وأمر فاطمة أن تحلق رأسه وتتصدق بوزن شعره فضة فامتثلت لما أمرها به .

وكذلك فعلت بأخيه الحسين^(١٠٨) . وصارت العقيقة والتصدق بوزن الشعر سنة مستمرة إلى اليوم عند بعض المسلمين . وعلى الرغم من حب النبي (ص) المفرط لهما إلا أنه حرص على أن يراعي في تربيتهما البساطة وإبعادهما عن أي نوع من أنواع الترف والبذخ . فقد شاركا والديهما حياة الزهد والتقشف والحرمان أحيانا كثيرة ، بل وآلام الجوع أحيانا أخرى ، كما مر سابقاً في القصص المروية .

روى الطبري عن ثوبان قال : «قدم رسول الله (ص) من غزوة له ، فأتى فاطمة فإذا هو يمسح على بابها ورأى على الحسن والحسين قلبين (سوارين) من فضة فرجع رسول الله (ص) ، فلما رأت فاطمة ذلك ظنت أنه لم يدخل عليها من أجل ما رأى فهتكت الست ونزعت القلبين من الصبيين فقطعتهما ، فبكى الصبيان فقسمته بينهما ، فانطلقا إلى رسول الله (ص) وهما يبكيان ، فأخذه رسول الله (ص) منهما فقال : يا ثوبان إذهب بهذا إلى بني فلان - من أهل بيت في المدينة - فاشتر لفاطمة قلادة من عصب وسوارين من عاج ، فإن هؤلاء أهل بيتي ولا أحب أن يذهبوا طياتهم في حياتهم الدنيا^(١٠٩)» .

هكذا كان الرسول (ص) الأب والمربي والمعلم ، فكانت فاطمة الزهراء تشعر من خلال ملامح وجهه الكريم رضاه وغضبه ، وتعمل مع أولادها ما يدخل السرور على نفسه فنشأ أولادها متخلقين بأخلاق النبوة التي كانت منهلاً لكل من تخرج من هذا البيت ونشأ فيه . من هنا حق لله ورسوله ودولة النبوة إتخاذ العترة الطاهرة الأنموذج وجعلهم حبل الله وطريق هدايته .

٥ - منزلة فاطمة عند الله ورسوله :

كان لفاطمة الزهراء منزلة عند رسول الله (ص) منذ طفولتها لم تبلغها أي من بناته . واشتد تعلقه بها بعد رحيل أمها خديجة ، ولزمت دور أمها وهي طفلة فكنت بأم أبيها . وازداد حب النبي (ص) لها بعد زواجها من علي أقرب الناس إليه ، وبعد إنجابها السبطين اللذين أحبهما وتعلق بهما ، وكان لا يمل منهما ولا يؤد فراقهما .

رُوى عن عائشة (ر) قالت: «ما رأيتُ أحداً أشبه سُمتاً وهدياً ودُلاً - وفي رواية حديثاً وكلاماً برسول الله (ص) من فاطمة، كانت إذا دخلت عليه قام إليها فأخذ بيدها وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها قامت إليه فأخذت بيده فقَبَلته وأجلسته في مجلسها» (١١٠).

وعن جُميع بن عمير دخلت عائشة (ر) فقُلْتُ: مَنْ كان أحبَّ الناس إلى رسول الله (ص)؟ قالت: فاطمة. قلْتُ: «إنما أسألك عن الرجال؟». قالت: زوجها. وما يمنعه، فوالله أن كان لصِوْأما قِوْأما. ولقد سألت نفس رسول الله (ص) في يده فردَّها إلى فيه. قلْتُ: «ما حملك على ما كان؟» (١١١) فأرسلت خمارها على وجهها وبكت وقالت: «أمرٌ قضي عليّ» (١١٢).

لا غرابة إذن في حب الرسول (ص) لهذين الزوجين، فكلاهما تخرَّج من مدرسته وربَّاهما وصاغ شخصية كل منها. إنها مرآة حقيقية للبيت النبوي. ومن الطبيعي أن تنتقل تلك المحبة إلى نسلها الذي يعتبر نسله.

وذكر الكبداني عن المستور بن مخزومة أن رسول الله (ص) قال: «فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني». وفي رواية «يُريني ما أراها ويُؤذيني ما آذاها» (١١٣).

وقد قال الرسول (ص) هذا الحديث في مكانة فاطمة ومنزلتها العظيمة عنده في مواقف عديدة ليبين للمسلمين مرتبتها العالية عند الله لتضحياتها في سبيله. وليس من شك في أن مَنْ يغضب النبي فكأنها يغضب الله ومَنْ يؤذي النبي فكأنها تؤذي الله. ومَنْ يغضب الله ويُؤذيه فإن مصيره معروف عند جميع الخلق.

وأخرج الطبراني أن النبي (ص) قال: «كل بني أُنثى يتمون إلى عصبتهم إلا ولد فاطمة فإنني أنا وليُّهم وأنا عصبتهم وأنا أبوهم» (١١٤).

وجاء في منزلتها، أيضاً، أخرج أحمد والحاكم عن المستور بن مخزومة أن النبي (ص) قال: «فاطمة بضعة مني يغضبني ما يغضبها ويبسطني ما يبسطها وأن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسببي وصهري» (١١٥).

وعن منزلة كل من فاطمة وعلي، عند رسول الله (ص) روى ابن حجر عن أبي هريرة أن النبي (ص) قال لعلي: «فاطمة أحبُّ إليَّ منك وأنت أعزُّ علي منها» (١١٦). وروى الطبري عن ابن عباس (ر) قال: لما نزلت ﴿... قل لا أسألكم عليه أجراً إلا

المودة في القربى . . . ﴿١١٧﴾. قالوا: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وَجَّبت علينا مودتهم؟ قال: «علي وفاطمة وابناهما» (١١٨). ورُوي أنه (ص) قال: «إن الله جعل أجري عليكم المودة في أهل بيتي، وإني سائلكم غداً عنهم» (١١٩).

وروي الطبري، عن زيد بن أرقم، في منزلة أهل بيت رسول الله (ص) أيضاً أن رسول الله (ص) قال لعلي وفاطمة والحسن والحسين: «أنا حربٌ لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم» (١٢٠).

إن الأحاديث المذكورة دلت بما لا يدعُ مجالاً للشك أن آل رسول الله (ص) هم علي وفاطمة وبنوهما وأن أجره على أمته نتيجة تحمله المصاعب في سبيل نشر رسالة الإسلام وهدايتهم حُبَّ آلِه والاقتداء بهم فهم نسله وثمرة نضاله والأحق بالاتباع لتخلُّقهم بأخلاقه ونهلهم من علمه، وهم الأعلام بدقائق الأمور بالشرعية التي جاء بها من عند الله، فهم المؤمنون على وحي الله وشرعية الساء بعده. ولم يكتف النبي (ص) بهذه الأحاديث التي اقتبس المؤلف نموذجاً محدوداً منها للتوضيح، بل إن رسول الله (ص) واصل طوال فترة حياته استغلال كل مناسبة ليعين لمجتمع دولته البكر آنذاك منزلة آلِه عنده وعند الله، وأن أحاديث المنزلة هي بوحي من الله وليس باجتهد ذاتي منه، كما توضح آية المودة التي ورد ذكرها سابقاً.

وهناك عشرات الأحاديث النبوية التي تحدث عن منزلة الزهراء ومكانتها العالية عند الله ورسوله ويمكن الاكتفاء ببعضها للتوضيح كما تتطلبه الدراسة.

عن حذيفة قال: قلتُ لأُمِّي: دعيني آتي النبي (ص) فأصلي معه المغرب وأسأله أن يستغفر لي ولك. فأتيتُ النبي (ص) فصليتُ معه المغرب، فصلى حتى صلى العشاء ثم انفتل فتبعته فسمع صوتي فقال: مَنْ هذا حذيفة؟ قلت: نعم. قال: «ما حاجتك غفر الله لك ولأمك؟ إن هذا ملك لم ينزل إلى الأرض قط قبل هذه الليلة استأذن ربه أن يسلم عليّ ويبشرني بأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، وأن الحسن والحسين سيदा شباب أهل الجنة» (١٢١).

وعن تعلق الرسول بسبطيه: الحسن والحسين روى: عن أسامة بن زيد بن حارثة، قال: «طرفت رسول الله (ص) ليلة لبعض الحاجة، فخرج وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو، فلما فرغت من حاجتي قلت: ما هذا الذي أنت مشتمل عليه؟ فكشفه، فإذا هو الحسن والحسين على وركيه، فقال: هذان ابناي وابنا

بتي ، اللهم إنك تعلم أني أحبهما فأحبهما» (١٢٢).

هكذا كان تعلق الرسول (ص) بابنته وريحانتيه من الدنيا الحسنيين . فكان لا يصبر عن رؤيتهم ولا يطيق بعداً عنهم ، وكان يطيل الجلوس في بيت فاطمة يخفف عنها هموم الحياة بمواساته خلال زيارته المتكررة ، ويطمئن على أحوالها . وكانت تجد في هذه الزيارات خير معين لها وخير سلوان .

روى الطبري عن ثوبان قال : كان رسول الله (ص) ، إذا سافر آخر عهده إتيان فاطمة وأول من يدخل عليه إذا قدم فاطمة «عليها السلام» (١٢٣) وروى الطبري أيضاً ، عن ثعلبة قال : «كان رسول الله (ص) إذا قدم من غزو أو سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم أتى فاطمة ، ثم أتى أزواجه» (١٢٤) .

دلل رسول الله (ص) ، بهذا الوصال المستمر لابنته وسبطيه أنه لا يعادهم أحد من الخلق عنده فهم في أعلى المراتب حباً وتقديراً وعلو منزلة . وكان يتعرض أحياناً لعتاب بعض أزواجه لتفضيل ابنته وأبنائها عليهن فكان يبر ذلك أن فاطمة لا يعادل حبها أحد عنده بقوله : «أحبُّ أهلي إليَّ فاطمة» (١٢٥) .

وجاء عن علي بن أبي طالب (ع) أن رسول الله (ص) قال :

«يا فاطمة ، ان الله عز وجل يغضب لغضبك ويرضى لرضاك» (١٢٦) .

ان هذه الدرجة ، التي بلغت بنت رسول الله ، ليس لقربتها من رسول الله ، ولكن لتفانيها في ذات الله بأعمالها الصالحة بحرمانها نفسها وبنيتها حتى من لقمة العيش وتقديمها للبائسين ، فعلو منزلتها عند والدها بسبب رضا الله عنها وعلو منزلتها عنده ، وكذلك لقناعتها وزهدا ورضاها بحياة التقشف التي قبلتها عن طيب خاطر في بيت الزوجية ، فالنبي (ص) يقدمها للبشرية من خلال مجتمع دولته البكر على أساس أنها البنت المثالية والزوجة المثالية والأم المثالية لدولة النبوة بعد شريكته في النضال أم المؤمنين الاولى خديجة .

ومن علو منزلة فاطمة وولديها الحسن والحسين وبعلمها علي ان الله اصطفاها دون خلقه ، وطهرهم من الدنس وعصمهم من الخطأ كرامة على زهدهم وصبرهم وصدق إيمانهم وتضحياتهم ، في سبيل الله كما توضح ذلك آية التطهير . أخرج ابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخدري قال : كان يوم أم سلمة أم المؤمنين فنزل

جبريل على رسول الله (ص) بهذه الآية : ﴿... إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ (١٢٧) فدعا رسول الله (ص) بحسن وحسين وفاطمة وعلي فضمهم إليه ونشر عليه الثوب ، والحجاب على أم سلمة مضروب ، ثم قال : «اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا» . قالت أم سلمة : فأنا معهم يا نبي الله ؟ فقال : أنت على مكانك وإنك على خير (١٢٨) . وروى الطبري عن أنس بن مالك (ر) أن رسول الله (ص) كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر ويقول : الصلاة يا أهل البيت : ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ (١٢٩) .

وروى الطبري ، أيضاً ، عن أبي الحمراء قال : «صحب رسول الله (ص) تسعة أشهر ، فكان إذا أصبح أتى على باب علي وفاطمة ، وهو يقول : یرحمکم الله : ﴿إنما يريد الله...﴾ الآية (١٣٠) .

لقد أوضح الله ورسوله تعريف أهل البيت ، وهم الذين خصّهم بالطهارة في حديث الكساء وآية التطهير ، فالقرآن الكريم والسنة النبوية كلاهما أكد طهارة أهل البيت ، وهم آل رسول الله الذين لم يشرك معهم أحدا . ومعنى ذلك أن درجتهم لم يصل إليها أحد لا من زوجات الرسول (ص) ولا من صحابته . لأن مرتبة جهادهم وإيمانهم لم يصل إليها أحد ، فهم يلون رسول الله (ص) مباشرة في الامتثال لأوامر الله والابتعاد عن نواهيه ، وأنهم خير من يمثل رسول الله (ص) في حياته وبعد مماته . وقد سمّي الحديث الذي تزامن مع آية التطهير حديث الكساء لأن النبي (ص) وآله تغطوا بغطاء واحد وعددهم خمسة : النبي وفاطمة وعلي والسبتين ، فأكد بأن الآل هم الأربعة الذين كانوا مع النبي تحت الكساء في بيت أم سلمة (ر) (١٣١) .

وفي رواية لابن حجر أن رسول الله (ص) قال بعد تطهير (كذا) حينما كان الخمسة متغطين بالكساء في بيت زوجته أم سلمة (ر) : «أنا حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم وعدو لمن عاداهم» (١٣٢) وفي رواية أخرى ، القى عليهم كساء ووضع يده عليهم ثم قال : «اللهم ان هؤلاء آل محمد فاجعل صلاتك وبركاتك على آل محمد إنك حميد مجيد» (١٣٣) ودليل آخر على كرامتهم أن الله ، سبحانه وتعالى ، استجاب لدعاء رسوله (ص) المذكور آنفاً خلال تواجدهم تحت الكساء بأن الله وملائكته يصلون على النبي ويكلف المؤمنين بالصلاة عليهم أيضاً بقوله تعالى : ﴿ان الله

وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴿١٣٤﴾ .

روى ابن حجر قال: صحيح، عن كعب بن هجرة قال: «لما نزلت هذه الآية قلنا: يا رسول الله، قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك؟ فقال: «قولوا، اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، انك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم انك حميد مجيد» ﴿١٣٥﴾ .

ويروى أن النبي (ص) قال: لا تصلوا عليَّ الصلاة البتراء. فقالوا: وما الصلاة البتراء؟ قال تقولون: «اللهم صل على محمد، وتمسكون. بل قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد» ﴿١٣٦﴾ .

بهذه الصورة كان النبي (ص) يبرز مكانة آله - عنده وعند الله - للمسلمين، ولم يكن ذلك عبثاً بل إنما يقوم بذلك ليوضح للمسلمين المهمة التي ستلقى على عاتق الآل وهم عترته من بعده، وهي قيادة الأمة في شؤون دينها ودنياها، لأنهم الخيرة والصفوة الإلهية والنبوية في الخلق، وهناك آيات عديدة نزلت لتعريف المسلمين أهمية فضل أهل البيت عند الله وأهمية أتباعهم والتمسك بسيرتهم منها قوله تعالى: ﴿سلام على آل ياسين﴾ ﴿١٣٧﴾ وقد نقل جماعة من المفسرين عن ابن عباس (ر) أن المراد بذلك سلام على آل محمد (ص) و (كذا)، قاله الكلبي ﴿١٣٨﴾ . وقوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا...﴾ ﴿١٣٩﴾ أخرج الثعلبي في تفسيرها عن جعفر الصادق (ع) أنه قال: «نحن حبل الله الذي قال الله فيه: ﴿واعتصموا...﴾ الآية» ﴿١٤٠﴾ .

وجاء، من طرق عديدة كما يروي ابن حجر، يقوي بعضها بعضاً أن رسول الله (ص) قال: «إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثّل سفينة نوح من ركبها نجا». وفي رواية مسلم «ومن تخلف عنها غرق». وفي رواية «هلك»، «وإنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة في بني إسرائيل من دخله غفر له»، وفي رواية «غفر له الذنوب» ﴿١٤١﴾ .

بهذا الوضوح وهذا التأكيد بيّن رسول الله (ص) للأمة مكانة أهل بيته عند الله، وقدمهم للمجتمع الإسلامي الصغير آنذاك وفي دولته البكر على أن اتباع سيرتهم

والتمسك بهم كاهمية سفينة نوح في الطوفان الذي عصف بكل شيء، فكانت تلك السفينة هي وسيلة النجاة الوحيدة، كما شبههم بباب حطة في بني إسرائيل وأنه المدخل الوحيد لمن أراد المغفرة. وهنا يأتي التأكيد أيضاً على اتباع سيرتهم ومودتهم لأنها الطريق إلى رضا الله وغفرانه. وجاء أيضاً في قوله تعالى: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ (١٤٢). قال ثابت البناني. اهتدى إلى ولاية أهل بيته (ص). وجاء ذلك عن أبي جعفر الباقر أيضاً (١٤٣).

وأخرج الدليمي مرفوعاً «إنما سميت ابنتي فاطمة لأن الله فطمها ومحبيها عن النار» (١٤٤).

كذلك من الأدلة التي أثبت الرسول (ص) فيها للمسلمين علو درجة أهل البيت - أصحاب الكساء عند الله ورسوله نزول آية المباهلة من سورة آل عمران، وذلك في السنة العاشرة للهجرة حينما قدم لزيارة النبي في المدينة وفد من اليمن من نصارى نجران للتحاور معه، فنزلت آية المباهلة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ: تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (١٤٥) قال الرازي في تفسيره: «أجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت عند حضور وفد نجران عند الرسول (ص)» (١٤٦).

وقال الواحدي في أسباب النزول، قال المفسرون:

«قدم وفد نجران، وكانوا ستين راكباً على رسول الله (ص)، وفيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم وفي الأربعة عشر ثلاثة نفر اليهم يؤول أمرهم. فالتعاقب أمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح، والسيد أمامهم وصاحب رحلهم واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أسقفهم وحبيرهم وأمامهم وصاحب مدارسهم، وكان قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه في دينهم وكان ملوك الروم قد شرفوه ومولوه وبنوا له الكنائس لعلمه

واجتهاده . فقدموا على رسول الله (ص) ودخلوا مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الخبرات جبات وأردية في جمال رجال الحارث بن كعب . يقول بعض من رآهم من أصحاب رسول الله (ص) : «ما رأينا وفدا مثلهم» ، وقد حانت صلاتهم فقاموا فصلوا في مسجد رسول الله (ص) . فقال رسول الله (ص) دعوهم . فصلوا إلى المشرق فكلّم السيد والعاقب رسول الله (ص) فقال لهما اسلما فقالا: قد اسلمنا قبلك قال منعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير: قالا: ان لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه وخاصموه جميعاً في عيسى ، ثم روى انهما قالا للنبي (ص) ما تقول في عيسى؟ فسكت . ونزل القرآن وفيه : ﴿ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ إلى قوله ﴿قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم .﴾ الآية .

فدعاهما رسول الله إلى الملاعة» (١٤٧)

وقال ابن الأثير في يوم المباهلة : «وأما نصارى نجران فإنهم أرسلوا العاقب والسيد في نفر إلى رسول الله (ص) ، وأرادوا مباہلته فخرج ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين ، فلما رأوهم قالوا : هذه وجوه لو أقسمت على الله أن يزيل الجبال لأزالها . ولم يباهلوه وصالحوه على ألفي حلة ثمن كل حلة أربعون درهماً وعلى أن يضيفوا رسله ، وجعل لهم ذمة الله تعالى وعهده أن لا يفتنوا عن دينهم ولا يعشروا وشرط عليهم ان لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به» (١٤٨) .

لقد أوضحت آية المباهلة ومناسبة نزولها مكان آل رسول الله عند الله ورسوله وعند وفد النصارى . ان اختيار الوفد النبوي جاء بوحي من السماء ففاطمة ابنته أحب النساء إلى قلبه وأقربهم إليه والسبطان هما قرّة عينيه وابنيه وعلي أقرب الخلق إليه فهو نفسه . ان الألفاظ القرآنية تمثل مكانة هؤلاء الأربعة - أهل بيت الرسول - بصدق في قلب رسول الله (ص) لاختلاصهم وانقيادهم المطلق لله ولرسوله ، ولذلك رهب منهم أفراد وفد نصارى نجران ، وتخلوا عن المباهلة حينما استقرأوا من وجوههم مكانتهم العظمى عند الله . فحديث الكساء وآية المباهلة دليلان واضحيان لا يرقى إليهما الشك على أن الأربعة هم آل رسول الله فقط . هذه نبذة موجزة عن منزلة فاطمة الزهراء وبعليها وبنيتها عند الله ورسوله . وقد أظهر الله ورسوله لمجتمع دولة

النبوة مظهراً من مظاهر تلك المنزلّة في حياة الرسول (ص) لإلقاء الحجّة على الأمة الإسلامية بعد رسول الله وكيف سيخلفونه في أهل بيته الذين أعزهم الله ورفع شأنهم .

٦ - فاطمة الزهراء والغزوات :

تعتبر غزوة أحد من الغزوات التي لم تلحق بالمسلمين هزيمة مثلها ، فقد استشهد من المسلمين واحد وثلاثون مقاتلاً ، وأوشك النبي على الهلاك . وخرجت أربع عشرة امرأة لمساعدة المقاتلين وتوفير الطعام لهم والماء وتضميد جراحهم . فشاركت فاطمة الزهراء في تضميد جراح (١٤٩) والدها ، كما مر في المقدمة .

وحينما عاد علي إلى بيته بعد أن دافع عن حياة رسول الله (ص) ، وأنجاه الله من الهلاك ناول فاطمة السيف واتشدها بيتي شعر وهما (١٥٠) :

أفاطم هاك السيف غير ذميم فلستُ برعديد ولا بلثيم
لعمري لقد جاهدتُ في نصر أحمد وطاعة رب بالعباد رحيم

يتباهى علي في هذين البيتين أمام زوجته ، بشجاعته وجهاده بين يدي رسول الله (ص) ، حيث أرضى الله تعالى بنضاله وانقاذ رسوله من كيد المشركين .

وفي غزوة الخندق روى علي عن جزء من مساهمتها فقال : كنا مع النبي (ص) في حفر الخندق إذ جاءته فاطمة بكسرة من خبز فرفعتها إليه فقال : «ما هذه يا فاطمة؟ قالت : من قرص اختبزته لابني وجئتُك منه بهذه الكسرة» .

فقال : يا بنية أما إنها لأول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث (١٥١) . وهذا يعكس مدى المعاناة التي عاشها المسلمون وشاركهم فيها النبي (ص) خلال حفر الخندق ليحموا المدينة من دخول جيش المشركين .

وفي فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة شاركت فاطمة الزهراء زوجها ووالدها ، جيش دولة النبوة العظيم أفراح انتصاراته وهو يدخل مكة فاتحاً ومنهياً بذلك مقاومة قريش لدولة النبوة ومؤسسها محمد (ص) . كان النبي (ص) قد وقع مع قريش عهداً ينظم العلاقات بين دولة النبوة وقريش ، وذلك في شهر ذي القعدة في السنة السادسة للهجرة وكان علي بن أبي طالب هو كاتب صحيفة ذلك العهد . وسمّي

ذلك العهد صلح الحديبية نسبة إلى المكان ، وهو بئر قريب من مكة . وقد أنابت قريش في هذا الصلح سهيل بن عمرو . وجاء في تلك الصحيفة (١٥٢) :

«هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . اصطلحنا على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمد من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم . ومن أتى قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه وإن بيننا عيبة مكفوفة (١٥٣) وأنه لا إسلال ولا إغلal (١٥٤) ، وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه وأن من أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة . وانه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمتم بها ثلاثاً معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها» .

وقد دخلت قبيلة خزاعة في حلف محمد (ص) كما دخلت قبيلة بكر في حلف قريش . وشهد على كتابة تلك الصحيفة أبو بكر بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعثمان بن عفان وابو عبيدة بن الجراح ومحمد بن مسلمة وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص (وكانا مشركين) وعلي بن أبي طالب . وكتب الكتاب من نسختين أحدهما عند رسول الله (ص) والأخرى عند ، سهيل بن عمرو (١٥٥) .

وحدث أن انتهكت قريش عهد الصلح مع المسلمين بسبب تعاونها مع بني بكر وغدرهم بقتل عشرين رجلاً من خزاعة ، حلفاء دولة النبوة . فجاء وفد منهم إلى المدينة مستصرخين لتجدة النبي (ص) (١٥٦) .

أما قريش فقد توقعت رد فعل النبي (ص) ، فحاولت أن تقوم بعمل وقائي فأرسلت زعيمها أبا سفيان لتجديد اتفاقية الصلح . وقد فشل أبو سفيان في جميع محاولاته لاقناع الرسول (ص) بالاستجابة لطلبه ، علماً بأنه سعى لتوسيط أبي بكر وعمر وعلي وفاطمة الزهراء (١٥٧) ، حتى ابنته رملة بنت أبي سفيان ، زوجة الرسول استقبلته بجفاف وطوت عنه الفراش وقالت : «هو فراش رسول الله (ص) وأنت رجل مشرك فلا ينبغي لك أن تجلس عليه» (١٥٨) .

وكان الرسول (ص) ، بعد أن سمع قصة ما حدث لخزاعة من وفدهم ، قام يجر

رداءه وهو يقول : « لا نُصرت إن لم أنصر خزاعة مما أنصر منه نفسي » (١٥٩) .

شاهدت الزهراء أبا سفيان ، وهو أكبر زعامة قُرَشِيَّة ، يتململ ذليلاً بين أيدي المسلمين ، متوسلاً وراجياً مساعدته لاقتناع رسول الله بتمديد أجل الهدنة بين دولة النبوة الناشئة وبين قريش التي أذاقتها ووالديها وبني هاشم وجميع المسلمين صنوف العذاب انه النصر الإلهي لدولة الإسلام وانسحار الشرك . ان رجوع أبي سفيان إلى مكة منكسراً كان كسراً لشوكة الباطل وانتصاراً للحق ، ها هو طريد قريش واتباعه المستضعفون ، يؤسسون لهم دولة مؤيدة بنصر الله وإيمان أهلها الذين نذروا أنفسهم للدفاع عنها بأرواحهم وهذا غاية البذل وأسمى أنواع التضحية .

ووضع الرسول خطة محكمة للزحف على مكة في رمضان من السنة الثامنة للهجرة ؛ حيث سد جميع المنافذ المؤدية لمكة خشية تسرب نبأ زحفه إليهم إلى أن تمكن من مباغتتهم بنجاح (١٦٠) . وقد وعده الله بالنصر المؤزر بقوله تعالى : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ﴾ (١٦١) .

رافقت فاطمة الزهراء مع عدد من النسوة ، جيش دولة النبوة الذي زحف على وكر الشرك والضلال قريش في عقر دارها مكة . وخرج رسول الله مع جيشه من المدينة يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان السنة الثامنة للهجرة ، في عشرة آلاف مقاتل ، بينهم مئات الفرسان وقد وزع الألوية والرايات وجعل لواءه مع ابن عمه علي بن أبي طالب . فوصلوا قريباً من مكة ونزل مع جيشه عشاء ، فأمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار ، على عدد المقاتلين بغية إدخال الرعب والفرع إلى قلوب القرشيين وأئمة الضلال والجهل وكانت قريش قد تحسبت للخطر بعد فشل مهمة زعيمها أبي سفيان . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن التكتّم الشديد الذي أحاط الرسول به زحفه على مكة كان من أبرز عوامل النجاح . وفتحها سليماً دون قتال فأخذهم المسلمون على غرة منهم . فخرج عشية ذلك اليوم أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يستكشفون الأخبار فذهلوا لمشاهدتهم ، الجيش والنيان فجأة فكان وقع ذلك عظيماً عليهم وأسقط ما في أيديهم . وكان العباس بن عبد المطلب ، عم النبي (ص) قد ركب بغلة رسول الله (ص) والتقى أبا سفيان فأخبره بأن جيش رسول الله يحيط بمكة ونصحه بمقابلته واستئمانه . فأردفه على البغلة وقدم به إلى رسول الله وهو يطوف على النيران ، حتى وصل إلى رسول

الله (ص)، واستأذنه في أجارة أبي سفيان لصباح الغد، فلبى طلبه وقال (ص) لعمه العباس: «أذهب فقد أمناه حتى تغدو به علي». وفي الصُّباح أسلم أبو سفيان أمام رسول الله (ص) على مضض. وجعل له ميزة في قومه فقال (ص): «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق عليه داره فهو آمن» (١٦٢). وقد حبسه العباس بن عبد المطلب عند خطم الجبل بمضيق الوادي. ومرت عليه قبائل مقاتلي جيش النبوة والعباس يعرفه بأسماء تلك القبائل واحدة واحدة، حتى مر رسول الله (ص) في كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق فقال: من هؤلاء يا أبا الفضل؟ فقال: هذا رسول الله (ص) في المهاجرين والأنصار، فقال: يا أبا الفضل: لقد أصبح ملك بن أخيك عظيماً، فقال ويحك إنها النبوة، فقال: نعم. ثم رحل أبو سفيان ينادي قومه بالاستسلام والأمان وعدم القتال، لأنهم لا قبل لهم بجيش دولة النبوة، ودخل جيش الإسلام مكة من عدة جهات كما دخل النبي (ص) الكعبة واستلم الحجر الأسود وحطم الأصنام التي على سطح الكعبة كما أمر بتكسير الأصنام التي كانت حول مكة. وكان رسول الله بعد أن دخل الكعبة وصلى بها ركعتين. وخرج فأخذ بعضادتي الباب فخطب الناس وجموع قريش حاضرة نساء ورجالا فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج» ثم قال: «يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم خلق من تراب ثم تلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (١٦٤) . . . يا معشر قريش ويا أهل مكة، ما ترون أي فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «أذهبوا فأنتم الطلقاء» (١٦٥). وبذلك سمي الذين أسلموا يوم الفتح وبعده الطلقاء وأبناءهم أبناء الطلقاء لأنهم أسلموا على مضض وكراهية، لأن دخولهم الإسلام لم يكن طوعية وفي ذلك اليوم بايعه الرجال على الإسلام بنطق الشهادتين وعلى السمع والطاعة. وبعد الرجال بايعته النساء فقرأ عليهم ما أنزل الله من شروط البيعة - بعد أن وضع على يده ثوبا - على ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين بهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن،

ولا يعصينك في معروف ﴿لا يقتلن أولادهن﴾ بؤاد ولا اسقاط ﴿ولا يأتين بهتان
يفترينه﴾ بكذب يكذبنه في مولود ﴿بين أيديهن وارجلهن﴾ فلا يلحقن بأزواجهن
غير أولادهن (١٦٦).

وقد نزل رسول الله في قبة ضربت له بالأبطح، ومعه زوجته أم سلمة وميمونة،
وأقام بها خمس عشرة ليلة. وكان دخول مكة لعشر بقين من رمضان.

إذا كانت فاطمة الزهراء قد خرجت من مسقط رأسها مكة حزينة مرعوبة، كما
خرج والدها فها هي الآن تعود إليها فرحة مرفوعة الرأس مع والدها وابن عمها علي
ابن أبي طالب وجيش الإسلام الظافر يدخل الرعب والفزع في قلوب القرشيين أعداء
الله وأعداء الحق.

إن زهرة النبوة قد شاهدت أبا سفيان وجموع جيش الإسلام تمر عليه وهو واقف
مذهول. لقد تذكرت محاولات قريش اذلال والدها بمختلف الأساليب الهمجية من
الأيذاء والتعذيب اللذين الحقوهما بالمسلمين وبوالدها. تذكرت تضحيات والدتها
ومرضها ورحيلها. وتمنت أن تحضر كرامة الله لوالدها وعزه لدينه. وقد حمدت الله
عندما علمت بمصرع الحويرث بن نقيد أو منقذ الذي روعها يوم هجرتها حيث قتله
الإمام علي بعد فتح مكة ضمن عدد من الرجال والنساء أمر النبي (ص) بقتلهم
لمبالغتهم في إيذاء المسلمين (١٦٧).

كما شاهدت فاطمة الزهراء مدى حلم والدها وعفوه عن أهالي قريش بعد فتح
مكة، حيث عاملهم بالحسنى ليثبت لهم أنه نبي الرحمة حيث كان في قمة الاقتدار
ليقتص منهم ما الحقوه به من الأذى ليس في مكة وإنما واصلوا أحقادهم بالأعمال
العسكرية وتآليب القبائل في الحجاز وما حوله ضده ومع وحشيتهم وقسوتهم لم
ينس أنه ينتمي إليهم، فكانت تلك المعاملة دليلاً على سمو أخلاقه الكريمة في
التعامل مع الأعداء. إنه درس للبشرية في العفو عن العدو عند المقدرة. فهل حفظ
له الطلقاء وأبناء الطلقاء هذه المكارم الخلقية؟

إن الأحداث التاريخية اللاحقة ستجيب عن هذا السؤال.

لقد رأت فاطمة الزهراء، في رحلة النصر التي دامت شهرين تقريباً قبيلتي هوازن
وثقيف وأحلافهما من العرب الذين ظلّوا حتى ذلك التاريخ على موقفهم المتصلب

المعادي للإسلام ينهارون وتدنُّ حصونهم ومعاقلمهم ، وتقع أموالهم ونساؤهم غنيمة للمسلمين في معركة حنين خلال فترة قصيرة وعددهم يزيد ثلاثة أضعاف على أعداد المسلمين . وكانت تلك الغزوة في شوال بعد فتح مكة (١٦٨) مباشرة . رأت الزهراء هذه الانتصارات العظيمة كلها في هذه المدة القصيرة . ثم عادت مرفوعة الرأس إلى مدينة النبوة وعزُّ الإسلام ، وهي ترى والدها يجني ثمرات جهاده بدخول الناس في دين الله أفواجاً وجماعات فتزداد إيماناً وشكراً وبذلاً في سبيل الله . انه الوفاء الإلهي بوعده للصابرين . وعاشت الزهراء بعد ذلك فترة تربو على الستين قليلاً عزيزة بين والدها وزوجها وبنيتها ، سعيدة بحياتها البسيطة ، التي لم تتغير منذ دخلت بيت الزوجية من غير أن يتخللها ما يكدر صفوها .

٧- الزهراء المناضلة :

على الرغم من قصر حياة فاطمة الزهراء التي لم تبلغ الثلاثة عقود ، في بعض التقديرات وأقل من عقدين في تقديرات أخرى إلا أن هناك إجماعاً عند غالبية المؤرخين أنها واجهت حياة قاسية سواء كان في طفولتها أم في حياتها الزوجية أم بعد وفاة النبي (ص) وهذه فترة لم تتعد بضع عشرات من الأيام اختلف الرواة في تقديرها . وعلى الرغم من حياة التقشف التي عاشتها خلال حياتها الزوجية ، وفي ظل والدها إلا أنها كانت سعيدة بها في ظل الوالد والزوج والبنين . بيد أنها بعد رحيل والدها لاقت ما لم تلقه هاشمية في تاريخ دولة النبوة إلا بناتها بعد إبادة الحسين وآله وأنصاره على يد جيش سلطنة قريش التي كانت نتاجاً طبيعياً لسلطة الخلافة الواقعية التي برزت على الساحة السياسية في دولة النبوة وفرضت نفسها لحكم المسلمين بعد رسول الله (ص) . وكانت فاطمة الزهراء هي الصوت النسائي الذي ارتفع في مجتمع دولة النبوة رافضاً تلك السلطة وسياستها ، وهي عزلاء بدون نصير سوى مكانتها العظيمة مع زوجها وبنيتها التي تضمنها القرآن والسنة كما مر سابقاً ، ووصية والدها لها بالتسلح بالصبر بعد موته وكأنها على موعد مع ضيم الزمان لآل رسول الله (ص) الذي لا يتوقف .

روى الترمذي ، عن أم سلمة أن رسول الله (ص) دعا فاطمة عام الفتح فناجها

فبكت ثم حدّثها فضحكت ، فلما توفي رسول الله (ص) سألتها عن بكائها
وضحكها ، فقالت :

«أخبرني رسول الله (ص) أنه يموت فبكيت ، ثم أخبرني أي سيدة نساء أهل
الجنة إلا بنت عمران فضحكت» (١٦٩) .

وروت عائشة الحديث نفسه بصيغة أخرى ، فقالت : «كنا أزواج النبي (ص)
عنده فأقبلت فاطمة ما تخفى مشيتها من مشية أبيها رسول الله (ص) . فلما رآها
قال : مرحبا بابنتي ثم أجلسها ثم سارّها فبكت بكاءً شديداً . فلما رأى حُزنها سارّها
الثانية فإذا هي تضحك . فلما قام رسول الله (ص) سألتها عما سارّك قالت : ما كنت
لأفشي على رسول الله (ص) سره .

فلما توفي قلت : عزمتُ عليك من الحقِّ لما أخبرتني قالت : أما الآن فنعم : أما
حين سارّني في الأمر الأول فإنه أخبرني أن جبرئيل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة ،
وأنه عارضني به العام مرتين ولا أرى الأجل إلا قد اقترب فاتقي الله واصبري ، فإني
نعم السلف أنا لك فبكيْتُ . فلما رأى جزعي سارني الثاني قال : يا فاطمة ألا ترضين
أن تكوني سيدة نساء العالمين أهل الجنة أو نساء العالمين وفي رواية «فسارني وأخبرني
أني أول أهل بيته أتبعه فضحكت» (١٧٠) هل المقصود ، في هذا الحديث المتفق عليه
عند جميع كتاب السيرة أن الرسول قد أوصاها بالصبر على فراقه وأن تحتسبه في الله ،
أم أنه أضاف إلى ذلك أن سارها بما يجري عليها من ضيم وظلم فطلب منها أن
تسلح بالصبر الجميل كما ربّاها على ذلك وواجهت معه شتى المتاعب والآلام
نتيجة ظلم قريش .

وها هو الرسول (ص) أيضاً يوصي علياً بها وبالسبطين ، حيث جاء في رواية ابن
عباس عن النبي (ص) أنه قال : «يا علي إن فاطمة بضعة مني ونور عيني وثمرة
فؤادي يسوءني ما ساءها ويسرنني ما سرّها وهي أول من يلحقني من أهل بيتي
فأحسن إليها من بعدي ، والحسن والحسين ابناي وريحانتي وسيدا شباب أهل
الجنة فليكونا عليك كسمعك وبصرك» . وأضاف ابن عباس ، إلى ذلك أن
النبي (ص) رفع يديه إلى السماء ، وقال : (اللهم إني أشهدك أني محبٌ لمن أحبه

ومبغض لمن أبغضهم وسلم لمن سالمهم وحرب لمن حاربهم وعدو لمن عاداهم وولي لمن والاهم» (١٧١).

إن علي بن أبي طالب لا يحتاج لتعريفه بمكانة فاطمة والحسين عند رسول الله، وإنما كان هدف الرسول (ص) أن تكون مثل تلك الوصية لعل رسالة إلى الأمة الإسلامية، أيضاً في حفظ آل رسول الله (ص).

فهذا علي الذي كان يمثل نفس رسول الله، كما جاء في آية المباهلة، يوصيه أيضاً بالمحافظة على بضعته وسبطيه لإلقاء الحجة والبيّنة على الأمة.

كان تعويد فاطمة على الصبر من قبل والدها، من أبرز الصفات التي تميزت بها لمواجهة شتى مصاعب الحياة التي تجرعتها في مواقف عديدة. روى الطبري عن عمران بن حصين مستوفي ولفظه قال: خرجت يوماً، فإذا برسول الله (ص) قائم فقال لي: «يا عمران ان فاطمة مريضة فهل لك أن تعودها؟ قال: قلت: فذاك أبي وأمي، وأي شرف أشرف من هذا؟ قال فانطلق رسول الله (ص) وانطلقت معه حتى أتى الباب فقال: السلام عليكم أدخل؟ قالت: وعليكم السلام ادخل. فقال (ص) أنا ومن معي؟ قالت: والذي بعثك بالحق نبياً ما عليّ إلا هذه العبادة. قال: ومع رسول الله (ص) ملاءة خلقة فرمى بها إليها. فقال شدي بها رأسك ففعلت ثم قالت: ادخل فدخل ودخلت معه، فقعدها عند رأسها وقعدت قريباً منه فقال رسول الله (ص) «أي بنية كيف تجدينك؟» قالت: والله يا رسول الله إني لوجعة وإنه ليزيدني وجعاً إلى وجعي أني ليس عندي ما أكل. قال: فبكى رسول الله (ص) وبكت وبكى معها فقال لها: «أي بنية تصبري؟» مرتين أو ثلاثاً، ثم قال لها: «أي بنية أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين؟» قالت: «يا ليتها ماتت وأين مريم بنت عمران؟» قال لها: «أي بنية تلك سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك. والذي بعثني بالحق لقد زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة لا يبغضه إلا منافق» (١٧٢).

ما يمكن أن يستنتج من هذا الحديث، أن رسول الله (ص) بين مكانتها وزوجها في الدنيا والآخرة، وأنه نصحتها بالتحلي بالصبر حتى في حالة ندرة لقمة العيش. فتلك رسالته (ص) إلى الزوجات أيضاً عبر تعاقب الأجيال فهذا درس

تربوي للمرأة من خلال تعامله مع ابنته ، فهي نموذجه لكل نساء البشرية منذ مبعثه إلى يوم القيامة حيث خلقها بأخلاق النبوة العظيمة . كذلك من العبر التي يمكن استنتاجها من هذا الحديث الكريم أنه يوجه رسالة إلى الآباء من خلال تعامله مع ابنته ويعطي درساً لهم في آداب الزيارة وحرمة بيت الزوجية . والعبرة الأخيرة التي يمكن استنتاجها هي أنه يوجه رسالة إلى الأمة في كيفية التعامل مع آل رسول الله في حياته وبعد مماته ، فهذا هو الرسول الكريم والأب البار يجلُّ ابنته ذلك الإجلال العظيم بشهادة عمران راوي الحديث ، فالأحرى بأبناء الأمة أن يقتدوا بنبيهم في طريقة التعامل مع أهل البيت الذين أذهب الله الرجس عنهم وطهرهم تطهيرا ، كما ورد في آية التطهير.

٨ - فاطمة الزهراء وحضور حجة الوداع :

كانت فاطمة الزهراء ونساء رسول الله التسع قد أدين فريضة الحج ، مع رسول الله (ص) والكثير من المسلمين رجالاً ونساءً في السنة العاشرة للهجرة . فبعد رحيل وفد نصارى نجران الذي زار النبي من المدينة إلى اليمن ، بعث إليهم ابن عمه علي بن أبي طالب في شهر رمضان من العام نفسه ليقبض ما وقع عليه الصلح معهم .

وكانت أقاليم شبه الجزيرة العربية في تلك السنة ، قد دخلت كلها ضمن الحدود السياسية لدولة النبوة ، وتم إبلاغ جميع المسلمين في هذه الأقاليم . ، بعزم الرسول (ص) على أداء حجة الوداع . فبلغ عدد الحجيج ذكوراً وإناثاً حوالي مئة وأربعة وعشرين ألفاً في أغلب التقديرات .

ولحق علي ومن معه بالنبي بمكة في مطلع موسم الحج ، وأدوا الفريضة معه وأشرك النبي علياً في هديه (١٧٣) . وفي حجة الوداع أزال رسول الله (ص) كل لبس وغموض فيما يتعلق بجميع أحكام الحج ومناسكه (١٧٤) .

ويعتقد أتباع مدرسة الإمامة أنه بعد أن أتم النبي (ص) والمسلمون أداء الفريضة ، وبلغهم وصاياه للتمسك بالدين والتعاون كما أوصاهم بالمرأة خيراً وفقاً للخطبة التي ذكرت في المقدمة ، توجه جميع الحجاج إلى المدينة حتى وصلوا إلى منطقة يفترق فيها الحجيج ، وهي المعروفة بغدير خم ، وذلك في اليوم الثامن عشر

من ذي الحجة السنة العاشرة للهجرة (١٧٥).

وهناك، نزل عليه أمين السوحي جبرئيل بآية تتضمن أمراً إلهياً مباشراً للرسول (ص) بتنصيب علي إماماً وخليفة له على الأمة من بعده، كما تتضمن وعداً إلهياً بحمايته من الناس إذا كان يخشى ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ...﴾ (١٧٦).

كان ذلك اليوم قاتظاً شديد الحر، فورد أن أكثر الحاضرين كان يلف رداءه على قدميه من شدة الحر. فأمر بدوحات هناك فقم ما تحتها، وأمر بجمع الرجال ووضع بعضها على بعض ثم أمر مناديه فنادى في الناس: الصلاة جامعة فاجتمعوا من رجالهم، فصعد على تلك الرجال حتى صار في ذروتها واصعد علياً معه حتى قام عن يمينه ثم خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ فأبلغ في الموعظة ونعى إلى الأمة نفسه الشريفة وقال: «إني قد دعيت ويوشك أن أجيب وقد حان مني خفوق من بين أظهركم وإني مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي كتاب الله وعترتي أهل بيتي فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الخوض».

ثم نادى بأعلى صوته: «ألست أولى بكم منكم بأنفسكم؟» قالوا: اللهم بلى، فقال لهم على النسق وقد أخذ بضبعي علي فرفعهما حتى بان بياض ابطيهما: «فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره وأخذل من خذله» (١٧٧). ثم نزل فصلى ركعتين، ثم زالت الشمس، فصلى بهم صلاة الظهر وجلس في خيمته وأمر علياً أن يجلس في خيمة له بإزائه وأمر المسلمين أن يدخلوا عليه فوجاً فوجاً يهتفون بمقام الإمامة ويبايعونه بإمرة المؤمنين.

ففعل جميع الحاضرين ما أمرهم الرسول (ص) في ذلك المشهد العظيم، وكان يقول (ص) كلما أتى فوج: «الحمد لله الذي فضلنا على العالمين» (١٧٨). وبعد أن فرغ الرجال أمر الرسول أزواجه وسائر نساء المؤمنين ممن معه أن يدخلن عليه ويسلمن عليه بإمرة المؤمنين ففعلن ما أمرن ولم يتخلف رجل أو امرأة عن المبايعة ذلك اليوم لعلي بالإمامة وأمرة المؤمنين. وكان عمر بن الخطاب ممن غبط علياً بذلك المنصب فقال فيما قال: «بخ بخ لك يا علي أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن

ومؤمنة» (١٧٩) . وقد استأذن حسان بن ثابت رسول الله في وصف ذلك المشهد فقال له رسول الله (ص) . «قل يا حسان على اسم الله» فوقف على نشز من الارض، واشربأت أعناق المسلمين لسماع شعره فأنشأ يقول (١٨٠) .

يناديهـم يوم الغدير نبيهم	بخم ، واسمع بالرسول منادياً
وقال : فمن مولاكم ووليكم	فقالوا ولم يبدوا هناك التعامياً
إلهك مولانا وأنت ولينا	ولن تجدن منا لك اليوم عاصياً
فقال له قم يا علي فإنني	رضيتك من بعدي إماماً وهادياً
فمن كنت مولاه فهذا وليه	فكونوا له أنصار صدق موالياً
هناك دعا اللهم وال وليه	وكن للذي عادى علياً معادياً

وبعد فراغ حسان من القاء الأبيات في وصف يوم الغدير، قال له رسول الله (ص) :

«لا تزال يا حسان مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك» (١٨١) .

وقد نزلت على رسول الله (ص) في غدير خم بعد تنصيبه علياً إماماً وخليفة للأمة من بعده ﷺ الآية :

«اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» (١٨٢) فقال رسول الله (ص) : (الله أكبر على إكمال الدين ورضى الرب برسالتي والولاية لعلي «ع») . وهذا التفسير يرويه اتباع مدرسة الإمامة عن العترة النبوية . ويوصف أهل البيت كما يقول ابن حجر بأربعة الفاظ : آل رسول الله ، أهل البيت ذوو القربى والعترة (١٨٤) . لقد وصف الرسول في خطبته بغدير خم تركته في أمته الكتاب والعترة بالثقلين للأهمية العظمى لكل منهما في حياة الأمة لأن الرسول (ص) قد أكد على أن في التمسك بهما النجاة وفي مخالفتها الهلاك (١٨٥) . فإذا كان القرآن والسنة هما مصدرا التشريع في الإسلام ، فإن خير مؤتمن عليهما هم العترة لطهارتهم وعصمتهم كما ورد في آية التطهير ومكانتهم العظمى عند الله ورسوله كما ورد في آية المباهلة بالإضافة إلى أنهم أعلم الناس بتفسير القرآن والإحاطة الكاملة بالسنة النبوية .

ويؤكد على ذلك جميع الرواة وكتاب السيرة من مدرستي الإمامة والخلافة .

ومما تجدر الإشارة إليه أن وصيته (ص) بالثقلين قد وردت أيضاً في خطبته يوم عيد الأضحى بمنى^(١٨٦) . أما عن حديث الولاية لعلي يوم غدیرخم، فجاء في قوله تعالى : ﴿وقفوههم انهم مسؤولون﴾^(١٨٧) حيث أخرج الديلمي عن أبي سعيد الخدري أن النبي (ص) قال : «وقفوههم انهم مسؤولون عن ولاية علي»^(١٨٨) ويذكر ابن حجر : «وكان هذا هو مراد الواحدي بقوله : روي في قوله تعالى : وقفوههم انهم مسؤولون عن ولاية علي وأهل البيت ، لأن الله أمر نبيه (ص) أن يعرف الخلق أنه لا يسألهم عن تبليغ الرسالة أجراً إلا المودة في القربى ، المعنى أنهم يسألون هل والوهم حق الموالاتة كما أوصاهم النبي (ص) أم أضاعوا الوصية وأهملوها فتكون عليهم المطالبة ، والتبعة»^(١٨٩) .

وقد ذكر حديث الثقلين والموالاتة غالبية الرواة وكتاب السيرة من اتباع مدرسة الخلافة مثل ، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري الذي كتب في حديث الغدير مجلدين تناول فيهما بالشرح والتحليل كل ما يتعلق بهذا الموضوع بالإضافة إلى الإمام أحمد حنبل في مسنده والنسائي في سننه ، وابن ماجه وابن حجر في صواعقه وابن كثير في تاريخه والحاكم في المستدرک ، والذهبي في تلخيص المستدرک والسيرة الحلبية وغيرها . ويمكن القول إن تناول موضوع الغدير والوصية ليس من مهمات هذا البحث ، ولذلك يمكن الاكتفاء بهذا القدر فيما يتعلق بموضوع الغدير . ومن الجدير بالذكر أن أتباع مدرسة الإمامة يحتفلون بيوم الغدير وهو الثامن عشر من ذي الحجة في كل عام ليس فقط في العالم الإسلامي بل في أوساط أتباع مدرسة الإمامة في جميع أرجاء المعمورة حيث تقام المآدب والمهرجانات الأدبية يتحدثون فيها عن أمجاد الأمة الإسلامية ودور أهل البيت في توطيد دعائم الإسلام والدعوة لانتهاج سبيلهم لإعادة أمجاد الأمة .

إن السيدة فاطمة الزهراء واحدة من المجتمع النسائي المسلم اللاتي شهدن يوم الغدير ، وشاركت النساء المسلمات في المبايعة لعلي بإمرة المؤمنين ، لقد فرحت بانتصار الإسلام ورأت عشرات الآلاف وهم يلهجون بذكر الله والتلبية في مكة انه

انتصار ونجاح لنبوة والدها وجهوده وتضحيات المسلمين بما يملكون، وفي مقدمتهم المهاجرون والأنصار. انه ثمرة لجهاد دام ثلاثة وعشرين عاماً، وها هي تعود إلى المدينة عزيزة بعز الإسلام، فرحة بنجاح والدها بتأمين مستقبل الدين والأمة بتنصيب ابن عمها إماماً وهادياً للأمة بعد والدها.

وصار المسلمون يلقبون علياً وصي رسول الله (ص) منذ ذلك اليوم وحتى فترة إمارته يوم آلت إليه امرة المؤمنين بعد ربع قرن من وفاة رسول الله (ص) كما يتضح ذلك من روايات الصحابة وأشعارهم (١٩٠).

ومن الأمثلة على ذلك كما ينقل ابن أبي الحديد مخاطبة أبو الهيثم بن التيهان - وكان بدرياً - لبعض قادة حرب الجمل بقوله (١٩١).

قل للزبير، وقل لطلحة أننا نحن الذين شعارنا الأنصار
نحن الذين رأيت قريش أننا يوم القليب أولئك الكفار
كنا شعار نبينا ودثاره يفديه منا الروح والابصار
ان الوصي امامنا وولينا برح الخفاء وباحت الأسرار

٩ - حضور الزهراء مرض أبيها (ص) ووفاته :

تزامن مرض الرسول (ص) مع الإعداد العسكري لغزو الروم، وذلك في شهر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة، حيث أمر جميع المسلمين بالخروج للقتال بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة حيث عقد الرسول (ص) لأسامة اللواء بيده فخرج وعسكر بالجرف خارج المدينة، ليكون مكاناً للتجمع والانطلاق، وكان أسامة في أول شبابه ولما طعن بعض المسلمين في إمارته تأذى رسول الله من ذلك وقال (ص): «ان تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل وإيم الله إن كان خليقاً للإمارة وإن كان لمن أحب الناس إليَّ وإنَّ هذا لمن أحبَّ الناس إليَّ بعده» (١٩٢).

وحينما رأى الرسول (ص) تردد بعض المسلمين عن الخروج وتجهيز جيش أسامة، صار يذهب إلى المسجد عدة مرات، وهو معصب الرأس لشدة الألم ويدعو المسلمين من على منبره للتوجه إلى المعسكر للحاق بجيش أسامة. وهناك من يعتقد

أن الرسول (ص) أراد تفريغ المدينة كلية من وجهاء الأنصار والمهاجرين ليوفر المناخ الأمني الملازم لانتقال السلطة سلمياً ويمنع حدوث صراع السلطة بعد وفاته أو حدوث تغيير (١٩٣). وكانت فاطمة الزهراء قد رأت والدها (ص)، قبيل مرضه يكثر زيارة القبور في البقيع وشهداء أحد ويستغفر لهم، بعد أن يسلم عليهم ويخاطبهم بكلمات تشعر بدنو أجله (١٩٤) وكان الرسول (ص) قد بدأ به المرض في بيت زوجته أم سلمة ثم استأذن زوجاته أن يمرض في بيت عائشة كما ينقل عنها (١٩٥).

ولازمت فاطمة وعلي والعباس بن عبد المطلب الرسول (ص)، طوال مرضه في بيت عائشة وحتى وفاته. وقد شاهدت معاناة والدها في مرضه وسمعت من أبيها ما قاله لأصحابه حينما كانوا يأتون لزيارته، فكانت تتألم كثيراً وتبكي لفراقه حينما سمعته ينعي نفسه لأصحابه ولأهله، فكان الرسول (ص) يهون عليها ويأمرها بتحلي الصبر. فكانت، على الرغم من احساسها بألم الفراق ولوعته، إلا أنها كانت تتجلد وتصبر ولا تبدى ما في نفسها لأحد. وخاطب الرسول (ص) المسلمين في المسجد، وهو في مرضه وطلب منهم براءة ذمته كما عرض نفسه عليهم، لكي يقتص منه أي انسان لحقته منه ظلامة. وكذلك خطبهم في بيت زوجته عائشة وأخبرهم بدنو أجله والزهراء تسمعه (١٩٦) فأيقنت بنهاية أيامه وكذلك نهاية أيامها كما أخبرها بذلك فيزداد ألمها لفراقه وحرمانها وأطفالها من حنانهِ وجهه العظيم، الذي لا يمكن أن يعوض وغالباً ما كانت الزهراء مع ولديها الحسن والحسين يحيطون برسول الله (ص) خلال مرضه لأنه لا يطيق فراقهم (١٩٧) وفي يوم الخميس قبيل وفاة الرسول حيث اشتد به الألم فكان يغمى عليه مرة ويفيق أخرى طلب من الحضور أن يؤتى إليه بدواة وكتف ليكتب كتاباً يهتدي به المسلمون بعد موته، فحيل بينه وبين ما طلب، والزهراء تسمع وتنظر كل الذي حدث وكان النساء والأطفال والحاضرون يجهدون بالبكاء لما حل برسول الله من ألم المرض (١٩٨). وقد سمي عبد الله بن عباس يوم الخميس بيوم الرزية لاختلاف الحاضرين على تمكين رسول الله (ص) من كتابة وصيته إلى الأمة لضمان وحدتها واستقامتها فعن ابن عباس قال: لما حضر رسول الله (ص) وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال النبي (ص): «هلموا أكتب

لكم كتاباً لن تضلوا بعده» فقال عمر: قد غلب عليه الوجد وعندكم القرآن حسبكم كتاب الله. فاختلف الحاضرون^(١٩٩) واختصموا فمنهم من يقول قربوا يكتب لكم النبي (ص) كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله (ص) قوموا عني قال عبيد الله فكان ابن عباس يقول: «إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله (ص) وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغتهم»^(٢٠٠).

وروي هذا الحديث بصيغ مختلفة إلا أن مضمونه واحد. فقد روى سعيد بن جبير قال ان ابن عباس رحمه الله يقول يوم الخميس وما يوم الخميس ثم يبكي حتى تبل دموعه الحصباء فقلنا وما يوم الخميس؟ قال: اشتد برسول الله (ص) وجعه فقال اتوني باللوح والدواة، أو قال بالكتف والدواة أكتب لكم ما لا تضلون بعدي فتنازعوا، فقال اخرجوا ولا ينبغي عند نبي أن يتنازع قالوا ما شأنه اهجر استفهموه فذهبوا يعيدون عليه فقال: «دعوني فما أنا فيه خير مما تدعوني إليه»^(٢٠١).

وروى ابن حجر أيضاً ان رسول الله (ص) قال في مرض موته دون تحديد للمكان، ويحتمل أن يكون المسجد: «أيها الناس يوشك أن أقبض قبضاً سريعاً فينطلق بي وقد قدمت إليكم القول معذرة إليكم ألا اني مخلف فيكم كتاب ربي عز وجل وعترتي أهل بيتي، ثم أخذ بيد علي فرفعها فقال هذا علي مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردها علي الحوض فأسألهما ما خُلفُ فيهما»^(٢٠٢).

وكان رسول الله (ص) قد قال في علي أحاديث كثيرة تبين مكانته عند الله، لتفانيه في سبيل الله ليس هذا موضعها، ويكتفي المؤلف منها بالحديث الذي يرويه ابن حجر قال: «اخرج أبو نعيم وابن غساکر عن أبي ليل» أن رسول الله (ص) قال: «الصديقون ثلاثة حبيب النجار مؤمن آل يس فقال يا قوم اتبعوا المرسلين، وحزقيل مؤمن آل فرعون الذي قال اتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وعلي بن أبي طالب وهو أفضلهم»^(٢٠٣) لقد عاشت فاطمة الزهراء كل هذه الأحداث وسمعت الكثير مما قاله الرسول (ص) في مكانة ابن عمها علي (ص) وعرفت توجهات بعض وجهاء المسلمين تجاه المستقبل السياسي لدولة النبوة من خلال المواقف التي حضرتها فهناك جيش على أبواب المدينة وقد تقاعس بعض المسلمين عن الإنصياع لأمر الرسول

والالتحاق به . وها هو الرسول يخذله المسلمون في بيته ويحولون بينه وبين تدوين كتاب يتعلق بمصلحة دولة النبوة ومستقبلها نتيجة الاختلاف ، وها هو القرآن الكريم يتنبأ بانقلاب المسلمين على أعقابهم بعد موت رسول الله (ص) لقوله تعالى : ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين﴾ (٢٠٤) .

ومات رسول الله (ص) بكمده وهو يرى بوادر اختلاف الأمة ، وكان ذلك يوم الاثنين قيل في صفر وقيل في ربيع الأول في السنة الحادية عشرة للهجرة . وتولى غسله بناء على وصية منه علي بن أبي طالب وساعده كل من الفضل بن العباس وأسامة بن زيد كما قام علي بتكفينه (٢٠٥) .

وعاد أسامة بن زيد حينما ثقل رسول الله ثم عاد من معه إلى المدينة دون تحقيق ما أراده الرسول (ص) (٢٠٦) . وكان علي بن أبي طالب أقرب الناس عهداً برسول الله (ص) كما روت ذلك زوجته عائشة وام سلمة .

روى الطبري عن أم سلمة (ر) قالت : «والذي أحلف ان كان علي لأقرب الناس عهداً برسول الله (ص) قالت : عدنا رسول الله (ص) غداة بعد غداة يقول جاء علي وأظنه كان بعثه في حاجة فجاء بعد فظننت أن له حاجة فخرجنا من البيت قعدنا عند الباب فكنت من أدناهم إلى الباب فأكبّ عليه فجعل يساره ويناجيه ثم قبض (ص) يومه ذلك فكان أقرب الناس به عهداً» (٢٠٧) يتضح من خلال حديث أم سلمة وكذلك من حديث عائشة المائل مدى تعلق الرسول (ص) بابن عمه فكان حريصاً على ان يكون بجانبه قبل أن يحين الفراق حتى يتمكن من تزويده بما بقي من الوصايا والأسرار التي تتعلق بإمامته ودوره المناط به في الأمة . كان ابن عباس يلقب بحبر الأمة لمكانته العلمية المرموقة ، فلماذا كانت تسيل دموعه على خديه كأنها اللؤلؤ المنظوم حينما يتذكر يوم الخميس الذي سباه «يوم الرزية» ، لأن الحاضرين حالوا بين الرسول وبين تثبيت بيعة الغدير في كتاب لتكون ثابتة في أعناق الأمة إلى يوم القيامة وليكون وثيقة تاريخية ضد من تسول له نفسه التطاول على عهد رسول الله (ص) للأمة .

إن أحاديث الرسول (ص) التي توضح مكانة علي والمهام العظيمة التي قام بها لخدمة الإسلام بشهادة الرسول (ص) كلها تجعله مؤهلاً لقيادة الأمة وإذا كانت تلك الأحاديث المدونة في حق علي كلها صحيحة فإن التطاول على علي وحقه في الخلافة تطاول على الله ورسوله والأمة الإسلامية .

ومما قاله الإمام علي وهو يلي غسل رسول الله وتجهيزه كما أمره : «بأبي أنت وأمي ، يا رسول الله لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنباء وأخبار السماء . وخصّصت حتى صرت مسلياً عمن سواك . وعممت حتى صار الناس فيك سواء . ولولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفذنا عليك ماء الشؤن . ولكان الداء مائلاً والكمد محالفاً . وقلاً لك ولكنه ما لا يملك رده . ولا استطاع دفعه . بأبي أنت وأمي اذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك» (٢٠٨) انها كلمات تأبينية بليغة تصدر من قلب يفيض حباً وولاء وطاعة وإيماناً وحزناً عميقاً ، كما تعبر هذه الكلمات عن حجم الرزية التي عمت آل رسول الله بشكل خاص والأمة الإسلامية بشكل عام ، وصلى المسلمون على رسول الله (ص) بدون امام : الرجال ثم النساء ثم الصبيان ثم العبيد أفواجاً ، أفواجاً وسبق علي الجميع بالصلاة عليه ودفنه في بيته - وهو المكان الذي قبض فيه منتصف ليلة الاربعاء ونزل في قبره علي والفضل ووالده ، العباس بن عبد المطلب وأسامة بن زيد (٢٠٩) .

١٠ - فاطمة الزهراء وموت أبيها :

حينما توفي الرسول (ص) كانت فاطمة قد أذهلتها المصيبة فتارة يغشى عليها من شدة البكاء والحزن ، وتارة تفيق حتى تم دفن أبيها في قبره . ثم تحاملت نفسها إلى القبر ومشيت والقت بنفسها على قبر حبيبها وعزها فأغشي عليها . ولما أفأقت أخذت حفنة من تراب القبر وأدنتها من عينيها اللتين قرّحهما البكاء ، كما روى البخاري وراحت تشمها وتقول :

ماذا على من شم تربة أحد ألا يشم مدى الزمان غواليها

صبت علي مصائب لو أنها صبت على الأيام عدن ليااليا

وقد تأثر المسلمون لبكائها رجالاً ونساء ، وشاركوها أحزانها ، وهم يشاهدونها

تقلب تربة قبر أبيها بيديها وتشمّها وتقول :

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها وغاب مذ غبت عنا الوحي والكتب

فليت قبلك كان الموت صادفنا لما نعت وحالت دونك الكتب

ثم التفتت إلى أنس بن مالك قائلة : «يا أنس ، كيف طابت نفوسكم أن تحثوا التراب على رسول الله؟» (٢١٠) . ومن الألفاظ التي اشتهرت بها فاطمة بندب أبيها يوم موته ، وبعد ذلك اليوم :

«يا أبتاه ، جنة الخلد مثواه يا أبتاه عند ذي العرش مأواه يا أبتاه كان جبرائيل يغشاه يا أبتاه لستُ بعد اليوم أراه» (٢١١) .

ومما ثبت عظم فاجعة فاطمة الزهراء بفقد رسول الله أنها لم تر ضاحكة طوال حياتها بعده وهي حياة تتجاوز الأيام كما جاء في رواية الإمام الصادق (ع) (٢١٢) . وجاء عن الإمام علي (ع) أنه قال : «لقد غسلت النبي في قميصه فكانت فاطمة تقول لي : أرنى القميص يا أبا الحسن ، فإذا أريتها إياه أخذته وشمته وبكت حتى يغشى عليها ، فلما رأيت منها ذلك غيبته عنها» (٢١٣) .

وحدث ابن شهر آشوب عن حزنها البالغ في مناقبه قائلاً :

«انها ما زالت بعد أبيها معصبة الرأس ناحلة الجسم ، منهدة الركن باكية العين محترقة القلب يغشى عليها ساعة بعد ساعة ، وتقول لولديها : «أين أبوكما الذي كان يكرّمكما ويحملكما ، أين أبوكما الذي كان من أشد الناس حباً لكمما وشفقة عليكمما» .

ولا تزال تعدد معاملته الحنونة لها ومواقفه منها حتى يغشى عليها (٢١٤) . . . واستمر حزن فاطمة الزهراء وبكاؤها على فراق أبيها حتى تأذى منها أهل المدينة ، وقالوا لها : «لقد آذيتنا بكثرة بكائك» فاضطرت للخروج إلى المقابر في البقيع ، فتجلس حتى تقضى وطرها من البكاء ، ثم تعود إلى بيتها كما روى الصدوق في أمالية عن الإمام الصادق (ع) (٢١٥) . وروى أنها تضررت من حرارة الشمس فبنى لها الإمام علي بيتاً في البقيع كانت تأوي إليه في ساعات من الليل والنهار تبكي أباه فيها سمي بيت الأحزان ، مصحوبة ببعض النسوة (٢١٦) .

وبما ضاعف من أحزانها بعد وفاة أبيها موقف سلطة الخلافة ، بشكل خاص
والمسلمين بشكل عام من آل رسول الله ، لما لحقهم من الظلم والجور وتربة قبر
الرسول لم تحف بعد فكانت ترثي والدها كما جاء في مناقب ابن شهر اشوب وتبته
أحزانها ، بل وتعبر من خلال هذه الأبيات عن الضيم والظلم الذي لحقها
قائلة : (٢١٧)

قل للمغيب تحت أطباق الثرى	إن كنت تسمع صرختي وندائياً
صبت علي مصائب لو أنها	صبت على الأيام عدن ليااليا
قد كنت ذات همى بظل محمد	لا أختشى ضيماً وكان جماليا
فاليوم أخشع للذليل واتقي	ضيماً وأدفع ظالمي بردائيا
فإذا بكت قمرية في ليلها	شجنا على غصن بكيت صباحيا
فلأجعلن الحزن بعدك مؤسّي	ولأجعلن الدمع فيك وشاحيا
ماذا على من شم تربة أحمد	أن لا يشم ، مدى الزمان ، غواليا

كذلك أورد أحمد زيني دحلان في السيرة النبوية ، هذه الأبيات لفاطمة الزهراء ،
وهي ترثي الراحل العظيم بقولها (٢١٨) .

اغبر آفاق السماء وكوّرت	شمس النهار وأظلم العصران
والأرض من بعد النبي ، كثيبة	أسفاً عليه وكثيرة الرجفان
فليكنه شرق البلاد وغربه	وليكفه مضر وكل يمانى

وجاء في مناقب ابن شهر اشوب ، أيضاً من رثاء الزهراء البيتين التاليين اللذين
ينسبهما أحمد بن زيني دحلان في السيرة النبوية ، لحسان بن ثابت (٢١٩) .

كنت السّواد لناظري	فعليك يبكي الناظرُ
من شاء بعدك فليمت	فعليك كنتُ أحـاذرُ

وجاء في رواية الصدوق لما قبض النبي (ص) امتنع بلال من الأذان ، وقال : « لا
أؤذن بعد رسول الله (ص) » . فقالت فاطمة ذات يوم : « إني أشتي أن أسمع صوت
بلال مؤذن أبي ، فأخذ في الأذان فلما قال : الله أكبر ذكرت أباه وأيامه ولم تتمالك

نفسها عن البكاء فلما قال أشهد أن محمداً رسول الله شهقت وسقطت لوجهها وغشى عليها . فقال الناس : «أمسك عن الأذان يا بلال فإن ابنة رسول الله قد فارقت الدنيا» فلما أفاقت من غشوتها سألته أن يتم الأذان فلم يفعل وقال لها : يا سيدة النساء إني أخشى عليك مما تنزليه بنفسك إذا سمعت صوتي ، فأعفته من ذلك (٢٢٠) .

ويتضح مما سبق أن فاطمة الزهراء كانت متعلقة بوالدها منذ سنوات طفولتها الأولى ، لفقدانها أمها فأصبح يمثل كل آمالها وحياتها على الرغم من زواجها وإنجابها خيرة النسل البشري . وتتحدث الزهراء عن المصائب التي لحقت العترة من سلطة الخلافة بعد وفاة الرسول مباشرة .

١١ - فاطمة الزهراء وسلطة الخلافة :

قال الله تعالى مخاطباً المسلمين بالأمر : ﴿يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم . . .﴾ (٢٢١) لماذا لم يستجب المسلمون وخاصة وجهاءهم أمثال أبي بكر الصديق ، عمر بن الخطاب ، سعد بن أبي وقاص ، أبي عبيدة بن الجراح وغيرهم لدعوة الرسول في اللحاق بجيش أسامة؟

لماذا حال الحاضرون عند رسول الله ، يوم الرزية بينه وبين كتابة عهده للأمة؟ وما هي أبعاد التنبؤ القرآني بالإنقلاب بعد وفاة الرسول؟ لماذا وجه الرسول (ص) إلى علي السؤال التالي الذي ورد في هذا الحديث؟ .

روى الطبري ، عن علي بن أبي طالب قال رسول الله (ص) : «كيف أنت إذا زهد الناس في الآخرة ورغبوا في الدنيا ، وأكلوا التراث أكلاً لما وأحبوا المال حباً جماً واتخذوا دين الله دغلاً ، ومال الله دولا؟ قلت أتركهم وما اختاروا وأختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأصبر على مصائب الدنيا وتقواها حتى ألحق بك ان شاء الله تعالى»

قال : «صدقت ، اللهم افعل ذلك به» (٢٢٢) .

لماذا تنبأ الرسول (ص) بالتشريد والمطاردة والبلاء لأهل بيته؟ روى ابن حجر أن رسول الله (ص) رأى فتية من بني هاشم فاغرورت عيناه ، وتغير لونه ثم قال : «إنا

أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءاً وتشريداً وتطريداً» (٢٢٣) .

لماذا أخبر الرسول (ص) المسلمين بارتداد جماعة من أصحابه واقدامهم على التغيير؟ وما هو هذا التغيير أو الإحداث الذي يقصده؟ كما جاء في الحديث التالي الذي ورد بصيغ مختلفة ومضمون واحد . روى البخاري عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: خطب رسول الله (ص) فقال: «يا أيها الناس انكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا» ثم قال: ﴿...﴾ كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين ﴿٢٢٤﴾ ثم قال: ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول يا رب أصحابي فيقال انك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح ﴿ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم .﴾ (٢٢٥) فقال: «إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم» (٢٢٦) .

من هم المرتدون على أعقابهم منذ أن فارقتهم الرسول (ص)؟ وهذا أحد أصحاب الرسول (ص) وواحد من الذين رووا الكثير من الأحاديث عن رسول الله يعترف بالأحداث كما في الحديث التالي، فما هو هذا الإحداث؟

روى البخاري عن العلاء بن المسيب، عن أبيه قال:

«لقيت البراء بن عازب، فقلت: طوبى لك صحبت رسول الله (ص) وبايعته تحت الشجرة. فقال: يا ابن أخي إنك لا تدري ما أحدثنا بعده» (٢٢٧) .

إن الإجابة على جميع هذه الأسئلة يمكن معرفتها بشكل تفصيلي في دراسة مستقلة ستصدر للمؤلف لاحقاً، وسيكتفي هنا، بتوضيح الإجابة على تلك الأسئلة بشكل مختصر.

إن ظهور سلطة الخلافة كقيادة للأمة الإسلامية، في دولة النبوة بعد رحيل النبي (ص)، والمتمثلة في شخصية الصحابييين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب والتي تمخضت عن اجتماع السقيفة والرسول (ص) لم يقرب بعد أن سلطة الخلافة هذه ليست وليدة السقيفة وإنما كانت السقيفة محطة أو معبراً فهي وليدة تخطيط مسبق .

ومن العلامات البارزة للعيان ذلك التخطيط المسبق وآية الإنقلاب وحديث الإنقلاب وتجاهل دعوة الرسول للالتحاق بجيش أسامة وتوجهه إلى بلاد الروم ويوم الرزية وترتب على ذلك كله توديع الرسول (ص) للدنيا، وهو كسير القلب لما سيحدث لأمرته من تمزق ولشريعته من تشويه حيث عاش الإرهاصات بشكل جلي .

١٢ - سلطة الخلافة :

بعد أن علم الأنصار بموت الرسول اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة (٢٢٨) . وكان الأوس والخزرج أكبر تجمعين قبلين للأنصار فحضروا ذلك الاجتماع وكان رئيس الخزرج سعد بن عباد بن ديلم بن حارثة الخزرجي ، وأسيد بن خضير الاوسي زعيم الأوس وتحاوروا في مسألة الخلافة ومن أحق بها المهاجرون أم الأنصار فيما بينهم وقدوم بعض وجوه المهاجرين إلى ذلك الاجتماع وهم أبو بكر بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب وابو عبيدة بن الجراح .

وقد تمت لأبي بكر، كان عمر بن الخطاب هو بطل السقيفة الذي حسم الأمر بسرعة لصالح المهاجرين قبل أن يستأثر به الانصار فكان أول المبايعين ، ولحقه أبو عبيدة ثم بشير بن سعد الخزرجي . ثم تبعهم الباقر ، غير أن سعد بن عباد الذي كان مريضاً ذلك اليوم لم يبايع وقاطع سلطة الخلافة (٢٢٩) . ولعمر بن الخطاب مقولة بشأن الطريقة التي تمت بها بيعه أبي بكر قالها في فترة خلافته : «إن بيعه أبي بكر كانت فلتة وفى الله شرها فمن عاد (أو فمّن دعاكم) إلى مثلها فاقْتُلوه» (٢٣٠) وكانت المعايير التي اعتمدها عمر، في تقديم أبي بكر ومبايعته للخلافة السنّ والأسبقية للإسلام وصحبة الرسول في الغار عند الهجرة .

وروي أنه لما ولي أبو بكر الخلافة كان أبوه أبو قحافة بالطائف . فلما بويع لأبي بكر كتب لأبيه كتاباً ، عنوانه : من خليفة رسول الله (ص) إلى أبيه أبي قحافة . أما بعد ، فإن الناس قد تراضوا بي فاني اليوم خليفة الله ، فلو قدمت علينا كان أحسن بك . فلما قرأ أبو قحافة الكتاب ، قال للرسول : «ما منعكم عن علي؟» قال : هو حدث السن وقد أكثر القتل في قريش وغيرها ، وأبو بكر أسن منه قال أبو قحافة إن كان الأمر في ذلك بالسن فأنا أحق من أبي بكر ، لقد ظلموا علياً حقّه وقد بايعه

النبي (ص) وأمرنا ببيعته ، ثم كتب من أبي قحافة إلى أبي بكر أما بعد ، فقد أتاني كتابك فوجدته كتاباً أحق ينقض بعضه بعضاً ، مرة تقول خليفة رسول الله . ومرة تقول خليفة الله ومرة تقول تراضوا بي الناس ، وهو أمر ملتبس فلا تدخلن في أمر يصعب عليك الخروج منه غداً وتكون عقباك منه إلى الندامة وملامة النفس اللوامة لدى الحساب يوم القيامة ، فإن للأمور مداخل ومخارج وأنت تعرف من هو أولى منك ، فراقب الله كأنك تراه ولا تدعن صاحبها ، فإن تركها اليوم أحق عليك وأسلم لك» (٢٣١) وكان أبو قحافة في ذلك الوقت منقطعاً في بيته مكفوفاً عاجزاً عن الحركة ، وتوفي في عهد عمر سنة ١٤ هـ وستة سبع وتسعون سنة (٢٣٢) . أما عمر بن الخطاب فقد أوضح خلال الخلافة لابن عباس : «إن أولى الناس بالأمر بعد رسول الله هو علي ، إلا أننا خفناه على اثنتين : حداثة سنة وحبه بنى عبد المطلب» (٢٣٣) وكان عمر علي عند وفاة الرسول (ص) ثلاثاً وثلاثين سنة ، كما تشير إلى ذلك أغلب الروايات . كما روى الثقفى والسدى أن عمر قال :

«إن النبوة والإمامة لا تجتمعان في بيت واحد» (٢٣٤) . ومع أن غالبية مجتمع المدينة بايعت ابا بكر ، إلا أن حركة معارضة علنية حدثت لسلطة الخلافة بالمدينة قادتها ثلة من كبار الصحابة . ستة من المهاجرين هم : خالد بن سعيد بن العاص ، سلمان الفارسي ، أبو ذر الغفاري ، المقداد بن الأسود الكندي ، عمار ابن ياسر ، وبريدة الأسلمي . ومن الأنصار قيس بن سعد بن عبادة ، أبو الهيثم بن التيهان ، خزيمة ابن ثابت ذو الشهادتين ، أبي بن كعب ، سهل بن حنيف ، وأبو أيوب الأنصاري ، فهؤلاء الاثنا عشر صحابياً امتنعوا عن البيعة (٢٣٥) وبدأت اتصالات حركة المعارضة منذ مساء اليوم الذي توفي فيه الرسول (ص) .

إلا أن المواجهة العلنية الخطابية مع سلطة الخلافة ، تأخرت لغياب بعض شخصياتها خارج المدينة مثل بريدة الأسلمي وخالد بن سعيد بن العاص (٢٣٦) .

ولذلك حينما علم الخليفة أبو بكر وعمر بن الخطاب بهذا التحرك أرادوا محاصرته واحتواءه بسرعة ، فتشاوروا مع أبي عبيدة بن الجراح والمغيرة بن شعبة ، وهؤلاء كانوا جميعهم يمثلون أركان السلطة ، في الليلة نفسها ، والتقوا العباس بن عبد المطلب

حيث عرضوا استئثاره إليهم ، وأغروه بأشراكه وعقبه في السلطة ، ولكنه امتنع من التعاون معهم (٢٣٧) .

١٣ - سلطة الخلافة والعترة :

استشار رجال المعارضة من المهاجرين والأنصار علماً فيما يأمرهم بفعله لاعتقادهم بحقه في الخلافة واستنكارهم لما تم في سقيفة بني ساعدة . فأوضح إليهم ما أوعز إليه رسول الله (ص) من غدر الأمة وانقلابها بعده وتكليفه بالجهاد إذا توفر الناصر ، وبالكف في حال الخذلان .

وبين الإمام علي لرموز المعارضة أنه اصطحب زوجته وولديه ليلاً ومَرَّ بهم على بيوت البدرين ، وذلك بعد دفنه رسول الله (ص) لإلقاء الحجة على الناس وتنفيذاً لأمر الرسول (ص) ، قال : «فما أجابني إلا أربعة وهم : المقداد ، سلمان ، أبو ذر الغفاري ، وعمار» (٢٣٨) .

وأخيراً أشار عليهم الإمام علي بالالتقاء بأبي بكر بأجمعهم وتعريفه ما سمعوه من رسول الله (ص) لتأكيد الحجة عليه ، فذهبوا إلى المسجد فأحدثوا بالمنبر ، وكان يوم جمعة . فلما صعد أبو بكر المنبر بدأ فريق المهاجرين الحوار مع أبي بكر ، وكان أول المتحدثين خالد بن سعيد بن العاص ، وقد ذكّر رجال المعارضة أبا بكر في كلماتهم بجميع الأحاديث والآيات والمقامات التي نصت على مكانة العترة ، وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب (٢٣٩) .

ويقول راوي الخبر ، عن الإمام الصادق (ع) ، ابان بن تغلب :

وأفحم أبو بكر على المنبر فأنزله عمر ، وقال له : «يا لكع ، إذا كنت لا تقوم بحجة فلم أقمت نفسك هذا المقام ؟ والله لقد هممت أن أخلعك وأجعلها في سالم مولى حذيفة ، وانطلقا فلم يدخلوا مسجد رسول الله (ص) إلا بعد ثلاثة أيام (٢٤٠) . وفي اليوم الرابع ، حضر رجال سلطة الخلافة بأجمعهم يحرسهم أربعة آلاف سيف في مقدمتهم عمر وخالد بن الوليد وسالم مولى حذيفة ومعاذ بن جبل فدخلوا المسجد شاهرين السيوف ، فقال عمر : «والله ، يا أصحابه علي ، لئن ذهب الرجل منكم يتكلم بالذي تكلم به بالأمس ، لناخذن الذي فيه عيناه» (٢٤١) .

وكان جميع الممتنعين عن البيعة بالمسجد، وهم علي والهاشميين وجماعة المعارضة الاثني عشر - وأوشكت أن تحدث مواجهة بين الفريقين لولا أن تداركها علي فصرف أصحابه من المسجد، وقال: والله لا أدخل إلا لزيارة رسول الله (ص) أو لقضية أقضيها، فإنه لا يجوز لحجة أقامه رسول الله (ص) أن يترك الناس في حيرة» (٢٤٢).

ونتيجة لتأخر علي عن البيعة مع بني هاشم وباقي المعارضين فإن رجال سلطة الخلافة رأوا أن استمرار ذلك الوضع يشكل خطراً على كيانه السياسي الوليد خاصة لما يتمتع به المعارضون للبيعة مع قلتهم من مكانة في المجتمع الإسلامي آنذاك سواء داخل المدينة أم خارجها ولذلك قرروا إلحاح علي للمبايعة، خاصة وأن بيت علي صار ملتقى للمعارضين لسلطة الخلافة فصاروا يبعثون الرسل إليه يحثونه على المبايعة، ويحدث ابن أبي الحديد عن غسان بن عبد الحميد في شأن إلحاح السلطة على مبايعة علي قائلاً: «لما أكثر في تخلف علي (ع) عن بيعة أبي بكر واشتد أبو بكر وعمر عليه في ذلك خرجت أم مسطح بن أثانة، فوقفت عند قبر الرسول (ص) وقالت: (٢٤٣).

كانت أمور وأنباء وهنبشة لو كنت شاهداً لم تكثر الخطب
أنا فقدناك فقد الأرض وإبلها واختل قومك فاشهدهم ولا تغب

وكان علي قد اعتكف في بيته بعد أن خذله مجتمع المدينة وتفرغ لجمع القرآن وفقاً لوصية الرسول (ص) حيث أخبره النبي بكل ما يجري عليه وعلى العترة بحضور زوجته والحسين (٢٤٤).

وذهب عمر بن الخطاب مع جماعة فيهم خالد بن الوليد وفتنذ بن عمر وزيد بن أسلم وأسيد بن حضير وسلمة بن سلامة إلى بيت علي فوجدوا الباب مغلقاً فنادوا علياً للخروج للبيعة فلم يجبههم أحد فهتددهم عمر بحرق البيت قائلاً: «والذي نفسي بيده لتخرجن إلى البيعة أو لأحرقن البيت عليكم» (٢٤٥) وإلى هذا التهديد لبنت العترة بالحرق يشير شاعر النيل في ديوانه قائلاً: (٢٤٦)

وقولة لعلي قالها عمر أكرم بسامعها أعظم بملقيها
حرقت دارك لا أبقي عليك بها إن لم تباع، وبنت المصطفى فيها

ما كان غير أبي حفص يفوه بها أمام فارس عدنان وحاميها فلما سمعت فاطمة الزهراء ذلك وهي لا تزال مهدودة الأركان لمصاب والدها خرجت فوقفت على الباب، ثم قالت:

«لا عهد لي بقوم أسوأ محضراً منكم، تركتم رسول الله جنازة بين أيدينا وقطعتم أمركم فيما بينكم، فلم تؤمرونا، ولم تروا لنا حقنا، كأنكم لم تعلموا ما قال يوم غدیر خم؟! والله، لقد عقد له يومئذ الولاء ليقطع منكم بذلك الرجاء، ولكنكم قطعتم الأسباب بينكم وبين نبيكم، والله حسيب بيننا وبينكم في الدنيا والآخرة» (٢٤٧).

ولما فتحت فاطمة الزهراء الباب دفعه عمر فاخترت وراء الباب كما جاء في الرواية: «فعضها بالباب، فكان ذلك سبب اسقاطها ودلّل انه كان سبب موتها، ودخلوا فوثبوا على أمير المؤمنين عليه السلام فأخرجوه عنفاً فحالت فاطمة عليها السلام بينهم وبينه وقالت والله، لا أدعكم تخرجون بابن عمي ظملاً، ويلكم ما أسرع ما ختم الله ورسوله فينا، فأمر عمر بن الخطاب قنّذ بن عمر فضرها بسوط حتى أثّر في جسمها وخرجوا بعلي عليه السلام يقودونه إلى مجلس أبي بكر إلى أن وصلوا به ثم عرضوا عليه البيعة له فامتنع فوضعوا يده قهراً في يد أبي بكر فضم أصابعه فأرادوا فتحها فلم يمكنهم فمسح عليها أبو بكر وهي مضمومة وقالوا انه بايع» (٢٤٨). وخرج من كان مع علي في الدار من الهاشميين ووجوه المهاجرين، مثل المقداد وسلمان وأبي ذر والزبير إلى أبي بكر حيث بايعوا كرهاً. وهؤلاء هم الوحيدون الذين بايعوا آخر الناس بالمدينة بالإكراه لا بالرضا (٢٤٩). وعلى الرغم من هول ما حدث ببیت العترة من قبل رجال السلطة لتعديدهم على بيت آل رسول الله وترويعهم الأطفال والنساء وما حدث للزهراء الا أنها خرجت في طلب ابن عمها خوفاً على حياته.

فقد رُوي عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «لما استخرج أمير المؤمنين، صلوات الله عليه من منزله، خرجت فاطمة (ع) فما بقيت هاشمية إلا خرجت معها حتى انتهت قريباً من القبر، فقالت: خلوا عن ابن عمي، فوالذي بعث محمداً بالحق لئن لم تخلوا عنه لأنشرن شعري، ولأضعن قميص رسول الله (ص) على رأسي،

ولأصرخن إلى الله تبارك وتعالى ، فما ناقة صالح بأكرم على الله مني ، ولا الفصيل بأكرم على الله من ولدي . قال سلمان (رض) : كنت قريباً منها ، فرأيت والله أساس حيطان المسجد ، مسجد رسول الله (ص) تقلعت من أسفلها ، حتى لو أراد رجل أن ينفذ من تحتها نفذ ، فدنوتُ منها فقلت يا سيدي ومولائي ، إن الله تبارك وتعالى بعث أباك رحمة ، فلا تكوني نقمة . فرجعت ورجعت الحيطان حتى سطعت الغبرة من أسفلها فدخلت في خياشيمنا (٢٥٠) . وخاطب سلمان الفارسي الصحابي الجليل المسلمين في المسجد بعد أن بايع كُرهاً فقال : «أصبتم ذا السن منكم وأخطأتم أهل البيت لو جعلتموها فيهم ما اختلف عليكم اثنان ولا أكلتموها رغداً» (٢٥١) .

ومهما كانت صحة هذه الروايات ، أو عدمها بشأن تعامل رجال سلطة الخلافة مع العترة إلا أن هناك إجماعاً لرواة المدرستين الإسلاميتين ، الإمامة والخلافة بأن عمر ابن الخطاب هدد بحرق بيت العترة وأن حرمة البيت هتكت ، وأخرج علي بالاكراه من بيته للمبايعة . ولا شك أن هتك حرمة بيت ذرية الرسول يعني هتك حرمة رسول الله (ص) وقبره لا يزال ندياً ، فكانت تلك الخطوة بداية لانتهاك حرمة الإنسان في دولة النبوة إلى يوم القيامة . لقد تزعزعت الأركان التي قامت عليها دولة النبوة وهي الحق والعدل والمساواة والحرية . كما سيتضح ذلك فيما بعد . ان نظام الخلافة بعد الرسول هو نظام سياسي مستحدث لا تتفق مصالحه وتطلعاته مع نظام الامامة والولاية الذي وضعه الرسول (ص) كنظام الهي نصي . فمن الناحية السياسية البحتة فإن كل ما قام به رجال سلطة الخلافة يعتبر عملاً صحيحاً لحماية مشروعهم وتوفير كل أسباب الأمن والنجاح له . ويعتبر عمر بن الخطاب صاحب الفضل الأول لنجاح نظام سلطة الخلافة وتوفير كل أسباب سلامته منذ قيامه . إلا أن أبا بكر لم يكن يملك حماساً وإقداماً للسلطة كالذي امتلكه عمر . ولذلك بعد أن بايع علي ومن معه خطب الناس واعتذر إليهم وقال :

«ان بيعتي كانت فلتة وقي الله شرها ، وخشيت الفتنة وأيم الله ما حرصتُ عليها يوماً قط لقد قلّدت أمراً عظيماً ما لي به طاقة . . . » (٢٥٢) .

ويمكن أن يكون اعتذاره للأمة بسبب انتهاك حرمة بيت عترة الرسول (ص)

الذي ترك أثراً سيئاً في نفوس المسلمين . ولذلك لم يخف أبو بكر ندمه وإحساسه بالذنب على تلك الجرأة ، وترويع آل رسول الله وإيذائهم . فما قاله لابنه عبد الرحمن ، وهو على فراش الموت : «وددت أنني لم أكن كشفت عن بيت فاطمة وتركته ولو أغلب على خرب . وودتُ أني يوم سقيفة بني ساعدة كنتُ قدفْتُ الأمر في عنق أحد الرجلين عمر أو أبي عبيدة ، فكان أميراً وكنتُ وزيراً . . . » (٢٥٣) .

وفي الوقت الذي تجمع فيه مصادر مدرسة الإمامة على أن علياً بايع كرهاً في حياة فاطمة الزهراء إلا أن بعض مصادر مدرسة الخلافة تقول إن علياً بايع طوعاً بعد وفاة فاطمة (٢٥٤) ، وبعضها الآخر يقول بايع برضا في حياة فاطمة ، بعد استخدام العنف معه كالتهديد بحرق بيته ، واقتياده من بيته إلى المسجد ومعه الزبير بن العوام وآخرون من أنصاره (٢٥٥) .

لم يكن اقتحام بيت آل رسول الله ، وهتك حرمتهم وإيذائهم واكرهه علي على البيعة مع الصَّفوة من صحبته نهاية المطاف فقد عمدت سلطة الخلافة إلى تجريد فاطمة الزهراء من نحلتهما فذلك التي نحلها إياها والدها (ص) في حياته وهي عبارة عن قريتين من قرى خيبر ، حيث أن رسول (ص) لم يوجف عليهما بخيل ولا ركاب ، وصالح أهلها على نصف المحصول ومنحها فاطمة ابنته (٢٥٦) بعد نزول الآية : ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ . . . ﴾ (٢٥٧) .

وكانت خيبر مليئة بالبساتين ، ومن أشهرها بساتين فذك ولأهمية محاصيلها روي عن عائشة قالت : «لما فتحت خيبر قلنا الآن نشبع من التمر» (٢٥٨) . وعن ابن عمر قال : «ما شبعنا حتى فتحنا خيبر» (٢٥٩) .

إن استيلاء سلطة الخلافة على ميراث فاطمة الزهراء ، في خيبر ، قد يكون من متطلبات توفير أسباب النجاح للنظام السياسي الجديد واجراءً وقائياً للحيلولة دون أن يستثمره علي ويستفيد من امواله في اعداد ثورة مسلحة ضد السلطة الجديدة .

ولما علمت فاطمة الزهراء بما أقدمت عليه سلطة الخلافة بالسيطرة على ميراثها من والدها ، ذهبت إلى أبي بكر تلتسمه أن يرد لها ارثها . وجاء في صحيح البخاري ، باسناده عن عائشة ، أن فاطمة بنت النبي (ص) أرسلت إلى أبي بكر تسأل ميراثها

من رسول الله (ص) مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر، فقال أبو بكر:

«ان رسول الله قال: لا نورث ما تركناه صدقة. إنما يأكل آل محمد من هذا المال، وإني والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله ولأعملنَّ فيها بما عمل رسول الله (ص)». فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئاً، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرتة فلم تكلمه حتى توفيت» (٢٦٠). وقد استغربت فاطمة الزهراء من حديث الارث الذي رواه لها أبو بكر خلال لقائها معه، لأنها لم تسمع به مع أنها بنت النبي (ص) وأقربهم إليه وتعلم بالقرآن والسنة أكثر من غيرها ولذلك أخرج ابن قتيبة قولها في جوابه: يرثك أهلك ولا نرث رسول الله؟ وأخرج الترمذي أنها قالت: «من يرثك؟ قال: أهلي وولدي، قالت: فإني لا أرث أبي؟ وقالت له: أترث أباك ولا أرث أبي؟ أين أنت من قوله تعالى: ﴿وورث سليمان داود...﴾ (٢٦١)، وقول زكريا ﴿...﴾ فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب...﴾ (٢٦٢). وإذا أجمع على أنها أنت بآيتي الميراث في احتجاجها وثبت الدليل على عصمتها كما جاء في آية التطهير وجب الجزم بحقية قولها (٢٦٣). ويمكن أن يقال ان ما لحق ذرية الرسول من ظلم وجور إنما هو حسد وحقد من قريش لعلي ونكاية فيه. اكتشفت فاطمة الزهراء من خلال حديثها مع أبي بكر أن رجال السلطة مصرّون على التمسك بموقفهم على إبعاد الحق عن ذرية الرسول (ص) ليكونوا عبرة لمجتمع دولة النبوة في ذلك الوقت فصممت على مواجهتهم على الرغم من تدهور صحتها، كما عازمت على كشف الحقائق للأمة الإسلامية من خلال مجتمع المدينة وتعريفهم بأبعاد ما حصل لعنة الرسول (ص) بعد رحيله بزمان قصير.

واختارت يوم جمعة لتوجيه خطبتها إلى جمهور المدينة لإلقاء الحجة عليهم لتقاعسهم عن نصرة آل رسول الله بعد اغتصاب حقهم. ومن دون خطبتها الطبرسي في الاحتجاج حيث قال (٢٦٤): روى عبد الله بن الحسن بإسناده عن آبائه (ع) أنه لما أجمع أبو بكر على منع فاطمة فدكاً وبلغها ذلك لاثت خمارها على رأسها واشتملت بجلبابها وأقبلت في لمة من حفدتها ونساء قومها تطأ ذيولها ما تحرّم من مشية رسول

الله (ص) شيئاً فدخلت عليه وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم فنيطت دونها ملاءة فجلست ثم أتت أنه أجهش القوم لها بالبكاء فارتجّ المجلس ثم أمهلت هنيهة حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله أبيها (ص) فعاد القوم في بكائهم فلما امسكوا عادت في كلامها وبدأت خطبتها (٢٦٥).

ويمكن أن نستنتج من خطبة فاطمة الزهراء الكثير من الأمور ومن أهمها:

١ - رباطة جأشها وشجاعته وقوة إرداتها مع تراكم المصائب عليها كما عبرت عن ذلك في الشعر الذي رثت به والدها وكانت تردده على قبره الشريف . تلك المصائب تمثلت - إذا صححت الروايات - في فقد والدها ، وانتهاك حرمة بيتها الذي كان الرسول (ص) لا يدخله قبل الاستئذان ، وضربها واسقاط جنينها وترويع أطفالها ، على الرغم من مكانتهم العظيمة عند رسول الله ، واقتياد زوجها من بيته إلى المسجد على الرغم من دوره العظيم في تشييد أركان الدين ومكانته الفريدة عند الرسول (ص) واستبعاده عن منصبه الإلهي كوصي لنيه على أمته .

٢ - فصاحة الزهراء وقوة بلاغتها وغزارة علمها ، ولا عجب في ذلك فهي خريجة حجر النبوة وزوجة الوصي ، وهو سيد العرب وأفصحهم .

٣ - تأكيدها للحاضرين ، بعد تعريف نفسها أنها تتوخى الصدق والحق لكي تجذب انتباه الناس لأهمية مضمون خطبتها .

٤ - إيضاحها الدور الذي قام به والدها للتم شتات العرب وهدايتهم بعد ان كانوا متفرقين فجاءهم بشريعة سماوية تضمن لهم سعادة الدارين وجعل منهم نواة لأمة دولة النبوة التي تقوم على مبادئ ثابتة .

٥ - تأكيد الدور الفعال الذي قام به زوجها لبناء صرح الإسلام ودولة النبوة ونفضاله الدؤوب في كل الحروب بين يدي رسول الله (ص) وتذكيرها الناس بالجنباء الذين كانوا يفرون من ساحات القتال .

٦ - إيضاحها أن ما أقدموا عليه من بيعه إنما هو خلاف للكتاب والسنة .

٧ - خاطبت الرجل الأول في سلطة الخلافة أبا بكر بالاسم وسألته عن مصادرة ارثها باستغراب وحاججته بالقرآن ، وكذبت بطريق غير مباشر وفضحت أعمال

رجال سلطة الخلافة أمام الملاء بأن ما قاموا به لا يتفق مع الكتاب والسنة حينما قالت: «أفخصكم الله بآية وأخرج منها أبي؟». انها تشير بذلك إلى الحديث الذي أورده عن النبي (ص) خلال لقائها الأول به حينما طالبت به بإرثها فقال: «قال رسول الله (ص): نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة». وترد عليه بقول رسول الله (ص): «إذا ورد عني حديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فاقبلوه والا فردوه».

٨ - تعلن للملاء عن ظلامتها، وتعاهد خليفتهم على السكوت عن حقها حتى تلقى الله وتشكوه يوم المحشر عند الله ورسوله.

٩ - في الوقت الذي أشادت فيه بجهود الأنصار للدفاع عن الدين والمسلمين واحتضانهم لدولة النبوة عابت عليهم صمتهم وتحاذلهم عن نصرة آل رسول الله (ص) وانتهاك حرماته واغتصاب حقهم في خلافة رسول الله وتؤكد أن هدفها من اللقاء تلك الخطبة، هو اللقاء الحجة على الناس وتذكرهم بأن بيعة السقيفة ستكون عاراً أبدياً عليهم في الدنيا وعقاباً في دار الآخرة.

١٠ - أما أبو بكر فإنه، في الوقت الذي يثني فيه عليها يؤكد أن مصادرة ارثها يتفق مع السنة النبوية فهو لم يجد عنها.

١١ - اتهام فاطمة الزهراء رجال السلطة بالتزوير على أبيها بعد مماته وتشبه ذلك بالمؤامرات التي تعرض لها في حياته (٢٦٦). وتمسكها بالاحتجاج بالآيات القرآنية الخاصة بتوريث الأنبياء لأولادهم يؤكد ان مصادرة ارثها جزء من مؤامرة دبروها.

١٢ - حاول أبو بكر احتواء سخط فاطمة وغضبها بتلقي تقريرها بصدر رحب حتى لا يثير سخط المسلمين الذين سمعوا الكثير من الأحاديث عن رسول الله (ص) التي تنص على علو مكانتها عند الله ورسوله ويكرر ثناءه على كلامها، ويشيد بعظيم مكانتها. وقد عرف أن المطالبة بالارث ليست غاية وإنما هو وسيلة لغاية أكبر وهي المطالبة بحق علي في الخلافة. لذلك قال لها إن المسلمين قلدوني هذا الأمر بناء على اتفاقهم ودون إجترأ عليهم، وهم يشهدون بذلك.

١٣ - ولذلك، فإن فاطمة الزهراء اختتمت خطبتها بتوجيه نقد لاذع لجمهور

الحاضرين من المسلمين ، وأخذت تقرعهم بآيات قرآنية وتذكرهم بالعواقب الخطيرة التي ستترتب على ما أقدموا عليه .

أما الآيات التي ذُيِّلَت بها الخطبة ، وخاطبت بها قبر والدها فتفصح فيها عن خيانة الأمة لعهد رسول الله ، وأن رجال السلطة أظهروا للعترة بعد ممات الرسول ما أضمره في حياته ، فأصبح آلُه مستضعفين بعده ؛ حيث اغتصب الارث كله .

ان الحركة التي قامت بها الزهراء ليس هدفها المطالبة بقطعة من الأرض خاصة وأنها قد علمت بسرعة لحاقها بوالدها بعد وفاته وهي الزهراء الورعة التقية التي تعودت على شظف العيش برضا ، وإنما تلك الحركة تعبيراً عن رفضها لسياسة الأمر الواقع التي كان رجال السلطة بصدد فرضها باستحداث نظام سلطة الخلافة واغتصاب الارث النبوي ، لذلك فإنَّ خطابها يأتي تعرية تامة لما أقدمت عليه سلطة الخلافة وكأنها تقول للأمة في محاولة لكشف الحقيقة لهم : لقد زوروا سيطرتهم على الارث النبوي وهو امانة المؤمنين التي كانت حقاً لعلي كما زوروا مصادرة فدك من الزهراء .

وبما أن مصادرة فدك لا تتفق مع الكتاب والسنة فكذلك السيطرة على الخلافة .

أما بالنسبة لكلمتها العتابية التي وجهتها لابن عمها الإمام علي (عليه السلام) بعد عودتها إلى المنزل حيث كان في استقبالها فيمكن أن تكون كشف سر موقفه إلى الأمة لتعريفها أن سكوته واعتكافه في البيت ناتج عن أمرين : تقيده بوصية الرسول من جانب وخذلان الأمة وتخليها عن نصرته من جانب آخر وقد وجهت إليه كلمات قاسية تهذُّ الجبال وتنطق الصخر تصدر من قلب مفعم بالألم والحسرة ويحترق على مصير الأمة وما ستلقاه من ويلات . إنها كانت تنظر ببصيرة تربية النبوة ، كما وضحت في تلك الكلمات البليغة ما لحق بها ، من ضيم وانفردت بها الأمة بدون كفيل فهذا علي الليث المصور أصبح سجين عرينه قد سجنته وكثفته وصبة أخيه وابن عمه الرسول (ص) . هذا البطل المغوار الذي بلغت إصاباته في أحد نيفا وسبعين جرحاً حيث قتل أصحاب الألوية وفي خير قتل بطل اليهود مرجاً ودحا باب حصن خيبر وجعله ترساً يقاتل به الأعداء ، وها هو بعد رسول الله يصبح قعيد داره ، تهتك حرمة الدار ، ويقاد إلى المسجد للمبايعة . لذلك تقرعه الزهراء بكلمات قاسية

وتشكرو وحدتها بعد رسول الله (ص) فأصبحت وحيدة بغير كفيل لأن كفيلها مقيد .

لذلك يمكن القول . إذا كانت شجاعة علي قد أذهلت معاصريه ، فإن صبره على تجميع غصص المحنة كان أعظم من شجاعته .

لذلك تقبل كلمات الزهراء القاسية بصدر رحب ، وطلب منها ان تحتسب ظلامتها عند الله . إن الحركة التي قامت بها الزهراء لمقارعة السلطة واستنهاض الأمة إنما هي أداء لدورها الرسالي الذي يفرضه عليها واجبها الديني فقامت به خير قيام .

ان الزهراء التي كانت تخاطب جماهير المسلمين في المسجد وكأنها تسألهم : كيف ترضون نظاماً لا يقيم حرمة لآل رسول الله ؟

هذه هي البداية . هذا هو ما حل بالعترة كيف سيكون مصيركم أنتم ؛ لقد أدت الزهراء رسالتها وتوقعت الذل والهوان للأمة . لقد استشرفت مستقبل الأمة الإسلامية في خطبتها من خلال ما حدث لعترة الرسول ، فهل صدقت تنبؤات الزهراء بما يلحق أمة الإسلام من ذل وعار في الحياة أم لا؟

لقد رسمت الزهراء ، بحركتها الرسالية تلك ، للمجتمع النسائي في دولة النبوة نموذجاً للدور الذي يجب أن تضطلع به المرأة في الأوقات العصيبة التي تعصف بالأمة والوطن . فهي قد رسمت ، بتلك الخطوات نموذجاً يستحق أن يحتذى لأجيال الأمة من النساء في دولة النبوة عبر تعاقب الأجيال والعصور .

إن حركتها تلك أشبه ما تكون بتظاهرة نسائية . انها درس للمجتمع النسائي في دولة النبوة وكأنها بحس التربية النبوية تقول للأجيال النسائية هكذا يجب أن يكون دور المرأة حينما تعصف الأخطار والمحن بالأمة . يجب ألا تجلس قعيدة الدار ، وإنما عليها دوراً فضالياً من أجل الدفاع عن مصالح الأمة وسلامة الوطن وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في دولة النبوة لا يقتصر على الرجال وإنما يشمل الجميع .

لقد أدارت الأمة ظهرها لرجل نزلت به ثلاثمائة آية في القرآن كما أخرج ابن

عساكر (٢٦٨) . لقد أنكروا أو تنكروا لبيعة من رُدَّت عليه الشمس ذات يوم كرامة له حينما كان رأس النبي في حجره كما يروي ابن حجر والوحي ينزل عليه وعلي لم يصلَّ العصر فما سُري عنه (ص) إلا وقد غربت الشمس» فقال النبي (ص): «اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فاردد عليه الشمس ولكن ربما أراد الرسول (ص) أن يبين للمسلمين بعض كرامات علي عند الله بأنه إنسان مميز بطاعته لله وتأهيله للوصية (٢٦٩) .

وذكر ابن حجر عن أن سبط بن الجوزي حدّثه جماعة من مشايخ العراق «أنهم شاهدوا أبا منصور ابن أزدشير القباوي الواعظ ذكر بعد العصر، الحديث المذكور عن ردّ الشمس على علي وذكر فضائل أهل البيت فقطعت سحابة الشمس حتى ظن الناس أنها قد غابت فقام على المنبر وأومأ إلى الشمس وأنشدها:

لا تغربي يا شمس حتى ينتهي مدحي لآل المصطفى ولنجله
واثني عنائك إن أردت ثناءهم أنسيّت إذ كان الوقوف لأجله
إن كان للمولى وقوفك فليكن هذا الوقوف لحيله ولرجله (٢٧٠)
قالوا: فانجاب السحاب عن الشمس وطلعت (٢٧١) .

لقد خذلوا رجلاً، تجمعت فيه صفات لم تجتمع في أحد من الخلق غيره . لذا فحينما وصل إليه كتاب من معاوية يتضمن فخراً خلال خلافته (٣٥ - ٤٠ هـ) قال لغلامه أكتب إليه ، ثم أملى عليه: (٢٧٢)

محمد النبي أخي وصهري وحمة سيد الشهداء عمي
وجعفر الذي يمسي ويضحى يطير مع الملائكة ابن أمي
وبنت محمد سكني وعُرسني منوطاً لحمها بدمي ولحمي
وسبطاً أحمد ابناي منها فأيكموا له سهم كسهمي
سبقتكم إلى الإسلام طُراً غلاماً ما بلغت أوان حلمي
ومن الجدير بالذكر أن رواة مدرستي الإمامة والخلافة يتفقون على حديث الأئمة

الأثني عشر وأنهم من قريش ، ولكن يختلفون على النص عليهم وتحديدهم . أخرج الطبراني عن جابر بن سمرة أن النبي (ص) قال : « يكون بعدي اثنا عشر أميراً كلهم من قريش » (٢٧٣) .

كذلك يتفقون على الأحاديث الخاصة بالمهدي الذي سيخرج آخر الزمان فيملاً الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً . من ذلك ما أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة والبيهقي وآخرون : « المهدي من عترتي من ولد فاطمة » (٢٧٤) وفي أخرى لأحمد وغيره : « المهدي من أهل البيت يصلحه الله في ليلة » (٢٧٥) .

وفي أخرى للطبراني : « المهدي منا يحتم الدين بنا كما فتح بنا » (٢٧٦) . وأخرج الحاكم في صحيحه : « يحلُّ بأمّتي في آخر الزمان بلاءٌ شديد من سلاطينهم لم يسمع بلاءٌ أشد منه حتى لا يجد الرجل ملجأ . فيبعث الله رجلاً من عترتي أهل بيتي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ، يحبه ساكن الأرض وساكن السماء ، وترسل السماء قطرها وتخرج الأرض نباتها لا تمسك فيها شيئاً . يعيش فيهم سبع سنين أو ثمانياً أو تسعاً يتمنى الأحياء الأموات [كذا .] مما يصنع الله بأهل الأرض من خيره » (٢٧٧) .

ويتفق رُواة المدرستين على جميع هذه الأحاديث المذكورة .

ومن روايات مدرسة الإمامة ، عن الأئمة الاثني عشر ما روي عن محمود بن لبيد قال : لما قبض رسول الله (ص) كانت فاطمة عليها السلام تأتي قبور الشهداء وتأتي قبر حمزة وتبكي هناك ، فلما كان بعض الأيام أتت قبر حمزة رحمه الله فوجدتها صلوات الله عليها تبكي هناك ، فأمهلتهما حتى سكنت فأتيتها فسلمت عليها وقلت : يا سيدة النسوان قد والله قطعت نياط قلبي ؟ فقالت : يا أبا عمر ، يحق لي بالبكاء فلقد أصبت بخير الآباء رسول الله (ص) ثم أنشأت عليها السلام تقول :

إذا مات يوماً ميت قل ذكره وذكر أبي ما دمت والله أكبر

قلتُ : يا سيدتي أسألك عن مسألة تلجلج في صدري ؟ قالت : سل ، قلت : هل نصَّ رسول الله (ص) قبل وفاته على علي بالإمامة ؟ قالت : وإعجابه أنسيتم يوم غدیر خم ؟ قلتُ : كان ذلك ولكن أخبريني بما استر إليك ؟ قالت : أشهد الله

تعالى يقول ولقد سمعته: علي خير من أخلفه فيكم، وهو الإمام والخليفة بعدي وأبو سبطاي، وتسعة من صلب الحسين أئمة أبرار لئن اتبعتموهم لوجدتموهم هادين مهدين، وإن خالفتموهم ليكون الاختلاف فيكم إلى يوم القيامة. قلت: يا سيدتي فلم قعد عن حقه؟ قالت: يا أبا عمر لقد قال رسول الله (ص): مثل الإمام مثل الكعبة اذ تؤتى ولا تأتي. أو قالت مثل علي، ثم قالت: أما والله لو تركوا الحق على أهله واتبعوا عترتي بينهم لما اختلف في الله تعالى اثنان، ولورثتها سلف عن سلف وخلف بعد خلف حتى يقوم قائمنا التاسع من ولد الحسين، ولكن قدّموا من أخره الله وأخروا من قدّمه الله، حتى إذا الحدوا المبعوث وأودعوه الجذث واختاروا شهرتهم وعملوا برأيهم تبّاهم، ألم يسمعو الله يقول: ﴿وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ...﴾ (٢٧٨) بل سمعوا ولكنهم كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿... فَإِنهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾. «هيئات بسطوا في الدنيا آمالهم ونسوا آجالهم، فتعسّأ لهم وأضل أعمالهم، أعوذ بك يا رب من الخور والكور» (٢٨٠). ويمكن أن يستنتج أن دولة النبوة دولة الهية الحكم قائمة على أسس دينية سماوية أفتتحت بمحمد النبي وستختتم بمحمد الوصي، أي خاتم أوصياء النبي الإثني عشر، وهو محمد بن الحسن والملقب بالمهدي والمتنظر، إلى غير ذلك من الألقاب.

وروى ابن مثنى أيضاً بشأن عدد الخلفاء بعد رسول الله (ص) عن أبيه عن عائشة قال: «سألتهما كم خليفة يكون لرسول الله (ص)؟ فقالت: أخبرني رسول الله (ص) انه يكون بعده اثنا عشر خليفة فقلت لها: من هم؟ فقالت: أسماؤهم عندي مكتوبة بإملاء رسول الله (ص) فقلت لها: فاعرضيه فأبت» (٢٨١).

وقد واجهت سلطة الخلافة أول إحراج لها في الرد على مسائل عرضها على أبي بكر وقد نصارى قدم المدينة بعد مبايعة أبي بكر وأسند الطوسي في أماليه وابن جبر في كتاب «الاعتبار في ابطال الاختيار»، إلى سلمان الفارسي (المحمدي) أنه قدم على أبي بكر نصارى وفيهم جاثليق فقال: وجدنا في الانجيل رسولا بعد عيسى وفي كتبنا لا تخرج الأنبياء من الدنيا إلا ولهم أوصياء، فقال عمر: هذا خليفة رسول الله.

فقال الجاثليق: بم فضلتُم علينا؟ قال أبو بكر: نحن مؤمنون، وأنتم كافرون، قال: فأنت مؤمن عند الله أم عند نفسك؟ قال: عند نفسي ولا علم لي بما عند الله، فقال: أنا كافر عندك أم عند الله؟ فقال عندي ولا علم لي بما عند الله. قال: أنت شاكٌّ في دينك، ولست على يقين من دينك، قال: أفتصل بيا أنت عليه من الدين إلى الجنة؟ قال: لا أعلم، قال: أفترجو ذلك؟ قال: أجل، قال فما أراك إلا راجياً لي وخائفاً على نفسك، فما فضلك عليّ؟ وكيف صرت خليفة النبي (ص) ولم تحط علما بما تحتاج إليه الأمة؟ قال عمر: كف عن هذا العبث وإلا أبحننا دمك، قال: ما هذا عدل على من جاء مسترشداً، دلوني على من أسأله.

فجاء سلمان به إلى علي (ع) فسأله، فقال (ع) في جوابه: أنا مؤمن عند الله وعند نفسي، وأصل إلى الجنة بوعد نبيّ، المعلوم صدقه بمعجزاته، قال: أين الله اليوم؟ قال (ع): إن الله أين، فلا أين له، قال فيحسُّ؟ أم بم يعرف؟ قال (ع) تعالى الله عن الحواس، ويعرف بصنائه، قال: فما عندكم في المسيح؟ قال: مخلوق لتغيره. قال: فبم بُنيت الرعية؟ قال (ع): لعلمي بما كان وما يكون. قال: هات برهانه. قال: أظهرت في سؤالك الاسترشاد، وأضمرت خلافه، وأريت في منامك مقامي، وحذرت من خلافي، فأسلم الجاثليق ومن معه، وأقرُّوا بوصايته. فقال عمر: يجب أن تعلم أن الخليفة من خاطبت أولاً برضى الأمة، فأبى ذلك، فقال عمر: لولا أن يقول الناس قتل مسلماً لقتلته، وإني أظنه شيطاناً يريد إفساد هذه الأمة، ثم توعد من يذكر هذه القصة^(٢٨٢) إنه يُعد قضاء حاجة النصارى، وهي الرد على استئثارهم، جزءاً من واجب عليّ كإمام للأمة. ومع تنحيه عن قيادتها فإنه قد سد ثغره لا طاقة لسلطة الخلافة على سدّها، ولذلك حرص رجال سلطة الخلافة على التقرب من علي واسترضائه ومشاورته في الكثير من الأمور واتفقوا على موافقه الإيجابية لدعم وحدة الأمة وخدمة الدين.

بعد كل تلك الأحداث الجسام التي عاشتها عترة الرسول وفي مقدمتهم فاطمة الزهراء التي تلقت المصائب بإيمان عميق وصبر لا ينضب انهارت قواها الجسمية واستسلمت للمرض وكان فيه نهاية حياتها المليئة بالنضال من أجل الدين والأمة. وقد شاع خبر ملازمتها الفراش بين مجتمع المدينة من المهاجرين والأنصار، وندم القوم على سوء صنيعهم مع العترة وخذلانهم بضعة رسول الله (ص).

روى ابن قتيبة ، في الإمامة والسياسة أن عمر قال لأبي بكر: «انطلق بنا إلى فاطمة فإننا قد أغضبناها». فانطلقا جميعاً فاستأذنا على فاطمة فلم تأذن لهما فأتيا علياً فكلماه فأدخلهما عليها. فلما قعدا عندها حوَّلت وجهها إلى الحائط، فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام فتكلم أبو بكر فقال: «يا حبيبة رسول الله والله إن قرابة رسول الله أحبُّ إليَّ من أن أصل قرابتي وانك أحبُّ إليَّ من عائشة ابنتي، ولوددتُ يوم مات أبوك أني ميت ولا أبقى بعده. أفتراني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله إلا أني سمعت رسول الله (ص) يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورث وما تركناه فهو صدقه». فقالت: «أرأيتم إن حدثتكم حديثاً عن رسول الله (ص) تعرفانه وتفعلان به؟» قالوا: نعم فقالت: «نشدتكم الله، ألم تسمعا رسول الله (ص) يقول: «رضا فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي فمن أحب فاطمة فقد أحبني، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟» قالوا: نعم سمعناه من رسول الله (ص) فرفعت عند ذلك كفيها نحو السماء وقالت: «فإني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتاني ولئن لقيت النبي (ص) لأشكونكما إليه فقال أبو بكر: اني عائد بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة» ثم انتحب يبكي حتى كادت نفسه أن تزهق وهي تقول: «والله لأدعون عليك في كل صلاة أصلها، وأبو بكر يبكي ويقول: «والله لأدعون الله لك في كل صلاة أصلها». . ثم خرج باكياً (٢٨٣).

ولا شك في أنه كان لكلمات الزهراء وقعا عنيفا في نفسيهما وعلى مسامعهما وغادرا دار فاطمة التي يغضب الله لغضبها ويرضى لرضاها دون أن يتمكننا من استرضائها ودن أن تقبل عذرهما .

ثم اجتمع الناس إلى أبي بكر، فقال لهم مخاطباً: «أبييت كلَّ رجل منكم معانقاً لحليلته مسروراً بأهله، وتركتُموني وما أنا فيه، لا حاجة لي في بيعتكم أقيلوني بيعتي» فقالوا: «يا خليفة رسول الله، إنَّ هذا الامر لا يستقيم وأنت أعلمنا بذلك، إنَّه إن كان هذا لا يقيم لله دين». فقال: «والله لولا ذلك وما أخاف من رخاء هذه العروة، ما بتُّ ليلة ولي في عتق مسلم بيعة». بعدما سمعتُ ورأيت من فاطمة (٢٨٤).

ولا شك في أن كلمات أبي بكر تترجم صراعه الداخلي مع نفسه وخشيته من سوء العاقبة لما لحق بعتره الرسول (ص) من أذى وإحساسه بعقدة الذنب.

ولما أشدت عليها المرض بادرت لزيارتها نساء المهاجرين والأنصار. ولما اجتمعن عندها سلمن عليها وقلن لها: «كيف أصبحت من علتك يا ابنة رسول الله (ص)؟» فحمدت الله تعالى وصلت على أبيها وألقت فيهم خطبة بليغة^(٢٨٥) عبرت فيها عن لواجع حزنها ولوعتها وحسرتها تجاه ما حدث للأمة من انحراف إلى درجة أنها فضلت الالتحاق بأبيها (ص) دون حياة الدنيا والعيش في ظل الذل والهوان كما عبرت عن سخطها على أزواجهنَّ بعد تجربتها المرة معهم، حيث خذلوا عترة رسول الله وتخلوا عن نصرتهم وعن عهدهم لله ورسوله. كذلك أظهرت إمتعاضها لرحضة أمر الخلافة عن بيت مهبط الوحي العالمين بأمور الدنيا والدين وهكذا يبدو أن خطبها لا تنطلق من أفق ضيق وإنما تعبر عن واجبها الشرعي وحرصها على الدين والأمة، فلو تمت الخلافة لعلي لأوصلهم إلى شاطئ الأمان والخير وكانت تكثّر من الاعتماد في تلك الخطبة على الآيات القرآنية لتعزّز الحجج التي طرحتها في تلك الخطبة الرائعة كما تنبأت فاطمة الزهراء بمستقبل مظلم للأمة يسوده الجور والظلم واستبداد الطواغيت وختمت خطبتها بأن بثّهم حسرتها لما سيحل بالأمة من ويلات وعندها يندم النادمون حيث لا تنفع الحسرة والندم. ويروي سويد بن غفلة أن زائراتها أخبرن أزواجهن بمضمون تلك الخطبة وبغضب الزهراء عليهم فجاءها قوم من المهاجرين والأنصار معتردين وقالوا: «يا سيدة النساء: لو كان أبو الحسن ذكر لنا هذا الأمر من قبل أن يبرم العهد ويحكم العقد لما عدلنا عنه إلى غيره»، فقالت: «إليكم عني فلا عذر بعد تعذيركم ولا أمر بعد تقصيركم»^(٢٨٦).

١٤ - علي يودع فاطمة:

عاشت فاطمة الزهراء بعد أبيها، خمسة وسبعين يوماً كما يروي ابن قتيبة^(٢٨٧)، ولما أحست بدنو أجلها استدعت الإمام علي بن أبي طالب فأوصته بوصاياها، حيث طلبت منه تغسيلها وتكفينها والصلاة عليها ودفنها ليلاً دون أن يخبر أحداً، وأن يعفى موضع قبرها، ولا يميز لأحد من الذين ظلموها حضور جنازتها. كما أوصته أن يتزوج بابنة أختها أمانة لتقوم برعاية أولادها، فضمن الإمام علي أن ينفذ كل وصاياها كما أمرت^(٢٨٧).

ولشدة حياتها كانت تتحرج من حملها على النعش ظاهرة حينما تموت وتؤخذ إلى قبرها علماً بأنها أوصت بأن تدفن ليلاً وأن الحضور سيكونون قلة وهم الصفوة من الموالين لزوجها . فقد روى الطبري في ذخائره عن أم أبي جعفر أن فاطمة (ع) قالت لأسماء بنت عميس : يا أسماء إني قد استقبحت ما يصنع بالنساء . انه يطرح على المرأة الثوب فيصفها . وقالت أسماء يا ابنة رسول الله ، ألا أريك شيئاً رأيته بأرض الحبشة فدعت بجرائد رطبة فحبتها ، ثم طرحت عليها ثوباً فقالت فاطمة ما أحسن هذا وأجمله تعرف به المرأة من الرجل ! فإذا أنا مت فاغسليني أنت وعلي ولا يدخل علي أحد . فلما توفيت جاءت عائشة (ر) تدخل فقالت أسماء : لا تدخل فشتكت إلى أبي بكر قالت : ان هذه الخثعمية تحول بيننا وبين بنت رسول الله (ص) وقد جعلت لها مثل هودج العروس فجاء أبو بكر فوقف على الباب فقال يا أسماء ما حملك على أن منعت أزواج النبي (ص) يدخلن على بنت رسول الله (ص) وجعلت لها مثل العروس ؟ فقالت : «أمرتني أن لا يدخل عليها أحد وأريتها هذا الذي صنعت وهي حية فأمرتني أن أصنع ذلك لها . قال أبو بكر : أصنعي ما أمرتك . ثم انصرف وغسلها علي وأسماء» .

وذكر أنها لما أرتها النعش تبسمت «وما رؤيت مبتسمة يعني بعد النبي (ص) إلى يومئذ» (٢٨٩) .

ومعلوم أن الإبتسامة فارقت فاطمة بعد وفاة والدها لسببين الأول : حزنها العميق على والدها لتعلقها به من ناحية ولشدة تعلقه بأولادها وعدم استغناء كل طرف عن الآخر . الثاني : غدر الأمة بآل البيت بعد وفاته مباشرة حسب إخباره لهم إلا أن حجم الظلم والعدوان فاق كل التصورات على الرغم من تأكيدات القرآن والسنة بحرمة العترة ومكانتهم العظيمة عند الله . هذا إضافة لألمها وحسرتها على ما ستلاقيه ذريتها من الخلافات من أمة أبيها مستقبلاً ، وما سيحل بالأمة من تجاوزات وانحرافات عن الطريق الذي رسمه لها صاحب الرسالة ومؤسس الدولة النبوية . وعن آخر لحظات حياتها روى الطبري عن أم سلمة قالت : «اشتكت فاطمة بنت رسول الله (ص) في مرضها فأصبحت يوماً كاملاً ما رأيناها في شكواها ، فخرج علي ابن أبي طالب لبعض حاجته . قالت فاطمة اسكبي لي يا أمة غسلاً ، فسكبت لها

غسلا فاغتسلت كأحسن ما كنتُ أراها تغتسل . قالت ثم قالت : يا أمة ناوليني ثيابي الجدد ، قالت ، فناولتها ثم جاءت إلى البيت الذي كانت فيه فقالت : قدمي فراشي وسط البيت واضطجعت ووضعت يدها اليمنى تحت خدها ثم استقبلت القبلة ثم قالت : يا أمة اني مقبوضة الآن فلا يكشفني أحد ولا يغسلني أحد . قالت فقبضت مكانها صلى الله عليها قالت ودخل علي ، فأخبرته بالذي قالته وبالذي أمرتني . قال علي والله لا يكشفها أحد فاحتملها فدفنها بغسلها ذلك ولم يكشفها ولا غسلها أحد» (٢٩٠) .

وتعتبر فاطمة الزهراء أول من غُطّي نعشها من النساء في الإسلام على الصفة المذكورة ، وبعدها زينب بنت جحش صنع بها ذلك ، كما رواه البخاري عن أبي عمر (٢٩١) .

وحينما توفيت فاطمة الزهراء علت الصيحة في المنزل فاجتمع الناس حول الدار رجلاً ونساء ، وقد اشتد حزنهم لفراق ابنة الرسول (ص) وللمشاركة في تشييعها . فأمر الإمام ابا ذر بصرفهم وقال : انصرفوا فإن ابنة رسول الله (ص) قد أُخِّرَ اخراجها هذه العشية فقام الناس وانصرفوا (٢٩٢) .

وقام الإمام علي بتكفينها في سبعة أثواب وحنطها بفاضل حنوط رسول الله (ص) ثم صلى عليها وكبر خمسا ودفنها في جوف الليل ، وعفى قبرها ولم يحضر دفنها والصلاة عليها إلا علي والحسنان وعمار والمقداد وأبو ذر وسليمان وعقيل والزبير وبريدة ونفر من بني هاشم وخواص علي (ع) (٢٩٣) .

وروى الحاكم بسنده عن عائشة ، قالت : «دفنت فاطمة بنت رسول الله (ص) ليلاً ولم يشعر بها أبو بكر حتى دفنت وصلى عليها علي بن أبي طالب» (٢٩٤) .

واختلف في موضع دفن فاطمة ، حيث قيلت روايات متعددة . فقليل انها دفنت في بيتها وقيل في البقيع حيث سوى علي (ع) حول قبرها عدة قبور مزورة حتى لا يعرف أحد موضعه (٢٩٥) .

وهناك روايات تقول : دفنت في الروضة . فيروي البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (ص) : «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على

حوضي» (٢٩٦) فربما أن الرسول أشار إليها لأنها ستحوي قبر فاطمة وستكون بذلك إحدى رياض الجنة .

وعن الطبري في دلائل الإمامة ، عن محمد بن همام أن عليا (ع) دفنها بالروضة وعفى موضع قبرها قال واصبح البقيع ليلة دفنت وفيه أربعون قبراً جدداً (٢٩٧) .

وفي مسألة دفنها ليلاً واعفاء قبرها قال أحدهم متسائلاً : (٢٩٨) .

ولأي الامور تدفن ليلاً بضعة المصطفى ويعفي ثراها؟

وروي أن علياً حوّل وجهه إلى قبر رسول الله مناجياً بعد دفنها وقال كلمات (٢٩٩) تفيض بالحزن والأسى على فراقها وفراقه . ويخاطب الرسول خجلاً مما حلى بالزهراء من أمته حتى اضطر لدفنها ليلاً وهي بنت النبوة ، كما يخاطبه باستجواب الزهراء لتخبره بإجماع الأمة على اغتصابها حقها وهو حق العترة ثم يحتكم إلى الله فيما حدث ويودعها . وبعدها وقف على شفير قبر الزهراء وأنشأ (٣٠٠) .

لكل إجماع من خليلين فرقة وكل الذي دون الفراق قليل

وإن افتقادي فاطماً بعد أحمد دليل على أن لا يسدوم خليل

وعن الطبري في دلائل الإمامة عن محمد بن همام أن المسلمين لما علموا وفاتها جاءوا إلى البقيع فوجدوا فيه أربعين قبراً فأشكل عليهم موضع قبرها من سائر القبور فضج الناس ولام بعضهم بعضاً ، وقالوا لم يخلف نبيكم فيكم إلا بنتاً واحدة تموت وتدفن ، ولم تحضروا وفاتها والصلاة عليها ولا تعرفون قبرها . ثم قال ولالة الأمر منهم هاتوا من نساء المسلمين من ينش هذه القبور حتى نجد لها فنصلي عليها ونزور قبرها . فبلغ ذلك أمير المؤمنين (ع) فخرج مغضباً قد احمرت عيناه ودرّت أوداجه وعليه قباؤه الأصفر الذي كان يلبسه في كل كربة وهو متكئ على سيفه ذو الفقار حتى ورد البقيع فسار إلى الناس النذير وقالوا : هذا علي بن أبي طالب قد أقبل كما ترونه يقسم بالله لئن حوّل من هذه القبور حجر ليضعنّ السيف على غابر الآخر . فتلقاها بعضهم ، فقال له : مالك يا أبا الحسن ، والله لننبش قبرها ولنصلي عليها فضرب علي (ع) بيده إلى جوامع ثوبه فهزّه ثم ضرب به الأرض وقال أما حقّي فقد

تركته مخافة أن يرتدَّ الناس وأما قبر فاطمة ، فوالله الذي نفس علي بيده لأن رُمَتْ وأصحابك شيئاً من ذلك لأسقين الأرض من دمائكم ، فإن شئت فأعرض فتلقاه آخر فقال يا أبا الحسن بحق الله وبحق من فوق العرش الا خلّيت عنه فانا غير فاعلين شيئاً تكرهه فخلّى عنه وتفرق الناس ولم يعودوا إلى ذلك» (٣٠١) . ويروى أن الذي تحاور مع علي وهدد بالنّش هو عمر حينما قال : «والله لقد هممت أن أنبشها فأصلي عليها» (٣٠٢) . ويمكن أن يكون دافع أحد رجال السلطة لذلك التهديد هو غضبهم لاستبعادهم عن المشاركة في تشييع بنت النبي وإحساسهم أن ذلك كان إهانة لهم .

وقد توفيت السيدة الزهراء في الثالث من جمادي الآخرة سنة احدى عشرة للهجرة ، وهو المروي عن الإمام الصادق (ع) (٣٠٣) .

وردت روايات مختلفة في تحديد يوم وفاتها ، كما اختلفت تلك الروايات في تحديد عمرها وأقلها يقدر عمرها بثماني عشرة سنة وسبعة أشهر وأكثرها يقدره بتسع وعشرين سنة .

وكذلك اختلفت الروايات في مدة بقائها بعد رسول الله ، فأقل الروايات حدّده بأربعين يوماً وأكثرها بأربعة أشهر وقيل ستة (٣٠٤) .

وظل الإمام علي بعد فراق الأحبة الرسول (ص) وابنته صامدا كالطود الشامخ بعد أن وارى رفيقة دربه الشرى وظهر من خلال مناجاته لها نثرا وشعرا هول الفاجعة ، فراق الأحبة وخذلان الأمة . لقد ظل وحيدا سوى أربعة من كبار الصحابة الأخيار هم سلمان وابو ذر والمقداد وعمار الذين أثبتوا ولاء حقيقياً للعترة فكانوا رفاق دربه الطويل المظلم كما وصفه في احدى خطبه ، وإذا كان قد خاض الغمرات بالأمس بسيفه ذي الفقار فها هو اليوم في عهد سلطة الخلافة يخوض الدرب المظلم بسلاح الصبر والإيمان خلال فترة أبي بكر وعمر وعثمان ، ويحرص على تقديم النصيح والمشورة إليهم .

وإذا كان سيفه ذو الفقار قد لعب دوراً رئيساً في إذلال الشرك وبناء صرح الدين ودولته فها هو اليوم بعلمه وحلمه وحكمته ، يحاول تثبيت وحدة الأمة بتضحيته

للتخفيف من الآثار التي ترتبت على بيعة السقيفة ويتكيف مع الأوضاع القائمة وفقاً لوصية النبي (ص) له ، ولمواجهة أخطار الذين إدَّعوا النبوة ، مثل مسيلمة الكذاب في اليمامة وطليحة بن خويلد الأسدي في نجد (٣٠٥) .

إن فاطمة الزهراء قد رحلت إلى جنان الخلد بعد أن سطرت للأجيال النسائية المتعاقبة في دولة النبوة مواقف شجاعة لا تعتبر موضع فخر واعتزاز للمرأة المسلمة فحسب وإنما لكل نساء العالم . رحلت بعد أن عاشت تجربة مرة وقاسية في طفولتها بمكة وبعد رحيل والدها (ص) . وكما رحل والدها كسير القلب لعصيان الأمة أوامره حيث ارهاصات المؤامرة قد بدأت ، كذلك رحلت الزهراء عن عالم الدنيا إلى عالم الخلود ، وهي مكسورة القلب غاضبة على سرعة تنكر الأمة لآل رسول الله (ص) رحلت وخلفت ذريتها في وسط أمة أبت إلا مواصلة إذلال آل رسول الله ومطاردتهم ، ومع اجماع الأمة على إيذائهم إلا أن الله أبى إلا اعزازهم لقوله تعالى : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ﴾ (٣٠٦) .

لقد منَّ الله على فاطمة الزهراء جزاء صبرها وتضحياتها في سبيل الله أن جعلها أما لأحد عشر إماماً وزوجة لأبيهم ، فهي زوجة الإمام وأُمُّ الأئمة وجميعهم القادة إلى سبيل الله (٢٠٧) وكان زادهم في هذه الحياة الفانية التقوى ، وجعلهم ورثة لعلم الأنبياء جميعاً من أولهم إلى خاتمهم محمد (ص) . وقام علي بتدوين كتاب لفاطمة بعد وفاة أبيها (ص) ليكون سلوة لها ، وأطلق عليه مصحف فاطمة .

وقد أصبح الكتاب أحد موارث الأئمة ، من علي إلى المهدي (ع) . إن الأئمة لم يورثوا ذهباً ولا فضة وإنما ورثوا علماً عن رسول الله عن الله .

روى الصدوق في «الفقيه» عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا (ع) قال : للإمام علامات يكون ، أعلم الناس وأشجع الناس وأعبد الناس وأسخى الناس ويولد مختوناً ويكون مطهراً ، ويرى من خلفه كما يرى من بين يديه ولا يكون له ظل . وإذا وقع على الأرض من بطن أمه وقع على راحتيه رافعاً صوته بالشهادة ولا يحتلم وتنام عيناه ولا ينام قلبه . ويكون محدثاً ويستوي عليه درع رسول الله (ص) ولا يرى له

بول ولا غائط لأن الله عز وجل قد وكل الأرض بابتلاع ما خرج منه وتكون رائحته أطيب من رائحة المسك ويكون أولى الناس منهم بأنفسهم وأشفق عليهم من آبائهم وأمهاتهم ويكون أشد الناس تواضعاً لله - جلّ ذكره - ويكون آخذ الناس بما يأمر به وأكف الناس عما يُنهى عنه . ويكون دعاؤه مستجاباً حتى أنه لو دعا على صخرة لأنشقت نصفين ويكون عنده سلاح رسول الله (ص) وسيفه ذو الفقار ويكون عنده صحيفة فيها أسماء شيعته إلى يوم القيامة وصحيفة فيها أسماء أعدائه إلى يوم القيامة ويكون عنده الجامعة وهي صحيفة طولها سبعون ذراعاً فيها جميع ما يحتاج إليه من ولد آدم ويكون عنده الجفر الأكبر والأصغر وأهاب ماعز وأهاب كبش فيهما جميع العلوم حتى ارش الخدش وحتى الجلددة ونصف الجلددة وثلاث الجلددة ويكون عنده مصحف فاطمة (ع) (٣٠٨) .

وقد انتقلت هذه العلوم إلى الأئمة عن طريق رسول الله (ص) الذي نقلها إلى علي في حياته . ويروى أن رسول الله (ص) حينما مرض مرضه الذي انتقل فيه إلى جوار ربه طلب علياً وأدناه منه وعلمه علوم مدة عمره الشريف بلحظة واحدة . فلذا قال علي (ع) : - لما سئل : ما علمك رسول الله (ص) ؟ - أنه علمني ألف باب من العلم يفتح من كل باب ألف باب ومن هذا صار البطين لتراكم العلوم في صدره الشريف فهو (ع) بعد النبي (ص) ، يقول «اني عرفت الله سبحانه بما علمته من النبي حتى لو كُشف الغطاء لم أزد علماً يضاف إلى معرفتي الكاملة ويحتمل معان أخرى أيضاً» (٣٠٩) .



Digitization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliothèque d'Alexandrie

هوامش الفصل الثاني

- (١) سورة الكوثر: ١-٣.
- (٢) ابن حجر: الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، ج١، ص ١٨٧.
- (٣) نفسه؛ أيضاً، الطبري: ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، ص ٧٢.
- (٤) ابن حجر: نفسه، ج١، ص ١٢٤، ١٥٦.
- (٥) الطبري: المرجع نفسه، ص ٥٣؛ أيضاً العاملي، تاج الدين بن علي: التتمة في تواريخ الأئمة، ص ١٢.
- (٦) الأمين: المرجع السابق، مجلد ١، ج٢، ص ٣٠٧.
- أيضاً الحسيني: المرجع السابق، ص ٦٥.
- (٧) الأمين: نفسه، ص ٣٠٦-٣٠٧.
- (٨) العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع نفسه، ص ١٢؛ أيضاً، الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، ج٢، ص ٣٠٧؛ أيضاً الحسيني: المرجع نفسه، ص ٦٥.
- (٩) الأمين: نفسه؛ أيضاً، الحسيني: نفسه،
- (١٠) بنت الشاطئ: تراجم سيّدات بيت النبوة، عن الحسيني: نفسه.
- (١١) الطبري: المرجع نفسه، ص ٣٦؛ أيضاً الجزائري: الأنوار النعمانية، ج١، ص ٨٠.
- (١٢) الطبري: نفسه، أخرجه أبو الفضل بن خيرون؛ أيضاً، القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ: ص ٨٦.
- (١٣) الطبري: نفسه، ص ٤٥؛ أيضاً، العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع نفسه، ص ١٣.
- (١٤) الطبري: نفسه، ص ٢٥؛ أيضاً، ابن حجر: المرجع نفسه، ص ١٦٠.
- (١٥) العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع نفسه، ص ١٣.
- (١٦) نفسه.
- (١٧) نفسه.
- (١٨) ابن أبي الحديد: المرجع السابق، مجلد ٣، ج١٤، ص ٣٠٧-٣٠٨؛ أيضاً، الأمين: المرجع السابق، مجلد ١، ج٢، ص ٢٣٥.
- (١٩) العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع نفسه، ص ٧.
- (٢٠) الأمين: نفس المرجع، مجلد ١، ج٢، ص ٣٠٧.
- (٢١) عقبة بن أبي معيط.
- (٢٢) البخاري: المرجع السابق، مجلد ١، ج٢، ص ٤٢، ج١١، ص ٢٢٧، ج١٢، ص ٢٤٩، ج١٥، ص ٣٠٠؛ أيضاً الكبداتي: المرجع السابق، ص ٣١٣.
- (٢٣) سورة غافر: ٢٨، انظر البخاري: نفسه، ج٢، ص ٣٩٥.
- (٢٤) الحسيني: المرجع السابق، ص ٦٦.
- (٢٥) سورة القلم: ٤.
- (٢٦) سورة الشعراء: ٢١٤.
- (٢٧) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، ج٢، ص ٢٣٦، ٢٣٩.
- (٢٨) الحسيني: المرجع نفسه، ص ٧٤-٧٥.
- (٢٩) نفسه.

- (٣٠) الطبراني، (٤٣١/٢٢)، والحاكم في المستدرک (٤٣/٤)، وابن هشام (٢٩٧/٢)، والبيهقي في دلائل النبوة (١٥٥/٣) عن يئاني: المرجع نفسه، ص ١٧٣.
- (٣١) سيرة ابن هشام (٣٠٣/٢)، ابن سعد في الطبقات (٢٣/٨)، عن يئاني: نفسه، ص ١٧٤ - ١٧٥؛ أيضاً الحسيني: نفسه، ص ٥٨.
- (٣٢) الحسيني: نفسه، ص ٧٥-٧٦.
- (٣٣) نفسه، ص ٧٦.
- (٣٤) ابن هشام: السيرة البوية، مجلد ١، ج ١، ص ١١١؛ أيضاً، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد ١، ص ٦١٥-٦١٦؛ أيضاً، الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ٢٣٦.
- (٣٥) الأمين: نفسه، ص ٢٣٨.
- (٣٦) نفسه، ص ٢٣٦، ٢٣٩، ج ٣، ص ٣٧٧.
- (٣٧) سورة آل عمران: ١٠٣.
- (٣٨) الأمين: نفسه، مجلد ١، ص ٢، ص ٢٣٨.
- (٣٩) نفسه، مجلد ١، ج ٣، ص ٣٧٨؛ أيضاً ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ٣، ج ١٣، ص ٢٥٧.
- (٤٠) ابن حجر: المرجع السابق، ج ١، ص ١١٥، ١٤١-١٤٢؛ أيضاً الأنسائي: خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ص ١١٤-١١٥.
- (٤١) الحسيني: المرجع السابق، ص ٨١.
- (٤٢) الطبري: المرجع السابق، ص ٢٧-٢٩؛ أيضاً ابن حجر: المرجع نفسه، ج ١-١٤١-١٤٢؛ أيضاً، الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٣، ص ٣٧٨.
- (٤٣) الحسيني: المرجع نفسه، ص ٨٢، أيضاً، الأمين: نفسه، مجلد ١، ج ٣، ص ٣٧٨.
- (٤٤) سورة الشعراء: ٢١٤.
- (٤٥) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ٢٣٦، ٢٣٩.
- (٤٦) نفسه، مجلد ١، ج ٣، ص ٣٧٨.
- (٤٧) الحسيني: نفس المرجع، ص ٨٠.
- (٤٨) ابن حجر: المرجع نفسه، ج ١، ص ١٢٤؛ أيضاً، ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ٣، ج ١٣، ص ٢٥٧.
- (٤٩) الحسيني: نفسه، ص ٨٣.
- (٥٠) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ٢١٩.
- (٥١) نفسه، مجلد ١، ج ٣، ص ٣٢٥.
- (٥٢) نفسه.
- (٥٣) نفسه.
- (٥٤) سورة الحشر: ٩.
- (٥٥) الطبري: المرجع السابق، ص ٢٦-٢٧.

- (٥٦) نفسه ص ٢٧-٢٩؛ الأمين: المرجع نفسه،
 مجلد ١، ج ٣، ص ٣٧٩؛ أيضاً الحسيني: المرجع نفسه، ص ٨٣.
- (٥٧) الأمين: نفسه، ص ٣٧٨.
- (٥٨) نفسه.
- (٥٩) نفسه.
- (٦٠) معمول بهجر في اقليم البحرين.
- (٦١) عباءة قصيرة الحمل معمولة بقطران، موضع بالكوفة.
- (٦٢) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٣، ص ٣٧٩؛
 أيضاً، ابن حجر: المرجع نفسه، ج ١، ص ١٤١-١٤٢.
- (٦٣) الأمين: نفسه؛ أيضاً، النسائي:
 المرجع السابق، ص ١١٥-١١٦.
- (٦٤) الطبري: المرجع السابق، ص ٣٤، خرجه الدولابي.
- (٦٥) نفسه، خرجه أحمد في المناقب. الخميعة: القטיפعة هي كل ثوب له خمل من أي شيء كان، وقيل هي السواد من
 الثياب؛ الخمل: أهداب الثوب.
- (٦٦) الناضح: النواضح: الأبل التي يستقى عليها، ومفردها ناضح.
- (٦٧) الطبري: المرجع نفسه، ص ٣٥.
- (٦٨) نفسه.
- (٦٩) ابن أبي الحديد: المرجع السابق، مجلد ١، ج ١، ص ٣٩؛
 أيضاً: البخاري: المرجع السابق، مجلد ١، ج ١٦، ص ٣٠٨.
- (٧٠) الطبري: نفسه، ص ٣٣-٣٤.
- (٧١) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٣، ص ٣٨٠؛
 أيضاً، الطبري: نفسه، ص ٢٥، ٢٧-٢٩.
- (٧٢) الحسيني: المرجع السابق، ص ٨٦.
- (٧٣) نفسه.
- (٧٤) نفسه، ص ٨٧.
- (٧٥) نفسه.
- (٧٦) نفسه.
- (٧٧) نفسه.
- (٧٨) نفسه.
- (٧٩) نفسه.
- (٨٠) نفسه، ص ٨٦-٨٧.
- (٨١) نفسه، ص ٨٧.
- (٨٢) الطبري: المرجع نفسه، ص ٥١ أخرجه الإمام علي بن موسى الرضا (ع).
- (٨٣) نفسه، ص ٥٠-٥١؛ كما ورد الحديث نفسه بصيغ مختلفة في نفس المصدر، ص ٤٩-٥٠؛
 أيضاً،

- البخاري: المرجع السابق، مجلد ٢، ج ٢٦، ص ٥١١.
- (٨٤) الطبري: المرجع نفسه، ص ٥١، خرجه في الصقوة.
- (٨٥) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٥٤، ١٣١.
- (٨٦) الطبري: نفسه.
- (٨٧) نفسه.
- (٨٨) نفسه، ص ٤٩، خرجه الدوالي.
- (٨٩) لرحته الشمس: غيّرت لونه.
- (٩٠) الشُّح: البخل.
- (٩١) استعبر: دمعت عيناه.
- (٩٢) الطبري: المرجع نفسه، ص ٤٥-٤٧، خرجه الحافظ الدمشقي في الأربعين الطوال.
- (٩٣) المجلسي: المرجع نفسه، ج ٤١، ص ٢٨، ٣٤.
- (٩٤) خصاصة: مجاعة.
- (٩٥) يعني علياً وفاطمة والحسن والحسين.
- (٩٦) سورة الحشر: ٩.
- (٩٧) سورة الأحزاب: ٣٣ ﴿... إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾.
- (٩٨) سورة آل عمران: ٦١ ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾.
- (٩٩) القرطبي: المرجع السابق، ص ٧٦.
- (١٠٠) سورة الإنسان: ٨-٩.
- (١٠١) مجلت يداي: ظهر في كفيهما بقع صغيرة متفخة صفراء تحتها ماء.
- (١٠٢) أحمد في المسند (٢٩٨/٦) عن يمان: المرجع السابق، ص ٧٩.
- (١٠٣) الأمين: المرجع السابق، مجلد ١، ج ٤، ص ٥٦٣.
- (١٠٤) نفسه، ص ٥٧٨.
- (١٠٥) نفسه، ج ٣، ص ٣٢٦.
- (١٠٦) نفسه، ج ٣، ص ٥٦٢.
- (١٠٧) نفسه.
- (١٠٨) نفسه، ج ٤، ص ٥٧٨.
- (١٠٩) الطبري: المرجع السابق، ص ٥١-٥٢.
- (١١٠) الكبداتي: المرجع السابق، ٢٤٠-٢٤١؛ أيضاً.
- الطبري: المرجع السابق، ص ٤٠-٤١.
- (١١١) يعني خروجها لقتال الإمام علي (ع) في معركة الجمل بالبصرة حينما تولى امرة المسلمين.
- (١١٢) الإشبهي: المرجع السابق، ص ٩٤.
- (١١٣) الكبداتي: المرجع السابق، ص ٣٤٠؛ أيضاً.
- النسائي: المرجع السابق، ص ١٢٢؛ أيضاً.
- البخاري: المرجع السابق، مجلد ١، ج ١٥، ص ٢٩٢، ٢٩٤.

- (١١٤) ابن حجر: المرجع السابق، ج١، ص ١٨٨.
- (١١٥) نفسه.
- (١١٦) نفسه، ص ١٩١.
- (١١٧) سورة الشورى: ٢٣.
- (١١٨) الطبري: المرجع نفسه، ص ٢٥٥، أخرجه أحمد في المناقب.
- (١١٩) نفسه، ص ٢٦، أخرجه الملا في سيرته.
- (١٢٠) نفسه، ص ٢٥، أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب: وأخرجه أبو حاتم وقال: «أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم؟» أيضاً ابن حجر: المرجع نفسه، ج١، ص ١٨٧.
- (١٢١) الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٣٤٢، رواه الترمذي وقال: هذا حديث غريب؛ أيضاً، ابن حجر: المرجع نفسه، ج١، ص ١٨٧.
- (١٢٢) النسائي: المرجع نفسه، ص ١٢٣؛ أيضاً،
- الكبداتي: نفس المرجع، ص ٣٤١؛ أيضاً،
- بياني: المرجع السابق، ص ٩٤.
- (١٢٣) الطبري: المرجع نفسه، ص ٣٧، أخرجه أحمد.
- (١٢٤) نفسه.
- (١٢٥) ابن حجر: المرجع نفسه، ج١، ص ١٩١؛ أيضاً بياني، المرجع نفسه، ص ٩٤.
- (١٢٦) الطبري: المرجع نفسه، ص ٣٩، أخرجه أبو سعد في شرف النبوة والإمام علي بن موسى الرضا في مستنده، وابن المثنى في معجمه.
- (١٢٧) سورة الأحزاب: ٣٣.
- (١٢٨) الأمين: المرجع السابق، مجلد ١، ج٢، ص ٣٠٩؛
- أيضاً، الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٣٤٠؛
- أيضاً، الطبري: المرجع نفسه، ص ٢٤-٢١؛
- أيضاً، العاملي، بهاء الدين محمد: زبدة الأصول، ص ١٦١-١٦٢.
- (١٢٩) الطبري: نفسه، ص ٢٤-٢٥، أخرجه أحمد.
- (١٣٠) نفسه.
- (١٣١) نفسه، ص ٢٤؛ أيضاً، ابن حجر: المرجع نفسه، ج١، ص ١٤٣-١٤٤.
- (١٣٢) ابن حجر: نفسه، ج١، ص ١٤٤؛ أيضاً، الطبري: نفسه، ص ٢٥.
- (١٣٣) ابن حجر: نفسه، الطبري: نفسه، ص ٢١.
- (١٣٤) سورة الأحزاب: ٥٦.
- (١٣٥) ابن حجر: نفسه، ج١، ص ١٤٦؛ أيضاً الطبري: نفسه، ص ١٩، أخرجه البخاري؛ أيضاً البخاري:
- المرجع نفسه، مجلد ٢، ج٢٦، ص ٥١٣؛ أيضاً الألبسيهي: المرجع السابق، ص ٣٦٣.
- (١٣٦) ابن حجر: نفسه.
- (١٣٧) سورة الصافات: ١٣٠.
- (١٣٨) ابن حجر: نفسه، ١٤٨.
- (١٣٩) سورة آل عمران: ١٠٣.

- (١٤٠) ابن حجر: نفسه، ص ١٥١-١٥٢.
- (١٤١) نفسه، ص ١٥٢.
- (١٤٢) سورة طه: ٨٢.
- (١٤٣) ابن حجر: نفسه، ج١، ص ١٥٣.
- (١٤٤) نفسه، الحديث من رواية أبي هريرة.
- (١٤٥) سورة آل عمران: ٥٩، ٦٠، ٦١.
- (١٤٦) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٤، ص ٤١٦-٤١٨؛ أيضاً، الطبري: المرجع نفسه، ص ٢٥؛ أيضاً.
- ابن حجر: المرجع نفسه، ج١، ص ١٥٥-١٥٧.
- (١٤٧) الأمين: نفسه، ص ٤١٧.
- (١٤٨) نفسه؛ أيضاً، الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٣٤٠.
- (١٤٩) البخاري: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ١١، ص ٢٢٦، ج ١٢، ص ٢٣٥، ج ١٦، ص ٣٢٠؛ أيضاً.
- ابن أبي الحديد: المرجع السابق، مجلد ٣، ج ١٥، ص ٣٩٤، ٤٠٠.
- (١٥٠) ابن أبي الحديد: نفسه، ص ٣٩٤.
- (١٥١) الطبري: المرجع نفسه، ص ٤٧ خروجه الإمام علي بن موسى الرضا (ع).
- (١٥٢) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ٢٦٩.
- (١٥٣) العيبة: وعاء، مكفوفة: مقللة. والمقصود هنا أن الشر يكون مكشوراً بين الطرفين كما تكف العيبة على ما فيها.
- (١٥٤) إسلاخ: غزو، إغلال، خيانة.
- (١٥٥) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ٢٦٩.
- (١٥٦) نفسه، ص ٢٧٤.
- (١٥٧) نفسه.
- (١٥٨) ابن سعد في «الطبقات» (٩٩/٨، ١٠٠)؛ والبيهقي.
- في «الدلائل» (٩-٨/٥). عن يمان: المرجع السابق، ص ٢١٥.
- (١٥٩) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ٢٧٤-٢٧٥.
- (١٦٠) نفسه، ص ٢٧٥.
- (١٦١) سورة النصر: ١، ٢.
- (١٦٢) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ٢٧٥؛
- أيضاً، الصّغاني: المرجع السابق- ص ١٤؛
- أيضاً، الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٣٤٥.
- (١٦٣) الأمين: نفسه، ص ٢٧٥-٢٧٦؛ أيضاً،
- البخاري: المرجع نفسه، مجلد ٢، ج ١٧، ص ٣٣٩-٣٤٠.
- (١٦٤) سورة الحجرات: ١٣.
- (١٦٥) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ٢٧٧.
- (١٦٦) نفسه.
- (١٦٧) نفسه، ص ٢٧٦.

- (١٦٨) نفسه، ص ٢٧٨-٢٧٩.
- (١٦٩) الكبداتي: المرجع السابق، ص ٣٤٣؛ أيضاً
- النسائي: المرجع السابق، ص ١١٧، ١٢٠؛ أيضاً
- الطبري: المرجع نفسه، ص ٣٩-٤٠؛ ٤١-٤٢.
- (١٧٠) الكبداتي: نفسه، ص ٣٤٠؛ أيضاً، البخاري:
- المرجع نفسه، مجلد ١، ج ١، ص ٢٨٣-٢٨٤، ج ١٥، ص ٢٩٢.
- مجلد ٢، ج ١٨، ص ٣٥٤؛ أيضاً.
- النسائي: المرجع نفسه، ص ١٢٠، متفق عليه.
- (١٧١) الحسني: المرجع السابق، ص ٧١.
- (١٧٢) الطبري: المرجع نفسه، ص ٤٣-٤٤.
- (١٧٣) الأمين نفس المرجع، مجلد ١، ج ٢، ص ٢٨٩؛ ج ٣، ص ٤١٨-٤١٩، اعتمد الأمين في رواياته عن
- خطبة الغدير على تاريخ الطبري، وابن عساكر، السيرة الحلبية، والنسائي في سننه.
- (١٧٤) نفسه، ج ١، ص ٢٨٩-٢٩٠، ج ٣، ص ٤١٩-٤٢٠.
- (١٧٥) نفسه، ج ٢، ص ٢٩٠-٢٩١، ج ٣، ص ٤٢٠-٤٢١.
- (١٧٦) سورة المائدة: ٦٧.
- (١٧٧) الأمين: نفسه، مجلد ١، ص ٢٩٠-٢٩٢.
- ج ٣، ص ٤١٨-٤١٩، اعتمد في رواياته عن بيعة الغدير والنص عليها على مجموعة من رواة الحديث لمدرسة
- الخلافة: ابن كثير والطبري في تاريخيهما، مسند أحمد بن حنبل ج ٤، الحاكم في المستدرك، الذهبي في تلخيص
- المستدرك، السيرة الحلبية، ابن ماجة، النسائي في سننه؛ أيضاً، البحراني: الانصاف في النص على الأئمة
- الاثني عشر من آل محمد (ص)، ص ١٦٧-١٧٣؛ أيضاً المجلسي: المرجع السابق، ج ٣٧، ص ١٠٨-١٣٣؛
- أيضاً، الجزائري: المرجع السابق، ج ١، ص ١٢٩؛
- أيضاً؛ الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٣٣٨؛
- أيضاً، ابن حجر: المرجع نفسه، ج ١، ص ١٢٢؛
- أيضاً الصمغاني: المرجع السابق، ص ١٨٤؛
- أيضاً الطبري: المرجع نفسه، ص ١٦، ٦٧-٦٨؛
- أيضاً، النسائي: المرجع نفسه، ص ٨٤-٩٦؛
- (١٧٨) أيضاً المجلسي: المرجع نفسه، ج ٣٧، ص ١٣٣.
- (١٧٩) الجزائري: المرجع نفسه، ج ١، ص ١٢٨-١٢٩؛
- أيضاً، الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٣٣٨؛
- أيضاً، الأمين: نفسه مجلد ١، ج ٢، ص ٢٩٠.
- (١٨٠) الأمين: نفسه؛ أيضاً المجلسي: نفسه، ج ٣٧، ص ١١٢.
- (١٨١) الأمين: نفسه.
- (١٨٢) سورة المائدة: ٣.
- (١٨٣) الجزائري: المرجع نفسه، ج ١، ص ١٢٩، أيضاً،

- المجلسي: المرجع نفسه، جـ ٣٧، ص ١١١-١١٢.
- (١٨٤) ابن حجر: المرجع نفسه، جـ ١، ص ١٥١.
- (١٨٥) المجلسي: نفسه، جـ ٣٧، ص ١٢٨.
- (١٨٦) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، جـ ٢، ص ٢٩٩.
- (١٨٧) سورة الصافات: ٢٤.
- (١٨٨) ابن حجر: المرجع نفسه، جـ ١، ص ١٤٩.
- (١٨٩) نفسه.
- (١٩٠) ابن أبي الحديد: المرجع السابق، مجلد ١، جـ ١، ص ٤٧-٥٠.
- (١٩١) نفسه أيضاً الأمين، ص ٤٧.
- (١٩٢) البخاري: المرجع نفسه، مجلد ٢، جـ ١٨، ص ٣٥٦.
- أيضاً، الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٣٤١.
- (١٩٣) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، جـ ٣، ص ٤٢٢.
- (١٩٤) ابن أبي الحديد: المجلد نفسه، مجلد ٣، جـ ١٣، ص ١٨٩.
- أيضاً الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٣٢٨.
- (١٩٥) ابن أبي الحديد: نفسه أيضاً الأمين.
- مجلد ١، جـ ٣، ص ٤٢٣.
- (١٩٦) ابن أبي الحديد: نفسه.
- (١٩٧) نفسه، ص ١٩٠.
- (١٩٨) نفسه؛ أيضاً، الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، جـ ٣، ص ٤٢٤.
- (١٩٩) الحاضرون.
- (٢٠٠) البخاري: المرجع نفسه، مجلد ١، جـ ١، ص ١٣،
مجلد ٢، جـ ١٨، ص ٣٥٤، جـ ٢٣، ص ٤٦٦؛
أيضاً البحراني: المرجع نفسه، ص ١٨١-١٨٢.
- (٢٠١) ابن الحديد: المرجع نفسه، مجلد ٣، جـ ١٣، ص ١٩٠؛
أيضاً، البخاري: المرجع نفسه، مجلد ١، جـ ١٢، ص ٢٤٧،
مجلد ٢، جـ ١٨، ص ٣٥٤؛
أيضاً الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٣٢٩.
- (٢٠٢) ابن حجر: المرجع نفسه، جـ ١، ص ١٢٦.
- (٢٠٣) نفسه، ص ١٢٥.
- (٢٠٤) سورة آل عمران: ١٤٤.
- (٢٠٥) الطبري: نفس المرجع، ص ٧١-٧٢؛
أيضاً؛ ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ٣، جـ ١٣، ص ١٩٢؛
أيضاً الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، جـ ٣، ص ٤٢٨.
- (٢٠٦) الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٣٤٢.
- (٢٠٧) الطبري: المرجع نفسه، ص ٧٢.

- (٢٠٨) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ٣، ج ١٣، ص ١٨٨.
- (٢٠٩) نفسه، ص ١٩٢؛ أيضاً الأمين؛
- المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٣، ص ٤٢٩.
- (٢١٠) الحسيني، المرجع السابق، ص ١٠٩.
- (٢١١) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ٣، ج ١٣، ص ١٩٤.
- (٢١٢) الحسيني: نفسه، ص ١٠٩.
- (٢١٣) نفسه، ص ١١٠؛ أيضاً، الأمين. المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ٣٢٠.
- (٢١٤) الحسيني: نفسه، ص ١١٠.
- (٢١٥) نفسه، ص ١٠٩، ١١٠-١١١.
- (٢١٦) نفسه، ص ١١٠؛ أيضاً، العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع السابق، ص ١٤.
- (٢١٧) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ٣٢٣.
- (٢١٨) نفسه.
- (٢١٩) نفسه.
- (٢٢٠) نفسه، ص ٣٢٠؛ أيضاً، البخاري:
- المرجع نفسه، مجلد ١، ج ١٥، ص ٢٩٤.
- (٢٢١) سورة لأنفال: ٢٤.
- (٢٢٢) الطبري: المرجع نفسه، ص ١٠١، أخرجه الحافظ الثقفى في الأربعين.
- (٢٢٣) ابن حجر: المرجع نفسه، ج ١، ص ١٨١.
- (٢٢٤) سورة الأنبياء: ١٠٤.
- (٢٢٥) سورة المائدة: ١١٧.
- (٢٢٦) البخاري: المرجع نفسه، مجلد ٢، ج ١٨، ص ٣٧٠.
- ج ٢٧، ص ٥٢٩، ج ٢٩، ص ٥٦٦؛
- أيضاً، الكبدي: المرجع نفسه، ص ٢٩٠، ٢٩٢؛
- أيضاً، المجلسي: المرجع نفسه، ج ٢٨، ص ٢٢-٢٣، ٢٥.
- (٢٢٧) البخاري: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ١٦، ص ٣٣١.
- (٢٢٨) سقيفة: ظلة، وبنو ساعدة: جماعة من الأنصار.
- حيث تم الاجتماع والبيعة في حيههم. ولذلك سميت البيعة باسم المكان الذي تمت فيه.
- (٢٢٩) ابن أبي الحديد: المرجع السابق، مجلد ١، ج ٢، ص ١٢٧-١٢٨، ١٣٣؛
- أيضاً الواقدي: كتاب الردة، ص ٣٢-٤٢؛
- أيضاً البخاري: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٥، ص ٩٢، ج ١٤، ص ٢٨٧.
- (٢٣٠) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ١٢٣، ١٢٤.
- (٢٣١) الجزائري: المرجع نفسه، ج ١، ص ٦٠-٦١،
- أيضاً، المجلسي: المرجع نفسه، ج ٢٨، ص ٣٢٩.
- (٢٣٢) ابن أبي الحديد، المرجع نفسه، مجلد ١، ج ١، ص ٥٢.
- (٢٣٣) نفسه، ص ١٣٤.

- (٢٣٤) البياضي: الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم، ج٢، ص ٥٤،
 أيضاً المجلسي: المرجع نفسه، ج٢٨، ص ٢٩٣.
 (٢٣٥) العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع السابق، ص ١٨؛
 أيضاً المجلسي: المرجع نفسه، ج٢٨، ص ١٨٩؛
 أيضاً البياضي: المرجع نفسه، ص ٧٩.
 (٢٣٦) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ١، ص ٧٤، ج ٢، ص ١٣٢.
 (٢٣٧) نفسه؛ أيضاً المجلسي: المرجع نفسه، ج٢٨، ص ٢٩١-٢٩٣.
 (٢٣٨) المجلسي: المرجع نفسه، ج٢٨، ص ١٩١؛ أيضاً،
 البياضي: المرجع نفسه، ص ٧٩-٨٠، ولذلك يشير معاوية في رسالته إلى الإمام علي، خلال أمارته إلى تلك الحادثة
 ليستهجن بعلي، وما علم أن ذكره تلك الحادثة إنها يعني اشادة بفضل علي وأدائه لواجبه الرسالي في الأمة تجاه الله
 ورسوله وما جاء في تلك الرسالة: «... وأعهدك أمس تحمل قعدة بيتك ليلاً على حمار ويداك في يدي ابنيك
 الحسن والحسين يوم يبيع أبو بكر الصديق، فلم تدع أحداً من أهل بدر والسوابق إلا دعوتهم إلى نفسك...»
 لمزيد من التفاصيل انظر، ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ١٣١.
 (٢٣٩) المجلسي: المرجع نفسه، ج٢٨، ص ١٩٢؛
 أيضاً، البياضي: المرجع نفسه، ص ٨٠.
 (٢٤٠) المجلسي: نفسه، ص ٢٠١-٢٠٢؛
 أيضاً البياضي: نفسه، ص ٨٢
 (٢٤١) المجلسي: نفسه، ص ٢٠٢.
 (٢٤٢) نفسه، ص ٢٠٣،
 أيضاً، البياضي: نفسه، ص ٨٣.
 (٢٤٣) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ١٣١-١٣٢.
 (٢٤٤) المجلسي: المرجع نفسه، ج٢٨، ص ٥٢-٥٤.
 (٢٤٥) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ١٣٤؛
 أيضاً العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع نفسه، ص ١٨؛
 أيضاً، المجلسي: المرجع نفسه، ج٢٨، ص ٢٩٩؛
 أيضاً الجزائري: المرجع نفسه، ج ١، ص ٦٤؛
 أيضاً، البياضي: المرجع نفسه، ص ٣٠١.
 (٢٤٦) حافظ إبراهيم: الجزء الأول من ديوانه، ص ٨٢.
 (٢٤٧) المجلسي: المرجع نفسه، ج٢٨، ص ٢٠٥.
 (٢٤٨) ابن طولون: نواذر المخطوطات (الاثنتا عشرة)، ص ٥٩؛
 أيضاً العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع نفسه، ص ١٨-١٩؛
 أيضاً، ابن أبي الحديد: مجلد ١، ج ٢، ص ١٣٢؛
 أيضاً، المجلسي: المرجع نفسه، ج٢٨، ص ٢٦٩-٢٧٠.
 (٢٤٩) المجلسي: نفسه، ص ٢٦٢، ٢٨٢.

- (٢٥٠) نفسه، ص ٢٠٦ .
- (٢٥١) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ١٣١ .
- (٢٥٢) نفسه، ص ١٣٢ .
- (٢٥٣) نفسه، ص ١٣٠ .
- أيضاً، البيضاوي: المرجع نفسه، ج ٢، ص ٢٩٦ .
- (٢٥٤) البخاري: المرجع السابق، مجلد ٢، ج ١٧، ص ٣٣٧ .
- أيضاً، الواقدي: المرجع السابق، ص ٤٦-٤٧ .
- (٢٥٥) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ١٣٢-١٣٥ .
- (٢٥٦) البيضاوي: المرجع نفسه، ج ٢، ص ٢٨٢-٢٨٣ .
- أيضاً، الأمين: المرجع السابق: مجلد ١، ج ٢، ص ٣١٤ .
- (٢٥٧) سورة الروم: ٣٨ .
- (٢٥٨) البخاري: المرجع نفسه، مجلد ٢، ج ١٧، ص ٣٣٧ .
- (٢٥٩) نفسه .
- (٢٦٠) نفسه، مجلد ١، ج ١٢، ص ٢٤٠، ج ١٥، ص ٢٩١ .
- مجلد ٢، ج ١٧، ص ٣٣٧ .
- (٢٦١) سورة النمل: ١٦ .
- (٢٦٢) سورة مريم: ٦، ٥ .
- (٢٦٣) البيضاوي: المرجع نفسه، ج ٢، ص ٢٨٣-٢٨٤ .
- وهناك روايات متعددة حول تعامل رجال سلطة الخلافة مع السيدة فاطمة أثناء مطالبتها بإرثها، إلا أن المؤلف فضل الاكتفاء بهذا القدر؛ حيث يتناول هذا الموضوع بشيء من التفصيل في الدراسة المستقلة المشار إليها في التمهيد .
- (٢٦٤) الأمين: المرجع السابق، مجلد ١، ج ٢، ص ٣١٥-٣١٨ .
- (٢٦٥) انظر الملحق الأول .
- (٢٦٦) سيتناول المؤلف مناقشة هذا الجانب في الدراسة المستقلة المشار إليها في التمهيد .
- (٢٦٧) انظر الملحق الثاني .
- (٢٦٨) ابن حجر: المرجع السابق، ج ١، ص ١٢٧ .
- (٢٦٩) نفسه، ص ١٢٨ .
- (٢٧٠) الشطر الأخير، من البيت الثالث، يعني الوقوف للمهدي من عترة الرسول (ص) آخر خلفاء الرسول الاثني عشر في دولة النبوة، الذي يقاتل أعداء الإسلام قتالاً تقليدياً .
- (٢٧١) ابن حجر: نفس المرجع، ج ١، ص ١٢٨ .
- (٢٧٢) نفسه، ص ١٣٢-١٣٣ .
- (٢٧٣) نفسه، ص ١٨٩ . أيضاً، البخاري: المرجع نفسه، مجلد ٢، ج ٢٩، ص ٥٧٩؛ أيضاً، الكبداتي: المرجع السابق، ص ٣٣٠ .
- أيضاً البحراني: المرجع السابق، ص ١٩٥-١٩٨، ٢٢٣-٢٢٥ .
- (٢٧٤) ابن حجر: نفسه، ص ١٦٣، ٢٣٧؛ أيضاً، الطبري: المرجع نفسه، ص ١٣٦ .

- (٢٧٥) ابن حجر: نفسه، ص ١٦٣؛ الطبري: نفسه؛
 أيضاً، الكبداتي: المرجع السابق، ص ٢٨٢-٢٨٣
 (٢٧٦) ابن حجر: نفسه.
 (٢٧٧) نفسه؛ أيضاً، الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٢٨٣
 أيضاً، البحراني: نفس المرجع، ص ٢٩٩-٣٠٠.
 (٢٧٨) سورة القصص: ٦٨.
 (٢٧٩) سورة الحج: ٤٦.
 (٢٨٠) البحراني: المرجع نفسه، ص ٢٩٠-٢٩١.
 (٢٨١) نفسه، ص ٣٦٤.
 (٢٨٢) البياضي: المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٥-١٦؛
 أيضاً، الشرقاوي: علي امام المتقين، ج ١، ص ٨٣-٨٤.
 (٢٨٣) ابن قتيبة: الامامة والسياسة، ج ١، ص ٣١؛
 أيضاً، ملا علي: تكفير المكفرين، ص ٣٠؛
 أيضاً، الشرقاوي: المرجع نفسه، ج ١، ص ٧٠-٧١؛
 أيضاً، المجلسي: المرجع نفسه، ج ٢٨، ص ٣٥٧-٣٥٨؛
 أيضاً، البحراني: المرجع نفسه، ص ٢٦٤؛
 أيضاً، الأمين: المرجع السابق، مجلد ١، ج ٢، ص ٣١٨.
 (٢٨٤) ابن قتيبة، نفسه، أيضاً ابن أبي الحديد، المرجع السابق، مجلد ١، ج ٢، ص ١٣٢.
 (٢٨٥) انظر الملحق الثالث.
 (٢٨٦) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ٣٢٠.
 (٢٨٧) ابن قتيبة: المرجع نفسه، ج ١، ص ٣١.
 (٢٨٨) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ٣٢١؛
 أيضاً، المجلسي: المرجع نفسه، ج ٢٨، ص ٣٠٤؛
 أيضاً الحسنی: المرجع السابق، القسم الأول، ص ١٣٥-١٣٦.
 (٢٨٩) الطبري: المرجع السابق، ص ٥٣؛
 خَرَجَهُ أَبُو عَمْرٍو وَخَرَجَ الدُّوْلَابِيُّ مَعْنَاهُ مُخْتَصَرًا؛
 أيضاً، الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ٣٢١-٣٢٢.
 (٢٩٠) الطبري: نفسه.
 (٢٩١) نفسه، ص ٥٤.
 (٢٩٢) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ٣٢١.
 (٢٩٣) نفسه، ص ٣٢٢؛ أيضاً، الطبري: المرجع نفسه، ص ٥٤.
 (٢٩٤) الأمين: نفسه.
 (٢٩٥) نفسه.
 (٢٩٦) البخاري: المرجع نفسه، مجلد ٢، ج ٣٠، ص ٥٨٨.

- (٢٩٧) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ٣٢٢.
- (٢٩٨) المجلسي: المرجع نفسه، ج ٢٨، ص ٣٠٤.
- (٢٩٩) انظر الملحق الرابع.
- (٣٠٠) الأمين: نفس المرجع، مجلد ١، ج ٢، ص ٣٢٢؛
أيضاً، ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ٢، ج ١٠، ص ٥٩٨.
يذكر ابن أبي الحديد أن الشطر الأول من البيت الأخير هو: وإن افتقادي واحداً بعد واحد في الأصل، إلا أن الناس يروونه: إن افتقادي فاطماً بعد أحمد...
- (٣٠١) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ٣٢٢؛
أيضاً، المجلسي: المرجع نفسه، ج ٢٨، ص ٣٠٥.
- (٣٠٢) المجلسي: نفسه.
- (٣٠٣) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ٣١٩؛
أيضاً الجزائري: المرجع نفسه، ج ١، ص ٣٦٨.
- (٣٠٤) المجلسي: المرجع نفسه، ج ٤١، ص ١٤٩؛
أيضاً، الطبري: المرجع السابق، ص ٥٢-٥٣.
- (٣٠٥) الواقدي: المرجع السابق، ص ١٠٨-١٤٦.
- (٣٠٦) سورة القصص: ٥.
- (٣٠٧) انظر الملحق الخامس.
- (٣٠٨) الجزائري: المرجع نفسه، ج ١، ص ٣٤؛
أيضاً، البيضاوي: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٧٥-١٧٦؛
أيضاً، البحراني: المرجع السابق، ص ٢١-٢٦، ٢٧٤-٢٧٦.
- أيضاً، العاملي، بهاء الدين محمد: المرجع السابق، ص ٩٦؛
أيضاً، البخاري: المرجع السابق، مجلد ٢، ج ٢٨، ص ٥٥٣، ٥٥٤؛
أيضاً، الكبداتي: المرجع السابق، ص ١٧٧؛
أيضاً، الحسني: المرجع السابق، ص ٩٧-٩٨.
- (٣٠٩) الجزائري: نفسه، ص ٣٧.

الفصل الثالث

زينب بنت علي بن أبي طالب رائدة النضال الثالثة للمرأة الرسالية في دولة النبوة

- ١ - مولدها وتربيتها وظروف نشأتها .
- ٢ - زواجها ، وحياتها الزوجية .
- ٣ - الظروف التي مهدت لكربلاء .
- ٤ - خروج ركب الحسين من المدينة إلى مكة وانضمام زينب للركب .
- ٥ - خروج ركب الشهادة من مكة إلى كربلاء .
- ٦ - الوصول إلى أرض الشهادة .
- ٧ - ركب الشهادة يحطّ رحاله في أرض الشهادة الموعودة .
- ٨ - تقاسم بطولة الملحمة الاستشهادية بين الإمام الحسين وأخته العقيلة زينب .
- ٩ - وسائل حركة الإمام الحسين النهضوية .
- ١٠ - زينب ورحلة السبي .
- ١١ - عودة آل رسول الله (ص) إلى المدينة .
- ١٢ - خاتمة .

إنَّ السَّيِّدةَ عَقِيلَةَ الطَّالِبِينَ ، زَيْنَبَ بِنْتَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، تُعْتَبَرُ رَائِدَةَ النِّضَالِ
الثَّالِثَةِ لِلْمَرْأَةِ الرَّسَالِيَةِ فِي دَوْلَةِ النَّبُوَّةِ ، بَعْدَ جَدَّتِهَا خَدِيجَةَ وَأُمِّهَا فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءِ . إِلَّا أَنَّ
الْمِهَامَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي حَمَلَتْهَا عَلَى كَتِفَيْهَا وَحِيدَةً ، فُورَ انْتِهَاءِ الْمَلْحَمَةِ الْإِسْتِشْهَادِيَّةِ
عَسْكَرِيَا ، فَاقَتْ تَضَحِيَّاتِ سَلْفِهَا ، لِأَنَّهَا وَرِثَتْ كُلَّ رِزَايَا الْبَيْتِ النَّبَوِيِّ .

وَتَكْمُنُ عَظَمَتُهَا فِي صَعُوبَةِ الظُّرُوفِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا وَلَكِنَّهَا لَمْ تَعْقُهَا عَنْ تَأْدِيَةِ تِلْكَ
الرِّسَالَةِ الَّتِي أَعَدَّهَا الْبَيْتُ النَّبَوِيُّ مِنْذُ طُفُولَتِهَا لِلْقِيَامِ بِذَلِكَ الدَّورِ الْعَظِيمِ . خَدِيجَةُ
أَدَّتْ دَوْرَهَا النَّضَالِيَّ فِي ظِلِّ كَفِيلِهَا مُحَمَّدٍ (ص) ، وَالزَّهْرَاءُ أَدَّتْ دَوْرَهَا النَّضَالِيَّ أَيْضاً
فِي ظِلِّ كَفِيلِهَا الَّذِي وَقَعَ بَيْنَ الْمَطْرَقَةِ وَالسُّنْدَانِ : بَيْنَ وَصِيَّةِ النَّبِيِّ (ص) الَّتِي قِيدَتْهُ
وَبَيْنَ الْإِنْحِرَافِ الَّذِي طَرَأَ عَلَى مَسِيرَةِ الْأُمَّةِ . فَكَانَ نَهْوُضُ الزَّهْرَاءِ مِنْ أَجْلِ كَشْفِ
الْحَقِيقَةِ لِلْإِلْقَاءِ الْحُجَّةِ عَلَى الْأُمَّةِ ، دَوْرَهَا الرَّسَالِيَّ خِدْمَةً لِلدِّينِ وَالْأُمَّةِ ، الَّتِي فَضَلَتْ
اخْتِيَارَ عَيْشِ الذَّلِّ فِي مَقْبَرَةِ الْأَحْيَاءِ الصَّامِتَةِ . أَمَّا زَيْنَبُ ، فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ وَحْدَتِهَا
وَوُقُوعِهَا وَبَقِيَّةَ آلِ رَسُولِ اللَّهِ (ص) تَحْتَ رَحْمَةِ الْأَعْدَاءِ ، إِلَّا أَنَّهَا قَامَتْ بِدَوْرِهَا الرَّسَالِيَّ
الْعَظِيمِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِهِ ، كَمَا سَيَتَضَحَّى ذَلِكَ مِنْ دَرَسَةِ وَمُنَاقَشَةِ هَذَا الْفَصْلِ .

١ - مَوْلَدُهَا وَظُرُوفُ نَشَأَتِهَا :

إِنَّهُ مَهْبُطُ الْوَحْيِ ، بَيْتُ النَّبُوَّةِ ، بَيْتُ الْقُرْآنِ ، بَيْتُ الذَّرِيَّةِ النَّبَوِيَّةِ ، بَيْتُ
الطَّهَارَةِ ، بَيْتُ الْعَصْمَةِ ، بَيْتُ بَضْعَةِ النَّبِيِّ ، بَيْتُ الْوَحْيِ ، بَيْتُ الْأُئِمَّةِ ، بَيْتُ سَفْنِ
النَّجَاةِ . بَيْتُ حَامِيِ حِمَى الْإِسْلَامِ بَعْدَ أَبِي طَالِبٍ ، بَيْتُ سَيِّدِ الْعَرَبِ وَمَنْ عَلَّمَ
قَرِيشَ الْفَصَاحَةِ ، بَيْتُ أَفْقِهِ الْمُسْلِمِينَ وَأَعْلَمِهِمْ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ (ص) .

في هذا البيت استقبل آل رسول الله (ص) زينب بنت علي بن أبي طالب .

وهي المولود الثالث بعد الإمامين : الحسن والحسين . عاشت في كنف والديها وجدها النبي (ص) فترة قصيرة قبل أن يرؤّعها الزمان ويجور أهلُه على خير البرية . عاشت في أجواء القرآن والسنة والمعرفة الحقيقية بالحياة إلى جانب أجواء الورع والزهد والتقوى . عاشت في مدرسة النبوة ، في رعاية الأم الحنون سيدة النساء وفخر دولة النبوة . عاشت زينب ، وهي طفلة ، ترى والديها يعملان ، فعلى الرغم من عظمتها عند الله وعند رسوله والمسلمين فإن والدها كان يحطب ويستسقي ويكنس ، وكانت والدتها كما جاء عن الإمام الصادق (ع) تطحن وتعجن وتخبز حتى أنهكتها أعباء المنزل وتربية الأطفال^(١) .

عاشت زينب مع والديها وأخويها ، ورأت أنهم لا يردّون السائل والمحتاج حتى لو باتوا جوعاً ، كما مر في الفصل الأول . رُئي والدها علي (ع) حزيناً فقيل له : لم حزنك؟ قال : «السبع أتت لم يضيف إلينا ضيف»^(٢) . ورؤي أنه حينما قسم النبي (ص) الفياء أصاب عليّ أرضاً ، فاحتفر فيها عيناً فخرج ماء ينبع في المساء كهيئة عنق البعير لقوته ، فسماها ينبع ، فجاء البشير يبشر فقال (ع) : «بشر الوارث هي صدقة بتة بتلاء في حجيج بيت الله وعابر سبيل الله لا تباع ولا توهب ولا تورث ، فمن باعها أو وهبها ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً»^(٣) .

وجاء ، في تاريخ البلاذري وفضائل أحمد ، أن غلة الأرض التي وهبها علي صدقة في حجيج بيت الله وعابر سبيل الله بلغت أربعين ألف دينار ، ومع ذلك فقد باع سيفه يوماً ، وقال : «لو كان عندي عشاي ما بعته»^(٤) . هذا هو الوالد الذي تربت عتيلة الطالبين في كنفه . كان أباً ومعلماً وصديقاً وقيّماً .

لقد شاركت زينب والدتها في كثير من الظروف العصبية التي مرت بها في حياتها سواء كان في الطفولة أم بعد النضيج . فإذا كانت فاطمة قد فقدت أمها في طفولتها فها هي زينب تفقد أمها فاطمة وهي في أول شبابه وتتركها مع أخويها الحسين يتجرعون مرارة اليتيم ولوعته وهم لم يبلغوا الحلم . وإذا كانت فاطمة الزهراء قد ودعت أمها خديجة وهي في خريف عمرها ، فها هي زينب حفيذة خديجة تودع أمها

فاطمة وهي في ربيع عمرها، تركهم لقمة سائغة لجور الأيام وظلم الأمة . وإذا كانت فاطمة الزهراء قد عاشت مع والدها النبي (ص) محنة فراق عضيديه : أبو طالب وأمها خديجة وانفردت به قريش وزاد تعذيبها له والحق الأذى به ، فهذا زينب تعيش الظروف ذاتها حيث كان الرسول (ص) والزهراء (ع) كالعضيدين لها فكانت وفاتها رزية . لقد عاشت عقيلة الطالبين في طفولتها رزايا عديدة . الرزية الأولى تمثلت في وفاة جدها النبي (ص) وحرمانها وأمها وأخويها عطفه وحنانه وتوجيهه . والرزية الثانية أن الأمة قلبت ظهر المجن لوالدها وصي رسول الله (ص) وأنكرت عليه حقه ومن ثم لكل العترة ، فجلس في بيته كالطير المتكسرة أجنحته ، أو كالأسد الجريح في عرينه يجمع القرآن ، بعد أن شيد صرخ الدين والدولة بسيفه ، - بشهادة الأمة - . أما الرزية الثالثة فهي أن بيت العصمة ومهبط الوحي وبيت العترة صار هدفاً لرجال سلطة الخلافة بما الحقوه من أذى بآل رسول الله وما صاحب ذلك من ترويع للأطفال الذين كانوا يحظون برعاية وإجلال رسول الله (ص) وتعظيم المسلمين لقدرة في حياته . إن مثل تلك المشاهد لا يمكن أن تمحى من ذاكرة الإنسان ، وخصوصاً إذا كانت في مرحلة الطفولة . لقد عاشت زينب مأساة ذلك اليوم الرهيب ، ترى والدها داحي باب خيبر يؤخذ مكرها من داره ، وأمها ، بضعة رسول الله تصرخ وتتخى بأبيها رسول الله ، وتشكو خيانة الأمة بعد أن ضربت وأسقط جنينها الذي سماه رسول الله (ص) محسنًا^(هـ) . تلك المناظر لا يمكن أن تغيب عن خيالها . والرزية الرابعة مصادرة نحلة أمها فدك . أما الرزية الخامسة ، وهي الأهم بالنسبة لها كطفلة فقددها أمها فاطمة الزهراء ، وهي لا تزال في مرحلة الطفولة المبكرة . ولا شك في أن تعلق الطفل وخصوصاً الأثنى بالأم لا يمكن أن يعوّض بحنان امرأة أخرى .

وهناك فرق آخر بين رحيل كل من خديجة وفاطمة ، فخديجة كانت معززةً مكرمةً باستثناء قسوة الحياة التي عاشتها في الشعب . بينما فاطمة كان موتها نتيجة ما لحقها من ضرب واجهاض يوم هاجم رجال سلطة الخلافة بيت العترة .

ولذلك فإن المتمعن بكلمات الإمام علي (ع) بعد دفن فاطمة (ع) وتحويل وجهه جهة قبر رسول الله (ص) يناجيه ، يحس بخجل الإمام علي من رسول الله (ص) تجاه

ما حدث لفاطمة من ايذاء رجال سلطة الخلافة لها دون أن يتمكن من نجاتها لالتزامه بوصيته .

وكما تحمّلت فاطمة الزهراء مسؤولية تجاه والدها في سن مبكرة، بعد رحيل والدتها خديجة، ها هي زينب تتحمل بالمثل مسؤولية تجاه أخويها الحسن والحسين ووالدها، وهي لا تزال طفلة . وإذا كانت فاطمة الزهراء قد تجرعت في طفولتها أذى قريش، وخصوصاً أيام الشعب، فها هي طفلتها زينب تتجرع كأساً أشد مرارة من الكأس الذي تجرّعته أمها . فتكون تلك الرزايا ميراثها وعزاءها لأن ما كانت تحبّه لها الأيام لا يقل هولاً عما حدث .

كذلك تلتفت إلى والدها فتجده وحيداً فريداً لم يصفُ له من الأمة سوى أربعة، لزموها صحبته : سلمان وابو ذر وعمار والمقداد . فتتعلم منه الصبر ليكون زادها الذي ستواجه به جور الأمة على العترة . وصبر علي لا يمكن أن يفوقه إلا صبر رسول الله (ص) في مواجهة أذى قريش له ولأتباعه من أوائل المسلمين طوال ثلاث عشرة سنة من البعثة في مكة .

وسمعت زينب، كما سمع أخوها وباقي مجتمع المدينة الكثير من أقوال الإمام علي (ع)، التي تعبر عن صبره ودوافع ذلك الصبر . وقال عن تظلمه من قريش واغتصابهم حقه : «وقد قال قائل إنك على هذا الأمر يا ابن أبي طالب لحريص . فقلت : بل أنتم والله لأحرص وأبعد وأنا أخص وأقرب، وإنما طلبت حقاً لي وأنتم تحولون بيني وبينه وتضربون وجهي دونه . فلما قرعته بالحجة في الملأ الحاضرين هبّ كأنه بهت لا يدري ما يُجيبني به . اللهم إني استعديك على قريش ومن أعانهم فإنهم قطعوا رحمي وصغروا عظيم منزلتي وأجمعوا على منازعتي أمراً هولي : ثم قالوا : « ألا إنّ في الحق أن تأخذه وفي الحق أن تتركه »^(٦) .

إن الإمام علي يشير، في هذه الكلمات إلى محاججته رجال سلطة الخلافة بالمسجد النبوي لاغتصابهم حقه .

إنه يتحدث عن المظلومية فهو يشكو، في هذه الكلمات، أمام حشد من المهاجرين والأنصار لا لتثويرهم ضد سلطة الخلافة وإنما ليوجه من خلالها رسالة

إلى أجيال دولة النبوة المتعاقبة لتعريفهم حقيقة ما حدث من مظلومية لآل رسول الله (ص) فور لحاقه بربه . إنه يقول : إن رجال سلطة الخلافة لم يقتصروا على اغتصابي حقي ساكتين عن الدعوى ، ولكنهم أخذوه وادعوا أن الحق لهم وأنه يجب عليّ أن أترك المنازعة فيه . فليتهم أخذوه معترفين بأنه حقي فكانت المصيبة أخف وأهون^(٧).

ويقصد الإمام علي أن الخطأ ، من قبل سلطة الخلافة ، كان مضاعفاً لظلمهم آل رسول الله (ص) باغتصاب الخلافة ، وإجبار وصي رسول الله (ص) على المبايعة ، ويعني ذلك إكراهه على التخلي عن عهد عهده إليه رسول الله (ص) ، بمعنى أنه أجبر على معصية رسول الله (ص) ومن ثم على معصية الله . وخلاصة ذلك أن بيعة السقيفة ، كانت خيانة الأمة لعهد الله ورسوله ، وقد أجبر الإمام علي على مشاركة الأمة تلك الخيانة . وهذا عدا ما لحق بآل رسول الله من أذى ، كما اعترف بذلك أبو بكر في نهاية حياته كما مرّ في الفصل الثاني .

ومن الكلمات التي تعلمت منها زينب مظلومية والدها وبقية آل رسول الله (ص) خطاب أبيها في الناس بمناسبة رفضه عرض أبي سفيان وعمه العباس وغيرهما لمبايعته ، بعد أن تمت مبايعة أبي بكر ، حيث قدم أبو سفيان المدينة بعد الانتهاء من بيعة السقيفة ، فقال الإمام علي :

«أيها الناس ، شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة ، وعرجوا عن طريق المغامرة وضعوا تيجان المفاخرة ، أفلح من نهض بجناح أو استسلم فأراح . هذا ماء آجن ، ولقمة يغص بها أكلها . ومجتنى الثمرة لغير وقت إيناعها كالزراع بغير أرضه فإن أقل يقولوا حرص على الملك ، وإن أسكت يقولوا جزع من الموت . هيهات بعد اللثيا والتي ، والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه ، بل اندمجت علو ، مكنون علم لو بحث به لاضطربتم اضطراب الأرضية^(٨) في الطوي^(٩) البعيدة^(١٠)» .

في عهد الرسول (ص) ظلّ سيف علي مسلولا طوال حياته جاهد به الشرك وأهله من أجل إعلاء كلمة الحق ونشر الدين وحماية الأمة ودولة النبوة ، فهذا هو يضع سيفه في غمده بعد رسول الله (ص) من أجل الأهداف نفسها لتبقى الأمة

موحدة . لذلك رفض علي مبايعة أبي سفيان له ونهره ، لأن علياً يعرف ما في نفس أبي سفيان من حقد دفين على الإسلام وأهله ، لفقدانه زعامته وتضرر مصالحه .

فقد كان إسلامه يوم فتح مكة استسلاماً ، عن رهبة لا عن رغبة ، ففسر الإمام حركته تلك بنية سيئة ضد سلامة الدين ووحدة الأمة .

علي في هذه الكلمات البليغة ، يحث الناس على وحدة الكلمة والقضاء على الفتن بالتمسك بسفن النجاة وهم أهل البيت النبوي ، حيث رُوي عن الرسول (ص) في ذلك أحاديث متواترة عند محدثي المدرستين الإمامة والخلافة . جاء من طرق عديدة يقوي بعضها بعضاً ، كما ذكر ابن حجر : «إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا» . وفي رواية مسلم : «ومن تخلف عنها غرق»^(١١) .

وعن أهمية أهل البيت للأمة ودورهم الإلهي فيها روي كذلك عن سعيد بن المسيب عن أبي ذر قال : «قال رسول الله (ص) : الأئمة بعدي اثنا عشر، تسعة من صلب الحسين تأسعهم قائمهم» . ثم قال (ص) : «ألا إن مثلهم فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك ، ومثل باب حطة في بني إسرائيل»^(١٢) .

وفي المعنى نفسه عن دور آل رسول الله (ص) في الأمة رُوي عن سعيد المقرئ عن أبي هريرة قال : «قلت لرسول الله (ص) : إن لكل نبي وصياً وسبطين فمن وصيُّك وسبطاك؟ فسكت ولم يرد جواباً ، فانصرفْتُ حزينا . فلما حال الظهر قال : «ادنُ يا أبا هريرة» ، فجعلت أدنو وأقول : أعوذُ بالله من غضب الله وغضب رسول الله ، ثم قال : إن الله بعث أربعة آلاف نبي وكان لهم أربعة آلاف وصي ، وثمانية آلاف سبط ، فوالذي نفسي بيده لأننا خير النبيين ووصيي خير الوصيين ، وأن سبطي خير الأسباط : الحسن والحسين (عليهما السلام) سبطي هذه الأمة ، وإن الأسباط كانوا من ولد يعقوب وكانوا اثني عشر رجلاً ، وأن الأئمة من بعدي اثنا عشر من أهل بيتي ، عليٌّ أولهم وأوسطهم محمد وآخرهم محمد ، وهو مهديُّ هذه الأمة الذي يصلي عيسى بن مريم خلفه ، ألا إن من تمسك بهم بعدي فقد تمسك بحبل الله ، ومن تخلف عنهم فقد تخلى عن الله»^(١٣) .

تربت زينب في بيت من قال فيه رسول الله (ص) بإجماع رواة الحديث من

المدرستين : «أفضاكم علي»، و «علي أفضى الأمة»^(١٤). فهو إذن أفقههم . ولذلك قال فيه عمر بن الخطاب بعد تجربته الطويلة معه خلال عهد رسول الله (ص)، وعهد أبي بكر، وعهده : «لولا علي لهلك عمر، لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن، لا يفتين أحد في المسجد وعلي حاضر»^(١٥).

وينقل ابن أبي الحديد أنه خلال خلافة عمر أيضاً استعدى رجل على علي بن أبي طالب (ع) عمر بن الخطاب وعلي جالس فالتفت عمر إليه فقال : «قم يا أبا الحسن فاجلس مع خصمك فقام فجلس معه وتناظرا ثم انصرف الرجل ورجع علي (ع) إلى مجلسه فبين عمر التغير في وجهه . فقال : يا أبا الحسن ما لي أراك متغيراً أكرهت ما كان؟ قال : «نعم» . قال : وما ذاك؟ ؛ قال : «كنتني بحضرة خصمي هلا قلت : قم يا علي فاجلس مع خصمك» . فاعتنق عمر علياً وجعل يقبل وجهه وقال : بأبي أنتم بكم هداانا الله وبكم أخرجنا من الظلمة إلى النور»^(١٦).

ولما كان علي أفقه الناس في دولة النبوة، بعد رسول الله (ص) فقد أخذ عنه فقهاء الصحابة كعبد الله بن عباس المعروف بحبر الأمة . كما أن فقهاء مدرسة الخلافة الأربعة وغيرهم أخذوا علومهم عن علي، بشكل مباشر أو غير مباشر. فقد قرأ أبو حنيفة على جعفر بن محمد الصادق (ع) ويتهي علم جعفر إلى علي، وعن أبي حنيفة أخذ بقية فقهاء مدرسة الخلافة بعضهم عن بعض أيضاً بوسائل مختلفة^(١٧).

لقد كان علي سعيداً بذلك لتأدية واجب من واجبات الإمامة وهو حماية حدود الشريعة، وتلك حسنة من حسنات سلطة الخلافة لأنها رأت أن لا غنى عن فقه حامي الشريعة وعلومه الإلهية التي تعلمها من النبي (ص).

تربت زينب ونشأت وتعلمت على يدي من قال فيه رسول الله (ص) : «أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأت الباب»، و «أنا دار الحكمة وعلي بابها»، و «علي باب علمي»^(١٨). وزوي عن الإمام علي أنه قال : «إسألوني قبل أن تفقدوني عن كتاب الله ما من آية إلا وأنا أعلم حيث نزلت، وما من فتنة إلا وقد علمت كبشها، ومن يقتل فيها، والعلم بها يكون لا يكون إلا للرسول لقوله تعالى :

﴿عالم الغيب فلا يظهرُ على غيبه أحداً إلا مَنْ ارتضى من رسول...﴾ (١٩).
والرسول يطلع الإمام ليستدل به على استحقاقه لذلك المقام (٢٠).

وتعلمت زينب وأخواها القرآن وعلومه على يديه .

ومما جاء في وصف علي للقرآن وأهميته في حياة الأمة :

«جعل الله ربّاً لِعَطَشِ العلماء ، وربيعاً لقلوب الفقهاء ، ومحاجّ لطُرُقِ الصُّلحاء ، ودواء ليس بعده دواءٌ ، ونوراً ليس معه ظلمةٌ ، وجبلاً وثيقاً عُروته . ومعقلاً منيعاً ذروته وعِزّاً لمن تولّاه . وَسِلْماً لمن دخله . وهُدًى لمن أتمّ به ، وعُذراً لمن انتحلّه ، وبُرْهاناً لمن تكلم به ، وشاهداً لمن خاصم به ، وفلجاً لمن حاجّ به . وحامِلاً لمن حمّله ، ومُطِيةً لمن أعمله ، وآيةً لمن توسَّس وجنةً لمن استسَلَّم وعِلْماً لمن وعى ، وحديثاً لمن روى ، وحُكماً لمن قضى» (٢١).

وتعلمت زينب وأخواها إلى جانب القرآن وعلومه والسنة النبوية الشريفة ، الفصاحة والبلاغة على يدي والدهم الذي مدح فصاحته أشد الناس عداوة للعتره معاوية بن أبي سفيان بقوله : «إن علياً هو الذي سنَّ الفصاحة لقريش» (٢٢) . ومنزلة قريش الأدبية وشهرتها معروفة تماماً عند جميع العرب . وكتاب نهج البلاغة الذي جمع فيه الشريف الرضي - أحد علماء مدرسة الإمامية البارزين - خطب الإمام علي (ع) خير دليل على مستوى فصاحته وبلاغته وقد قيل فيه : إن كلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين ، ومنه تعلم الناس الخطابة والكتابة ، فكيف بأولاده فهم أولى بذلك وأجدر ، فهو إمام الفصحاء وسيد البلغاء (٢٣) . كان علي لأولاده الأب والمعلم والصديق والمربي . أصبح حاضناً لأيتامه بعد رحيل عضيديه النبي (ص) وفاطمة في فترة قصيرة بينهما ، كما كان فقد النبي لعضيديه : خديجة وعمه أبي طالب .

حق لعلي أن يحزن ، وحق له أن يحمل هم تربية العيال وهم لا يزالون أطفالاً ، أصبحوا أيتاماً من الجدة والأم في سن مبكرة من حياتهم . وكان يقول :

ما إن تأوّهتُ من شيء بليتُ به كما تأوّهتُ للأيتام في الصغر

فهو المعلم الأكبر بعد رسول الله (ص) لأنه آيته . ولذلك وجب عليه أن يتحمل

هموماً تزول منها الجبال وتنهد هداً، وهو صامد لا يزول ولا يتزعزع. فغذى أولاده بصبر الإمامة، فأخلاقياته امتداد لأخلاقيات النبوة. أسند ابنُ قرطبة في مراصد العرفان إلى زيد بن حارثة: «أن رسول الله (ص) بايعنا على أن نحفظه في نفسه وفي علي بن أبي طالب، وقال: أعطى الله تعالى العصا لموسى، والكلمات لإبراهيم وأعطاني هذا - يعني علياً - ولكل نبي آية، وهذا آيتي والأئمة الطاهرون من بعده آياتُ الله، ولم تخل الأرض من الإيمان ما بقي أحد من ذريته، وعليهم تقوم الساعة» (٢٤).

لذلك فلا عجب في تميزه أنه معجزة النبي بعد القرآن، ومن هنا جاء التلازم في حديث الثقلين بين القرآن والعتره.

نهلت زينب وأخواها من علوم النبوة، كما تعلموا الفصاحة والبلاغة من والدهم الذي غمرهم بحنانه وأغدق عليهم من فيض حبه، فهم سلوته بعد غياب الأبهة وخذلان الأمة وغياب الناصر. تخلقت زينب وأخواها بأخلاق النبوة، إلى جانب اتقانهم للقرآن والسنة وعلم الفقه واللغة. فقد تعلموا من والدهم ووالدتهم التواضع والحلم وبساطة العيش والكرم والورع والزهد والتقوى، فكانت هذه كلها حليتهم في الحياة الدنيا، كما ورثوا عن والدهم الشجاعة والإقدام، وكذلك كانت والدتهم بضعة الرسول (ص).

لم ينحصر جود علي في السلم فقط، فقد كان جواداً في الحرب أيضاً. ذلك أنه كما يروى تنازل عن سلاحه الذي يحاربُ به لخصمه في عهد رسول الله (ص) خلال المبارزة، حينما طلب المبارزُ سيف علي. فقد روي أن علياً كان يحارب رجلاً من المشركين في إحدى الغزوات، فقال المشرك: «يا ابن أبي طالب هبني سيفك، فرماه إليه، فقال المشرك: يا ابن أبي طالب في مثل هذا الوقت تدفع إليّ سيفك؟ فقال: يا هذا إنك مددت يد المسألة إليّ، وليس من الكرم أن يرد السائل. فرمى الكافر نفسه إلى الأرض، وقال: هذه سيرة أهل الدين، فقبّل (في المصدر: فباس) قدمه وأسلم» (٢٥).

لقد تربت زينب وأخواها في بيت من قال فيه رسول الله (ص): «هذا سيد العرب» (٢٦). وقد جهلت الأمة حقه كما جهلت حق ذريته وقدرهم، بعد أن جعل

الله إمامته إكمالاً للدين وإتماماً للنعمة الإلهية على المؤمنين . سُئل الإمام الصادق (ع) عن قوله تعالى : ﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها . . .﴾ (٢٧) . قال : «يعرفونها يوم الغدير وينكرونها يوم السقيفة» (٢٨) . وجاء عن الإمام الصادق (ع) تحميله رجال سلطة الخلافة مسؤولية الدماء التي تراق في دولة النبوة منذ بيعة السقيفة إلى يوم القيامة (٢٩) . إنه لما كان قتل قابيل لأخيه هابيل بداية لتأسيس الظلم على وجه الأرض ، فإن ظلامه آل رسول الله (ص) بعقد بيعة السقيفة هي البداية لتأسيس الظلم في دولة النبوة وجر المحن وتواليها على الأجيال المتعاقبة لأمة محمد (ص) من قبل الحكومات الجائرة التي كانت وليدة ذلك اليوم .

إن الإمامة أخت النبوة وهما ركنان من الإيمان ، وجاء تثبيت الإمامة في غدير خم في الثامن عشر من ذي الحجة السنة الحادية عشرة للهجرة إيذاناً بنهاية المطاف لإنجاز الرسالة السماوية بواسطة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد (ص) ، وإيذاناً كذلك بإقتراب رحيلة من دار الدنيا إلى نعيم الخلد في دار الآخرة .

وعن دور الإمام في حياة الأمة قال الإمام علي (ع) : «أنا صراط الله المستقيم وعروته الوثقى التي لا انفصام لها» (٣٠) . يعني أن معرفته والتمسك به طريق إلى معرفة الله سبحانه . وعن إرتباط الإمام علي بالنبي (ص) وكونه امتداداً له قال (ع) : «أنا من محمد (ص) كالضوء من الضوء ، والضوء الثاني مثل الأول لا مستقل ولا أجنبي بل هو كالمالك المتصرف في الملك بتمليك مالك الأول» (٣١) . فعلي يوضح للأمة أنه صنو النبوة ، فشجاعته من شجاعته ، وعلمه من علمه ، وأخلاقه من أخلاقه ، فهذا إمتداد لحياة النبوة ونسخة أصلية منه لا يمكن أن يرقى إليها سائر البشر ، وأن التمييز بينهما النبوة ، كما وضع النبي (ص) ذلك لعلي يوم خروجه إلى غزوة تبوك وتخليفه في المدينة ليحل محله بقوله : «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي» (٣٢) .

ومن كرامات علي عند الله ورسوله أن جعل حبه معياراً للتمييز بين المؤمن والمنافق ، عن أنس بن مالك قال : «لما نزلت الآيات الخمس في طس ﴿أمن خلق السماوات والأرض . . . إن كنتم صادقين﴾» (٣٣) . إنتفض علي إنتفاض العصفور فقال له رسول الله (ص) : (مالك يا علي ؟ فإنه لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق ،

ولولا أنت لم يعرف حزب الله^(٣٤). فالأئمة وفي مقدمتهم علي والموالين لهم السالكون طريقهم هم حزب الله ، كما يدل عليه الحديث الشريف .

وعلى الرغم من تعاونه مع سلطة الخلافة الواقعية خصوصاً خلال خلافة أبي بكر وعمر حيث حظى بإحترامهما وتقديرهما لحاجتهما إليه فكان يزودهما بمشورته ونصائحه إلا أنه حدثت تجاوزات عديدة لم يتمكن من إيقافها خصوصاً في خلافة عثمان بن عفان لأنه لم يكن يملك السلطة السياسية . وكثيراً ما ضاق عثمان ذرعاً بمشورته خصوصاً في نهاية حياته . وكان الإمام علي ييث همومه وأولاده والصفوة من أصحابه في بعض الأحيان ليكونوا على علم بكل تلك التجاوزات التي تحدث للدين ولصالح الأمة ومقدراتها .

وقد وصف الإمام علي بإيجاز ما قام به عثمان بن عفان الخليفة الثالث تجاه دولة النبوة من أخطاء بقوله :

«إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه^(٣٥) بين ثيله^(٣٦) ومعتلفه وقام معه بنو أبيه يعضمون^(٣٧) مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع إلى أن انتكث^(٣٨) فتله وأجهز^(٣٩) عليه عمله وكبت^(٤٠) به بطنته^(٤١) .

يصور الإمام على ما لحق بدولة النبوة من إستغلال لمقدراتها وإلحاق الأذى بأبنائها خصوصاً الأمرين بالمعروف حينما تولى عثمان بن عفان حكم المسلمين وهو ثالث رجال سلطة الخلافة الواقعية الذي فتح الباب على مصراعيه للأمويين والروانيين الذين حذر الرسول (ص) منهم في أحاديث متواترة عند رواة ومحدثي المدرستين . فيصور الإمام علي (ص) تلاعب الأمويين بمقدرات الأمة ومصادرتها كما تقبل الإبل على أكل نبات الربيع بنهم . وكان ختام عهد سلطنة الخلافة مأساوياً بالنسبة لإنتهاك حدود الله والإساءة إلى الأمة ودولة النبوة وتثقل ذلك في الأخطاء الشيعة التي ارتكبت في حق الإسلام والمسلمين في عهد عثمان وهي : ^(٤٢).

١ - رد الحكم بن العاص (طريد رسول الله) بعد أن نفاه النبي ومنع دخوله المدينة إلى الأبد قائلاً له : « لا تجاورني حياً وميتاً » ، علماً بأن أبا بكر وعمر رفضا إعادته حينما طلب منهما ذلك ، إلا أن عثمان أعطاه مئة ألف درهم وأعادته .

٢ - نفى أبي ذر من المدينة إلى الشام ثم من المدينة إلى الريزة حتى مات وحيداً فريداً، وبذلك قرب عثمان من أبعده رسول الله وهو الحكم، وأبعد من قرب رسول الله (ص).

٣ - طلب منه عبد الله بن خالد بن أسير صلة فأعطاه أربعمئة ألف درهم.

٤ - تصديق رسول الله (ص) بموضع سوق بالمدينة يعرف بنهرورز على المسلمين فأقطعه عثمان الحرث بن الحكم أخا مروان بن الحكم.

٥ - اقطع عثمان مروان بن الحكم فدك نحلة الزهراء التي حرمتها منها سلطة الخلافة منذ بداية حكمها بعد وفاة الرسول (ص) وظلت فدك يتوارثها آل مروان حتى أعادها العبد الصالح عمر بن عبد العزيز إلى ورثة فاطمة الزهراء بالمدينة في عهده.

٦ - حمى المراعي حول المدينة كلها من مواشى المسلمين كلهم إلا عن بني أمية.

٧ - أعطى عبد الله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقيه بالمغرب وهي من طرابلس الغرب إلى طنجة من غير أن يشركه أحد من المسلمين، كما ولاه مصر.

٨ - أعطى أبا سفيان بن حرب مئتي ألف من بيت المال في اليوم الذي أمر فيه لمروان بن الحكم بمئة ألف من بيت المال، وقد كان زوجه ابنته أم أبان.

٩ - أتاه أبو موسى بأموال كثيرة من العراق فقسمها كلها في بني أمية.

١٠ - أنكح الحرث بن الحكم ابنته عائشة فأعطاه مئة ألف من بيت المال أيضاً بعد صرفه زيد بن أرقم عن مسؤولية بيت المال لتذمره من هذا التلاعب.

١١ - ضرب عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل حتى كسر أضلاعه.

١٢ - ضرب غلمان عثمان عمار بن ياسر حتى انفتق بطنه وكسروا ضلعاً من أضلاعه.

١٣ - عشر على نسخة من كتاب موجه الى معاوية يأمره بقتل بعض المسلمين.

١٤ - أحاط نفسه ببطانة من بني أمية وآل مروان وفي مقدمتهم مروان بن الحكم الذي أصبح الخليفة الفعلي لدولة النبوة في عهده، مما أدى إلى تأليب الرأي العام في أقاليم الدولة ضده ومن ثم مقتله . كل ذلك حدث وعلي وصي رسول الله والإمام من بعده بمسمع وبمنظر . كل هذه التجاوزات طيلة ربع قرن منذ موت رسول الله (ص) إلى مقتل عثمان وهو يعيش تلك الانتهاكات للدين وحدوده ولقدرات المسلمين ، وقد شلت يمناه وكتفته وصية الرسول وفقدان الناصر، وهذا معنى قوله (ع) : «وظفقت أرتأى بين أن أصول بيد جذاء أو أصبر على طخية عمياء» (٤٣) وصف تلك الفترة التي غاب فيها الناصر وكثرت بها التجاوزات والانتهاكات كالليل البهيم والمظلم لكثرة المظالم التي حلت بالأمة ونهب ثرواتها والتعدي على حرمت الله . هذه هي الظروف العصيبة التي عاشتها زينب مع والدها وأخويها كانت ظلامه العترة هي البداية وقد غاب عن الأمة الأبعاد الحقيقية التي ستترتب على تنكروهم لعهدهم لرسول الله (ص) لقد خانت الأمة الثقلين الثقل الأكبر كتاب الله والثقل الأصغر العترة أنها الجدار الأمني لحرمة الدين والأمة فإذا انتهكت حرمتها ورضيت الأمة بذلك فلن تقوم لها قائمة وهذا ما حصل .

تخرجت زينب بنت علي بن أبي طالب من حجر النبوة ومدرسة الإمامة، إنها سليلة البضعة النبوية، نشأت فصيحة بليغة حتى أنها أفحمت أعداءها في عقر دارهم حيث أحرستهم الخطب لحسن منطقها وعمق بلاغتها وفصاحتها مع أنها كانت مسبيه وتحت رحمة أولئك الأعداء كموقفها مع عبيد الله بن زياد والي الكوفة في قصر الإمارة ومع يزيد بمجلسه في القصر الأخضر بدمشق كما سيتضح ذلك لاحقاً . أمها فاطمة الزهراء وجدتها خديجة بنت خويلد وأبوها علي بن أبي طالب وجدودها النبي (ص) وخويلد وأبو طالب وشقيقها السبطان الحسن والحسين (ع) . لقد حازت شرف النسب العالي في قريش إلى جانب شرف النبوة وشرف الإمامة وشرف العلم والفصاحة والبلاغة والأخلاق الإيمانية كالزهد والورع والتقوى والصبر والتواضع والحلم . إن شجرة نسبها من أعلى الأشجار قدراً ومنزلة عند الله وعند الناس . فكانت بحق نموذجاً مشرفاً للمرأة الرسالية بعد جدتها

خديجة وأُمها فاطمة . من ألقابها العقيلة وفخر المخدرات وعقيلة الطالبين .

٢ - زواجها وحياتها الزوجية :

تزوجها ابن عمها عبد الله بن جعفر (الطيّار) بن أبي طالب . أمه أسماء بنت عميس بن النعمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن خثعم ، وأبوه جعفر بن أبي طالب الملقب بالطيّار لاستبائته في الدفاع عن الإسلام في غزوة مؤتة السنة الثامنة من الهجرة ، التي استشهد فيها وعوضه الله بجناحين يطير بهما في الجنة بعد قطع يديه في تلك المعركة الحاسمة . وقد وُلد عبد الله بن جعفر في الحبشة خلال هجرة والديه إليها فراراً بعقيدتهم من مطاردة قريش للمسلمين فكانت الحبشة الملاذ الأول للمسلمين قبل الهجرة إلى المدينة . ومن أبرز الصفات التي اشتهر بها عبد الله الجود لذلك لقب بالجواد^(٤٤).

وعلى الرغم من ترحيب علي بن أبي طالب بتزويج ابنته زينب لابن أخيه عبد الله ابن جعفر إلا أنه اشترط عليه ضمن العقد أن لا يمنعها من الخروج مع أخيها الحسين (ع) إلى العراق^(٤٥) . ولا شك أن الإمام علياً قد علم من رسول الله (ص) بما يجري عليه وعلى ذريته من ظلم الأمة وجورها عليهم . وإن إصرار الإمام علي في اشتراطه على ابن أخيه يعكس علامتين بارزتين الأولى أن إلحاق السيدة زينب بالحسين في معركة الشهادة بكرلاء هو عمل مقدس لأنها ستقوم بدور عظيم بعد الحسين حيث ستحمل بعد إنتهاء المعركة المسلحة رسالة الإستشهاد لتبلغها إلى الأمة . والثانية أنه على الرغم من أن العمل الذي ستقوم به هو عمل رسالي إلا أنه لا بد وأن يكون عن إذن من زوجها . فثبت الإمام علي الشرط خشية وقوع المحذور . وإلى جانب هذا وذاك كشف الإمام علي علمه بالأحداث المستقبلية التي زوده بها النبي (ص) ورُزقت زينب من ابن عمها عبد الله أربعة أولاد: علي وعون ومحمد وعباس ، وبتاً واحدة هي أم كلثوم^(٤٦) . وقد وفي عبد الله بن جعفر بوعده حينما أذن للسيدة زينب بمصاحبة أخيها حينما سار في ركب الشهادة إلى كربلاء وتوج ذلك

الإلتزام أن قدّم ولديه عوناً ومحمداً قربانين لدين الله حيث إستشهدا بين يدي خالهما الحسين وبحضور أمهما زينب^(٤٧).

إن انتداب الإمام علي السيدة زينب لتكون شريكة الإمام الحسين في نضاله بكر بلاء يعكس مكانة هذه المرأة وعظمتها ودورها الرسالي . فكما صاغ الرسول وخديجة شخصية فاطمة الزهراء ، فإن شخصية السيدة زينب هي من صياغة فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب . لقد هيأها الإمام علي (ع) لذلك الدور الرسالي الذي أذهل الأعداء قبل الموالين ، وستتضح عظمة هذا الدور فيما بعد . وكما كان الرسول (ص) متعلقاً بفاطمة ، كذلك كانت علاقة الإمام علي (ص) بالسيدة زينب على الرغم من زواجها فقد كانت حريصة على الإستفادة من علمه وتوجيهاته وأخلاقه المثالية إلى جانب حبه وحنانه الأبوي . لقد رافقته خلال فترة إقصائه عن السلطة ولمست عن قرب مدى آلامه وشكاويه وظلماته مما حل بالأمة نتيجة تنكرهم لحقه ، كما كانت قريبة منه خلال تسلمه مقاليد الحكم .

٣- الظروف التي مهدت لكربلاء :

لقد عاش علي بن أبي طالب صابراً على أمره خمساً وعشرين سنة خلال سلطة الخلافة كما غلب الرسول (ص) على أمره وحوصر في شعب أبي طالب بمكة وعاشت السيدة زينب مع والدها وأخويها آلام العترة وكل الانحرافات التي حدثت خصوصاً في عهد عثمان بن عفان كما مر ذكر نبذة مختصرة عن أخطائه . كذلك عاشت السيدة زينب فترة حكم والدها لدولة النبوة وفرح المؤمنون بعهدده كما استاء أصحاب الأطماع والشهوات من سياسته فثاروا عليه حيث لم يدم عهده إلا فترة قصيرة (٣٥ - ٤٠ هـ) . بعد مقتل عثمان بن عفان الخليفة الثالث فقد أجمع على بيعته علي أهل الحل والعقد ولم يوافق إلا بعد إلحاح شديد من كبار المهاجرين والأنصار . ويصف الإمام علي مشهد الجماهير المحتشدة التي إنهالت عليه للمبايعة بقوله : « فما راعني إلا والناس كعُرف الضَّبُع إليّ ينثالون^(٤٨) عليّ من كل جانب . حتى لقد وُطِيء الحسنان ، وشُقَّ عطفائي^(٤٩) ، مجتمعين حولي كرياضة الغنم^(٥٠) » . فعلي أعجبه أمر الناس وهم ينصبون عليه كأنصباب الماء مجتمعين حوله كاجتماع الغنم حول راعيها .

ومع أن نفرًا من كبار الصحابة إمتنعوا عن بيعته مثل عبد الله بن عمر، سعد بن أبي وقاص، حسان بن ثابت وزيد بن ثابت إلى جانب ثلاثة نفر آخرين بالإضافة إلى الأمويين والمروانيين^(٥١)، إلا أن علياً أبى أن يذل أولئك النفر من كبار الصحابة على الرغم من تخلفهم عن بيعته واكتفى بقوله: «أولئك قوم خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل. تخلفوا عن الحق ولم يقوموا مع الباطل»^(٥٢). لم يقاتلهم كما فعل غيره، ولم يتهممهم بالإرتداد عن الاسلام لأنهم تخلوا عن بيعته كما فعل غيره مع أنه وصي رسول الله وبيعه واجبة في أعناقهم.

ولذلك كان مما قاله حينما تولى مقاليد حكم دولة النبوة يقارن بين مكانة عترة الرسول وأهليتهم لقيادة الأمة وبين من تقدم عليهم وحالوا بين العترة وحقهم: «زرعوا الفجور، وسقوه الغرور وحصدوا الثور لا يقاسُ بآل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الأمة أحد ولا يُسوَّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدين وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة. الآن إذ رجع الحق إلى أهله، ونُقِلَ إلى متقله»^(٥٣). إنه يشير إلى الذين أسسوا ظلم آل محمد (ص) منذ وفاته، ومع الجهود التي بذلوها لإقصائهم عن قيادة الأمة إلا أن تلك الجهود ذهبت أدراج الرياح وقد عاد الحق إلى نصابه. أراد علي أن يمارس حكم الله في الأرض. علي أراد أن يعيد لدولة النبوة نضارتها وعزتها كما كانت أيام رسول الله. أراد أن يحيى سنة الرسول (ص) ويعمل بجوهرها، إلا أنه قد مضى على رحيل الرسول (ص) ربع قرن من الزمن وغَيَّرَ المال نفوس الناس كما توقع رسول الله (ص) للأمة في أحاديث متواترة عند رواة ومحدثي المدرستين. ولذلك ثار عليه الناكثون والقاسطون والمارقون كما أخبره الرسول (ص) وأخبر الأمة بذلك. روى كل من أبي يعلى والبخاري أن علياً قال على المنبر في مطلع خلافته بالمدينة: «عهد إليّ النبي (ص) أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين»^(٥٤). كما أكد الإمام علي في إحدى خطبه بمسجد الكوفة قبيل وفاته على تظلمه من تظاهر الأمة عليه وخذلانه وإشارته إلى الفرق الثلاث التي قاتلها بقوله: «فلما نهضتُ بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون»^(٥٥) ويقصد بالناكثين زعماء حرب الجمل وهم طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين الذين فضح علي تأمرهم مع معاوية عليه

حيث إستخدمهم جنوداً لتنفيذ تطلعاته للحكم^(٥٦)، أما القاسطون فهم بنو أمية وأما المارقون فهم الخوارج . لقد ضرب علي المثل الأعلى للتواضع والزهد خلال حكمه والمشهور عن الإمام علي أنه لم يبين لبنة على لبنة ولا قصبه على قصبه^(٥٧) . وحينما إنتهى من معركة الجمل في البصرة قدم الكوفة في رجب سنة ٣٦ من الهجرة ومعه أشراف البصرة، فخرج أهل الكوفة لإستقباله قبل دخولها يهتفون بالنصر . وحينما عرضوا عليه النزول في القصر الأبيض الذي كان معداً لسكناء أبي قائلاً: « لا أنزل القصر، ولكنني أنزل الرحبة »^(٥٨) وهي ساحة المسجد الجامع ، فنزلها وأقبل ودخل المسجد فصلى ركعتين . فبنى له أهل الكوفة منزلاً صغيراً بناءً على توجيهاته يكون في مستوى أفقر بيت في الكوفة^(٥٩) . ومن كلامه في أسلوب عيشه : « أقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم مكاره الدهر »^(٦٠) . فسكنه في ذلك المنزل المتواضع إنما هو مواساة للمحرومين . ، لذلك أحبه المساكين والمحرومين وتبعوه . قال عنه رسول الله (ص) : « علي إمام المساكين »^(٦١) ولحب السيدة زينب وتعلقها بأبيها التحقت به مع أسرته وفضلت أن تعيش إلى جواره لتسعد بعطفه وحنانه الأبوي وتتزود من علمه وحكمته ومن موارث النبوة التي آلت إليه ، لتجمع لها زاداً من موارث النبوة يكون لها عوناً وعزاء في مستقبل الأيام الحلي بالرزايا التي تنتظرها .

إن الإمام علياً أمة في رجل فكما كانت النبوة نعمة ونوراً وهداية للعرب فكذلك دور الوصي الذي جهلوا قدره ، ولم يعلموا أن تظاهروهم عليه خلال مدة حكمه إنما كان خطأً لقدروهم وتضييعاً لمقدراتهم وسحقاً لكراماتهم كما تنبأ لهم الإمام علي بذلك وبالذل الشامل على أيدي الأمويين فقال : « فعند ذلك لا يبقى بيتٌ مدر ولا وبر إلا وأدخله الظلمةُ ترحةً وأولجوا فيه نقمة فيومئذٍ لا يبقى لهم في السماء عاذر ولا في الأرض ناصر . أصفيتم بالأمر غير أهله وأوردتم غير مورده . وسينتقم الله ممن ظلم مأكلاً بمأكَل ومشرباً بمشرب من مطاعم العلقم ومشارب الصبر والمقر . ولباس شعار الخوف وذمار السيف . وإنما هم مطايا الخطيئات وزوامل الآثام . فأقسم ثم أقسم لتنخمنها أمة من بعدي كما تلفط النخامة . ثم لا تذوقها ولا تطعم بطعمها أبداً ما كَرَّ الجديدان »^(٦٢) . يتحدث عما سيحل بالأمة من جور وظلم في عهد بني

أمية الذين كان شعارهم بث الرعب في نفوس الناس بواسطة السيف كما يتحدث عن زوال ملكهم الذي أسسوه، وهو هنا يشير إلى ملك الشرق وليس الأندلس. وفي معركة صفين وصف الإمام علي معاوية وجيشه بحزب الشيطان فقال: «ألا وإن الشيطان قد جمع حزبه، وإستجلب خيله ورجله»^(٦٣). كما روي عن الإمام علي (ع) أنه لما نظر إلى رايات معاوية وأهل الشام بصفين قال: «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أسلموا ولكن رجعوا إلى عداواتهم لنا إلا أنهم لم يتركوا الصلاة»^(٦٤). كما توقع الإمام علي أن يأمر معاوية بسبه لأنه لم يهادنه بل أصرَّ على إقصائه عن حكم الشام فقال: «أما إنه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم مندحق البطن يأكل ما يجد ويطلب ما لا يجد، فأقتلوه ولن تقتلوه. ألا وأنه سيأمركم بسبي والبراءة مني. أما السب فسبوني فإنه لي زكاة ولكم نجاة. وأما البراءة فلا تتبرأوا مني فإني وُلدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة»^(٦٥).

كم كانت قصيرة فترة حكم الإمام علي لم يتمكن من تحقيق أحلامه في إقامة حكم الله في الأرض ويعيد لدولة النبوة مجدها وعزها الإلهي حيث ثار عليه الناكثون والقاسطون والمارقون إلى درجة أن الأموال التي صار معاوية يوزعها يميناً وشمالاً لشراء رجال علي قد أثرت في بعضهم فرحل وقلبه مليء بالغصص على ما وصل إليه حال أمة نبيه، وكانت وفاته في الحادي والعشرين من رمضان سنة أربعين من الهجرة بعد أن ضربه عبد الرحمن بن ملجم بالسيف على رأسه في محراب المسجد الجامع. ودفن بمقبرة الغرى بالكوفة حيث دفنه الحسنان وبعض المخلصين من أصحابه وأخفيا قبره خوفاً على نبشه من الأمويين كما فعل علي نفسه بقبر فاطمة.

ها هي زينب تتوالى عليها الرزايا تموت أمها شهيدة لظلامة الأمة وها هو والدها وصي رسول الله يلحق بركب الراحلين شهيداً بعد أن ذاق الكثير من ظلم الأمة وخذلانها له وجهلها لقدره وحقه بعد أن أفنى حياته في خدمتها وخدمة الدين ولم يُعرف مكان قبره إلا في زمن هارون الرشيد^(٦٦). لقد كان الصراع بين علي ومعاوية سباقاً بين خطين خط دولة النبوة وخط سلطنة قريش فخط علي هو إقتفاء سنة الرسول (ص) لتحقيق المبادئ التي أقام عليها دولته وهي الحق والعدل والمساواة

والحرية فقاد المساكين (المتواضعين) والمتقين ليجعل من تلك المبادئ دستور الحياة، وهذه سيرته في الأمة خلال حكمه، وخطبه في كتاب نهج البلاغة، وعهده إلى مالك الأشتر النخعي لما ولاه على مصر وأعمالها^(٦٧)، يعد دستوراً متكاملًا للسياسة الشرعية بدولة النبوة لأنه مستنبط من القرآن والسنة.

وقد وصف معاوية عهد علي للأشتر حينما وقع في يده بعد أن تمكن من التآمر على قتل مالك سماً وهو في طريقه إلى مصر بقوله يخاطب بطانته^(٦٨):

«دعوني أتأمل في عهد علي للأشتر فما قرأتُ علماً أجمع منه ولا أغزر ولا أحكم، ولا أشد إماماً بالآداب والقضايا والأحكام والسياسة»^(٦٩).

وقد وضع الإمام علي سياسة للإنفاق في الدولة تبلورت في الإلتزام بها كان يحدث به قائلاً:

«إن الله وضع في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بما مُتّع به غني، والله تعالى سائلهم عن ذلك»^(٧٠). وقال: «ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مضيق»^(٧١).

تلك هي السياسة التي أغضبت البخلاء من الأغنياء الذين أرادوا الإستثمار بالمال دون غيرهم وجعلتهم يتعاونون مع معاوية لتقويض حكم علي الذي يتعارض مع مصالحهم»^(٧٢).

أما سياسة معاوية فكانت تقوم على تشويه أخلاق الناس وإغراقهم في ملذات الحياة عن طريق وسائل ثلاث:

أ- الترغيب

ب- التهيب

ج- الفتيا ووضع أحاديث نبوية تمدح في الأمويين وتذم في الطالبين وتحريف تفسير الآيات القرآنية لإغواء المجتمع الإسلامي وجذبه إلى الصف الأموي أو إبعاده

عن عترة الرسول . كل ذلك لإعادة نفوذ زعامة قريش التي قضى عليها ظهور محمد (ص) وثورته النبوية عن جميع مظاهر الحياة في البيئة العربية . فكانت حروب الجمل وصفين والنهروان والأهواز وأردشير هي إحدى وسائل الترهيب لمقاومة خط السياسة النبوي الذي إنتهجه وصيُّ رسول الله ، والتي راح ضحيتها من الأمة خلال خمس سنوات تقريباً مئة ألف قتيل^(٧٣) . وهذا يعكس إستماتة الأمويين وأتباعهم الذين كانوا يسعون لتأسيس سلطنة قريش في التصدي لنضال السائرين على الخط النبوي حتى النهاية فكانت الحروب الداخلية خلال عهد علي ليس فقط هدراً لطاقات الدولة النبوية البشرية والمالية وإنما كانت عائقاً لحركة التنمية بمعناها الشمولي وشمل حركة الفتوحات لنشر مبادئ الدولة الفتية في أرجاء العالم إضافة إلى أن تلك الحروب أعطت إنطباعاً سيئاً للأمم الأخرى عن سلامة نهجها الإنساني .

أما وسيلة الترغيب فكانت تقوم على إغداق الأموال على رؤساء القبائل لإستمالتهم إلى صفِّه كما ركز على إستمالة رجال علي المقربين إليه وقادة الجيش وعرض عليهم الوعود بالجاه والمناصب في السلم والحرب . كما إستخدم تلك الوسيلة لأصحابه أيضاً لضمان ثباتهم على ولائه^(٧٤) . ومعاوية يُقسم بالله أن يجذب من علي ثقافته وأن يغلبهم بدنيته على دينه^(٧٥) .

أما الوسيلة الثالثة ، فإن معاوية حشر في القصر الأخضر مقر حكمه بدمشق برجال هم دخلاء على الدين اصطنعهم معاوية وجعلهم زينة لبلاطه ليتقي بهم عامة الناس ويستخدمهم سلاحاً وقت الحاجة لتفسير القرآن كما يشاء وتقتضي مصلحته السياسية وليضعوا الأجاديث النبوية التي تتفق وتلك السياسة^(٧٦) . إنه اسلوب الطبواغيت الذين ابتليت بهم أمة الإسلام . فمثلاً حينما قتل عمار في حرب صفين سنة ٣٨ من الهجرة جاء الرجلان الشاميان الثريان إلى معاوية وهما يتسابقان طمعاً في الجائزة أحدهما طعن عمار والآخر احتزَّ رأسه ، فقال لهما عبد الله بن عمرو بن العاص : «ليطب كل واحد منكما نفساً لصاحبه بقتل عمار ، فإنني سمعتُ رسول الله (ص) يقول : (قاتله وسالبه في النار ، إنما تقتله الفئة الباغية)^(٧٧) . وقد وصف عبد الرحمن الشراقي الدور الذي قام به علماء بلاط القصر الأخضر وثوابهم بقوله :

«لقد عرفت الجاهلية صاحبات الرايات الحمراء اللاتي يبعن الأعراض واللذات وعرفت الأمة في عهد معاوية أصحاب الأهواء الذين يبيعون ضمائرهم، ويغلون في الثمن، ويبدلون عرضهم العلمي، وشرفهم الديني مقابل الأموال والضياع والمناصب» (٧٨).

هذه هي السلطوية التي حكم بها بنو أمية بعد علي. لم يبدل علي أسلوب عيشه في عهد حكمه عما كان عليه قبل ذلك. فقد رفض أن يسكن القصر الأبيض الذي أعد له.

أما معاوية فقد بنى له قصرًا غلّفه بالرخام الأخضر ومن هنا اشتق اسمه. واتبع في بنائه فن العمارة الرومانية حيث جلب له مهندسين رومانيين، وزينه من الداخل بزخارف تبعاً للفن الساساني. كما استبدل فرقة الطرب التي تتكون من مجموعة من أعراب البادية بجوقة موسيقية من عازفين على آلات موسيقية مختلفة كاملة من أفضل الموسيقيين الفرس. كذلك جلب فرقة رقص رومانية. إنه حاكى بذلك تقاليد وعادات دواوين القياصرة والأكاسرة، كما قلدهم في أساليب معيشتهم (٧٩).

ولذلك حينما زار عمر بن الخطاب خلال خلافته معاوية بدمشق ورأى كثرة جنوده وأبهة ملكه أعجبه ذلك وأعجب به ثم قال: «هذا كسرى العرب» (٨٠) لفخامة ملكه وباهر جلالته وعظمته أبيته.

كما روي أن عمر بن الخطاب حث الناس على الهجرة إلى معاوية بالشام إذا وقعت فتنة أوجبت إفتراق الصحابة، وأن يفوضوا إليه أمر الفتنة لسداد رأيه وحسن تدبيره (٨١).

وقال معاوية، يوماً وهو بين حاشيته يصف بإيجاز حياة رجال سلطة الخلافة الثلاثة: أبو بكر، عمر وعثمان قائلاً: «رحم الله أبا بكر، لم يرد الدنيا ولم ترده الدنيا، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردّها، وأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصاب منه، أما نحن فتمرغنا فيها! والله انه لملك آتانا الله إيّاه!» (٨٢).

إن سلطة الخلافة هي التي مكنت الطلقاء وأبناء الطلقاء من تأسيس نفوذهم السياسي في دولة النبوة. فمعاوية بن أبي سفيان تولى حكم دمشق بعد وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان في نهاية عهد أبي بكر، وعمر بن الخطاب ثبت معاوية على حكم

دمشق، وعثمان ولاه على كل الشام كما فتح الباب على مصراعيه لأقاربه، من الأمويين وسلطهم على رقاب المسلمين دون قيد أو شرط. وتكفي شهادة معاوية بنفسه.

ودليل آخر على أن نفوذ الأمويين الذي مكنهم من تأسيس سلطنة قريش مدان لعهد سلطة الخلافة وصية أبي سفيان لابنه معاوية حينما زار الأخير أباه فقال له: «إن هؤلاء الرهط من المهاجرين والأنصار سبقونا وتأخرنا عنهم، فرفعهم سبقهم، وقصر بنا تأخرنا، فصرنا أتباعاً وصاروا قادة، وقد قلدوك جسيماً من أمرهم، فلا تخالفن أمرهم، فإنك تجري إلى أمد لم تبلغه، ولو قد بلغت لنوفست عليه» (٨٣).

عمر بن الخطاب يطلق على معاوية «كسرى العرب»، ويبحث الناس على الإلتحاق به حال حدوث فتنة، وأبو سفيان يأمره بطاعة من قلده مهام الحكم.

هذه لمحة موجزة، ومؤشراً على أن سلطنة قريش مدانة في وجودها ونفوذها إلى سلطة الخلافة، وأن كل الأخطاء التي إرتكبتها سلطنة قريش بحق الدين والأمة تتحمل مسؤوليتها سلطة الخلافة التي حكمت دولة النبوة بعد رحيل مؤسسها مدة ربع قرن. علماً بأن الطلقاء وأبناء الطلقاء لا يحل إئتمانهم أمور المسلمين ومصالحهم بإتفاق المسلمين.

وفوق هذا وذاك فإن الرسول (ص) قد حذر الأمة من شرور بني أمية وبني مروان وآل مخزوم في أحاديث عديدة، قالها في مناسبات مختلفة، فكيف يخالف رجال سلطة الخلافة ما نهى عنه رسول الله (ص)؟. فقد أخبر الرسول (ص) أن بني أمية تملك الخلافة بعده وقد ذمهم في أحاديث متواترة عند رواية المدرستين الإمامة والخلافة حيث روي عنه كما يذكر ابن أبي الحديد في تفسير قوله تعالى:

﴿... وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن...﴾ (٨٤) أنه رأى بني أمية ينزون على منبره نزو القردة — حسب لفظ الرسول (ص) — فسأه ذلك. ثم قال: «الشجرة الملعونة بنو أمية وبنو المغيرة» (٨٥) ونحو قوله (ص): «إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً إتخذوا مال الله دولاً وعباده خولا» (٨٦). وكذلك قوله (ص) في تفسير قوله تعالى: ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ (٨٧). قال: «ألف شهر يملك فيها بنو أمية» (٨٨).

كذلك حذر الرسول (ص) الأمة بما يلقاه آله من أذى على يد فئات محددة من الناس ذكرها بالإسم لإلقاء الحجة على الأمة وكشف المستقبل لهم بعلم من الله بقوله: «إن أهل بيتي سيلقون بعدي من أمتي قتلاً وتشريداً، وإن أشدَّ قومنا لنا بغضاً بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم»^(٨٩). وروى عبد الرحمن بن عوف قال: «كان لا يولد لأحد مولود إلا أتى به النبي (ص) فيدعو له فأدخل عليه مروان بن الحكم فقال هذا الوزغ ابن الوزغ الملعون ابن الملعون»^(٩٠).

وفي ذم الأمة لسيرة هؤلاء الذين حذرهم منهم الرسول (ص) وذمهم على لسان كبار الصحابة، روي عن محمد بن زياد قال: «لما بايع معاوية لإبنيه يزيد قال مروان: سنة أبي بكر وعمر فقال عبد الرحمن بن أبي بكر سنة هرقل وقصر فقال له مروان: أنت الذي أنزل الله فيك: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفَّ لَكُمْ﴾...»^(٩١). فبلغ ذلك عائشة فقالت: «كذب والله ما هو به ولكن رسول الله (ص) لعن أبا مروان ومروان في صلبه»^(٩٢). إن رسول الله (ص) لم يخبر عنهم وبدورهم المستقبلي السيء الذي سيحدثونه في الأمة بعده إلا بوحي من الله وبعد أن عاش المسلمون معهم تجربة مريرة قبل الهجرة وبعدها. ولولا أن من الله على المسلمين بالقوة والمنعة وحاصروا مكة بعد فتحها وفي قبضة أيديهم عشرة آلاف سيف كلها كانت مشهورة لم يستسلموا فكان إسلامهم إستسلاماً، كما ورد سابقاً. فلو كانت لهم فرصة للقتال لما ترددوا لحظة واحدة. ها هو معاوية يحول الشام من ولاية إسلامية خلال عهد سلطة الخلافة إلى نواة لسلطنة قريش ونفوذها فقاتل الرجل الذي ارتضته الأمة بالإجماع أميراً للمؤمنين، إلا معاوية، فقد خرج عن الطاعة وفارق الجماعة وشق شمل الأمة وتسبب في إزهاق أرواح عشرات الآلاف من أبناء الأمة وأثار العصبيات القبلية والجاهلية متذرعاً بأخذ الثأر لدم عثمان مخالفاً في ذلك قول الله ورسوله، إذ أن الأخذ بالثأر إحدى العصبيات الجاهلية التي نبذها الإسلام وأن القصاص من مسؤوليات ولي الأمر، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٩٣).

إن الرسول لم يحذر الأمة من شرور تلك الفئات إلا لما تمثله من خطورة على الدين والأمة . وقد عاش المسلمون تلك الشرور منذ موته ولا تزال وستظل قائمة . فإذا كانت غزوة الأحزاب في عهد الرسول (ص) زلزالاً وقتياً إمتحن الله به المؤمنين كما وصفه الله تعالى بقوله : ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾^(٩٤) .

إن سلطنة قريش التي أسسها فلول الأحزاب قد أحدثت زلزالاً أبدياً لدولة النبوة أضعف الدين والأمة ، ولن تزول آثار ذلك الزلزال إلا بظهور قائم آل محمد (ص) الامام المهدي الوصي الثاني عشر لمؤسس الدولة فيملاً الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً . وقال محي الدين في فتوحاته بشأن المهدي (ع) ودوره ومصيره^(٩٥) .

ألا إنَّ ختم الأنبياء شهيدٌ وعينُ إمام العالمين فقيدٌ
هو القائم المهدي من آل أحمد هو الصَّارمُ الهندي حين تبيدُ
هو الشمسُ يجلو كل غيم وظلمة هو الوابلُ الوسمي حين يجود

لقد أخبر الامام علي في أقواله وخطبه التي مرت على هيئة مقتطفات توقعاته للبلاء الشامل الذي سيحل بالدين والأمة من بني أمية فهل صدقت توقعات النبي (ص) وعلي أم لا ؟ بعد إغتيال الإمام علي (ع) بايع المسلمون في الكوفة والبصرة الإمام الحسن (ع) إلا أنه لم يستطع الصمود أمام سلاح معاوية الفتاك وهو الإغراءات بالمال والجاه والمناصب فتساقط رجال الإمام الحسن (ع) أمام تلك المغريات مما اضطره لمصالحة معاوية على أساس :^(٩٦) .

أ- رفع السب عن أبيه .

ب- أن لا يؤذي أحد من السائرين على خط الإمام والعترة .

غير أن معاوية لم يفِ بأي شرط واستمر سب الإمام علي وآله على منابر المسلمين

بما فيها منبر رسول الله (ص) في المدينة ولم يتوقف الشتم إلا في عهد عمر بن عبد
 العزيز^(٩٧). فهاجر بعدها سبطا رسول الله الحسن والحسين (ع) وكذلك السيدة
 زينب وآل رسول الله (ص) إلى المدينة واستقروا فيها^(٩٨). وبدأ الأمويون يصبون جام
 غضبهم وحقدهم على آل رسول الله (ص) وكأنهم يصفون حساباتهم القديمة
 معهم. إنهم يظهرون الحقد والكراهية لعترة الرسول (ص) علانية في مقر
 الرسول (ص) ودار هجرته. ومن تبجح معاوية واستهتاره بذرية الرسول (ص)
 وحقده الدفين على محمد (ص) وآله أنه لما قدم المدينة بعد أن استقر آل رسول
 الله (ص) فيها بعد هجرتهم من مكة، صعد المنبر في المسجد النبوي ونال من
 علي (ع) فقام إليه الإمام الحسن (ع) فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن الله عز وجل
 لم يبعث بعثاً إلا جعل له عدواً من المجرمين فأنا ابنُ علي وأنت ابن صخر وأُمك هند
 وأُمي فاطمة وجدتك قتيبة وجدتي خديجة فلعن الله الأدنى حسباً وأهلنا ذكراً
 وأعظمنا كُفراً وأشدنا نفاقاً فصاح أهل المسجد آمين آمين. وقطع معاوية خطبته
 ودخل منزله»^(٩٩). إن الإمام الحسن (ع) سليل بيت النبوة والإمامة والفصاحة
 والبلاغة فلا يستطيع معاوية أن يدانيه في الحجة والمنطق على الرغم من كونه من
 دهة العرب. ورؤي عن سعد بن أبي وقاص قال: «قدم معاوية في بعض حجاته
 فدخل عليه سعد فذكر علياً فقال منه فغضب سعد وقال: يقول هذا الرجل سمعتُ
 رسول الله يقول: من كنتُ مولاه فعلي مولاه، وسمعتُه يقول أنت مني بمنزلة هارون
 من موسى إلا أنه لا نبي بعدي. وسمعتُه يقول لأعطينَ الراية اليوم رجلاً يحبُّ الله
 ورسوله»^(١٠٠). ومن المعروف أن سعد بن أبي وقاص كان من كبار الصحابة الذين
 اعتزلوا علياً ولم يبايعوه وكذلك عبد الله بن عمر ومحمد بن سلمة الأنصاري إلا أنهم
 حفظوا لعل مكانته في قلوبهم ورفضوا التعاون مع معاوية في حياة علي حينما حاول
 استدراجهم إلى جانبه وعنفوه وذكره بمنأواته للدين والأمة قبل الإسلام
 وبعده^(١٠١). النبي (ص) يقول: «من سب علياً فقد سبني ومن سبني فقد سب
 الله»^(١٠٢). ويقول في حديث آخر عن مكانة علي: «علي مع الحق والحق مع علي
 يدور معه حيث ما دار» متفق عليه. وأخرج الطبراني بسند حسن عن أم سلمة عن
 رسول الله (ص): «من أحبَّ علياً فقد أحبَّني ومن أحبَّني فقد أحبَّ الله ومن أبغض

علياً فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله». إن هذه الأحاديث المتواترة عند رواة المدرستين الإمامة والخلافة في فضل علي وذرية الرسول (ص) ليست من أجل أن يجامل الناس رسول الله (ص) في ذريته وإنما من أجل أن يحفظوه فيهم ويسلكوا طريقهم، لأنه الطريق السوي لمعرفة الله والدين والحياة. إن العترة هم جبل الله وصراطه المستقيم. لقد بلغت الجرأة بمعاوية أن ينال على المنبر من علي الذي لولا سيفه ومال خديجة لما قام الإسلام ولما صنعت أعواد المنابر. ولذلك روي أن الرسول حثَّ على ضرب عنقه إذا صعد منبره. رُوي عن عبد الله بن مسعود قال: «قال رسول الله (ص): «إذا رأيتم معاوية بن أبي سفيان يخطب على منبر فأضربوا عنقه فقال الحسن فوالله ما فعلوا ولا أفلحوا» (١٠٣).

كما حثَّ الإمام علي (ع) على قتله أيضاً (١٠٤). وإنما حث على قتله لكثرة الجرائم التي ارتكبت بحق الدين والأمة ولا تزال. ولذلك حينما نزل به الموت قال: «يا ليتني كنت رجلاً من قريش بنذي طوى وإني لم أَل من الأمور شيئاً» (١٠٥). يتمنى أنه لم يحكم لكثرة المظالم التي ارتكبتها بحق دولة النبوة ديناً ودولة. وكان مروان واليه على المدينة يتعمد سب أهل البيت كل جمعة من على منبر رسول الله (ص) وهو يخطب، فقد سب الحسن والحسين، حتى قال مرة للحسين: «والله إنكم أهل بيت ملعونون»، فتأثر الحسين وقال لئن قلت هذا فوالله لقد لعنك الله على لسان نبيه وأنت في صلب أبيك فسكت مروان» (١٠٦). هذه كرامة أهل بيت رسول الله بعد موته وهذه وصيته في أمته وهذه أحاديثه التي قالها ورددها على أسماع المهاجرين والأنصار في فضلهم وكرامتهم عند الله ورسوله كأنها ذهبت أدراج الرياح وكأن شيئاً لم يكن.

لم يكتف معاوية بإلحاق الهزيمة السياسية بالإمام علي والإمام الحسن واستنثاره بالسلطة والملك وتشريع سب العترة على منابر المسلمين والإهانات التي توجه إلى البيت النبوي وكان أصحاب هذا البيت أحدثوا جريمة بحق الإنسانية وإنما إمتدت أيادي سلطنة قريش وباني عزها ونفوذهما إلى بيت الإمام الحسن فأشترى ضمير زوجته جعدة بنت قيس بن الأشعث على أن تقدم على سم الحسن مقابل مئة ألف درهم وتزويجها من ابنه يزيد، فبعث السم إليها وسقته الإمام الحسن حيث استشهد

من أثر ذلك السم^(١٠٧) . ورُوي أنه لما سُمَّ الإمام الحسن جاءه الإمام الحسين فلما رأى ما به بكى فقال له الإمام الحسن ما يبكيك يا أبا عبد الله؟ قال له الحسين: أبكي على ما أراك فيه . فقال له الحسن :

«إن الذي يأتي إليَّ بِسَمِّ يَدْبُرُ إليَّ فَأُقْتَلُ به ، ولكن لا يوم كيومك يا أبا عبد الله ، يزدلف إليك ثلاثون ألف رجل يدعون أنهم من أمة جدنا ، ويتحلون دين الإسلام ، فيجتمعون على قتلِكَ وسفك دمك ، وإنتهاك حرمتك ، وسبى ذراريك ونسائك وأخذ ثقلك ، فعندها تحل بيني أمية اللعنة ، وتطر السباء رماداً ودماءً ، ويبكي عليك كل شيء حتى السوحوش في الفلوات والحيثان في البحار»^(١٠٨) . عامل الأمويون آل رسول الله معاملة سيئة في حياتهم ومماتهم إظهاراً للحقد الدفين تجاههم . فبعد أن توفي الإمام الحسن بعد معاناة من أثر السم دامت أربعين يوماً وذلك في السابع من صفر سنة ٥٠ من الهجرة في عز رجولته حيث كان عمره ثمانية وأربعين عاماً وقد أوصى لأخيه الحسين بأن يحمل بعد موته إلى عند قبر جده (ص) ليجدد به عهداً ثم يدفن في البقيع . وأخبره بأن أعداء العترة لن يمكنوه من دفنه عند جده ، كما أوصاه بأن لا يريق بسيفه محجمة دم^(١٠٩) . ولما جهزه الحسين (ع) شيعة والهاشميون الى قبر جده تنفيذاً للوصية فظن مروان بن الحكم أنه يريد دفنه عند جده فأظهر المنع والنهي عن ذلك^(١١٠) . وأتت في نفس الوقت عائشة (ر) وهي تقول «ما كان عثمان ليدفن بالبقيع ويدفن الحسن عند رسول الله (ص)؟»^(١١١) فقال لها الحسين (ع) : «ويحك يا عائشة يوماً على جمل ويوماً على بغل والله لولا وصية أخي لفعلت وفعلت»^(١١٢) . وقد أنشأ أحدهم مخاطباً عائشة^(١١٣) .

تبغلتني تجملتني وإن عشتي تفيّلتني
لك التسع من الثمن وبالكل تحيّرزت

ثم دفن الإمام الحسين أخاه في مقبرة البقيع فأنشأ أحدهم مستغرباً من إبعاد قبر الحسن عن جده^(١١٤) :

وكيف ضاقت على الأهلين تربته ولالأجانب في جنييه مُتَسَعٌ

أصبح الطواف بجسد سبط رسول الله عبر قبر جده أمراً غير مرغوب فيه فكيف بدفنه .

لقد فجعت عترة الرسول بفقد الإمام الحسن وكانت رزية السيدة زينب بفقد أخيها عظيمة فقد عاشت خذلان الأمة لأبيها قبل خلافته وخلالها وعاشت خذلان الأمة لأخيها الحسن خلال خلافته التي لم تدم سوى ستة شهور . وعاشت فترة في المدينة بعد استقرارهم فيها وهي تشاهد تظاهر الأمة بقيادة الأمويين والمروانيين على ذرية رسول الله وشتهم علانية من على منبر رسول الله بواسطة مروان حاكم المدينة . وكانت فاجعتها برحيل أخيها عظيمة لأنها كانت ترى فيه السند والعون لأخيها الحسين بعد رحيل والدهما العظيم بعطائه وتضحياته من أجل الحفاظ على مبادئ النبوة من أجل تطبيق السنة النبوية وتعليم أبناء الأمة كيفية الاستفادة من كتاب الله في شؤون الدين والدنيا . ها هو الحسن قد ودعهم وترك الإمام الحسين وأخته زينب يواجهان فلول الأحزاب والطلقاء وأبناء الطلقاء الذين لا يعرفون الله حرمة ولا لرسوله عهداً ولا لذريته مودة أو إحتراماً . ها هو الحسين يحمل الثقل العظيم للأمة يحمل همومها . لقد آن الأوان ليصدق حديث الرسول (ص) فيه : «حسين مني وأنا من حسين . أحب الله من أحب حسيناً . حسين سبط من الاسباط»^(١١٥) إنه على موعد مع مشيئة الله . إنه على موعد لتأدية دين عليه منذ بداية الخليقة ، إذا كان جده خاتم الأنبياء والمرسلين والشرعة التي أتى بها خاتمة الشرائع السماوية فها هو الحسين يحين موعده لحمل ثقل الرسالات . بدأت إمامة الحسين بعد إستشهاد أخيه الإمام الحسن بالنص عليه من جده ووالده وأخيه الحسن فهو الإمام الثالث بين أوصياء الرسول (ص) في دولة النبوة . كانت سلطنة قريش قد سيطرت على مقاليد الأمور بتزوير أحاديث عن رسول الله (ص) وتحريف تفسير آياته بواسطة علماء سلطنة قريش ورواتها وكتابها وفقهائها وحفظة القرآن والقراء . جميع سيوف المجاهدين في سبيل الله وضعت للإستخدام بواسطة الجلادين في سلطنة قريش التي أصبحت تسيطر على مقاليد الأمور في دولة النبوة بأكملها منذ إعتزال الإمام الحسن (ع) . جميع موارد دولة النبوة من زكاة ، خراج ، جزية وضرائب أخرى كلها

استخدمت للإنفاق على بلاط القصر الأخضر بدمشق وملذات الأمويين والمروانيين وحواشيهم. أصبح معاوية الحاكم بأمره في دولة النبوة وعلى جميع شؤون الأمة الدينية والدنيوية. تاريخ الأمة يكتبه مؤرخو القصر الأخضر.

الوحي، القرآن، السنة، الوحدة، القيم كلها تحت رحمة بلاط القصر الأخضر وعلمائه، وكتابه ورواته وقضاته. أراد معاوية أن يحنط الحسين ويضمه إلى بطانة علماء سلطنة قريش ليزين به قصره الأخضر ويزيد عدد علماء البلاط. أراد أن يجلس في مسجد دمشق ويدرس الفقه والثقافة الإسلامية والتاريخ الإسلامي أو أي شيء يرغبه الإمام الحسين، معاوية أراد أن يجلب الحسين إلى دمشق حتى يكون تحت رقابته وبعيداً عن أي نشاط سياسي. فأنظار الأمة تتجه نحوه لأنه كما يعلم الوصي الشرعي الثالث لرسول الله بعد أخيه الحسن (ع) (١١٦).

ورحل معاوية بعد أن وطّد البلاد والعباد لإبنه يزيد وحذره من أربع شخصيات وشرح له كيفية التعامل مع كل منهم وهم: الحسين بن علي بن أبي طالب، عبد الله ابن عمر، عبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر. الذين رفضوا مبايعة يزيد بولاية العهد في عهد أبيه (١١٧). أما عن صفات يزيد هل كان مؤهلاً لقيادة الأمة أم لا فهو خريج حجر معاوية وطلق ابن طلقاء فيمكن الإكتفاء بما قاله فيه زياد بن أبيه وإلى البصرة - الذي ألحقه معاوية بوالده أبي سفيان ليضمن ولائه.

طلب معاوية من زياد أن يأخذ بيعة المسلمين في البصرة، فكان جوابه له: «ما يقول الناس إذا دعوناهم إلى بيعة يزيد، وهو يلعب بالكلاب والقروء، ويلبس المصبغات، ويد من الشراب، ويمشي على الدفوف وبحضرتهم الحسين بن علي، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، ولكن تأمره يتخلّق بأخلاق هؤلاء حولاً أو حولين فعسينا أن نموّه على الناس» (١١٨).

وقد حذّر النبي (ص) الأمة مما سيلحقها من شرور وإساءة للدين من يزيد. فقد أخرج الروياني في مسنده عن أبي الدرداء قال: سمعتُ النبي (ص) يقول: «أول من يبدّل ستي رجل من بني أمية يقال له يزيد» (١١٩). حتى معاوية نفسه لم يكن مقتنعاً

بتقليد ابنه يزيد مقاليد أمور الحكم لأنه صنيعته وخريج حجره إلا أن حبه له جعله يقدم على تنصيبه ويجعل الدين والأمة قرباناً لهواه . فقد قال معاوية قبيل وفاته في إحدى خطبه بمكة :

«ولولا هواي في يزيد أبصرتُ قصدي»^(١٢٠).

هذا هو حديث النبي (ص) وحديث معاوية في يزيد الذي إرتكبت في عهده جرائم قل أن يحدث بمثله التاريخ البشري ، لذا فإن عهده لا يعتبر فقط صفحة سوداء في تاريخ دولة النبوة بل سبّة في التاريخ البشري . لذا فليس غريباً ما قام به العبدُ الصالح عمر بن العزيز خلال حكمه حينما سمع أحدهم يلقب يزيد بأمر المؤمنين . فقد حدث نوفل بن أبي الفرات قائلاً : «كنتُ عند عمر بن عبد العزيز فذكر رجل يزيد فقال : (قال أمير المؤمنين يزيد بن معاوية فقال : تقول أمير المؤمنين فأمر بضربه عشرين سوطاً)»^(١٢١) لماذا أمر ابن عبد العزيز ضرب ذلك الرجل لأنه يعرف حق المعرفة ما ارتكب من ويلات بحق الدين والأمة في عهده .

الإمام الحسين (ع) لم يتمكن من إشهار سيفه في عهد معاوية لهيمته الكاملة على جميع أنحاء دولة النبوة وغياب الناصر فهو الإمام الوحيد الذي يرى هتك حرمانات الله وقتل النفس المحرمة ونهب مقدرات الأمة ، فكان ملازماً بيته بالمدينة إلى أن مات معاوية سنة ٦٠ من الهجرة^(١٢٢).

وفور وفاة معاوية كتب يزيد إلى الوليد بن عتبة وإلى المدينة في صحيفة كأنها أذنُ فأرة : «أما بعد فخذ حسيناً وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام»^(١٢٣) . فالتقى الإمام الحسين وإلى المدينة وفي معيته ثلاثين رجلاً من أهل بيته ومواليه وانتهى اللقاء برفض الإمام الحسين مبايعة يزيد وقال عليه السلام في ختام اللقاء : «إنا لله وإنا إليه راجعون وعلى الإسلام السلام إذ قد بليت الأمة براع مثل يزيد . وقد سمعتُ جدي رسول الله (ص) يقول : (الخلافة محرمة على آل أبي سفيان»^(١٢٤).

إذا كان خاتم النبيين محمد (ص) قد حارب رأس الكفر وقائد الأحزاب أبا

سفيان ، وخاتم الوصيين وإمام دولة النبوة الأول وحامي حى الإسلام بعد الهجرة وقائد حزب الله ومقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين علي بن أبي طالب قد قاتل قائد فلول الأحزاب وقائد حزب الشيطان وقائد الطلقاء وابن الطلقاء معاوية فها هو سبط رسول الله (ص) الثاني وإمام دولة النبوة . ووصي رسول الله الثالث وسيد شباب أهل الجنة وسليل النبوة وخريج مدرسة علي وفاطمة بضعة رسول الله يواجه سليل الشرك وخريج حجر ابن آكلة الأكباد وسليل الطلقاء وأبناء الطلقاء والمرتكب لكل رذيلة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الذي أصبح الزعيم الأول لسلطنة قريش في دمشق والمهيمن على كل صغيرة وكبيرة في دولة النبوة . إنه يرفض الإسلام والمبايعه لمثل يزيد لأنه لا يحلُّ له أن يستسلم وأن يبايع لأن في ذلك اعتراضاً بشرعية نظام متسلط على رقاب المسلمين لا شرعية له إلا السيف وكل أنواع الأعمال الهمجية . فقرر الإمام الحسين التصدي لذلك الطاغوت وهو وحيد لا ناصر له ولا معين سوى مواريث النبوة التي يريد أن يصونها من عبث الطغاة أعني الكتاب والسنة والمبادئ التي قامت عليها دولة جده . بعد ستين سنة من الهجرة وخمسين سنة على زحيل مؤسس دولة النبوة يتولى يزيد حكم الأمة وتصدق نبوءة محمد (ص) بعد توضحيات المهاجرين والأنصار بكل ما يملكون من أجل إقامة صرح دولة النبوة وتشيد أركان الدين يأتي يزيد على قمة هرم دولة النبوة ليزيل كل ما بناه محمد (ص) وأنصاره ، ليزيل كل القيم الدينية والإنسانية ، ويعزز الإستقراطية الجديدة والجاهلية الجديدة ، والمادية الجديدة التي أسسها والده في القصر الأخضر بدمشق . ولكن لن يهنأ يزيد إلا بإستئصال شجرة البيت النبوي وآل رسول الله . لم يقنع بنو أمية بتأسيس ملك لهم داخل دولة النبوة ، إنهم يريدون تصفية حساباتهم القديمة مع رسول الله (ص) من خلال ذريته .

٤ - خروج ركب الحسين من المدينة إلى مكة وانضمام زينب للركب :

كانت كلمات الإمام الحسين خلال لقائه بالوليد بن عتبة - والذي سبق ذكره - وبعد حوار حاد معه ومع مروان - قال الإمام الحسين كلمات تدل على الإباء والشموخ وأنه لا خيار له بعد الرفض إلا النهوض بحركة إصلاحية تهز وجدان الأمة

وكان مما قاله : «إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة وبنا فتح الله وبنا ختم الله»^(١٢٥) ويزيد رجل فاسق شارب الخمر قاتل النفس المحرمة معلن بالفسق ومثلي لا يبايع مثله»^(١٢٦).

وأوعز الإمام الحسين (ع) إلى أهل بيته وإخوته وبني عمومته بالاستعداد للرحيل لتلبية نداء الإستشهاد في سبيل الله ، إذ أن الرسول (ص) قد أوحى إليه عن استشهاد الإمام الحسين منذ ولادته وتحدث للأمة بذلك ، وأخبر فاطمة وعلياً بما يجري على ذريتهما حتى خاتم الأوصياء الإمام محمد المهدي . وأحاديث مقتل الإمام الحسين متواترة عند رواة المدرستين الإمامة والخلافة^(١٢٧) . وقبل خروج ركب الإمام الحسين (ع) من المدينة توجه لزيارة قبر جده (ص) ليلاً وصلى ركعتين وبعد فراغه جعل يقول : «اللهم هذا قبر نبيك محمد (ص) وأنا ابن بنت نبيك وقد حضرني من الأمر ما قد علمت ، اللهم إني أحبُّ المعروف وأنكر المنكر وإني أسألك يا ذا الجلال والإكرام بحق هذا القبر ومن فيه ألا اخترت من أمري ما هو لك رضئ ولرسولك رضئ وللمؤمنين رضئ»^(١٢٨) . ثم جعل يبكي . كما زار قبر أمه فاطمة وقبر أخيه الحسن وودعهما^(١٢٩) . كذلك كتب كتاباً إلى أخيه من أبيه محمد ضمنه وصيته إليه لتبليغها للأمة بشكل عام وبني هاشم بشكل خاص يبلغهم نهضته المباركة وعزمه على التصدي لطاغوت قريش يزيد هذا نصه : «بسم الله الرحمن الرحيم - هذا ما أوصى به الحسين بن علي بن أبي طالب إلى أخيه محمد المعروف بابن الحنفية أن الحسين يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، جاء بالحق من عند الحق ، وأن الجنة والنار حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وأني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي (ص) ، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ومن ردَّ عليَّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين وهذه وصيتي إليك وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب»^(١٣٠) . ثم طوى الحسين الكتاب وختمه بخاتمه ودفعه إلى أخيه محمد ثم ودَّعه وخرج في جوف الليل

لثلاث خلون من شعبان سنة ٦٠ من الهجرة متوجهاً الى مكة^(١٣١). كان معه في الركب جميع أبنائه وبناته وزوجاته وإخوته من والده وأخواته وعلى رأسهم السيدة زينب شريكته في نهضته المباركة وأولاد أخيه الإمام الحسن (ع) وبعض بني عمومته^(١٣٢). إن مبادئ نهضة الحسين كما هي واضحة من وصيته لأخيه محمد تقوم على ما يلي: طلب الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بسنة الرسول (ص) وسيرة علي والحسن عليهم السلام، بمعنى أنه كان يريد تصحيح الانحرافات وتقويم الأحداث التي أخذت تؤثر على حياة المسلمين بعد موت رسول الله (ص) والتي تمخض عنها في نهاية الأمر تأسيس سلطنة قريش التي آل أمرها إلى من تخوف الرسول على الأمة من شره وهو يزيد كما مر في الحديث من قبل. وكان خروج الإمام الحسين من المدينة ليلاً وهو يتلو^(١٣٣). ﴿فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين﴾^(١٣٤).

فخرج سبط رسول الله (ص) من مدينة جده كخروج موسى من مصر خائفاً على نفسه من جبروت فرعون فشبّه الإمام الحسين خروجه من موطن جده وهو سبطه وشمامته بعلم كل المسلمين، ها هو يخرج بآل رسول الله خائفاً من طاغية قريش ويلجأ إلى حرم الله في مكة، وحينما دخلها صار يقرأ^(١٣٥) حين دخوله ما رواه القرآن الكريم عن قول موسى بن عمران ولجؤته إلى نبي الله شعيب بمدين «ولمّا توجه تلقاء مديّن قال عسى ربّي أن يهدينّي سواء السبيل»^(١٣٦).

لقد كان سير الحسين عليه السلام في رحلته تلك تنفيذاً لأرادة السماء ووفقاً لمنهاج خطه له جده وأبوه وأخوه بوحي من الله.

مكث الإمام الحسين بمكة بقية شعبان ورمضان وشوال وذو القعدة حتى الثامن من ذي الحجة من نفس السنة ٦٠ من الهجرة حيث خرج لتلبية نداء الله وبلوغ الشهادة. أما لماذا إختار الإمام الحسين مكة؟ فيرجع ذلك لعدة أسباب أهمها:

١ - أنها بلد الله الآمن وبها بيته الحرام الذي جعله الله آمناً لكل من يدخله وكان العرب يجولونه ويحترمونه قبل الإسلام ولا يقربون من يدخله بسوء حيث تعارفوا على

ذلك وأن الإسلام أكد على حرمة لقوله تعالى : «ومن دخله كان آمناً» وقبلة المسلمين في صلواتهم وإليه يحجون .

٢ - إن مكة مكان لتجمع المسلمين وليس يقتصر هذا التجمع وزيارة حرم الله في موسم الحج إنما يكون عامراً بشكل متواصل طيلة العام وهناك مواسم مفضلة لأداء حج العمرة . فالأشهر التي مكثها الإمام الحسين بمكة هي أفضل الشهور لأداء حج العمرة .

٣ - إن الإمام الحسين يستطيع أن ينشر رسالة حركته الإصلاحية لمقاومة حكم يزيد إلى الأمة الإسلامية عن طريق حجاج مكة وتجارها فكأنها مركزاً استراتيجياً للإعلام عن أية حركة وشواهد التاريخ على ذلك عديدة . فالإمام الحسين نشر عن طريق الحجيج مبادئ وشعارات حركته المقدسة من مكة خلال فترة إقامته فيها .

٤ - إن مكة ملتقى لجميع المسلمين بجميع شرائعهم بما فيهم كبار الصحابة فمثلاً إلتقى الإمام الحسين بمكة كل من عبد الله بن عباس ، عبد الله بن عمر ، عبد الله بن الزبير وغيرهم .

٥ - إن اختيار الإمام الحسين لمكة وإقامته تلك الفترة التي زادت على أربعة أشهر تقريباً تمكن من إلقاء الحجة على جميع المسلمين في ذلك الوقت فمن تخلف عن نصرته إنما تخلف عن نصره الحق المتمثل في شخص الإمام الحسين بقية العترة ووصي رسول الله بعد أخيه الإمام الحسن وسبطه وأمين الله على وجهه وسفينة نجاة الأمة ، وفي الوقت نفسه فإن المتخلف عن نصره الإمام الحسين مهادن للباطل بل وظهير له وهو المتمثل في قائد فلول الأحزاب والطلق ابن الطليق الذي اغتصب هو وأبوه حق العترة في قيادة الأمة ذلك الحق الذي نصت عليه الرسالة النبوية المحمدية .

ما إن سمع أهل الكوفة بوصول الإمام الحسين إلى مكة وإمتناعه عن البيعة حتى بدأوا عقد إجتماعات متعددة بينهم على كل المستويات^(١٣٧) ، وأخذوا يكتبون الإمام الحسين ويرسلون له الوفود حاملين رسائل التأييد والمساندة ويدعون له لتعجيل

بالحضور الى الكوفة حتى بلغ عدد الرسائل التي وصلته منهم اثنتا عشرة ألف رسالة^(١٣٨). وكان أبرز الاجتماعات التي عقدت في الكوفة وأولها وحضره كبار أهل الكوفة الاجتماع الذي عقد في منزل سليمان بن صرد الخزاعي . يقول ابن طاووس في اللهوف : « فلما تكاملوا قام سليمان بن صرد فيهم خطيباً وقال في آخر خطبته : (يا معشر الشيعة^(١٣٩)) أنكم قد علمتم بأن معاوية قد هلك وصار إلى ربه وقد قدم على عمله وقد قعد في موضعه ابنه يزيد وهذا الحسين بن علي عليه السلام قد خالفه وصار إلى مكة هارباً من طواغيت آل أبي سفيان وأنتم شيعته وشيعة أبيه من قبله وقد احتاج الى نصرتكم اليوم فإن كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوه فاكثبوا إليه وإن خفتم الوهن والفسل فلا تغرن الرجل عن نفسه) »^(١٤٠).

وتمخض ذلك اللقاء عن إتفاقهم على إرسال رسالة للإمام الحسين موقعة بأسمائهم فكتبوا إليه كتاباً يعبر عن سخط الأمة على حكم سلطنة قريش وممارسات رجالها وإخلاصهم الدعوة لآل رسول الله ، جاء فيه : بسم الله الرحمن الرحيم للحسين بن علي أمير المؤمنين ، من سليمان بن صرد والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد وحبيب بن مظاهر وعبد الله وائل وشيعة من المؤمنين سلام عليك أما بعد فالحمد لله الذي قصم عدوك وعدو أيك من قبل الجبار العنيد الغشوم الظلوم الذي ابتز هذه الأمة أمرها وغصبها فيئها وتأمّر عليها بغير رضى منها ثم قتل خيارها واستبقى شرارها وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وعتاتها فبعداً له كما بعدت ثمود ثم إنه ليس علينا إمام غيرك فاقبل لعل الله يجمعنا بك على الحق والنعمان بن البشير^(١٤١) في قصر الإمارة ولسنا نجمع معه في جمعة ولا نخرج معه في عيد ولو قد بلغنا أنك أقبلت أخرجناه حتى يلحق بالشام والسلام عليك ورحمة الله وبركاته يا ابن رسول الله وعلى أيك من قبلك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم »^(١٤٢).

ومن نماذج ما كتبه أهل الكوفة إلى الحسين في بعض رسائلهم لدعوته ومؤازرته قولهم : «إلى الحسين بن علي ، من شيعته المؤمنين والمسلمين ، أما بعد فحي هلا [كذا] ، فإن الناس ينتظرونك ولا رأي لهم في غيرك فالعجل العجل والسلام عليك»^(١٤٣).

وكتب إليه شخصيات من رؤساء الكوفة كتاباً ورد فيه :

«فأقدم على جند لك مجندة والسلام عليك»^(١٤٤). وفي رواية الطبري .

كتب إليه أهل الكوفة «أنه معك مئة ألف»^(١٤٥).

أما آخر رسالة وردت على الإمام الحسين من أهل الكوفة فكان نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم، للحسين بن علي أمير المؤمنين، من شيعته وشيعة أبيه أمير المؤمنين (ع) أما بعد فإن الناس ينتظرون لا رأي لهم في غيرك فالعجل العجل يا ابن رسول الله (ص) فقد اخضرّ الجنب وأينعت الثمار وأعشبت الأرض وأورقت الأشجار، فأقدم علينا إذا شئت فإننا تقدم على جند مجندة لك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وعلى أبيك من قبلك»^(١٤٦). وكان الإمام الحسين حينما يستقبل الوفود التي تحمل الرسائل من الدعاة والمؤيدين له يسألهم عن حقيقة الموقف وعن الموقعين على تلك الرسائل ليعرف حقيقة الأمر^(١٤٧).

وبعد إستقباله آخر وفد كوفي صلى ركعتين بين الركن والمقام ليشهد الله على أولئك الذين وعدوه بالنصرة، وأنه لا يصح للإمام أن يتقاعس عن الجهاد حال وجود الناصر. ثم كتب رسالة عامة إلى أهل الكوفة خصّ فيها الذين كاتبوه وها هو يرسل ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب لأخذ البيعة منهم والتمهيد لقدم الإمام الحسين إليهم بناء على استنهاضهم إياه. ومما جاء في تلك الرسالة: «... وإني باعث إليكم بأخي وابن عمي وثقتي من أهلي (مسلم بن عقيل) ليعلم لي كنه أمركم، ويكتب إليّ بما يتبين من جمعكم...»^(١٤٨).

وقد بلغ عدد الذين بايعوا مسلماً أكثر من ثمانية عشر ألف رجل من شيعة أهل بيت رسول الله (ص)^(١٤٩). وفي رواية خمسة وعشرين ألفاً وفي أخرى أربعين ألفاً^(١٥٠). ونتيجة لوجود العديد من جواسيس سلطنة قريش في كل ولاية من ولايات دولة النبوة، فقد بعثوا إلى يزيد يحيطونه علماً بما يجري في الكوفة، ويحذرونه من احتمال خروجها عن طاعته ما لم يعجل بإتخاذ إجراء حاسم، نتيجة لتقاعس الوالي. فكان رد يزيد على ذلك أن أصدر أمراً بعزل النعمان بن بشير وإلى الكوفة، وأمراً آخر بضم ولاية الكوفة إلى إمرة عبيد الله بن زياد إضافة لإمرته على

البصرة^(١٥١). فقدم الكوفة وأفسد على الإمام الحسين (ع) كل منجزات مسلم، فتفرق عن مسلم كل الذين بايعوه إلى أن بقي وحيداً حتى ألقى القبض عليه وقتل بعد أن دافع عن نفسه دفاع الأبطال كما قتل معه هاني بن عروة الذي ألبأ مسلماً عنده في بيته، وقطع رأسيهما وألقيت جثة مسلم ورأسه من على قصر الإمارة وجرّت جثتيهما في الأسواق، ليكونا عبرة لمن يخرج عن طاعة يزيد بن أبي سفيان وأميره على الكوفة عبيد الله ابن زياد^(١٥٢). وفي قتل مسلم وهاني بتلك الصورة البشعة أنشأ عبد الله بن الزبير الأسدي ويقال أنه للفرزدق شعراً^(١٥٣):

فإن كنت ما تدرين ما الموت فانظري	إلى هاني في السوق وابن عقيل
إلى بطل قد هشم السيف وجهه	وأخر يهوى من جدار قتيل
أصابهما جور البغي فأصبحا	أحاديث من يسعى بكل سبيل
فتى كان أحي من فتاه. حيّة	وأقطع من ذي شفتين صقيل
أركب أساء العماليج آمنا	وقد طالبت مدحج بدخول
تطوف حوالبه مراراً وكلهم	على رقبة من سايل ومسول
فإن أنتم لم تشاروا لأخيكم	فكونوا بغا ما أرضيت بقليل

قائل الأبيات يصور ما جرى لمسلم بن عقيل وهاني بن عروة شيخ قبيلة مدحج ويلومهم على عدم تخليص سيدهم من قبضة ابن زياد على الرغم من كثرة عددهم، وجلال قدر سيدهم. كما يشير إلى إحاطة مدحج بالقصر واستخدام ابن زياد الدهاء لتفريقهم بسلام^(١٥٤).

وأرسل ابن زياد برأس مسلم وهاني هدية إلى يزيد مع كتاب. فكان فيما جاء في رد يزيد على كتاب ابن زياد:

«أما بعد فإنك لم تعد إن كنت كما أحب عملت عمل الحازم وصلت صولة الشجاع الرابط الجأش، فقد أغنيت وكفيت وصدّقت ظني بك ورأيي فيك...»^(١٥٥).

هذه شهادة يزيد في ابن زياد الذي استخدم ثلاثة أسلحة لتوطيد سلطنة قريش

في الكوفة: نشر الجواسيس، وتوزيع الأموال، والسيف^(١٥٦).

وكان ابن زياد حينما ألقى القبض على مسلم بن عقيل وجيء به إلى قصر الإمارة اتهمه ابن زياد بتفريق كلمة المسلمين. فرد عليه مسلم - سليل الطالبين وصديق مقرب للإمام الحسين الذي وصفه في رسالته إلى أهل الكوفة بأخيه - قائلاً:

«ما لهذا أتيت، ولكنكم أظهرتم المنكر ودفنتم المعروف وتأمرتم على الناس بغير رضى منهم وحملتموهم على غير ما أمركم الله به، وعملتكم بأعمال كسرى وقيصر فأتيناهم لنأمرهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر وندعوهم إلى حكم الكتاب والسنة فكنا أهل ذلك»^(١٥٧). إن مسلم بن عقيل خريج مدرسة علي والحسن والحسين ولعظم قدره فقد أوفده الإمام الحسين ممثلاً لحركته الإصلاحية النهضوية في دولة جده. ولما عرّى مسلم بن عقيل سلطنة قريش أمام ممثلهم وخريج بلاطهم وأظهر أمام الحاضرين أهداف نهضة الإمام الحسين كما لخصها مسلم في كلماته رأى ابن زياد أنها أصابت منه مقتلاً فخرس لسانه وأفحم بحجة مسلم فلجأ إلى أسلوب الجبناء فصار يشتم مسلماً ويشتم علياً والحسن والحسين فقال له مسلم:

«أنت وأبوك أحق بالشتيم فاقض ما أنت قاض يا عدو الله»^(١٥٨). ثم أمر ابن زياد بقتل مسلم. رجال جُبلوا على قول الحق مهما كان الموقف صعباً ومهما كلفهم الثمن إنهم رساليون. الثبات على العقيدة والمبدأ غاية مقصدهم في الحياة. تاجروا مع الله فخلدوا في الدنيا والآخرة. وقد تزامن مقتل مسلم وهاني مع خروج الحسين من مكة وهو الثامن من ذي الحجة سنة ٦٠ من الهجرة^(١٥٩).

وكان الإمام الحسين قد كتب أيضاً رسالة إلى جماعة من أشراف البصرة يدعوهم فيها إلى نصرته، فكان مصير رسوله سليمان إليها كمصير مسلم، بل وصلب سليمان بعد قتله، وكان ذلك قبل مقتل مسلم وقبل توجه ابن زياد إلى الكوفة^(١٦٠). ولا شك أن قتل رسول الحسين بتلك الوحشية هي رسالة عنيفة إلى كل من يتعاون أو يتعاطف مع حركة الإمام الحسين. ومنذ أن وطأت أقدام الحسين مكة أقبل عليه أهلها كما أقبلت وفود عديدة من بقية ولايات الدولة النبوية للاستفادة من مصاحبة

سبط رسول الله والانتفاع بعلومه وفقهه في الدين من ناحية ولكي يحجوا بحجه من ناحية أخرى^(١٦١).

كان مسلم بن عقيل ممثل الإمام الحسين إلى أهل الكوفة قد كتب رسالة قبل إسهاده إلى الإمام الحسين يخبره فيها بالأعداد التي بايعته ويخبره أن الناس في إنتظاره ويدعوه للقدوم كما أوضح ذلك مسلم في وصيته^(١٦٢). كان الإمام الحسين خلال إقامته بمكة قد طاف به شريط الذكريات عن أحاديث جده وأبيه وأمه فاطمة الزهراء عن إيذاء قريش لهم وما تحمله المسلمون الأوائل من آلام وها هو يرى بيت جده الذي خرج منه حاملاً رسالة الإسلام وداعياً إلى وحدانية الله ونبذ عبادة الأصنام وها هو يرى دار جده أبي طالب عضيد رسول الله وحامي حماه قبل الهجرة إلى المدينة. إذ كان جده رسول الله قد أيدّه الله بأبي طالب وخديجة لنصرته قبل الهجرة وبعلي وفاطمة في نصرته والتخفيف عن همومه بعد الهجرة فها هو اليوم يواجه حفيد أبي سفيان وزعيم سلطنة قريش يزيد بكل جبروته وطغيانه وحيداً فريداً لا ناصر له ولا معين ولكنه قرر الصمود لإنقاذ دين جده الذي قرر أن يفنّديه بروحه. لقد أصبحت كل منجزات النبوة في قبضة وريث القصر الأخضر كل الموارث النبوية ومصير الأمة رهائن في بلاط يزيد وألعوبة في أيدي حاشيته يتصرفون بها كما تقتضي مصلحة سلطنة قريش إنهم شر خلف لشر سلف.

٥ - خروج ركب الشهادة من مكة إلى كربلاء :

وقرر الإمام الحسين الخروج من مكة يوم الثامن من ذي الحجة سنة ٦٠ من الهجرة بعد رحيل جده إلى نعيم الخلد بخمسين عاماً، في الوقت الذي تنهافت الناس على مكة لأداء فريضة الحج ليحجوا بحج الإمام الحسين ليتعلموا منه الأداء الصحيح لمناسك الحج فكيف يخرج قبل موقف عرفه بيوم؟ وقبل النحر والعيد بيومين؟ ما هو السر في ذلك؟ والجواب على ذلك يتمثل في الآتي :

١ - إن الإمام الحسين (ع) هو خير من يعرف حرمة بيت الله بعد الرسول (ص) وأبيه وأخيه من ناحية ومن ناحية أخرى فإنه يعرف دناءة مستوى خصمه الذي لا يعرف لله حرمة ولذلك حينها حاوره أخوه محمد بن الحنفية بأن مكة هي أعز وأمنع

بقعة له على وجه الأرض أجابه الحسين «يا أخي أخاف أن يغتالني يزيد بن معاوية في الحرم فأكون الذي تستباح به حرمة هذا البيت» (١٦٣). كما ردّ بالمثل على عبد الله بن الزبير (١٦٤). فإذا اغتيل الإمام الحسين وهو أكرم خلق الله في بيت الله، فلن تبقى للبيت حرمة إلى الأبد.

٢- إن مغادرة الإمام الحسين أرض مكة يوم الثامن من ذي الحجة يوم التروية تاركاً الحج بدون تكملة إنما كان يريد أن يعلم أمة جده عبر تعاقب الأجيال والعصور درساً أعظم من شهادته. إنه يترك التجمع العبادي لأداء فريضة الحج نصف منجز، هذه الفريضة التي ناضل من أجل إقامتها جده ووالده وأخوه وجميع أسلافه. أنه يترك نصف حجه غير منجز ويدعو إلى الشهادة قبل رحيله من أجل أن يعلم جميع الحجاج في التاريخ، جميع العابدين في التاريخ، وجميع المعتقدين في ديانة إبراهيم، أنه إذا لم يوجد إمامة وزعامة رسالية، إذا لم يوجد هدف، إذا لم يوجد حسين، وبدلاً من ذلك يوجد يزيد طائفاً ببيت الله يكونوا أنفسهم كالطائفين ببيوت الوثن. الأفراد الذين واصلوا طوافهم حول الكعبة في غياب الحسين مساوين لأولئك الذين واصلون طوافهم وتحركهم حول القصر الأخضر بدمشق لأنهم خذلوا المعروف وهادنوا المنكر. إن صمتهم وعدم تلييتهم نداء الحسين إنما هو تكريس للباطل ودعم نظام لا شرعية له. إن كل حجة بدونها في العصور التالية طوفان لكعبة الأوثان (الكعبة قبل الإسلام).

٣- قال تعالى: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ (١٦٥). إن الذبح العظيم الذي فدى الله به إسماعيل هو الإمام الحسين كما ورد في تفسير هذه الآية عن الأئمة (ع) خلفاء رسول الله (ص) (١٦٦). لذا فإن إستشهاده (ع) كان أمراً حتمياً ليتمكن من إنقاذ الدين من الطوفان الذي أحدثه تأمر الطلقاء وأبنائهم والمنافقين بعد وفاة الرسول (ص). فهذا هو نظام الوصاية الذي وضعه الرسول (ص) يستبدل بملك وراثي عضوض في آل أبي سفيان ومن بعدهم آل مروان وما فترة سلطة الخلافة إلا مرحلة إنتقالية، تم التمهيد خلالها لسلطنة قريش. لقد كان إقدام الإمام الحسين على الإستشهاد أمراً إلهياً، وقد تقبله الإمام الحسين بإرادة إيمانية حرة (١٦٧). إنه يحمل حراسة الثورة الإلهية العظيمة ومنجزاتها. إنه لا يستطيع أن يبقى صامتاً أمام الدمار الشامل الذي حل

بأمة ودين جده فلا يستطيع أن يبقى صامتاً ولا يستطيع أن يقاتل وحيداً فليس أمامه إلا طريق الإستشهاد الذي سيكشف حقيقة التآمر لأجيال الأمة المتعاقبة ويرسم لهم منهجاً في مقاومة الطواغيت الذين ينهجون نهج يزيد ومعاوية لتحقيق حياة كريمة .

وقبل خروج الإمام الحسين من مكة ألقى خطاباً في جموع الحجيج نعى فيه نفسه الشريفة ودعا الأمة الإسلامية من خلال وفود الحجيج إلى نصرته وبذلك فإن الإمام الحسين قد طوّق أعناق الأمة آنذاك بدمه كما طوق جدّه النبي (ص) أعناق الأمة يوم الغدير في الثامن عشر من ذي الحجة بمبايعتهم الإمام علي بن أبي طالب . وقال في خطابه التاريخي العظيم :

« الحمد لله وما شاء الله ولا قوة إلا بالله وصلى الله على رسوله . خُطَّ الموت على ولد آدم مَخْطُ القِلادة على جيد الفتاة وما أولهني إلى أسلافي إشتياق يعقوب إلى يوسف ، وخير لي مصرع أنا لاقيه كأني بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء فيملأن مني أكراشاً جَوْفاً وأجربة سُنْباً لا محيص عن يوم خُطَّ بالقلم رضا الله رضانا أهل البيت ، نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين ، لن تشدّ عن رسول الله لحمته ، وهي مجموعة بل هي مجموعة له في حضيرة القدس ، تقرّ بهم عينه وينجز بهم وعده ، من كان باذلاً فينا مهجته وموطناً على لقاء الله نفسه فليرحل فإني راحل مصباحاً إن شاء الله تعالى » (١٦٨) .

كما أعلن رسول الله (ص) صرخته المدوية في مكة يدعو أهلها إلى الإسلام في مطلع الدعوة فيها هو حفيده وسبطه الإمام الحسين يعلن من نفس المكان ليرجم للأمة بشكل عملي معنى الحديث النبوي « حسين مني وأنا من حسين » بعد ستين سنة من الهجرة وخمسين سنة من وفاة المؤسس . هذه دولته التي تمتد من دمشق إلى خراسان شرقاً ومن دمشق إلى المغرب غرباً قد تحولت إلى مقبرة صامته للأحياء تظللها الأعمال السوداء التي يرتكبها حكام القصر الأخضر الذين حذر من شرورهم الرسول (ص) وها هي نبوءته تتحقق حيث أصبح الدين والأمة تحت رحمة غلمان بني

أمية وبني مروان . إن حركة الإمام الحسين النهضوية والتي أعلن عنها طيلة إقامته بمكة ها هو يؤكد لها قبيل رحيله من مكة . إنها صرخة أشرف المخلوقات في ذلك الوقت ليقضي على صمت المقبرة الرهيب . وإذا كان مقتل الصحابي الجليل عمار بن ياسر في صفين قد كشف للأمة سراً من أسرار نبوءة الرسول (ص) لتعريف الأمة بأن قتلته هم الفئة الباغية فها هو الإمام الحسين يقدم على الشهادة بثبات ويقين ليكشف للأمة صدق نبوءة جده كما حدث بمقتله وحدث عن قاتليه ، لتعرف الأمة الخطر الذي يهدق بها ويدينها وتراثها وكل منجزات الشهداء عبر العهد النبوي ، أصبحت دولة النبوة تحكم بواسطة نفس الأنظمة التي حاربها النبي (ص) الأكاسرة والقيصرة ولكنهم أكاسرة وقيصرة العرب المتمثلين في سلطنة قريش . إن إقدام الإمام الحسين على الشهادة ليعيد للأمة نبضها ويحيى في الأجيال قيم جده التي طمستها سلطنة قريش وليعيد للأمة نخوتها وحميتها وكل القيم الإنسانية التي ورثها الإسلام عن الحضارات الإنسانية .

وكان خطاب الإمام الحسين في الحجيج قبل رحيله بيوم واحد . وقد إلتقى بنفر من الأهل والصحابة ونصحوه بعدم التوجه إلى الكوفة التي كانت وجهته قبل أن يصله خبر إستشهاد مسلم وهاني ، حيث كان خروجه قد تزامن مع مقتلهم وهو الثامن من ذي الحجة سنة ٦٠ من الهجرة كما مرّ ذكر ذلك سابقاً . ومن الشخصيات التي تحدثت مع الإمام الحسين قبيل رحيله : عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وأبو سعيد الخدري وأخوه محمد بن الحنفية ومع أنهم حذروه من غدر أهل العراق الذين غدروا بأبيه وأخيه إلا أنه رد عليهم أنه يسير إلى العراق إمتثالاً لأمر جده رسول الله (ص) (١٦٩) . وجاء في رد الإمام الحسين (ع) على نصيحة عبد الله بن عمر فقال :

«يا أبا عبد الرحمن أما علمت أنّ من هوان الدنيا على الله أن رأس يحيى بن زكريا أهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل أما تعلم أن بني إسرائيل كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبياً ثم يجلسون في أسواقهم يبيعون ويشترون وكان لم يصنعوا شيئاً فلم يعجل الله عليهم ، بل أخذهم بعد ذلك أخذ عزيز ذي إنتقام ، إتق الله يا أبا عبد الرحمن ولا تدعنّ نصرتي» (١٧٠) .

وفضل عبد الله بن عمر والآخرين الذين نصحوه أن يركنوا الى زوايا العبادة التي

فضلوها على نصرة إمامهم الحق كما بايعه النبي (ص) بذلك في حياته بإجماع المسلمين . فما فائدة التعبد في ظل أسر الدين ومصادره في يد الطغاة وتعطيل سنته وأهمها التخلي عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي فريضة الجهاد في السلم والحرب لضمان إستقامة أمور الدين والدنيا في دولة النبوة والتي حث عليها الرسول(ص) في مواقف عديدة .

أما محمد بن الحنفية فقد وصل إلى مكة في الليلة التي أراد الإمام الحسين الخروج في صبيحتها . ولما علم بعزمه على الرحيل إلى الكوفة في الصباح تحاور معه ، فأدرك تصميم الإمام على قراره وأنه ينفذ أمر جده رسول الله (ص) الذي رآه في المنام ليلة خروجه وأنه جدد إخباره بمقتله . فقال محمد بن الحنفية : «إنا لله وإنا إليه راجعون ، فما معنى حملك هؤلاء النساء معك وأنت تخرج على مثل هذا الحال؟» فقال له : «إن الله قد شاء أن يراهنَّ سبايا» فأفترقا بعد الوداع^(١٧١) . كذلك كتب الإمام الحسين كتاباً إلى بني هاشم يدعوهم إلى نصرته ويخبرهم بإستشهاده ، وهذا نصه :

«بسم الله الرحمن الرحيم من الحسين بن علي إلى بني هاشم ، أما بعد : فإنه من الحق بي استشهد ومن تخلف لم يدرك الفتح والسلام»^(١٧٢) . كما لحق بالإمام الحسين عون ومحمد إبن عبد الله بن جعفر والسيدة زينب بنت علي قبل خروجه من مكة وانضما الى ركب الشهادة وقد طلب ابن جعفر من الإمام الحسين التريث في السير ليلحق به من أجل توديع الهاشميين جميعاً وزوجته زينب في رسالة حملها ولداه إلى خالهما الإمام الحسين^(١٧٣) .

إلتقى الإمام الحسين (ع) قبيل خروجه من مكة بشخصين قدما من الكوفة وهما أبو محمد الواقدي ووزارة بن صالح اللذان حضرا الى مكة لأداء فريضة الحج . ولما سألهما عن الكوفة أخبراه بضعف الناس فيها وأن قلوبهم معه وسيوفهم عليه^(١٧٤) .

وكان يزيد قد عزل وإلى المدينة الوليد بن عتبة ، ربما لعدم تمكنه أخذ البيعة من الإمام الحسين وعبد الله بن الزبير ، وولى على الحرمين سعيد بن العاص في نفس فترة إقامة الإمام الحسين بمكة^(١٧٥) . فمن البديهي أن يكون الوالي مع جواسيس سلطنة قريش قد أخبروا يزيد بخروج الإمام الحسين من مكة متوجهاً إلى الكوفة .

لذلك كتب يزيد بن معاوية إلى عبيد الله بن زياد وإلى الكوفة والبصرة: «أنه قد بلغني أن حسيناً قد سار إلى الكوفة وقد أثبتني به زمانك من بين الأزمان، وبلدك من بين البلدان، وابتليت به أنت من بين العمال، وعندها تعتق أو تعود عبداً كما تعتبد العبيد» (١٧٦).

إذا كانت هذه لغة يزيد مع ولاته فكيف تكون لغته مع عامة الناس؟ إنه أسلوب طاغوتي من أجل إذلال كل من تضمه أراضيه دولة النبوة. لمثل هذا خرج الإمام الحسين لتحرير الأمة من الأسر الطاغوتي.

وربما أراد يزيد أن يذكر عبيد الله بأبويه زياد وسمية الذين كانا عبيدين عند بني سفيان وأن معاوية ألحق زياد بأبيه أبي سفيان، فأصبح أموياً بهذا الإلحاق وحرراً (١٧٧). فهو يهدده، إن لم يقم بالقضاء على الإمام الحسين فسينفيه من النسب السفياني فيعود عبداً. إن الطلقاء وأبناء الطلقاء يردون أيادي محمد (ص) عليهم يوم أطلق سراحهم يوم فتح مكة دون عقاب، بمطاردة عترته بل ومحاولة إبادةهم في كل مكان.

وخرج الإمام الحسين في مسيرته المقدسة من بيت الله الحرام من أم القرى قبل أن يتم حججه، خشية أن تهتك حرمة، إلى أرض الشهادة حيث مواعده مع مصرعه ومصرع أحبته من الأهل والأنصار الذين كانوا يمثلون صفوة البشرية آنذاك. ها هو الرجل الذي ظهر من بيت الأحزان من بيت فاطمة الذي عاش مأساة بيت النبوة حينما صار ذلك البيت تحت رحمة رجال سلطة الخلافة وما لحق بعلي وفاطمة من أذى. جده النبي مات كسير القلب وأمه فاطمة الزهراء شهيدة العقيدة والمبدأ وأبوه شهيد العدالة والحق والمساواة والحرية وأخوه الإمام الحسن شهيد غدر مؤسس سلطنة قريش معاوية. فطريق الشهادة في سبيل إعلاء كلمة الحق وإحياء السنن التي طمست وإنقاذ الأمة كلها أهداف غالية على الإمام الحسين كانت عنده أغلى من حياته فأفتدى تلك الأهداف السامية بروحه وأرواح أصحابه الميامين، الذين جعلوا من أرواحهم وأجسادهم ودمائهم جسوراً لبلوغ تلك الغايات النبيلة. إنه وارث الألم العظيم للإنسانية إنه الوريث الوحيد لأدم وإبراهيم ومحمد. حمل جميع المسؤوليات قد وضع على كتفيه. رجل وحيد. ولكن لا إنه ليس وحيداً في حركته

النهضوية . فقد برزت معه امرأة من نفس بيته ونهلت من نفس منهله النبوي ، وورثت من الآلام والمسؤوليات ما ورث ، لقد اصطحبت جنباً إلى جنب منذ بداية توديعه مدينة جده ، وحتى أرض الشهادة في كربلاء . إنها تحمل نصف الإنتداب الثقيل لأخيها على كتفها إنها زينب بنت علي شقيقته عقيلة الطالبين ذات المكانة الرفيعة في البيت النبوي بعد أمها فاطمة . لقد ورثت آلام جدتها خديجة ، كما ورثت مصائب أمها ، بل إن المصائب التي تراكمت على عقيلة الطالبين فاقت ما تحملته أمها من مصائب حتى لقبت بجامعة الرزايا وسيوضح ذلك من خلال مناقشة دورها المقدس الذي قامت به خير قيام في أرض الشهادة وفي مناطق السبي والتفرُّج على نساء وأطفال آل رسول الله بعد إنتهاء فاجعة كربلاء .

معلم الشهادة العظيم يسوق ركبه الى كربلاء ليعلم أولئك الذين يعتبرون الجهاد للتسلط فقط ، وأولئك الذين يفكرون ويعتقدون أن النصر يكمن في الفتح فقط يريد أن يعلمهم مفهوماً جديداً ، ذلك أن المحارب الذي يضحي بنفسه على عتبة معبد الحرية هو المنتصر . الإمام الحسين ، وارث آدم ، الذي يعطي حياة الحرية إلى أطفال البشرية ، خليفة الأنبياء العظام الذي علم البشرية كيف تعيش يأتي الآن ليعلم البشرية كيف تموت .

ومضى الإمام الحسين يقود ركب الشهادة ومعه زوجاته وأخواته ، وبناته وإخوته وأبناء إخوته وأبناء وعمومته ونفراً من أنصاره وصحبه^(١٧٨) . وفي الطريق تفرق عنه أصحاب الأطماع كما انضم إليه من كتب الله له الشهادة مثل زهير بن القين^(١٧٩) . وكان الفرزدق بن غالب الشاعر المعروف من أوائل الذين التقى بهم الإمام الحسين خلال توجهه إلى الكوفة ، وحينما سأل عن حال أهلها قال : «تركهم ، قلوبهم معك وسيوفهم مع بني أمية والقضاء ينزل من السماء»^(١٨٠) . وفي بعض المياه بالطريق إلتقى بعبد الله بن مطيع العدوي فعبّر للحسين إشفاقه عليه حينما عرف وجهته وحذره بطش الأمويين وإنتهاك حرمة الإسلام بقتله فرد عليه الإمام الحسين (ع) : «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا»^(١٨١) . وظل يواصل سيره حتى بلغ الثعلبية ظهراً وأناخ رحاله فغفت عيناه ثم استيقظ فقال : رأيت هاتفاً

يقول : « أنتم تسرون والمتايا تسير بكم إلى الجنة » فقال له ابنه علي : يا أبت أو لسا على الحق ؟ قال بلى يا بني والذي إليه مرجع العباد » فقال : يا أبت إذا لا نبالي بالموت » فقال له الحسين : « جزاك الله يا بني خير ما جرى والدنا عن ولده (١٨٢) وقضوا ليلتهم في الثعلبية ، حيث وافاهم في صبيحتها رجل من الكوفة يكنى أبا هريرة الأزدي فحيا الإمام الحسين وصحبه وسأله مستغرباً تركه المدينة وتوجهه الى الكوفة فقال له الإمام الحسين (ع) : « ويحك يا أبا هريرة إن بني أمية أخذوا مالي فصبرت وشموا عرضي فصبرت وطلبوا دمي فهربت وأيم الله لتقتلني الفئة الباغية وليلبسهم الله ذلاً شاملاً وسغباً قاطعاً وليسلمن الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من قوم سباً إذ ملكتهم امرأة فيهم فحكمت في أموالهم ودمائهم » (١٨٣) ثم واصل الإمام الحسين (ع) حتى بلغ زباله حيث ورده خبر استشهاد مسلم بن عقيل وهاني بن عروة ، فنفرد عن الإمام الحسين جماعة من أصحاب الأطماع أيضاً وبقي الصفوة معه . ولقد كان لورود خبر مقتل مسلم وهاني وقعاً أليماً في نفس الحسين وصحبه خاصة لوجود زوجته أم كلثوم شقيقة العقيلة وأطفالها بالركب بالإضافة إلى إخوة مسلم (١٨٤) . ولكن الإمام الحسين وقف كالطود الشامخ لا يتزعزع كما عبر للأزدي عن أن الفئة الباغية ستقدم على قتله . وكان تعليق الحسين على ذلك الخبر المؤلم أن استعبر باكياً ثم قال : « رحم الله مسلماً فلقد صار إلى روح الله وريحانه وتحيته ورضوانه أما أنه قد قضى نحبه وما عليه وبقي ما علينا » ثم أنشأ يقول : (١٨٥) :

فإن تكن الدنيا تعدُّ نفيسة	فدار ثواب الله أعلا وأنبلُ
وإن تكن الأبدان للموت انشئت	فقتل الفتى بالسيف في الله أفضل
وإن تكن الأرزاق قسماً مقدراً	فقللة حرص المرء في السعي أجملُ
وإن تكن الأموال للترك جمعها	فما بال متروك به الحدُّ يبخلُ

إن الإمام الحسين قد أوضح بكلماته نثراً وشعراً أنه لا خيار لنا غير الإستشهاد في سبيل الله وهو أفضل أنواع الموت فالإمام الحسين وصحبه إختاروا الشهادة ووقعوا عليها ولم تقع عليهم وهنا تكمن عظمة الإمام الحسين في إقدامه على الاستشهاد ليزلزل الصمت المطبق . كان الإمام الحسين يعلم في رحلته الإستشهادية أنه لا وجه

للمقارنة بين استعداداته العسكرية واستعدادات خصمه الذي سيحشد له - كما أخبره أخوه الإمام الحسن (ع) قبيل استشهادهِ - ثلاثين ألف رجل . إنه يعلم بإمكاناته المتواضعة ، لكنه عشق الشهادة إنه يريد أن يدافع عن الحقيقة عن طريق ضرب رأس عدوه المهاجم بموته ، فأختار بعد ذلك الموت ، إنه يشتري حياة الموت بموت الحياة وقد قيل : «أطلبوا الموت توهب لكم الحياة» . وقال الإمام الحسين (ع) «موت في عز خير من حياة في ذل» (١٨٦) .

ويواصل الإمام الحسين (ع) إقامة الحجة على أهل الكوفة الذين دعوه لنصرته ليجعل ذلك ضمن وثائق التاريخ الإنساني بشكل عام والإسلامي بشكل خاص بأنه قد أدى ما عليه تجاه الناس لدعوتهم لتحرير الأمة والدين من طاغية قريش يزيد ، بصفته الوريث الشرعي والوحيد لكل شرائع السماء آنذاك على الرغم من الأنباء المثبطة لهم الجبناء بشأن القبضة الحديدية التي أمسك بها عبيد الله بن زياد الكوفة والبصرة وما فعله برسوليَّ الإمام الحسين إليها . فكتب كتاباً إلى أول من راسلهم من زعماء الكوفة : سليمان بن صرد الخزاعي والمسيّب بن نجبة ورفاعة بن شدّاد وجماعة من شيعة أهل البيت وبعثه مع قيس بن مسبهر الصيداوي يقول ابن طاووس : «فلما بلغ مشارف الكوفة إعتضه الحصين بن تميم صاحب عبيد الله بن زياد ليفتشه فما كان من رسول الإمام الحسين إلا أن أخرج الكتاب ومزقه بغية الحفاظ على حياة المعنيين بالأمر . فكان عقابه أن أخذ إلى ابن زياد فلما طلب منه أن يعرف نفسه قال : أنا رجل من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وابنه قال : فلماذا أحرقت الكتاب؟» قال : لئلا يعلم ما فيه ، قال : ومن الكتاب وإلى من؟ قال : من الحسين إلى جماعة من أهل الكوفة لا أعرف أسماءهم . فغضب ابن زياد وقال والله لا تفارقني حتى تخبرني بأسماء هؤلاء القوم أو تصعد المنبر فتلعن الحسين بن علي وأباه وأخاه وإلا قطعتك إرباً إرباً ، فقال قيس : أما القوم فلا أخبرك بأسمائهم وأما الحسين وأبوه وأخوه فافعل . فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي وآله وأكثر من الترحم على علي وولده صلوات الله عليهم ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه وأخاه ولعن عتاة بني أمية عن آخرهم . ثم قال أيها الناس أنا رسول الحسين عليه السلام إليكم وقد خلفته بموضع كذا فأجيبوه (١٨٧) «وقد أمر ابن زياد بإلقائه من أعلى قصر الإمارة» فلحق بقافلة شهداء كربلاء في نعيم الخلد إلى جانب

سليمان رسول الحسين الى البصرة ومسلم وهاني فهؤلاء الأربعة هم أول قافلة شهداء حركة الإمام الحسين النهضوية خارج ميدان معركة كربلاء.

لقد مثل الرسل الثلاثة الإمام الحسين (ع) خير تمثيل وأثبتوا بمواقفهم الإيمانية وثباتهم على العقيدة والمبدأ وهم يواجهون لحظات الموت بأسمى معاني الشموخ والإباء فأثبتوا الولاء والانتماء إلى مدرسة آل رسول الله . وقد تمكن قيس أن يبلغ رسالة الحسين (ع) بأمانة فاقت حدود الخيال ، فقد حافظ على سلامة أرواح المعننين من ناحية وبدل أن يقتصر التبليغ على نفر قليل جداً من أهالي الكوفة تمكن قيس أن يقهر الموت وكل جبروت سلطنة قريش وقوتها فأبلغ رسالة الإمام الحسين إلى أهالي الكوفة كافة وشم عتاة الأمويين وسلالة ابن زياد ، وهكذا تسامى قيس بعقيدته على الموت ليهرب من موت الأحياء الذي أصبحت فيه الحياة مع الظالمين تافهة . الحياة التي صار المهيمنون على مقاليد أمور دولة النبوة الذين يتباهون بشتم أبناء الرسول وعرة النبي الطاهرة ، فما قيمة الحياة حينئذ ؟ لقد أعطى قيس لأهالي الكوفة بشكل خاص وللأمة عبر تعاقب الأجيال بشكل عام نموذجاً لعظمة شهداء كربلاء الذين أصبحوا حديث البشرية طالما وجدت حياة على وجه الأرض . ولما بلغ الإمام الحسين استشهاد قيس استعبر باكياً وقال : « اللهم اجعل لنا ولشيعتنا منزلاً كريماً واجمع بيننا وبينهم في مستقر من رحمتك إنك على كل شيء قدير » (١٨٨) . لم يضعف ولم يستكن بل صمم على مواصلة طريق الحق ، طريق الشهادة .

٦- الوصول إلى أرض الشهادة :

بدأ ابن زياد يعدّ العدة لحرب الإمام الحسين منذ أن تسلم كتاب يزيد بن معاوية الذي هدده فيه بإعادته للعبودية إن لم يقض على الحسين كما مر سابقاً . فجهز جيشاً كبيراً مكوناً من ثلاثين ألفاً حسبما تشير إليه معظم الروايات وأمر على ذلك الجيش عمر بن سعد بن أبي وقاص (١٨٩) - الذي كان واحداً من الذين بادروا بإخبار يزيد عن حركة مسلم بن عقيل وتمثيله للإمام الحسين (١٩٠) فربما يكون تأميره على الجيش الذي حارب الإمام الحسين مكافأة له على تلك الخدمة لنيل رضا وثقة يزيد بن معاوية وواليه ابن زياد . وقد أحكم ابن زياد بالجيش الضخم الذي حشده لحرب

الإمام الحسين حصار الكوفة خشية أن يخرج أحد من أهلها للإلتحاق بركب الشهادة المتوجه نحو الكوفة. وكان ابن زياد قد أمر بتضييق الخناق ومراقبة تحرك كل أهل الكوفة بشكل عام وشيعة أهل البيت بشكل خاص وكل من كان معروفاً بحب الإمام الحسين^(١٩١).

وكانت أولى الطلائع العسكرية التي خرجت من الكوفة لمراقبة ركب الإمام الحسين تتكون من ألف فارس بقيادة الحر بن يزيد الرياحي الذي كان مأموراً بأحتجاز الركب أينما وجد وإحاطة ابن زياد علماً بذلك^(١٩٢). وبالرغم من التعليمات الصارمة التي يحملها الحر للإساءة إلى الإمام الحسين فإنه نجح من الحفاوة التي إستقبله بها الإمام الحسين وطلبة الفرسان الذين معه حيث سقوهم ماء مع خيولهم حينما إلتقوا بهم عند مرحلتين من الكوفة^(١٩٣). ثم اتفق الإمام الحسين مع الحر على أن يأخذ ركب الإمام الحسين طريقاً لا تدخله الكوفة ولا توصله إلى المدينة.

فسار ركب الإمام الحسين تحت رقابة طليعة الجيش الأموي التي يقودها الحر حتى وصلت رسالة ابن زياد إلى الحر تلومه في أمر الإمام الحسين وتأمره بالتضييق عليه. ولما لم يجد الحر بداً من تنفيذ أوامر ابن زياد منعوا الإمام الحسين من السير. ولما استفسر الإمام الحسين من الحر عن سبب تغيير موقفه أخبره برسالة ابن زياد والجواسيس الذين عينهم لمراقبة مدى إمتثاله لأوامره^(١٩٤).

وخطب الإمام الحسين أصحابه وأصحاب الحر بالبيعة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس إن رسول الله (ص) قال من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله (ص) يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله ألا وإن هؤلاء قد لزمو طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله وأنا أحق من غيري وقد أئنتني كتبكم وقدمت عليّ رسلكم ببيعتكم أنكم لا تسلموني ولا تخذلوني فإن تمتمت على بيعتكم تصيبوا رشدكم فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله (ص) نفسي مع أنفسكم

وأهلي مع أهليكم فلكم في أسوة وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من أعناقكم فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم والمغرور من اغترّ بكم فحظكم أخطأتم ونصيبكم ضيعتم ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وسيغني الله عنكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» (١٩٥). لقد أوضح كل شيء للحاضرين وبين لهم أنه وريث النبيين جميعاً فحركته امتداد لثورة جده الإلهية فهو حارس الشريعة وعلى كتفيه تقويم كل المسؤوليات لمناهضة الطوفان الذي يكسح دولة جده. كما يذكرهم بأن مجيئه إلى الكوفة إنما كان بناء على مراسلات وتعهدات وبيعة تم أخذها له. ويحذرهم عاقبة النكوص. ثم واصلوا سيرهم داخل العراق حتى وصلوا ذي حسم. وهناك قام الإمام الحسين خطيباً في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون وأن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها واستمرت حتوفها ولم يبق منها إلا صباية كصباية الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون إلى الحق لا يعمل به وإلى الباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء ربه محققاً فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً» (١٩٦). هذه إحدى صرخات عملاق الحرية التي أطلقها في بيداء الحياة فصارت تتردد أصداؤها عبر الزمان والمكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يتغنى بها عشاق الحرية على اختلاف ألوانهم وأعراقهم وأديانهم إنه يرى في الموت الحياة الخالدة التي توفر أعلى درجات السمو للشهيد في الدنيا والآخرة لأنه المنقذ للبشرية من الآلام، وأن الموت الحقيقي يكمن في العيش الذليل مع الظالمين ولزوم الصمت على جرائمهم ضد الإنسانية وضد الأديان وضد القيم وضد كل الموارث النبوية وكانت كلمات الإمام الحسين (ع) في أصحابه كالبركان الهادر الذي فجر في أعماقهم ثورة عارمة فقام نفر منهم يعبرون عن أمتانهم للنعمة التي أسبغها الله عليهم بمرافقته والإستشهاد معه دفاعاً عن العقيدة والمبدأ ومن هؤلاء: زهير بن القين، هلال بن نافع، ويزيد بن حصين (١٩٧). ثم سار ركب الإمام الحسين والحر ومن معه من الفرسان يسايرونه، ولما حذر الحر الإمام الحسين بأنه سيكون مصيره القتل إذا صمم على مقاتلة الجيش الأموي رد عليه الإمام الحسين بقوله: «أقبل الموت تخوِّفني وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني، ما أدري ما أقول لك ولكن أقول كما

قال أخو الأوس لابن عمه حينما لقيه يريد نصرة رسول الله (ص) فقال له : أين تذهب فإنك مقتول ! فقال : (١٩٨).

سأَمْضِي وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلماً
وَأَسَى الرجال الصالحين بنفسه وفارق مشوراً يغش ويغرماً

واكتفى الحر بسماعه هذه الآيات أن الإمام الحسين مصمم على الاستشهاد، لذلك تنحى عنه وصار كل منهما يسير بأصحابه حتى وصلوا إلى عذيب المهجانات وكان بها هجائن النعمان ترعى هنالك فوجدوا أربعة رجال قدموا من الكوفة على رواحلهم ومعهم فرس لنافع بن هلال يقال له الكامل ومعهم دليلهم الطرماح بن عدي على فرسه وهو يقول : (١٩٩)

يا نَاقَتِي لا تَذْعُرِي من زَجْري وشُمَّرِي قبل طُلُوع الفجر
بخير ركبَان وخير سَفَر حتى تحلِّي بكريم النجر
الماجد الحر رحيب الصدر أتى به الله خير أَمَر

وكان هؤلاء نفر قد قدموا لنصرة الإمام الحسين على الرغم من إحكام الجيش الأموي الحصار على الكوفة - وعلى الرغم من معارضة الحر المبدئية لانضمام هؤلاء إلى ركب الإمام الحسين إلا أنه تنازل أزاء الموقف المتصلب الذي وقفه الإمام الحسين ضده وهدده بالقتال إذا أصرَّ على المعارضة (٢٠٠). وقد أخبر الطرماح ومن معه الإمام الحسين بحشود الأمويين العسكرية الضخمة التي اجتمعت لقتاله (٢٠١).

واستمر ركب الإمام الحسين وركب الحر يتسايران يمنعون الإمام الحسين من السير تارة ويسايرونه تارة أخرى حتى بلغوا كربلاء وذلك في اليوم الثاني من المحرم سنة إحدى وستين من الهجرة (٢٠٢). فلما سأل الإمام الحسين عن اسم الأرض التي بلغوها قيل كربلاء. فقال : أنزلوا ها هنا والله محط ركائبنا وسفك دمائنا، ها هنا والله محل قبورنا، ها هنا والله تسبى حريمنا، بهذا وعدني جدي رسول الله (ص) (٢٠٣). فنزلوا جميعاً وكان الحر في جانب، ونزل الإمام الحسين وصحبه في جانب آخر. فقبض الإمام الحسين (ع) قبضة من تراب كربلاء فشَمَّها فقال : «هذه والله هي الأرض التي أخبر بها جبرئيل رسول الله (ص) أنني أقتل فيها. أخبرني أم

سلمة بذلك^(٢٠٤). ورؤي أن الإمام الحسين (ع) حينما ألجأه جيش الضلال إلى القتال للدفاع عن نفسه وحرية وعن دين جده وعن مواريث كل الديانات وكان يرتجز شعراً وسيفه مصلت في يده كما روى ابن حجر ويقول: (٢٠٥).

أنا ابن علي الخبر من آل هاشم كفاني بهذا مفخراً حين أفخر
وجدي رسول الله أكرم من مشي ونحن سراج الله في الناس يزهر
وفاطمة أمي سلاله أحمد وعمي يدعى ذا الجناحين جعفر
وفينا كتاب الله أنزل صادقاً وفينا الهدى والوحي والخير يذكر

ويمكن أنه (ع) كان يريد تنوير من على قلبه غشاوة من الجيش الأموي وما أكثرهم علة يوفق لهداية أحد منهم.

٧- ركب الشهادة يحط رحاله في أرض الإستشهاد الموعودة:

وصدقت نبوءة الإمام علي بعد ثلاث وعشرين سنة حينما مروا بكربلاء وهم في طريقهم إلى صفين لقتال معاوية. فيقال أن الحر بن يزيد الرياحي وصحبه منعوا ركب الإمام الحسين (ع) من المسير حينما وصلوا إلى هذا المكان، وقال للإمام: إنزل بهذا المكان فالفرات منك قريب. وحينما سأل الإمام عن إسم المكان قيل له كربلاء. قال: «ذات كرب وبلاء»، ولقد مرَّ أبي بهذا المكان عند مسيره إلى صفين، وأنا معه، فوقف، فسأل عنه، فأخبر باسمه، فقال: «ها هنا محط ركابهم، وها هنا مهراق دمائهم»، فسئل عن ذلك، فقال: «ثقل لآل محمد، ينزلون ها هنا»^(٢٠٦).

ثم أمر الإمام بأثقاله وجُطت في ذلك المكان. وكتب إلى أخيه محمد بن الحنفية وجماعة من بني هاشم: أما بعد فكأن الدنيا لم تكن، وكأن الآخرة لم تزل»^(٢٠٧)، فكانت آخر رسالة يوجهها إلى أقربائه يعنى فيها نفسه ويخبرهم بتصميمه على الإستشهاد لإلقاء الحججة عليهم وحتى يلحق به كل راغب في الإستشهاد من أجل هزيمة الباطل ونصر الحق وإظهاره. إنه آخر نداء يوجهه لأقاربه من أجل الحرية وكرامة الإنسان في دولة النبوة التي أهدرها الأمويون منذ سيطرتهم على حكم هذه الدولة حيث أعادوا عهد الجاهلية في ثوب جديد: بزي إسلامي ولكن على الطراز الأموي.

وروي أن جيش الأمويين الذي إجتمع لقتال الإمام الحسين قبيل العاشر من محرم سنة إحدى وستين من الهجرة بلغ ثلاثين ألفاً مع كامل أسلحتهم ، بينما بلغ أنصار الإمام الحسين كما روي عن الإمام الصادق خمسة وأربعين فارساً ، ومئة راجل ، ونقل أنهم كانوا نيفاً وسبعين (٢٠٨) . وروي أنه حتى السادس من شهر محرم بلغ عدد جيش الأمويين بقيادة عمر بن سعد عشرين ألفاً (٢٠٩) بينما أقل الروايات تقدره بأربعة آلاف مقابل اثنين وسبعين وهم أصحاب الإمام الحسين (٢١٠) (ع) . كان أنصار الإمام الحسين خمسين والباقي من البيت الطالبي .

٨ - زينب و كربلاء :

بوصول ركب الشهادة إلى أرض البطولات كربلاء بدأ العد التنازلي على اكتمال دور الإمام الحسين وإنجاز ما عليه من مهام لتسلم عقيلة الطالبيين وفخر المخدرات زينب مهامها البطولية لتحمل رسالة ملحمة الشهادة لتحديث بها أجيال البشرية المتعاقبة ويحكوا قصص بطولاتها . إن مهام السيدة زينب في ملحمة الشهادة بكر بلاء يمكن تلخيصها في :

١ - توصيل رسالة الشهادة إلى الأجيال المتعاقبة عبر العصور في دولة النبوة بشكل خاص وإلى بقية الأمم بشكل عام عبر ميادين الكوفة ، دمشق ومدينة الرسول (ص) وكذلك في القصرين الأبيض بالكوفة والأخضر بدمشق تخاطب سلاطين الجور والفساد وتزلزل الصمت المطبق في مقبرة الأحياء التي غشيها ليل بهيم .

٢ - الحفاظ على حياة الإمام زين العابدين بقية العترة وحجة الله في أرضه بعد الإمام الحسين (ع) الذي أراد الأمويون قتله مرتين إحداها في كربلاء والثانية بالكوفة . وقد شاءت إرادة الله أن يمرض قبيل وصول ركب الإمام الحسين إلى كربلاء وظل مريضاً حتى عودته إلى المدينة حيث أنهكت المصائب ، فسقط عنه القتال بين يدي والده الإمام .

٣ - كذلك من مهام السيدة زينب لم تشمل الأطفال والنساء خلال المعركة وبعدها ، بل منذ وطأت أقدامهم أرض كربلاء أصبحت السيدة زينب تتحمل

مسؤولية تريض زين العابدين ورعاية النساء والأطفال . وسيوضح لاحقاً كيف أدت السيدة زينب تلك المهام بإتقان وأمانة .

وقال العلامة الأصفهاني في أرجوزة له يصف فيها ميراث السيدة زينب الذي مكنها من القيام بدورها العظيم في ملحمة الشهادة فقال (٢١١).

مليكة الدنيا عقيلة النسا	عديلة الخامس من أهل الكسا
شريكة الشهيد في مصائبه	كفيلة السجاد في نوائبه
بل هي ناموس رواق العظمة	سيده العقائل المعظمة
أم الكتاب في جوامع العلا	أم المصاب في مجامع البلا
رضيعة الوحي شقيقة الهدى	ربيبة الفضل حليفة الندى
ربة خدر القدس والطهارة	في الصون والعفاف والخفارة
ما ورثته من نبي الرحمة	جوامع العلم أصول الحكمة
سرّ أبيها في علو الهمة	والصبر في الشدائد الملمة
وما أصاب أمّها من البلا	فهو تراثها بطف كربلاء

الإمام الحسين بدأ في إعداد العقيلة زينب لدورها الرسالي العظيم في ملحمة الشهادة بكربلاء منذ خروجهم في ركب الشهادة من المدينة . ولذلك حينما خطوا برحالم أرض كربلاء كان الإمام الحسين (ع) يتعهدا بشكل مستمر بتوجيهاته ونصائحه الفذة يعلمها كيف تسمو على الجراح ، وكيف تؤدي دورها المقدس .

إن قائد الجيش الأموي عمر بن سعد وبناء على توجيهات سيده عبيد الله بن زياد خير الإمام الحسين (ع) بين المبايعة أو القتال ، فأختار القتال (٢١٢) . لماذا؟ لأن المبايعة استسلام وذل والقتال إسشهاد وعز . لأن المبايعة عبودية وتعطيل لحدود الله وانتهاك لحرماته والقتال حرية وإحياء للسنن وإماتة للبدع . وكان ابن زياد قد أمر قائد جيشه بأن يمنع الحسين وأصحابه الماء كما جاء في رسالته إلى عمر بن سعد : «إمنع الحسين وأصحابه الماء ، وحل بينهم وبينه حتى لا يذوقوا منه حسوة ، كما فعلوا بالتقي عثمان بن عفان (٢١٣) . ليس غريباً على ابن زياد أن يتناول على الحقيقة

لأنه عدوٌّ من أعدائها ومن سخریات القدر أن يصل أمر الأمة الإسلامية إلى أن يشارك أمثال ابن زياد في تسيير دفة الأمور فيها فجميع المؤرخين للأحداث بدولة النبوة يذكرون دور الإمام علي وولديه الحسن والحسين في الدفاع عن عثمان، وهذا مثل متواضع لتشويه الحقائق من قبل أمراء سلطنة قريش لتعرف أجيال الأمة المتعاقبة في دولة النبوة مدى الزيف الذي على أساسه بنى الأمويون حكمهم. لقد أراد ابن زياد أن يجعل الماء سلاحاً يضغط به على الإمام الحسين وصحبه من أجل حملهم على المبايعة والإستسلام. ولكن متى كان لمثل ابن زياد أن يعرف معدن الإمام الحسين وصحبه ومدى إباءهم وشموخهم وعمق إيمانهم وأن سعادتهم الحقيقية هي في الإستشهاد وأن حياتهم مع الظالمين هي الذل الأبدي، لقد تأثر الإمام الحسين وأصحابه وثقله من آل رسول الله بحظر الماء عنهم ولكنهم لم يستسلموا كانوا عطاشى ولكن تعطشهم للشهادة كان أبلغ أثراً، لقد عشقوا الشهادة وعشقتهم. لقد صاروا نبراساً يهتدي به السائرون في دروب الحق والحرية.

٩- وسائل حركة الإمام (ع) النهضة :

تتمثل هذه الوسائل في ثلاث :

أ- الكلمة (خطب الإمام الحسين).

ب- السيف.

ج- خطب السيدة زينب.

أما الكلمة فتمثلت في خطب الإمام الحسين بدءاً من رفضه مبايعة يزيد خلال لقائه، الوليد بن عتبة وإلى المدينة ثم خطبته في جماهير الحجاج في مكة قبيل خروجه حيث أوضح للجميع أهداف حركته الإصلاحية المباركة ودعا الراغبين للدفاع عن الحق والقيم الإنسانية اللحاق به، ثم خطبته في طليعة الجيش الأموي بقيادة الحر بن يزيد الرياحي التي خرجت لإعتراض طريقه وإقتياده إلى الكوفة^(٢١٤). كذلك خطبته في كربلاء يوم السادس من محرم^(٢١٥) حينما إحتشدت جحافل الجيش الأموي وضيقوا على الإمام الحسين (ع) وصحبه بمنعهم عن الماء، فخرج إليهم واتكأ على

سيفه وناداهم بأعلى صوته مخاطباً معرفاً نفسه لهم لإلقاء الحجة عليهم وكان جوابهم الإصرار على عنادهم وعلى حرمان الإمام الحسين وصعبه من الماء حتى يموتوا عطاشى كما ورد في الخطبة ، كذلك ألقى خطبة عصماء في الجيش الأموي يوم العاشر من محرم قبيل بدء القتال^(٢١٦) عبر الإمام فيها عن غدر أهل الكوفة ونكثهم بيعته ووصفهم بأوصاف تليق بموقفهم الخياني من سبط رسول الله (ص) وخليفة الله في أرضه آنذاك كما أوضح إباءه وإصراره وإختياره لموت الأحرار ونبذ حياة العبيد التي تعتبر الموت الأبدى ، كذلك تنبأ بمصير قتلته جميعاً وأولهم قائدهم عمر بن سعد الذي مناه يزيد على لسان واليه ابن زياد بتوليته الري وجرجان بعد قضائه على الإمام الحسين . لم تكن خطب الإمام الحسين (ع) للجيش الأموي من أجل الإستعطاف لتركوا سبيله ، لأنه يعلم من سلفه عن علم الله أنهم لن يتركوه وأنه مقتول لا محالة ، إنما كان هدفه تبليغ رسالة الحرية إلى أجيال أمم العالم المتعاقبة بأن الحرية تؤخذ ولا تعطى ، ويكشف لأجيال أمة جده بشكل خاص هويّة النظام الذي قامت عليه سلطنة قريش وشوّهت كل ما جاء به محمد (ص) ، فهذا هي قوة دولة الخلافة العسكرية تستخدم لإبادة ذرية النبي (ص) واستئصالها من الوجود . توظفت جميع إمكانيات دولة الخلافة المادية والعسكرية للقضاء على العترة النبوية وكل من سار على نهجها ، فبدل أن توظف تلك الإمكانيات لمشاريع تنموية تعود بالخير على الأمة وبدل أن يستخدم الجيش لنشر مبادئ دولة النبوة في أرجاء العالم . بالإضافة إلى ذلك كان هدف الإمام الحسين (ع) إلقاء الحجة على جميع أفراد الجيش الأموي جنود أو قادة ، علّه يهدي بخطابه أحداً منهم فينقذه من سخط الله وعذابه ، إمّا بتحييده ، وإمّا اللّحاق به ونصرته ، كما فعل الحر بن يزيد الرياحي قائد طليعة الجيش الأموي الأولى ، التي لاحقت ركب الإمام الحسين منذ إلتقائه حتى كربلاء . إذ إلتحق الحر بالإمام الحسين يوم العاشر من محرم ، واعتذر له عما بدر منه من إساءة ثم استشهد بين يديه بعد قتال بطولي . فلما حضر الإمام الحسين مصرعه ، مسح التراب عن وجهه وقال : «أنت حرٌّ كما سَمَتَكَ أمُّك ، حرٌّ في الدنيا والآخرة»^(٢١٧) . وكما صنع الحر بإلتحاقه بالحسين كذلك صنع بطل آخر هو «يزيد الكندي»^(٢١٨) .

إضافة إلى ذلك فهناك الرسائل التي وجهها الإمام الحسين (ع) إلى وجهاء شيعة أهل البيت في كل من الكوفة والبصرة كما ورد ذكره سابقاً.

وكما استخدم الإمام الحسين الكلمة مع عامة الناس في مكة والجيش الأموي في الطريق وفي كربلاء لإلقاء الحجة وكشف الحقيقة وتنوير العقول عن الجرائم التي ارتكبتها سلطنة قريش بحق الدين والأمة، كذلك استخدم الكلمة مع أصحابه لغربلتهم وإطلاعهم على حتمية استشهاده. فكما خطبهم واختبرهم في ذي حسم - كما ورد مناقشته - كذلك فعل ليلة العاشر من محرم حينما قام فيهم خطيباً^(٢١٩). فتهافت أهل بيته وأصحابه بعد انتهائه من خطبته، أعربوا له عن تعطشهم للإستشهاد بين يديه وبأيعوه على الموت مع أنه أحلهم في تلك الخطبة من بيعته^(٢٢٠). وقضوا ليلتهم تلك في التزود من العبادة. ووصف ابن داود تلك الليلة بقوله: «بات الحسين (ع) وأصحابه تلك الليلة ولهم دوي كدوي النحل ما بين راكم وساجد وقائم وقاعد»^(٢٢١). ومن هنا تأتي حكمة الإمام الحسين أنه حينما زحف عمر بن سعد بجيشه على مخيم الإمام الحسين عصر التاسع من محرم كلف أخاه العباس بن علي بن أبي طالب أن يستمهلهم سواد ليلة العاشر، فاستجاب ابن سعد لطلب الإمام^(٢٢٢). فكان تأجيل القتال ليتمكن الإمام الحسين من إختبار أصحابه والتزود من العبادة، إنه قائد عسكري محنك يضع اللمسات الأخيرة على خطته العسكرية. كان هول الموقف عظيماً إلا أن صبر الإمام الحسين كان أعظم وإيمانه بسمو أهداف إستشهاده جعله يتعملق على كل شيء حتى على الموت الذي رأى فيه الحياة الأبدية في الدنيا والآخرة. كان حريصاً على تهدئة خاطر عاقلة الطالبين زينب وتزويدها بوصاياهم الأخيرة لكي تحمل أعباء توصيل رسالة الإستشهاد إلى الأجيال المتعاقبة من الأمة بشكل خاص والبشرية بشكل عام، يهديء من روعها ويسكن ويخفف من لوعة الفراق وحرقة الشك التي تهد الجبال الشم. فحينما زحف عمر بن سعد بجيش الضلال عصر التاسع من محرم يوم الخميس دون أن يعلم الإمام الحسين بذلك، كان محتبياً بسيفه إذ خفق برأسه على ركبتيه فلما سمعت أخته زينب صيحة الجيش الأموي، دنت منه، وقالت: يا أخي! أما تسمع الأصوات قد إقتربت، فقال الإمام الحسين بعد أن رفع رأسه: «أني رأيت الساعة جدي محمداً

وأبي علياً، وأمي فاطمة وأخي الحسن وهم يقولون: يا حسين إنك رايح إلينا عن قريب»، وفي رواية: «غداً». قال الراوي: «فلطمت زينب وجهها وصاحت»، فقال لها الحسين عليه السلام: «لا تشمتِ القوم بنا» (٢٢٣).

وموقف آخر للإمام الحسين (ع) مع أخته وشريكة نضاله زينب قبل يوم ملحمة الشهادة يوصيها بوصاياهم فهو شقيقها وإمامها ولا تستطيع أن تقدم أو تؤخر إليه أمراً مع عظم المصيبة وكونها امرأة. لكن عليها أن تتحمل الرزايا جميعها وتحملها على كتفيها وحيدة ليس معها معين سوى ميراثها النبوي التربوي. وميراث الرزايا الذي ورثته من جدتها خديجة وأمها الزهراء وأبيها علي وأخوها الحسن. يبدو أن الإمام بعد أن خطب أصحابه ليلة العاشر اعتزل في خيمة وكان معه جون مولى أبي ذر الغفاري، فجعل الإمام يصلح سيفه ويقول: (٢٢٤).

يا دهرُ أف لك من خليل كم لك بالإشراق والأصيل
من طالب وصاحب قتيل والدَّهرُ لا يقنعُ بالبديل
وكلُّ حيٍّ سالك سبيل ما أقرب الوعد من الرحيل

وإنما الأمر إلى الجليل إلى جنانٍ وإلى مقيل
وقد روى الطبري عن علي بن الحسين بن علي أن عمته كانت تمرضه فسمعا تلك الأبيات التي ردها الإمام الحسين مرتين أو ثلاثاً يقول علي بن الحسين: «حتى فهمتها وعرفت ما أراد بها، فخنقتني عبرتي فرددت دمعي ولزمتُ السكوت، فعلمتُ أن البلاء قد نزل، فأما عمتي فإنها سمعت ما سمعت وهي امرأة وفي النساء الرقة والجزع فلم تملك نفسها أن وثبت تجرب ثوبها وأنها لحاسرة حتى انتهت إليه فقالت: وا ثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياه! اليوم ماتت فاطمة أمي! وعلي أبي! وحسن أخي! يا خليفة الماضي وثمال الباقي، فنظر إليها الحسين (ع)، فقال: يا أخية! لا يذهبن حلمك الشيطان، قالت: بأبي أنت وأمي، يا أبا عبد الله استقتلت! نفسي فداك! فردَّ غصته وترقرقت عيناه وقال: لو ترك القطا ليلاً لنام قالت: يا ويلنا! أفتغتصب نفسك إغتصاباً! فذلك أقرحُ لقلبي! وأشدُّ على نفسي! ولطمت وجهها وأهوت إلى جيها وشقته! وخرت مغشياً عليها! فقام إليها الحسين،

فصبَّ على وجهها الماء! وقال لها: يا أُخِيَّة! إتقي الله! وتعزِّي بعزاء الله! وأعلمي أن أهل الأرض يموتون، وأن أهل السماء لا يبقون، وأن كل شيء هالك إلا وجه الله الذي خلق الأرض بقدرته، ويبعث الخلق فيعودون، وهو فرد وحده، أبي خير مني، وأمي خير مني، وأخي خير مني، ولي ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة، وفي حثها على الصبر على المصيبة قال لها: «يا أُخِيَّة إني أقسمُ عليك فأبري قسَمي لا تشقي علي جيئاً! ولا تخمشي عليَّ وجهاً! ولا تدعي علي بالويل والثبور إذا أنا هلكت! قال ثم جاء بها حتى أجلسها عندي» (٢٢٥).

إن الإمام الحسين لم يلجأ للسيف إلا مضطراً بعد أن فشلت الكلمة في تحقيق غرضها وللدفاع عن النفس الأبية التي شاء الله لها أن تكون في عليين دنيا وآخرة، إن رفض الإمام الحسين المبايعة ليزيد وتصميمه على القتال في تلك الصفوة من أهل بيته وأصحابه جعله يقتسم وإياهم أسمى مراتب الشهادة ولذلك لقب بسيد الشهداء كما لقب قبله الحمزة، وإذا كان الحمزة بن عبد المطلب قد إختارته الشهادة في معركة أحد، فإن الإمام الحسين (ع) وصحبه هم الذين إختاروا الشهادة ووقعوا على الموت لتكتب لهم الحياة الأبدية في الدارين. لقد لقب الإمام الحسين بتلك الوقفة الباسلة والشجاعة المنقطعة النظير التي أبدأها يوم الشهادة بشهادة أعدائه أبي الضيم.

أراد الإمام الحسين (ع) برفضه مبايعة الطغاة ومطفئي نور الإسلام - كما وصفهم في خطبته يوم العاشر - وإقدامه وصحبه على قتال الجموع الغفيرة، أن يجعل من كربلاء معقلاً للثائرين، كل الثائرين على خطى أئمة الهدى وجميع عشاق الحرية في كل زمان ومكان. وعلى الرغم من إستقبالهم لحتوفهم يوم العاشر - إلا أن الإمام الحسين وصحبه باتوا تلك الليلة فرحين مستبشرين بما أعد الله لهم من نعيم في جنات الخلد. وقد إغتسلوا في تلك الليلة وتطيبوا (٢٢٦)، وكأنهم عرسان يزفون. نعم لقد زفوا للحدور العين بعد إستشهادهم.

فرغ الإمام الحسين (ع) من إلقاء خطابه على الجيش الأموي الذين كانوا كما قال الله فيهم: ﴿صَمَّ بكم عمي فهم لا يرجعون﴾ (٢٢٧) وقال أيضاً: ﴿ختم الله على

قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم» (٢٢٨). فصمدوا على إبادة آل رسول الله (ص) لإرضاء طاغية القصر الأخضر يزيد. وكان عمر بن سعد أول من رمى مخيم الإمام الحسين بسهم وتبعه جيشه في الرمي. فقال الإمام الحسين (ع) بعد أن هيا رجاله للبراز: «قوموا رحمكم الله إلى الموت الذي لا بد منه فإن هذه السهام رسل القوم إليكم» (٢٢٩) وبدأ القتال، وبعد أن قتل جماعة من أصحابه ضرب بيده على لحيته وجعل يقول: «اشتد غضبُ الله على اليهود إذ جعلوا له ولداً، واشتد غضبه على النصاري إذ جعلوه ثالث ثلاثة واشتد غضبه على المجوس إذ عبدوا الشمس والقمر واشتد غضبه على قوم إتفقت كلمتهم على قتل ابن بنت نبيهم. أما والله لا أجيبهم إلى شيء مما يريدون حتى ألقى الله تعالى وأنا مخضب بدمي» (٢٣٠). كلمات الإياء والشمم في كل موقف حتى في الأوقات العصيبة، لا مهادنة ولا استسلام حتى فنيت رجاله من أصحابه وأهل بيته وبقي وحيداً يقاتلهم بشجاعة لم تشهد الحروب لها مثيلاً سوى شجاعة أبيه داحي باب خيبر. وروى حميد بن مسلم — وكان ممن شهد الواقعة، من أفراد الجيش الأموي — واصفاً شجاعة الإمام الحسين (ع) الخارقة بقوله: «كانت الرجال تشدُّ عليه فيشدُّ عليها بسيفه فتتكشف عنه إنكشاف المعزى إذا اشتد فيها الذئب وكان يحمل عليهم وقد تكاملوا ثلاثين ألفاً فيهمزمون بين يديه كأنهم الجراد المنتشر ثم أنخنوه بالجراح إلى أن بقي كالقنفذ واختلف عليه الطعن والضرب حتى وقع عن فرسه ثم احتز رأسه سنان بن أنس النخعي وقيل شمر بن ذي الجوشن الضبابي وسلب الحسين عليه السلام وسبيت نساؤه ونهبت أمواله وأحرق فسطاطه ودفع رأس الحسين (ع) إلى خولٍ فرفعه على رمح وكان أول رأس حمل على رمح في الإسلام» (٢٣١). ورؤي أنه (ع) وُجد في ثوبه مئة وبضع عشرة ما بين رمية وطعنة وضربة (٢٣٢). وقال الإمام الصادق (ع): «وجد بالحسين (ع) ثلاث وثلاثون طعنة، وأربع وثلاثون ضربة» (٢٣٣).

وهكذا قضى الإمام الحسين وصحبه نحبهم عطاشى وقطعت رؤوسهم جميعاً. ولم يكتفوا بذلك بل سلبوا من الإمام الحسين (ع) كل شيء وتركوه عارياً (٢٣٤). ولم تكن تلك النهاية ولم يشفوا غليلهم بعد. بل انتدب ابنُ سعد — تنفيذاً لأمر سيده

عبيد الله ابن زياد - عشرة فرسان أوطأوا خيولهم جسد الإمام الحسين - بعد أن احتزوا رأسه ورفعوه على رمح - ظهراً وصدرأ. ولذلك حينما وصل العشرة إلى ابن زياد بالكوفة يهشون به بالنصر ويسألونه الجائزة ويتباهون أمامه بما فعلوه بجسد الحسين ، فقال أسيد بن مالك أحد العشرة شعراً^(٢٣٥) :

نحن رضضنا الصدر ثم الظهر
بكل يعسوب شديد الأسر

ولم يكتفوا بذلك بل هجم جيش الطلقاء وأبناء الطلقاء على مخيم الإمام الحسين حتى جعلوا ينزعون ملحفة المرأة عن ظهرها ونهبوا كل المحتويات وسلبوا النساء والأطفال ، بل وأشعلوا النار في مخيم آل رسول الله ففرت ربّات الخدور مع الأطفال إلى العراء^(٢٣٦) ليس معهم كفيل ولا منكر لتلك الأعمال الممجية التي قل أن يحدث بها التاريخ البشري .

ولما ورد خبر مقتل الإمام الحسين عمرو بن سعيد والي الحرمين (مكة والمدينة) قال : «هذه واعية بواعية عثمان بن عفان»^(٢٣٧) بمعنى أن الأمويين انتقموا لدم عثمان باجثاث آل رسول الله من الوجود في كربلاء .

وروي أنه لما ورد خبر مقتل الإمام الحسين (ع) إلى عبد الله بن عمر أنكروا ذلك على يزيد واستعظمه فكتب عبد الله بن عمر إلى يزيد : «أما بعد ، فقد عظمت الرزية وجلت المصيبة وحدث في الإسلام حدث عظيم ولا يوم كيوم الحسين (ع)»^(٢٣٨) . فكتب إليه يزيد : «أما بعد يا أحق ، فإننا جئنا إلى بيوت متجددة وفرش ممهدة ووسائد منضدة فقاتلنا عليها فإن يكن الحق لنا فعن حقنا قاتلنا وأن يكن الحق لغيرنا فأبوك أول من سنّ هذا وأثر واستأثر بالحق على أهله والسلام»^(٢٣٩) . فسكت عبد الله بن عمر عن جداله ، وأظهر للناس عذر يزيد في ما فعله فقال : «هذا ظلم من يزيد لعنه الله لعمر فإن عمر لم يأمر بذلك ولم يعلم أن الأمر يصل إلى يزيد»^(٢٤٠) .

نعم ، لولا تهديد عمر بن الخطاب بحرق بيت فاطمة لما حرق لثقل رسول الله خيمة في كربلاء بعد خمسين عاماً من موت الرسول (ص) ولولا بيعة السقيفة وإنكار المسلمين لبيعة الغدير لما أنكر الكوفيون بيعة الإمام الحسين بعد خمسين عاماً . ولولا

بيعة السقيفة لما استئصلت عترة رسول الله في كربلاء . ولولا هجوم رجال سلطة الخلافة على بيت فاطمة لما هجم جيش الفئة الباغية على مخيم الإمام الحسين وفرقوا نساء وعياله في بيداء كربلاء حفاة . ولولا إقتياد الإمام علي من بيته مكرها إلى مسجد رسول الله (ص) لما اقتيد ثقل الإمام الحسين من كربلاء إلى الكوفة ومن الكوفة إلى دمشق مسلوين مسيين على جمال هزيلة بدون وطاء كأنهن سبايا الروم والسديلم . ولولا بيعة السقيفة لما أبتليت دولة النبوة بحكم الفراعنة والطواغيت والبعثاء ، والأدعياء وأبناء الأدعياء ، والطلقاء وأبناء الطلقاء الذين تربوا في القصر الأخضر الذي صار وكراً لتشويه مصادر الإسلام الرئيسية كتاباً وسنة . في كربلاء ، أعداء الإمام الحسين ممثلين في جيش الفئة الباغية قهروا أجساد الشهداء فقط ، ولكن أيديولوجية الشهداء أدانت هؤلاء الأعداء ونظامهم . الشهداء بدمهم أبطلوا المؤامرة الضخمة إلى الأبد . إن استشهاد الامام الحسين ورفاقه في السلاح وأطفاله وسلب ثقله وسيبهم فضح كل ما كان العدو يحاول أن يخفيه عن عيون الناس . أراد أعداء آل رسول الله (ص) أن يخفوا أحداث كربلاء في أعماق التاريخ بعيداً عن الذاكرة البشرية للإنسانية بواسطة أساليب سلطنة قريش الدعائية ، والنشاطات الأدبية والعلمية والفلسفية والتفسيرية لطواير الكتاب وعلماء البلاط المشرّبة أعناقهم للسلطة والنفوذ والثروة . دُمّ الشهداء نزع جميع الأفعنة ، وجرّ جميع أغطية الخداع ، صار مستحيلاً في جماعة التوحيد ، وجعل حكومة الإكراه والبغي مستحيلة في رسالة النبوة ، وجعل السحر الفرعوني ممقوتاً أمام أعين الناس المحيين للحسين وحركته النهضوية . وإذا كان لكل ثورة مظهران الدم والرسالة فإن المهمة الأولى قد أنجزها الإمام الحسين (ع) ورفاقه في ثورته العقائدية وبقيت المهمة الثانية الرسالة التي حملتها جامعة الرزايا زينب على كتفها لتبلغ الأمة حقيقة ما حدث .

فقدت السيدة زينب من آل رسول الله اثنين وعشرين قتيلاً بينهم أربعة أطفال للإمام الحسن وللإمام الحسين أحدهم رضيع الإمام الحسين ، والباقي ثمانية عشر شاباً ما على وجه الأرض لهم مثل في ذلك الوقت علماً وأدباً وشجاعة وجمالاً (٢٤١) . وبين الثمانية عشر ولداها محمد وعون ابني عبد الله بن جعفر ، الذي قال حينما بلغه نبأ الفاجعة «والله إنّه لمّا يسخى بنفسي عنهما ، ويهون عليّ المصاب بهما ، أنهما أصيبا

مع أخي وابن عمي مواسيين له صابرين معه» (٢٤٢). وبين هؤلاء أيضاً ستة من إخوتها : شقيقها الإمام الحسين (ع) بالإضافة إلى ابن أخيها علي الأكبر نجل الإمام الحسين (ع) وعبد الله والقاسم نجل أخيه الإمام الحسن (ع). قضوا نحبتهم جميعاً وهم عطاشى بما فيهم الإمام الحسين (ع) بشهادة هلال بن نافع من جيش الفئة الباغية قال : «إني لواقف مع عمر بن سعد إذ صرخ صارخ أبشر أيها الأمير فهذا شمر قد قتل الحسين (ع) قال : فخرجت بين الصفيين فوقفت عليه وأنه ليجود بنفسه فوالله ما رأيت قط قتيلاً مضمخاً بدمه أحسن منه ولا أنور منه وجهاً ولقد شغلني نور وجهه وجهال هيئته عن الفكرة في قتله فاستسقى في تلك الحال ماءً فسمعت رجلاً يقول : والله لا تذوق الماء حتى ترد الحامية فتشرب من حميمها . قال فسمعتة يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون والله لا أرد الحامية بل أرد على جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وأسكن معه في داره في مقعد صدق عند مليك مقتدر وأشرب من ماء غير أسن وأشكو ما ارتكبت مني وفعلتم بي قال : فغضبوا بأجمعهم حتى كأن الله لم يجعل في قلب أحدهم من الرحمة شيئاً ، فاحتزوا رأسه وأنه ليكلمهم فتعجبت من قلة رحمتهم له وقلت والله لا أجامعكم على أمر أبداً» (٢٤٣). وشهد شاهد من أهلها . فهل أبقي الأمويون عذراً لأحد كي يذكرهم بخير؟ فكيف بالدفاع عنهم وعن أعمالهم الممجية التي فاقت حدود الخيال والوصف؟ نعم هناك من يدافع عنهم ، فهذا عمرو بن سعيد الذي أمر بهدم دور بني هاشم بعد توليه أمرة الحرمين وعقاباً للإمام الحسين بسبب خروجه عن طاعة يزيد يعتبر إبادة آل رسول الله (ص) وأنصارهم في كربلاء إنتقاماً لدم عثمان (٢٤٤) ، وعُدَّ يوم العاشر عيداً للنصر في دمشق ولا يزال يحتفل به بعض المسلمين الذين يعتبرون إمتداداً لسلطنة قريش وإمتداداً لجذور الطلقاء وأبناء الطلقاء وحزب الشيطان كما لقبهم الإمام علي ونجله الإمام الحسين (ع) فيلسوف الحرية ومعلم الإباء .

على الرغم من هول الفاجعة لزينب إلا أنها بعد تقديم القرابين جميعهم أصبحت حفيدة خديجة وابنة فاطمة وحيدة في بيداء كربلاء إرتكزت على كتفيها مسؤولية توصيل رسالة ثورة أخيها الجليلة إلى الأجيال ، وكان زادها في رحلتها الرسالية

المقدسة صبر السلف على كل الرزايا التي واجهتهم ، وزادها أيضاً وصايا إمامها وأخيها الإمام الحسين (ع) الراحل العظيم الذي قدم رسالة الدم بكل أمانة وبكل شجاعة . نعم هذه المرأة التي منها تتعلم نساء البشرية الفضيلة والشجاعة والشموخ . لقد ظن جيش حزب الشيطان أن ثقل رسول الله (ص) قد أذلّتهم فاجعة كربلاء وسيحنون رؤوسهم لبني أمية وجيش الضلال . ولكنهم فوجئوا بعكس ذلك .

فها هي زينب عقيلة الطالبين تنفذ وصايا أخيها بدقة وأمانة تخرج إلى جسده الشريف ، مقطوع الرأس مضرجاً بدمائه وتجلس عنده بوقار صابرة محتسبة كالجبل الأشم وتمد يديها الناعمتين بهدوء ووقار تحت ظهر جسد شقيقها الحسين ، ورفعت جسده عن الأرض وأسندته إلى صدرها ، ورفعت طرفها إلى السماء وقالت وهي خاشعة خاضعة بين يدي الله تعالى وهي ترى أجساد الأحبة بدون رؤوس ملقاة في أرض المعركة : «اللهم تقبل منا هذا القربان ، اللهم تقبل منا هذا الفداء» (٢٤٥) . وعادت إلى النساء الثواكل والأطفال اليتامى وابن أخيها العليل زين العابدين الذي أنهكته علتان : علة المرض وعلة الفاجعة بفقد الأحبة ها هم يقعون أسرى في يد أعداء لم يحدث التاريخ الإنساني بمثلهم . عادت تجر أذيال ملابسها المعطرة بدماء الشهادة إلى الحرم والأطفال والعليل . وكانت السيدة زينب قد تمكنت من تخليص زين العابدين من القتل حينما قاد شمر بن ذي الجوشن الضبابي هجوماً للجيش الأموي على مخيم الإمام الحسين بعد مصرعه مساء العاشر من محرم سنة ٦١ من الهجرة وتسابق أفراد الجيش للنهب والسلب وفرّ آل رسول الله (ص) بالبيداء بعد حرق المخيم وبقي زين العابدين مسجى فدخل عليه شمر فجذب النطع من تحته وقلبه على وجهه ثم جرّد السيف ليقّتلته فأنكبت عمته السيدة زينب عليه واعتنقته وصاحت : «إن أردتم قتله فأقتلوني قبله» وبينما كانت العقيلة زينب معانقة لزين العابدين إذ دخل عمر بن سعد قائد الجيش فلما نظر ذلك المشهد قال لشمر : «دعه لها فإنه لما به» فتركه (٢٤٦) . نعم لولا وجود زينب لما بقي ذكر لذرية رسول الله (ص) فزين العابدين هو الإمام الرابع بعد الإمام الحسين وأول الأئمة التسعة من صلب الإمام الحسين . هكذا كان تعامل الجيش الأموي مع من بقي من آل رسول الله (ص)

من نساء وأطفال . نعم هذه هي الدنيا التي ترعرع في أحضانها حزب الشيطان . إن قادته سُبّه في جبين العروبة والإسلام ، وما قاموا به في كربلاء سريل العروبة بعار سرمدي لا تمحوه الأيام .

إن رسالة زينب هي أكثر صعوبة وأثقل من رسالة أخيها أولئك الذين يملكون الشجاعة لأن يختاروا استشهادهم قد صنعوا ببساطة إختياراً عظيماً ، تلك رسالة الدم التي أنجزها الإمام وصحبه الغر الميامين . ولكن مسؤولية الذين بقوا أحياء ثقيلة وصعبة . وها هي زينب بقيت حية لتكون لسان حال الدم الذي رقد نهر الرسالة النبوية وأعاد له التدفق والحياة مرة أخرى . ها هي رسالة زينب تبدأ بعد أخيها سيد الشهداء . إنها تبليغ رسالة الاستشهاد لأجيال الأمة المتعاقبة .

٩- زينب ورحلة السبي :

في مساء اليوم العاشر قبيل الغروب ، وبعد أن أنهى جيش الفئة الباغية مهمته القذرة بعث عمر بن سعد مع خولى بن يزيد الأصبحي وحيد بن مسلم الأزدي رأس الإمام الحسين هدية إلى عبيد الله بن زياد بالكوفة . وفي اليوم نفسه أمر ابن سعد برؤوس الباقيين من أهل بيته وأصحابه فنظفت وشرّح بها مع شمر بن ذي الجوشن وقيس بن الأشعث وعمر بن الحجاج وذهبوا بها إلى عبيد الله بن زياد أيضاً هدية له (٢٤٧) . ورؤي أن عدد رؤوس أصحاب الإمام الحسين ثمانية وسبعين رأساً ، اقتسمتها قبائل كندة ، تميم ، بنو أسد ، مذحج وسائر أفراد الجيش لتتقرب بها إلى ابن زياد ويزيد لنيل عطاياهما (٢٤٨) .

وبعد زوال شمس يوم الحادي عشر من محرم نادى منادي عمر بن سعد على ثقل رسول الله (ص) نساء وأطفالاً بالرحيل ، وقدمت لهم النياق المهزل للركوب بغير وطاء هذا هو مصير مخدرات رسول الله (ص) وأطفاله وصفوة الخلق في عباده يسامون كما تسام العبيد ، فجاء أفراد الجيش ليركبوهم على تلك النياق ، فقالت عقيلة الطالبين بشمم وإباء وكبرياء البيت النبوي : «ويلك يا ابن سعد ، سوّد الله وجهك ، أأمر الأجانب أن يركبونا ، ونحن بنات رسول الله (ص) ، قل لهم فليتباعدوا عنا حتى يركب بعضنا بعضاً» (٢٤٩) .

وتحرك عمر بن سعد ورجاله بقافلة السبايا والمأسورين من آل رسول الله يحيط بهم

الأعداء من كل جانب ونساء رسول الله (ص) مكشفات الوجوه وساقوهن للنسي
كما يساق سبي الترك والروم وفي ذلك يقول الشاعر: (٢٥٠).

يصلّى على المبعوث من آل هاشم وتُفري بنوه أن ذا لعجيب

ولما مروا بقافلة الأسرى والسبايا على مصرع الإمام الحسين (ع) ومصارع القتلى
الكرام ونظرت النسوة إلى القتلى صحنَ وضربن وجوههن، أما السيدة زينب فكانت
تندب الإمام الحسين (ع) وتنادي بصوت حزين وقلب ثاكل كئيب وجسم قد
أنحلته وهدّته الرزايا العظيمة وتقول: «يا محمداه صلى عليك مليك السماء هذا
الحسين مرّمل بالدماء مقطّع الأعضاء وبناتك سبايا إلى الله المشتكى، وإلى محمد
المصطفى، وإلى علي المرتضى، وإلى حمزة سيد الشهداء، يا محمداه هذا حسين
بالعراء، تسفي عليه الصّبا، قتيل أولاد البغايا يا حزنه يا كرباه، اليوم مات جدي
رسول الله يا أصحاب محمداه، هؤلاء ذرية المصطفى يساقون سوق السبايا» (٢٥١).

ومشى الركب إلى الكوفة التي كانت عاصمة دولة النبوّة في عهد الإمام علي (ع).
وها هي اليوم تستقبل بناته وأطفاله سبايا. ها هي ابنته زينب التي كان يضرب المثل
بخدرها تساق مع باقي النساء والأطفال مسية إلى عبيد الله بن زياد ها هي ترى
قافلة المأسورين والمسبيات خلفها، وصفوف الأعداء على امتداد الصبر، تاركة
خلفها حديقة حمراء للشهادة التي يفوح عبقها من أذيال ملابسها الملطخة بدماء
أولادها وإخوتها وبني عمومته.

ولنعم ما قال في وصف دورها أحد الأدباء: (٢٥٢)

وتشاطرت هي والحسين بنهضة حتم القضاء عليهما أن يندبا

هذا بمعترك الرماح وهذه في حيث معترك المكاره في السبا

وبلغ من كراهية وحقد الجيش الأموي على آل رسول الله (ص) أن تركوا أجساد
الإمام الحسين (ع) وجميع قتلاه بدون دفن على بوغاء كربلاء تصهرهم الشمس،
ولكن شاءت إرادة الله أن يحفظ لتلك الأجساد الطاهرة حرمتها، ففي اليوم الثالث
عشر من محرم خرج قوم من بني أسد الذين كانوا نزلوا بالغازية فصلّوا على تلك

الأجساد الطواهر المرملة بالدماء ودفنوها على ما هي عليه ، وقد حضر زين العابدين الدفن حيث تم تحديد أصحاب القبور بواسطته لأنها كانت أجساداً بلا رؤوس (٢٥٣).

كان عزيزاً على رسول الله وآله والمؤمنين وكل الغيارى من أبناء الإنسانية مع إختلاف ألوانهم وأعراقهم وأديانهم أن يروا قافلة الأسر والسبي من آل رسول الله حين دخولها الكوفة وقد ملأ الناس الطرقات وسطوح المنازل للتفرج على نساء وأطفال رسول الله (ص). وتعود أم كلثوم وزينب وبقية النسوة وكذلك زين العابدين بذاكرتهم قبل ربع قرن حينما كانت دولة النبوة تحت حكم الإمام علي ، حيث عاش في وسطهم كأفقر إنسان ولم يبلغ في عدله فيهم أحد من حكام دولة النبوة سوى رسول الله (ص) وها هي ذريته تدخل إلى نفس المكان ، إلى نفس المدينة أسيرة مسببة في منظر يفطر القلب الجلمود ، وتأباه الإنسانية . ومن بين المتفرجات الكوفيات أشرفت عليهن إحداهن وسألت من أي الأسارى أنتن؟ فقلن : «نحن أسارى آل محمد (ص) ، فنزلت عن سطح دارها ، وجمعت ملاءً وأزراً ومقانع فاعطتهن فتغطين» (٢٥٤) وقد رثى الكوفيون والكوفيات لحال آل رسول الله (ص) المأساوي فجعلوا ينوحون ، فقال زين العابدين (علي بن الحسين) : «تنوحون وتبكون من أجلنا فمن الذي قتلنا؟» (٢٥٥).

وقال شاهد عيان - بشير بن جذلم الأسدي ونظرت إلى زينب بنت علي يومئذ ولم أر خفرة قط أنطق منها كأنها تفرغ من لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) ، وقد أومأت إلى الناس أن اسكتوا ثم قالت : «الحمد لله والصلاة على أبي محمد وآله الطيبين الأخيار ، أما بعد يا أهل الكوفة ، يا أهل الختل والغدر ، أتبكون فلا رقات الدمة ولا هدأت الرثة ، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أبنائكم دخلاً بينكم ، ألا وهل فيكم إلا الصلف والنطف ، والصدر الشنف وملق الإمام ، وغمر الأعداء أو كمدعى على دمنه أو كقصّة على ملحودة ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون أتبكون وتنتحبون ، أي والله فأبكوا كثيراً وضحكوا قليلاً ، فقد ذهبتم بعارها وشنارها ، ولن ترخصوها بغسل أبداً وأنى ترخصون قتل سليل خاتم النبوة وسيد شباب أهل الجنة ، وملاذ حيرتكم ومفزع نازلتكم ، ومنار حجتكم ، ومدرّة سنتكم ، ألا ساء ما

تزررون، وبُعداً لكم وسحقاً، فلقد خاب السعي، وتبت الأيدي وخسرت الصفقة، وبوأتم بغضب من الله. أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم، وأي كريمة له أبرزتم، وأي دم له سفكتكم، وأي حرمة له انتهكتكم، لقد جئتم بها صلعاء، عنقاء، سوداء، فقهاء، بلاء، حرقاء، شوهاء، كطلاع الأرض، أو مل السماء. أفعجبتكم أن مطرت السماء دماً، ولعذاب الآخرة أخرى، وأنتم لا تبصرون ولا يستخفونكم المهمل، فإنه لا تحضره البدارة، ولا يخاف فوت الثأر، وأن ربك لبالمرصاد» (٢٥٦). قال شاهد العيان: وكان شيخاً بجانبني قد شارك الحاضرين حيرتهم وبكاءهم حتى اخضلت لحيته وهو يقول: «بأي أنتم وأمي كهولكم خير الكهول وشبابكم خير الشباب ونساؤكم خير النساء، ونسلكم خير النسل لا يجارى، ولا يبارى» (٢٥٧) كانت تلك الكلمات موجهة إلى آل رسول الله من الأسرى والسبايا. هكذا كانت خطبة العقيلة زينب المعبرة والمؤثرة، والتي أوضحت فيها أن استشهاد الإمام الحسين خلد، في الدارين وأن الذين قتلوه خسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين. تلك رسالة العقيلة الإعلامية عن ثورة الإستشهاد توجهها إلى الأجيال المتعاقبة عبر جماهير الكوفة المحتشدة في شوارعها. إنها تكشف أسرار ثورة الشهادة، ثورة الحرية وتبرز حقائقها للأمة. إنها تكشف للأمة بشاعة الجريمة التي ارتكبتها الأمويون بمساندة ومؤازرة الكوفيين.

وبعدها ألقت فاطمة الصغرى بنت الإمام الحسين خطبة بليغة في جموع الكوفيين المحتشدة بالشوارع أثبتت فيها براعة آل رسول الله وفصاحتهم وغزارة علمهم رجالاً ونساء وأشادت فيها بدور العترة الإلهي الذي تجاهلته الأمة واستهانت بجريمتهم المتمثلة في إبادة عترة رسول الله وأنصارهم في كربلاء حتى طلب الحاضرون من فاطمة أن تكف من خطابها لأنها أحرقت أكبادهم بكلماتها (٢٥٨).

كذلك ألقت أم كلثوم بنت الإمام علي (ع) خطبة مماثلة بعد فراغ فاطمة من خطبتها سخرت فيها من جريمتهم البشعة بخيانتهم لآل رسول الله (ص) وأوضحت المصير السيئ الذي سيلاقونه جزاء ما عملوا (٢٥٩). وقد أجهش الحاضرون بالبكاء رجالاً ونساء لمعرفة حقيقة ما حدث بأرض الشهادة ونتيجة خذلانهم للإمام الحسين (ع) وآل رسول الله (ص) ولعلمهم بالذل الذي سيلحقهم على إثر ذلك (٣٦٠).

كما أن زين العابدين ألقى خطبة فيهم كانت الأخيرة عرفهم فيها بتفصيل ما

حدث منذ كتابة الكوفيين إلى الإمام الحسين (ع) إلى مقتله الشريف مع أهل بيته وأنصاره، وما تحمله ثقل رسول الله (ص) من ويلات بعد إبادة الشهداء على أيدي جنود الفئة الباغية متباهياً باستشهاد والده (٢٦١). لقد تمكن آل رسول الله (ص) وهم تحت وطأة الأسر وذله، أن يتمردوا ويتعملقوا كما هو دأبهم في الإيذاء والشموخ وأن يفضحوا جريمة حزب الشيطان وتحاذل الأمة عن نصره العترة. هكذا كانت كلماتهم لسان حال الدماء الزكية والأجساد الطاهرة لتعريف الأمة بانتصار الشهادة وهزيمة الطغاة، أمام دم الشهداء الهادر في بيداء كربلاء.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نَورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ أَن يُتَمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٢٦٢).

وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (٢٦٣).

اعتقد قادة حزب الشيطان أنهم بأسر وسبي آل رسول الله إنما يشفون بذلك غليلهم ويذلونهم بالتطواف بهم في شوارع الكوفة وإدخالهم قصر الإمارة ليتفرج عليهم القاصي والداني والشريف والوضيع، وما دروا أنهم بذلك خدموا ثورة الإمام الحسين (ع) إذ أن آل رسول الله وهم في الأسر، لم يحنوا رؤوسهم لأنهم يعلنون بخطبهم العصماء للأمة وأجياها المتعاقبة جرائم حزب الشيطان وأحقاد الفئة الباغية على رسول الله (ص) وعترة الطاهرة، فكانت الشوارع ودواوين القصور التي دخلوها منابر لهم لإعلان إنتصار الدم على السيف وعلى وحشية وكلاء العبودية والقتلة. كما أن أمراء وجنود الفئة الباغية بعملهم الدنيء بسلب وسبي العترة قد عجلوا بيسومهم وحفروا قبورهم بأيديهم لأن كلمات آل رسول الله (ص) التي مثلت الدم ومثلت الشهادة الخرساء، ومثلت تلك الأجساد الطاهرة الصامته على بوغاء كربلاء، كانت كالصواعق المحرقة تهز الحاضرين هزاً عنيفاً من أعماقهم وتشعرهم بالخيبة والذل والهوان على تحاذلهم عن نصره آل رسول الله وتواطؤهم مع حزب الشيطان.

وحينما أمر ابن زياد بإدخال قافلة المأسورين والسبايا من آل رسول الله إلى ديوانه بالقصر الأبيض، أصدر إذناً عاماً للناس بالحضور من أجل الشماتة ولكي يشفي

حقه الدفين على آل رسول الله (ص) ثم جيء برأس الإمام الحسين (ع) ووضع بين يديه ، وجميع آل رسول الله (ص) ينظرون إلى رأس الإمام وكلهم لوعة وحسرة . وقد جلست عقيلة الطالبين متنكرة ، فلما سأل عنها قيل له : هذه زينب بنت علي (ع) فأقبل عليها شامتاً ومتشفياً وقال : « الحمد لله الذي فضحككم وأكذب ألدوثكم » نعم يشتم آل رسول الله (ص) في قصر الإمارة الذي بني للإمام علي (ع) ليسكنه فرفض ، لأنه لا يرغب في التعالي على أفقر ساكن بالكوفة . وها هم آله أسرى وبناته مسبيات في نفس القصر وتحت رحمة رجل يعتبر عاراً على الإنسانية . صراع بين الحق والباطل ، بين الخير والشر ، إن هذا الصراع أذلي ، وتردُّ عليه فخر المخدرات بإباء النبوة وشموخ شهداء كربلاء إنها مندوبة الثورة الإستشهادية ، إنها لسان حال الدماء الزكية لا بد وأن تفضح المؤامرة في عقر دارها ، وها هي الآن في وكر المؤامرات التي حيكت لإستئصال العترة النبوية ، ردت عليه بثبات وإيمان لا ترعزعه الرياح العاتية ، قالت : « إنما يفضح الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا » فردَّ عليها قائلاً : « كيف رأيت ما صنع الله بأخيك وأهل بيتك ؟ » فردت عليه بكلمات كالصواعق تفرعه تقريباً وتفضحه وهو بين حاشيته وجلالوته دون أن تكثر بسطوته وجبروته لأنها رسالية لأنها ابنة فاطمة التي هزت المسلمين من أعماقهم حينما خطبتهم بمسجد الرسول فاضحة المؤامرة على آل رسول الله (ص) ، وها هي ابنتها زينب تتأسى بها وتواصل دورها المقدس لفضح المؤامرات وتنوير الأمة لإحقاق الحق ، وإزهاق الباطل . قالت : « ما رأيت إلا جحلاً ، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم ، فتحاج وتحاصم ، فأنظر لمن الفلج يومئذ ، ثكلتك أمك يا ابن مرجانة » . لقد أفحمته بالحجة والمنطق ، لم لا وهي خريجة حجر النبي وعلي وفاطمة ، إنها ثمرة النبوة إنها خريجة بيت الطهارة والعصمة والمباهلة ، لم لا تكون كذلك وأبوها أول من علّم الناس الفصاحة والبلاغة بعد رسول الله (ص) فحار ابن زياد جواباً ، فلم تكن له وسيلة للرد على هذه المرأة الجليلة المسبية الأسيرة الماثلة في مجلسه مع بقية النساء وزين العابدين (ع) والأطفال من آل رسول الله ، إلا الغضب وعزمه على إيذاها فهدأ عمرو بن حريث غضبه وقال إنها امرأة ، والمرأة لا تؤاخذ بشيء من منطقتها . فعاودها ابن زياد ليخفف من خجله

قائلاً: «هذه سَجّاعة ، ولعمري لقد كان أبوك شاعراً سجاعاً» فردت العقيلة عليه بدون تردد قائلة: «يا ابن زياد ما للمرأة والسَّجّاعة»^(٢٦٤) فترك السيدة زينب ، ولكنه قد أحسّ بالهزيمة في أعماقه أمام حاشيته وجلال وزته وكبار قادة الجيش ، فأراد أن يخفف من ذلك بتطاوله على زين العابدين وهو مقيد ، فقال ابن زياد : «من هذا؟» فقيل علي بن الحسين (ع) . فقال : «أليس قد قتل الله علي بن الحسين؟ فقال علي (ع) : «قد كان لي أخ يقال له علي بن الحسين قتله الناس» . فقال ابن زياد : «بل الله قتله» فقال علي (ع) «الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها . . .»^(٢٦٥) فقال ابن زياد بعد أن أفحمه زين العابدين : «ولك جرأة على جوابي؟ إذهبوا به فأضربوا عنقه» فسمعت حاملة مسؤولية رسالة الشهادة زينب فقالت : «يا ابن زياد إنك لم تبق منا أحداً ، فإن كنت عزمت على قتله فأقتلني معه» . نعم لم تستعطفه وتطلب العفو عنه ، إنما طلبت أن تقتل معه أنه بيت النبوة ، بيت العطاء المتدفق من أجل حماية الدين والدفاع عنه ومن أجله ترخص النفوس والدماء فهي سليلة الشهداء ، فلم تبخل بنفسها؟ هكذا تعلموا مواجهة أحلك اللحظات من بيت الرزايا ، من بيت الأحزان ، من بيت فاطمة المتواضع الذي نهلوا منه تعاليم النبوة وتعاليم الإمامة وتعاليم إزدراء الحياة الذليلة والإقدام على الموت بشجاعة لأنه جسر الحياة الأبدية للشهداء ، عشاق الحق والحرية . عندها قال علي لعمته زينب : «اسكتي يا عمه حتى أكلمه» ثم أقبل على ابن زياد فقال : «أبالقتل تهددني يا ابن زياد ، أما علمت أن القتل لنا عادة وكرامتنا الشهادة»^(٢٦٦) . هكذا تم ختام الحوار بين الناطق الرسمي للقصر الأخضر والناطقين باسم رسالة الشهادة ، الذين أضرموا قصر الإمامة ناراً بكلمات الحق التي زلزلت ابن زياد وأفقدته وعيه حتى حكم على أسير مريض مقيد بالقتل ، وهنا للمرة الثانية يكون حضور العقيلة منقذاً ومانعاً من قتل الإمام زين العابدين حجة الله في أرضه بعد أبيه ، ولذلك على الرغم من مسؤولية العقيلة عن آل رسول الله بعد أخيها إلا أنها لا تستطيع مخالفة إمامها زين العابدين (ع) ثم أمر ابن زياد بوضع السبايا من آل رسول الله (ص) في دار جنب المسجد الأعظم الذي كان يخطب فيه الإمام علي خلال حكمه . فطلبت العقيلة زينب أن لا تدخل عليهن عريية ، إلا أم ولد أو مملوكة ، لأنهن سيبن كما سُبيت نساء

رسول الله (ص) (٢٦٧). ولأجل الإرهاب والشهامة أمر ابن زياد أن يطاف برأس الإمام الحسين في سكك الكوفة. وأنشأ ابن طاووس شعراً في وصف ذلك المشهد المخزي للأمة بشكل عام ولل فئة الباغية بشكل خاص (٢٦٨):

رأس ابن بنت محمد ووصيه	للساظرين على قناة يرفع
والمسلمون بمنظر وبسمع	لا منكبر منهم ولا متفجع
كحلت بمنظرك العيون عماية	وأصم رزوك كل أذن تسمع
أيقظت أجفاناً وكنت لها كرى	وأنت عيناً لم تكن بك تهجع
ما روضة إلا تمت أنها	لك حفرة ولخط قبرك مضجع

نعم شاهد المسلمون رأس الحسين (ع) يطاف به في سكك الكوفة، إنهم بسمع وبمنظر، إنهم يرون رأس سبط رسول الله الذي طالما قبل شفثيه وضمه وأغدق عليه من حبه وعطفه وقال فيه وفي أخيه الإمام الحسن (ع) الكثير من الأحاديث التي ما زالوا يعرفونها ولكنهم قد صرعهم مال وسيف طاغية القصر الأخضر.

كانت هزيمة ابن زياد في قصره بواسطة كلمات فخر بيت النبوة زينب التي كانت تؤدي من خلالها رسالة الثورة الإستشهادية المقدسة فأراد بعقليته العنجهية الهمجية المتخلسة أن يثار لتلك الهزيمة بعمل أساء الى سلطنة قريش دون أن يشعر لأن الحقد أعمى بصره وبصيرته. حيث أنه بذلك العمل فضح النظام الدخيل على دولة النبوة أمام حشد من الناس في مسجد الكوفة، حينما صعد المنبر وقال:

«الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين وأشياعه وقتل الكذاب بن الكذاب» (٢٦٩) كلمات قاسية تعبر عن مستوى قائلها الوضع، ولا يمكن أن يشك أحد في صحتها بعد كل الجرائم التي ارتكبوها إنه تأكيد لصحة نبوءة النبي محمد (ص) وتوقعاته بما يلحق بالأمة من فرائتها. ولقسوة تلك الكلمات على مسامع المؤمنين قام إليه عبد الله بن عفيف الأزدي أحد خيار المؤمنين من محبي أهل البيت. فقد عينه اليسري يوم الجمل واليمن في صفين. وكان يلزم المسجد الأعظم

يصلي فيه طوال اليوم فقاطع ابن زياد بعد تفوهه بتلك العبارة قائلاً: «يا ابن زياد الكذاب بن الكذاب أنت وأبوك ومن استعملك وأبوه يا عدو الله، أتقتلون أبناء النبيين وتكلمون بهذا الكلام على منابر المؤمنين؟» (٢٧٠) كانت كلمات الأزدي كالصواعق المحرقة على مسامع ابن زياد فهو يعتقد أنه لم يعد هناك رمق في الأمة للمقاومة بعد اجتثاثه آل رسول الله بيضاء كربلاء. ولكنه أصيب بالذهول لتلك الكلمات الثائرة فسأل غاضباً قال: «من هذا المتكلم؟» فقال الأزدي: «أنا المتكلم يا عدو الله أتقتل الذرية الطاهرة التي قد أذهب الله عنها الرجس وتزعم أنك على دين الإسلام؟ واغوثاه أين أولاد المهاجرين والأنصار لا يتقمون من طاعتك اللعين ابن اللعين على لسان محمد رسول رب العالمين» (٢٧١). أعتقد ابن زياد أن الأزدي سيتململ خوفاً منه، ولكنه أردف بكلمات تنبعث من قلب محترق لما آل إليه أمر دولة النبوة لوقوعها تحت أسر طاغية سلطنة قريش بعد التضحيات العظيمة للنبي (ص) ورجاله في تأسيسها. ومع أن ابن زياد أراد قتله إلا أن أبناء عشيرته خلصوه وحملوه إلى منزله. إن كلمات الأزدي فتحت جرحاً عميقاً في قلبه لتعريته والنظام الذي يمثله أمام جموع الحاضرين بالمسجد. وبعد عودته إلى منزله تمكن جلاوزة ابن زياد من أسر الأزدي بعد أن دافع عن نفسه دفاع الأبطال مع ذهاب بصره. فأقتادوه إلى ابن زياد فلما رآه قال: «الحمد لله الذي أخزأك» فرد عليه الأزدي الوقور الذي أمضى حياته في ساحات الحروب من أجل الدفاع عن كلمة الحق وفي عبادة الله بقوله: «يا عدو الله وبإذا أخزاني الله؟ والله لو فرج لي عن بصري ضاق عليكم موردي ومصدري». فقال ابن زياد يا عدو الله ما تقول في عثمان بن عفان؟ فقال: «يا عبد بني علاج يا ابن مرجانة» وشتمه قائلاً: ما أنت وعثمان بن عفان أساء أو أحسن، أصلح أم أفسد، والله تبارك وتعالى ولي خلقه يقضي بينهم وبين عثمان بالعدل والحق، ولكن سلني عن أبيك وعنك وعن يزيد وأبيه؟ فقال ابن زياد: والله لا سألتك عن شيء أو تذوق الموت فقال الأزدي: «الحمد لله رب العالمين أما أنا فقد كنت أسأل الله ربي أن يرزقني الشهادة من قبل أن تلدك أمك، وسألت الله أن يجعل ذلك على يد ألحق خلقه وأبغضهم إليه، فلما كف بصري يكسب من الشهادة، والآن فالحمد لله الذي رزقنيها بعد اليأس منها، وعرفني الإجابة منه في قديم دعائي» فكان

رد ابن زياد الوحيد على هذا الرجل المؤمن أن أمر بضرب عنقه فضربت عنقه
وُصِّلَتْ في السَّبْخَةِ لإرهاب الناس^(٢٧٢). هذا هو سلاح الأنظمة الضعيفة التي
تفتقد إلى الشرعية . القتل لكل أنصار الحق مع النبي وآله . كلهم يجب أن يُبادوا
لينعم ابن زياد وطاغية القصر الأخضر وحاشيتهم .

وروى ابن حجر أنه لما حمل رأس الإمام الحسين لابن زياد في مجلسه جعله في
طشت وجعل يضربُ ثنياه بقضيب ويقول به (كذا) في أنفه ، ويقول : « ما رأيت
مثل هذا حسناً إن كان لحسن الثغر » ، وكان عنده أنس بن مالك فبكى ، وقال : إنه
كان أشبههم برسول الله (ص) »^(٢٧٣) .

كما روى ابن حجر عن ابن أبي الدنيا أنه كان بين الحاضرين أيضاً زيد بن أرقم
فقال لابن زياد : « إرفع قضيبك فوالله لظالما رأيتُ رسول الله (ص) يقبل ما بين
هاتين الشفتين » ثم جعل زيد يبكي ، فقال ابن زياد : « أبكى الله عينيك ، لولا أنك
شيخ قد خرفت لضربتُ عُنُقَكَ » . فنهض زيد وهو يقول : « أيها الناس أنتم العبيد
بعد اليوم ، قتلتم ابن فاطمة وأمرتم ابن مرجانة ، والله ليقتلنَّ خياركم ويستعبدنَّ
شراركم ، فبعداً لمن رضي بالذلة والعار » . ثم قال : « يا ابن زياد لأحدثنك بها هو
أغيظُ عليك من هذا ، رأيتُ رسول الله (ص) أقعدَ حسناً على فخذه اليمنى وحسبنا
على اليسرى ثم وضع يده على يافوخيهما ثم قال : « اللهم إني استودعك إياهما
وصالح المؤمنين ، فكيف كانت وديعة النبي (ص) عندك يا ابن زياد »^(٢٧٤) . ابن
زياد وجيش سلطنة قريش أداتهم الباطشة قهرت أجساد معركة الشهادة ، وها هي
مجالس قصورهم والمساجد ترتفع فيها كلمات الحق والأحاديث النبوية في فضل أهل
البيت ، فكانت كل جهود الأمويين وأشياعهم قد ذهبت سدى . إنها هزيمة حقيقية
لهم ونصر مؤزر لقرايين الشهادة قرايين فيلسوف الحرية وسيد الشهداء . لقد
أصبحت قصور الفئة الباغية منابر لفضح جرائمهم ، ومكاناً لإعلان رسالة الدم
والشهادة . إلى أجيال الأمة المتعاقبة بشكل خاص والبشرية بشكل عام . أراد فلول
حزب الشيطان أن يمحوا ذكر آل محمد (ص) بجريمتهم البشعة في كربلاء ، وما
علموا أنهم قد حفروا اسم الحسين في قلوب كل من يعيش الحرية عبر امتداد الزمان
والمكان . لقد أصبح اسم الإمام الحسين (ع) رمزاً للإباء والحرية عند جميع الأمم .

بعد أن شفى ابن زياد غليله من إبادة آل رسول الله (ص) في كربلاء وتركهم أجساداً بلا رؤوس ، دون دفن وبعد أن سبى ونهب وسلب ثقل رسول الله وجعلهم فرجة للناس وتشمتهم بمجلسه بقصر الإمارة وبالمسجد الأعظم وطيف برأس الإمام الحسين (ع) ورؤوس أهل بيته وأنصاره سكك الكوفة جهز ثقل الإمام الحسين (ع) من الأطفال والنساء ومعهم العليل زين العابدين لإرسالهم هدية إلى طاغية القصر الأخضر يزيد . وكان ابن زياد قد كتب رسالتين الأولى إلى يزيد بن معاوية يخبره فيها بقتل الإمام الحسين (ع) وانتصاره على آل رسول الله (ص) وإبادتهم في كربلاء وسبي النساء والأطفال^(٢٧٥) . والثانية إلى عمرو بن سعيد بن العاص وإلى الحرمين بنفس المضمون ، فصعد عمرو المنبر وأخبر الناس بانتصار جيش سلطنة قريش ومقتل الإمام الحسين (ع) وجميع من معه^(٢٧٦) . فعظمت المصيبة على بني هاشم بشكل خاص وعلى مجتمع المدينة بشكل عام . فأقاموا المآتم لإستشهاد الإمام الحسين (ع) وأهل بيته وأنصاره . وكانت زينب بنت عقيل بن أبي طالب بين الهاشميات اللاتي ندبن الإمام الحسين (ع) فأنشأت تقول^(٢٧٧) .

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي منهم أسارى ومنهم ضُرِّجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم أن تخلفوني بسوء في ذوي رحم

وما إن تسلم يزيد بن معاوية كتاب ابن زياد بشأن مقتل الإمام الحسين ، حتى أعاد الجواب إليه يأمره بحمل رأس الإمام الحسين (ع) وجميع الرؤوس وآل رسول الله من نساء وأطفال^(٢٧٨) . فاستدعى ابن زياد خمسين رجلاً وإختار بينهم مخفر بن ثعلبة العائذي ليتسلم مسؤولية القافلة وسلمه رأس الإمام الحسين وجميع الرؤوس وآل رسول الله (ص) من نساء وأطفال ، كما أمر بأن تغل أرجل أيدي الإمام السجاد بأغلال من حديد إلى عنقه فساروا بهم هدية إلى يزيد كما يسار بسبايا الكفار^(٢٧٩) .

نعم بنات رسول الله (ص) وأطفاله يساقون مع رؤوس القتلى من أهلهم وأنصارهم يتقدمهم رأس الإمام الحسين (ع) من الكوفة إلى الشام على محامل بغير

وطاء يساقون كما تساق أسارى الروم والديلم . نعم هذا هو جزاء رسول الله (ص) ووصيته الأمة في ذريته لقوله تعالى : « . . قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى . . . » (٢٨٠) لقد حفظت الأمة عهدها لرسول الله (ص) في ذريته حفظاً لم يشهد التاريخ البشري له مثيلاً، فهذا هي أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، وقد إقترى ركب السبي إلى دمشق عاصمة سلطنة قریش تطلب من شمر بن ذي الجوشن قضاء حاجة لها قالت : «إذا دخلت بنا البلد فأحملنا على درب قليل النظارة وتقدم إليهم أن يخرجوا هذه الرؤوس من بين المحامل وينحونا عنها، فقد خزينا من كثرة النظر إلينا، ونحن في مثل هذه الحال» (٢٨١). لأن السيدة أم كلثوم سألت لثيماً، فما كان رده على سؤالها إلا أن جعل الرؤوس على الرماح في أوساط المحامل وسلك بهم بين المتفرجين حتى أتى بهم وهم على تلك الصفة بوابة دمشق التي تسمى باب الساعات، فوقفوا بالسبايا والرؤوس عند درج باب المسجد الجامع، حيث يقام السبي عادة (٢٨٢). ويوم دخول ثقل رسول الله عاصمة الحكم الأموي عطلت الأعمال ونشرت الزينات وأعلن أن ذلك اليوم عيد للنصر، وضربت الدفوف والطبول من قبل النساء والفتيات الشاميات والناس كانوا فرحين مستبشرين بانتصارهم على الخوارج (٢٨٣).

وكان يزيد خلال دخول ركب السبايا والرؤوس في منظره على رباجيرون فأشدد فرحاً مستبشراً بذلك المشهد (٢٨٤):

لما بدت تلك الخمول وأشرفت تلك الشموس على ربا جيرون
نعب الغراب فقلْتُ صبح أولاً تصح فلقد قضيت من الغريم ديوني

نعم، ليس غريباً على يزيد بن معاوية أن يتفوّه بمثل هذه الأبيات جذلاً، وليس غريباً عليه أن يستقبل رؤوس آل رسول الله (ص) وصحبهم من المؤمنين، فهذا الغصن من تلك الشجرة الملعونة في القرآن، وله في والده أسوة. ففي عهد الإمام علي أهدي لمعاوية رأساً مؤمنين: الأول رأس عمار بن ياسر في صفين، وعمار هو الذي قال فيه الرسول أحاديث عديدة لإيثاره وتفانيه في سبيل الله منها «عمار تقتله الفئة الباغية» باتفاق المسلمين (٢٨٥). والثاني رأس محمد بن أبي بكر والي الإمام علي (ع)

على مصر، الذي وضعت جثته في جوف حمار وأُحرقت (٢٨٦). وبعد استشهاد الإمام علي (ع) عمد معاوية إلى تصفية جميع من طالته يده من رجالات الإمام علي (ع) فكان عمرو بن الحمق الخزاعي أحد الضحايا، حيث فرّ هائماً على وجهه، فكان جزاؤه، إلقاء القبض على زوجته آمنة بنت الشدييد واقتيادها إلى دمشق حيث سجنّت لمدة عامين. وحينما تمكن عبد الرحمن بن الحكم والي معاوية على الموصل من الظفر بعمر، قطع رأسه وأهداه إلى مؤسس سلطنة قريش معاوية بدمشق فكان ثاني رأس يطاف به من بلد إلى بلد بعد رأس محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر. ولقسوة معاوية بعث رأس عمرو إلى زوجته بالسجن، وطلب من الحارس أن يحفظ كلماتها. وفوجئت آمنة برأس زوجها يطرح في حجرها فارتفعت من هول المشهد، ثم وضعت يديها على رأسها وقالت: نفيتموه عني طويلاً وأهديتموه إليّ قتيلاً، فأهلاً وسهلاً بمن كنتُ له غير قالية، وأنا له اليوم غير ناسية» (٢٨٧).

وكان الإمام الحسين (ع) قد كتب إلى معاوية بمناسبة مقتل عمرو وإستشهاده: «أولست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله (ص) العبد الصالح بعدما أمنتته وأعطيته من عهد الله ومواثيقه ما لو أعطيته طائراً نزل إليك من رأس جبل ثم قتلته جرأة على ربك وإستخفافاً بذلك العهد» (٢٨٨). إن الإمام الحسين (ع) يشير على أن الأمويين ليس لهم عهد ولا ذمة، لأنهم لم يؤمنوا بالله طرفة عين، لأن إسلامهم يوم الفتح كان إستسلاماً، كما وردت مناقشة ذلك.

أما إذا أقدم يزيد على سبى نساء رسول الله (ص) وبناته وأسرهن والتطواف بهن في البلدان، فإنه أيضاً يتبع خطى والده. فبالأمس القريب وخلال عهد الإمام علي (ع) حينما هاجم جيش معاوية الحجاز واليمن بقيادة بسر بن أرطاة إرتكب أعمالاً لا تقل بشاعة عن الأعمال التي إرتكبها جنود يزيد مع آل رسول الله (ص). فقد قتل بسر قائد الجيش شخصيات يمنية مثل عبد الله بن عبد مدان الحارثي وأخيه مالك، وأحرق منزل والي اليمن من قبل علي - عبيد الله بن عباس - ولما علم بأن زوجته في بادية كنانة قصدها بجيشه وقتل طفلي عبيد الله بن عباس في حجر أمهما أمام نسوة بني كنانة، وأباد الرجال والنساء الذين استنكروا عمله لأنهم رفضوا أن يخلعوا بيعة الإمام علي (ع) ويباعوا معاوية كما سبى بسر النساء وباعهن في

الأسواق، فكان أول مسلمات سبين في الإسلام (٢٨٩).

وقال رجلان من الذين شهدوا المأساة أنها سمعا أبا ذر يدعو ويتعوذ في صلاة صلاتها، طال قيامها وقعودها وركوعها، فسألناه: «مم تعوذت؟ وفيم دعوت؟» فقال: «تعوذت من يوم البلاء أن يدركني، ويوم العورة أن أدركه» فقلنا: «وما ذاك؟» قال: «أما يوم البلاء فتلتقي فئتان من المسلمين فيقتل بعضهم بعضاً، وأما يوم العورة فإن نساء من المسلمات يسيين فيكشف عن سوقهن فأيتهن كانت أعظم ساقاً إشتريت على عظم ساقها! فدعوت الله ألا يدركني هذا الزمان» وبكى الناس!! (٢٩٠) نعم هذا هو المنهاج الذي رسمه واختطه معاوية لنجله يزيد ليقود أمة محمد (ص) «إلى طموحاتها وتطلعاتها بين الأمم» بقتل الأطفال، بسبي النساء، بتقطيع رؤوس المؤمنين وإهدائها لطاغية القصر الأخضر ليعم الصمت مقبرة الأحياء، ولتفترغ حفيد هند وأبي سفيان للعب بالقردة والكلاب وليالي الأنس مع القيان والغلمان (٢٩١).

نعم، هذه ذخيرة بيت النبوة التي حملها الإمام الحسين (ع) تبليغ رسالة الإستشهاد إلى الأمة تدخل مدينة الجريمة وعاصمة السلطنة القرشية التي أذاق مؤسسوها وآلهم محمداً وآله ألواناً من العذاب منذ بداية دعوته حتى استئصال ذريته في كربلاء، ها هي فخر المخدرات زينب وأخواتها وبنات أخوتها وبقية أطفال وآل رسول الله (ص) وزوجات الإمام الحسين (ع) يدخلن مركز الظلم والطغيان والجور والقتل بسلام واعتداد واعتزاز بالنفس لأنهن يحملن رسالة الإستشهاد لتبليغها إلى الأمة، إلى الأجيال المتعاقبة لفضح الجريمة، لكشف الحقيقة، ها هي زينب المسبية بعد أن تجرعت وبقية آل رسول الله (ص) غصص الأسر وفقد الأحبة، إنها تعلن الإنتصار على السلطة ووحشية وكلاء العبودية إنها تعلن لجميع الأجيال شعوباً وحكومات من بوابتي دمشق: باب الساعات، وباب توما: «الحمد لله على جميع كرمه ومجده الذي منحنا شرف النبوة وشرف الشهادة».

إنها تقدم مسؤولية إعلان رسالة الحياة الأبدية، لكن الشهادة صامته. إن زينب أبقت الشهادة حية لأنها قد هيأها الإمام الحسين (ع) لتكون اللسان المعبر لأولئك

الذين قد قطع لسانهم بواسطة سيف القتل . إذا لم يكن للدم رسالة ، فإنه يبقى صامتاً في التاريخ . إذا لم تصل رسالة الدم إلى جميع الأجيال ، فإنه يكون كما لو أن القاتل قد سجن الشهيد في قلعة عصر واحد وزمن واحد . لو أن زينب لم تنقل رسالة كربلاء إلى ضمير الأمة ، ستبقى كربلاء مجرد حادثة تاريخية ، وبالتالي الأفراد الذين يحتاجون هذه الرسالة سوف يحرمونها . وهكذا لن يقدر أحد على أن يسمع رسالة أولئك الذين تحدثوا إلى الأجيال عبر دمائهم . وقال أحد الأدباء في وصف حال السيدة زينب : (٢٩٢) .

قد ورثت زينب عن أمها كل الذي جرى عليها وصار
وزادت البنث على أمها من دارها تهدي إلى شر دار
وقال آخر في وصف تحملها رعاية الأيتام والنساء : (٢٩٣)
بأبي التي ورثت مصائب أمها فغدت تقابلها بصبر أبيها
لم تله عن جمع العيال وحفظهم بفراق إخوتها وفقد أبيها
روى ابن طاووس أن بعض فضلاء التابعين لما شاهد رأس الإمام الحسين (ع)
بالشام أخفى نفسه شهراً من جميع أصحابه فلما وجدوه بعد إذ فقد سألوه عن سبب
ذلك ، فقال :

«ألا ترون ما نزل بنا؟» فأنشأ يقول : (٢٩٤) .

جاءوا برأسك يا ابن بنت محمد مرملاً بدمائه ترملاً
فكأنها بك يا ابن بنت محمد قتلوا جهاراً عامدين رسولا
قتلوك عطشاناً ولما يرقبوا من قتلك التأويل والتنزيلا
ويكبرون بأن قتلنا وإنما قتلوا بك التكبير والتهليلا
أبيات رائعة تعبر عن فهم عميق للفاجعة التي حلت بالأمة بمجزرة كربلاء إنه
يرثي حال الأمة التي طعنت في دينها بإبادة آل رسول الله (ص) .
ومن الأخبار التي تهز كل غيور من الأعماق ما رواه سهل بن سعد أحد صحابة

رسول الله (ص)، الذي شاهد بنات الرسالة عند باب الساعات بدمشق يقول سهل: «فدنوت من إحداهن فقلت: يا جارية من أنت؟ فقالت: سكينه بنت الحسين. فقلت لها: ألك حاجة إلي؟ فأنا سهل بن سعد عن رأي جدك وسمع حديثه. قالت: يا سهل قل لصاحب الرأس: أن يتقدم بالرأس أمامنا حتى يشتغل الناس بالنظر إليه فلا ينظرون إلينا! فنحن حرم رسول الله، قال: فدنوت من صاحب الرأس وقلت له: هل لك أن تقضي حاجتي وتأخذ مني أربعمئة دينار؟! قال: وما هي؟ قلت: تقدم الرأس أمام الحرم، ففعل ذلك ودفعت له ما وعدته» (٢٩٥).

وروى ابن طاووس أيضاً أن رجلاً مسناً دنا من نساء النبوة في نفس الموضع فقال: «الحمد لله الذي قتلكم وأهلككم وأراح البلاد من رجالكم وأمكن أمير المؤمنين منكم» (٢٩٦). فجعل زين العابدين يعرف نفسه ومن معه للشيخ من خلال الآيات التي وردت في أهل البيت بالقرآن إلى أن تلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (٢٩٧) فسأله زين العابدين هل قرأت هذه الآية؟ قال الشيخ نعم قرأت ذلك فقال زين العابدين: فنحن أهل البيت الذين خصصنا الله بآية الطهارة يا شيخ. فسكت الشيخ ولم يجر جواباً، واستغفر ربه لخطئه، وطلب التوبة والمعذرة من زين العابدين فقال له نعم. إن تبت تاب الله عليك وأنت معنا، فقال: أنا تائب». وحينما علم يزيد الخبر أمر بقتله (٢٩٨)، خشية أن يكون وسيلة إعلام لآل رسول الله بدمشق فيفضح طاغية القصر الأخضر.

قريش بكل زعاماتها لم تستطع أن تقف في وجه الزخم الإيماني العقائدي لمحمد (ص) وأنصاره. لقد هزموا كل زعامات قريش حتى استسلموا في فتح مكة. ولكن بعد رحيل صاحب الرسالة ومؤسس الدولة النبوية محمد (ص) تأمرت أغلبية الأمة على الثقلين الكتاب والعترة. أما الكتاب فمزقته الرماح في صفين بحجة الإحتكام إليه، وأما العترة فأبيدت في كربلاء. وأما بنات رسول الله (ص) وأطفاله فها هم يساقون في الأسر والسبي يعبرون الصحاري بدون كفيل سوى أعداء قد إمتلأت قلوبهم بالشحناء الجاهلية البغيضة ضد محمد وآله. وها هم يدخلون ديوان يزيد بالقصر الأخضر بدمشق الذي تأسس من أجل تفويض كل المبادئ التي

تأسست عليها دولة النبوة ولإستعادة كل أحلام وتطلعات قريش في النفوذ والجاه والسلطان .

وأدخل آل رسول الله جميعاً على يزيد أطفالاً ونساء ومعهم زين العابدين وهم موثقين في الحبال . فسأل زين العابدين يزيد قائلاً : «أنشدك الله يا يزيد ما ظنك برسول الله (ص) لو رأنا على هذه الصفة؟» . فأمر يزيد بالحبال فقطعت (٢٩٩).

ثم وضعت جميع الرؤوس بين يديه . فارتفعت أصوات النساء والأطفال بالعويل عندما شاهدوا رؤوس الأحبة وقائدهم الإمام الحسين (ع) حتى رق لحالهم الحضور . ولما رأى يزيد الرؤوس بين يديه قال تشفياً (٣٠٠) .

يفلّقن هاماً من رجال أعزّة علينا وهم كانوا أعقّ وأظلماً
إن يزيد يتذكر قتلاهم الماضين خلال حرب الإسلام مع الشرك ، فهو يعتقد أنه أخذ بثأر الأمويين من محمد (ص) وآله العاقين الظالمين كما يصوّرهم .

ثم أنشد يحيى بن الحكم أخو مروان فقال : (٣٠١)

لham بجنب الطّف أدنى قرابة من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغل
سُميّة أمسى نسلها عدد الحصى وبنّت رسول الله ليس لها نسل
هكذا بلغت الوقاحة والتبجح بالأمويين والمروانيين يستهزئون ويتباهون باجتثاث نسل رسول الله (ص) هذه نبوءة الرسول (ص) تتحقق ويتسلم أمور الأمة غلمان قريش هذه نتيجة تأمر الأمة التي لحقها الذل الأبدي بعد خيانتها للرسول (ص) وعترته . إنهم هم الدين وعلى أكتافهم قامت دولة النبوة خانوهم فتراكمت عليهم كل المحن والمصائب حتى صاروا لقمة سائغة لأخط الأمم .

ومن الأعمال المشينة التي قام بها يزيد في ذلك اليوم أن رأس الحسين قد وضع بين يديه في طشت من ذهب ، فدعا بقضيب خيزران فجعل ينكت به ثنايا الحسين أمام أهل بيته ، وهو يقول : «لقد كان أبو عبد الله حسن الثغر» (٣٠٢) . وكان بين الحاضرين أبو برزة الأسلمي رجل من أصحاب رسول الله (ص) فقال ليزيد : «ويحك يا يزيد أتنتكث بقضيبك ثغر الحسين بن فاطمة (ع) أشهد لقد رأيت أن

النبي (ص) يرشِفُ ثنياه وثنيا أخيه الحسن (ع) ويقول: «أنتم سيدا شباب أهل الجنة فقتل الله قاتلكما وأعدَّ له جهنم وساءت مصيراً». فأمر يزيد بإخراجه من ديوان قصره سحياً^(٣٠٣) هذا مصير كل من ينطق بالحق في دولة النبوة لأن ذلك يخالف منهاج سلطنة قريش الذي رسمه المؤسسون لهذه السلطنة .

ثم جعل يزيد يتمثل شماتة أبيات ابن الزبيري^(٣٠٤).

ليت أشياخي ببدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلوا واستهلوا فرحاً	ثم قالوا يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القوم من ساداتهم	وعدلناه ببدر فأعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا	خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف إن لم أنتقم	من بني أحمد ما كان فعل

إنه إعلان صريح بعودة العصبية الجاهلية والأخذ بالثأر فهو يعتبر أن الأمويين أخذوا بثأر قتلهم في بدر من محمد وآله بإياد عترته في كربلاء .

وعلى أثر تغني يزيد بتلك الأبيات التهكمية ، رأت ذخيرة بيت النبوة ، وحاملة رسالة الإستشهاد أن تقول كلمتها وتلعب دورها الرسالي المطلوب لتكشف الحقيقة للتاريخ ، لفضح الجريمة ، لتعلن صرخة الشهادة ، لتبلغ الأمة ، الأجيال ، البشرية رسالة الدماء الزكية التي عطرت بيداء كربلاء وجعلتها منارة وكعبة للأحرار في كل زمان وكل مكان قالت بعد أن وقفت بشموخ النبوة وبلاغة وفصاحة وشجاعة أبيها وإباء سيد الشهداء أخيها^(٣٠٥): «الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على رسوله وآله أجمعين ، صدق الله سبحانه حيث يقول: «ثم كانت عاقبة الذين أساءوا السوء أن كذبوا بآيات الله ، وكانوا بها يستهزئون». أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض ، وآفاق السماء ، فأصبحنا نساق كما تساق الأسرى أن بنا هواناً على الله ، وبك عليه كرامة ، وأن ذلك لعظم خطرك عنده؟ فشمخت بأنفك ، ونظرت في عطفك ، جذلان مبروراً ، حيث رأيت الدنيا لك مستوسقة ، والأمور متسقة ، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا فمهلاً مهلاً ، أنسيت قول الله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين

كفروا إنما نملي لهم خيراً لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين» .

«أمن العدل يا ابن الطلقاء ، تحذيرك حرائرك وإساءك ، وسوقك بنات رسول الله (ص) سبايا ، قد هتكت ستورهن ، وأبديت وجوههن ، تحذوين الأعداء من بلد إلى بلد ، ويستشرفهن أهل المناهل والمناقل ، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد ، والدني والشريف ، ليس معهن من رجالهم ولي ولا من محاتن حمي ، وكيف يرتجى مراقبة ابن من لفظ فوه أكباد الأركياء ، ونبت لحمه من دماء الشهداء ، وكيف يستبطأ في بغضنا أهل البيت من نظر إلينا بالشنف والشنآن ، والاحن والأضغان ، ثم تقول غير متأثم ولا مستعظم :

لأهللوا واستهللوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل

«منحياً على ثنايا أبي عبد الله (ع) سيد شباب أهل الجنة تنكتهها بمخصرتك وكيف لا تقول ذلك ، وقد نكأت القرحة ، واستأصلت الشافة ، بإراقتك دماء ذرية محمد (ص) ونجوم الأرض من آل عبد المطلب وتهتف بأشياخك زعمت أنك تناديهم فلتردن وشيكاً موردهم ولتودن أنك شللت ولم تكن قلت ما قلت وفعلت ما فعلت» .

«اللهم خذ بحقنا ، وانتقم من ظالمنا ، واحلل غضبك بمن سفك دماءنا ، وقتل حماتنا ، فوالله ما فريت إلا جلدك ، ولا حزرت إلا لحمك ولتردن على رسول الله (ص) بما تحملت من سفك دماء ذريته وانتهكت من حرمة في عترته ولحمته ، حيث يجمع الله شملهم ، ويلم شعته ويأخذ بحقهم ، ولا تحسن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون» .

«وحسبك بالله حاكماً وبمحمد (ص) خصيماً ، وبجبريل ظهيراً ، وسيعلم من سؤل لك ومكنك من رقاب المسلمين بئس للظالمين بدلاً وأيكم شر مكاناً وأضعف جنداً ، ولئن جررت علي الدواهي مخاطبتك ، إني لأستصغر قدرك واستعظم تقريعك ، واستكثر توبيخك ، لكن العيون عبرى ، والصدور حرى . ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء ، بحزب الشيطان الطلقاء . فهذه الأيدي تنطف من دمائنا ، والأفواه تتصلب من لحومنا وتلك الجثث الطواهر الزواكي تتأبها

العواسل، وتعفرها أمّهات الفراعل، ولئن إتخذتنا مغنياً، لتجدنا مغرمًا وشيكاً، حين لا تجد إلّا ما قدّمت يدك وما ربك بظلام للعبيد، وإلى الله المشتكى وعليه المعوّل».

«فكد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحيننا، ولا تدرك أمدنا، ولا تدحض عنك عارها، وهل رأيك إلا فند وأيامك إلا عدد، وجمعك إلا بدد، يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين».

«والحمد لله رب العالمين، الذي ختم لإؤلئنا بالسّعادة والمغفرة ولآخرنا بالشهادة والرحمة، ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب، ويسوجب لهم المزيد ويحسن علينا الخلافة، إنه رحيم ودود حسبن الله ونعم الوكيل».

لقد أدت السيدة زينب وهي أسيرة رسالة الشهداء إلى الأمة، عبر كل العصور، فإذا كان والدها قد زلزل ميادين القتال بصولاته وجولاته الحيدرية في بدر وفي أحد وفي الأحزاب وفي خيبر وفي حنين وفي كل المشاهد مع الرسول (ص) وأيضاً في البصرة وصفين والنهروان، بسيفه ذي الفقار وإذا كان الإمام الحسين (ع) وإخوته وأنصاره قد أذهلوا الأعداء بشجاعتهم وثباتهم أمام آلاف الجنود بكامل أسلحتهم فها هي زينب تقف بنفس الروح والعزيمة والتصميم لتحكي للتاريخ قصة المؤامرة، قصة الرسالة النبوية، قصة خيانة الأمة، قصة الثورة الإستشهادية المقدسة في كربلاء، قصة الحرية والعزة والكرامة. إنها أسيرة، لكنها بنت فاطمة. إنها مسبية لكنها تربية علي بن أبي طالب.

قال يزيد (٣٠٦):

يا صبيحة تحمّد من صوائح ما أهون الموت على النوائح

وحينما استشار يزيد أهل الشام فيما يصنع بآل رسول الله (ص) قال له النعمان بن بشر ناصحاً: «أنظر ما كان الرسول يصنع بهم فاصنعه» (٣٠٧).

ومن غريب ما حدث يوم تواجد بنات الرسالة في ديوان قصر يزيد أن رجلاً شامياً طلب من يزيد أن يهبه فاطمة بنت الإمام الحسين (ع) جارية له. فكان نص

قوله كما روته بنت الحسين (ع): «يا أمير المؤمنين هب لي هذه الجارية . فلاذت بعمتها وتعلقت بثيابها ، فقالت زينب : «لا ولا كرامة لهذا الفاسق» . فقال الشامي من هذه الجارية؟ فقال يزيد : هذه فاطمة بنت الحسين (ع) وتلك زينب بنت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . فقال الشامي الحسين بن فاطمة وعلي بن أبي طالب؟ قال : نعم . فقال الشامي لعنك الله يا يزيد أتقتل عترة نبيك وتسبى ذريته؟ والله ما توهمت إلا أنهم سبى الروم» فقال يزيد : «والله لألحقنك بهم» ، ثم أمر به فضربت عنقه (٣٠٨) . لماذا؟ لأنه قال كلمة حق عند سلطان جائر .

كان يزيد قد أحرقت فؤاده كلمات بنت الرسالة زينب في خطبتها العشاء ولما وجد نفسه عاجزاً عن الرد عليها بالحجة والمنطق وقرعته تقريراً بتلك الكلمات البليغة بعد كشفها الحقيقة كاملة أمام وجهاء الشام لجأ إلى أسلوب العاجزين والمفلسين وطلب من الخطيب أن يصعد المنبر — وما أكثر أولئك الخطباء المرتزقة الذين هياتهم سلطنة قريش لإفساد الدين وتشويهه — لينال من كرامة الإمام الحسين وأبيه (ع) ففعل الخطيب ذلك وبالغ في ذمهما من أجل العطية (٣٠٩) ، وفي الوقت نفسه مدح معاوية ويزيد ، وآل رسول الله (ص) بمسمع وبمنظر لكل ما يحدث . إن يزيد ما زال قلبه ينضح حقداً تجاه منجزات النبي (ص) ووصيه الإمام علي ، لم يكتف بعد بمجزرة كربلاء وبسبي آل رسول الله (ص) واستعراضهم في مجلسه مع الرؤوس ، إنها الجاهلية بأشنع صورها .

فصاح زين العابدين : «ويل أيها الخطيب إشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق فتبوء مقعدك من النار» (٣١٠) . وقد أحسن ابن سنان الخفاجي في وصف الإمام علي (ع) وما ناله من الأمة : (٣١١) .

أعلى المناابر تعلنون بسببه وبسيفه نصبت لكم أعوادها

ثم إن زين العابدين علي بن الحسين بعد أن ردَّ على الخطيب بتلك الكلمات التي تفيض بحكمة النبوة والإمامة ، استأذن يزيد ليصعد المنبر ويتكلم بكلمات فيهن الله رضا ، وللمحاضرين أجراً وثواباً ، فأبى يزيد ذلك ، ولكنه استسلم أخيراً تحت ضغوط الحاضرين ، فأذن له ، فألقى خطبة تعبر عن بلاغة البيت النبوي وتعرف من خلالها

تاريخ هذا البيت النضالي من أجل إقامة صرح دولة النبوة، كما عرّف نفسه للناس بذكر نسبه الشريف، لكشف الغمامة عن بصيرة وأبصار الحاضرين، حيث أسر ابن النبوة قلوب الحاضرين بكلماته البليغة المؤثرة والمعبّرة فاستسلموا للبكاء فقطع يزيد خطبته بالآذان خوف الفتنة. (٣١٢). لأن زين العابدين قد أوضح للحاضرين أن يزيد قد قتل الدين بقتله شهداء كربلاء.

وقبل أن يغادر آل رسول الله (ص) ديوان القصر الأخضر وعد يزيد علي بن الحسين بقضاء ثلاث حاجات له وأسكنهم أربعة أيام في منزل لا يكنهم من حر ولا برد فأقاموا به حتى تقشرت جلودهم هذا إلى جانب متاعب السفر وفاجعة فقد الأعبة، وقد اتخذوا من هذا الدار مكاناً لإقامة العزاء والبكاء على شهداء كربلاء (٣١٣).

ويروي ابن طاووس أن زين العابدين علي بن الحسين خرج ذات يوم من أيام إقامتهم يمشي في أسواق دمشق فاستقبله المنهال بن عمرو الصحابي، فقال له: كيف أمسيت يا ابن رسول الله؟ قال: «أمسينا كمثّل بني إسرائيل في آل فرعون يذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم! يا منهال أمست العرب تفتخر على العجم بأنّ محمداً عربي، وأمست قريش تفتخر على سائر العرب بأن محمداً منها، وأمسينا معشر أهل بيته ونحن مغصوبون مقتولون، مشردون، فإنّا لله وإنا إليه راجعون مما أمسينا فيه يا منهال». فأنشد منهال شعراً: (٣١٤)

يعظمون له أعواد منبره وتحت أرجلهم أولاده وضعوا
بأيّ حكم بنوه يتبعونكم وفخركم أنكم صحب له تبع

وحينما عزم يزيد على ترحيل عائلة الإمام الحسين (ع) من دمشق استدعى زين العابدين علي بن الحسين وسأله أن يذكر له حاجاته الثلاث التي وعده بقضائهن، فقال له: «الأولى أن تريني وجه سيدي ومولاي أبي الحسين (ع) فأترؤد منه، والثانية أن تردّ علينا ما أخذ منا، والثالثة إن كنت عزمت على قتلي أن توجه مع هؤلاء النسوة من يردهنّ إلى حرم جدهن (ص) فقال يزيد: «أما وجه أبيك فلن تراه أبداً، وأما قتلك فقد عفونا عنك، وأما النساء فما يردهن غيرك إلى المدينة، وأما ما أخذ منك

فَأَعُوْضُكُمْ عَنْهُ أَضْعَافَ قِيَمَتِهِ» . فقال علي بن الحسين : «أما مالك فلا نريده وهو موثر عليك ، وإنما طلبتُ ما أُخِذَ مِنَّا لَأَنَّ فِيهِ مَغْزِلَ فَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ (ص) وَمَقْنَعَتَهَا وَقِلَادَتَهَا وَقَمِيصَهَا» فأمر يزيد برد ذلك وزاد فيه مئتي دينار فأخذها زين العابدين وفرقها على الفقراء (٣١٥).

ويبدو أن يزيد قد بدأ يشعر ببشاعة الجريمة التي إرتكبها في كربلاء وما ألحقه من ذل وهوان بآل رسول الله من جانب ، وتدمير الناس مما حصل من جانب آخر فحاول أن يخفف ذلك بتحسين معاملته لذرية رسول الله (ص) الذين أصبحوا تحت رحمته . فكلف النعمان بن بشير أن يتولى تجهيزهم ويهيء معهم رجلاً صالحاً من أهل الشام وفرساناً لحراستهم (٣١٦).

وخرج آل رسول الله (ص) من عاصمة سلطنة قريش بعدما تحملوا الويلات من التفرج والشتم وحرقة الفؤاد وذل الأسر والسبي ، حينما بلغوا العراق طلبوا من الدليل أن يمر بهم على كربلاء وكان وصولهم قد تزامن مع وجود جابر بن عبد الله الأنصاري وجماعة من بني هاشم قدموا لزيارة الإمام الحسين ، حيث تزامن مع مرور أربعين يوماً على إستشهاد الإمام الحسين ورجاله وهو يوم العشرين من صفر سنة إحدى وستين للهجرة . ومكثت عائلة الإمام الحسين (ع) عند قبور الشهداء حتى قضوا وطراً من البكاء والنياحة ، وبعدها توجه موكب ذرية الرسول (ص) إلى المدينة (٣١٧).

١١ - عودة آل الرسول (ص) إلى المدينة :

وعادت حاملة رسالة الشهادة إلى وطن جدها مع الإمام زين العابدين علي بن الحسين وبقية اليتامى والثواكل . عادت بعد أن شمت ثرى قبور الأحبة في أرض الشهادة ، أرض الإباء ، أرض الحرية ، أرض كربلاء . عادت ولكن بأية حال ، فبالأمس القريب عند خروجها من مدينة جدها رسول الله (ص) كانت محفوفة بشيبة الهاشميين وسيوفهم مشهورة محلقة حول هودجها واليوم تعود كسيرة ، وقد كسيت جميع الهودج بالسواد . تعود بعد أن احتضنت أرض كربلاء تلك الأجساد الطواهر لأولئك الأحبة . قرايين الإسلام . عادت إلى مسقط رأسها بعد أن بلغت

رسالة الشهادة إلى كل أجيال الأمة عن طريق الكلمة التي تحمل الحقيقة، وتروي ملحمة الشهادة، بأمانة الأنبياء والقديسين، وبذلك يكتمل المظهر الثاني للثورة الإستشهادية، بعدما قدم الإمام الحسين (ع) وأهل بيته وأنصاره الغر الميامين الدم والإستشهاد، هذا بالشهادة، وهذه بتبليغ الشهادة، وبهذا بطلت مؤامرة حزب الشيطان، وأصبحت ملحمة الإستشهاد عبر الزمان والمكان أنشودة تتردد على شفاه عشاق الحرية والحق والعدالة والمساواة. إنها المبادئ التي قامت عليها دولة النبوة وبهذا ترجم الإمام الحسين (ع) عملياً للأمة ما الذي يقصده الرسول (ص) من حديثه: «حسين مني وأنا من حسين». يقول المهاتما غاندي: «تعلمتُ من الحسين أن أكون مظلوماً فأنتصر».

لو أن زينب لم تنقل رسالة كربلاء إلى التاريخ، ستبقى كربلاء مجرد حادثة تاريخية، وبالتالي فإن الأفراد الذين يحتاجون هذه الرسالة سوف يرحلون. وهكذا لن يقدر أحد على أن يسمع رسالة أولئك الذين تحدثوا إلى الأجيال بدمائهم. إنه لهذا السبب كانت رسالة زينب ثقيلة وصعبة. رسالتها تبليغ رسالة الشهداء إلى البشرية، إلى جميع أولئك الذين سيكون الإمام الحسين (ع): «إن الحياة لا تكون ذات قيمة إلا بالاعتقاد والجهاد، وأن الذين يستطيعون أن يعيشوا بصدق، الذين يستطيعون أن يموتوا بصدق».

وحينما وصل ركب آل رسول الله (ص) إلى مشارف المدينة حطوا برحالهم، وضرب علي بن الحسين فسطاطه وأمر بشير بن جذلم أحد الحراس الذين كانوا معه، أن يطوف بالمدينة، وينعي الإمام الحسين (ع). فركب بشر فرسه كما يروي ابن طاووس حتى وصل مسجد النبي (ص)، فرفع صوته باكياً، وأنشأ قائلاً: (٣١٨).

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها قتل الحسين فأدمعي مدرأ
الجسم منه بكربلاء مضرّج والرأس منه على القنّاة يدار

وحينما اجتمع الناس عنده أخبرهم بالفاجعة، ومكان نزول الإمام علي بن الحسين (ع) مع أطفال ونساء آل رسول الله (ص)، فهرعوا إلى مخيمهم، فعزّوه،

وأعربوا له عن لوعتهم ومواساتهم لمصاب آل رسول الله (ص) بفقد سيد الشهداء ورجاله وأطفاله .

ثم ألقى عليهم الإمام علي بن الحسين (ع) خطبة تضمنت تفاصيل ما حدث بكربلاء ، وما حل بثقله من سلب ونهب وسبي ، وأن عترة الرسول (ص) أصبحوا غرباء وسط الأمة الإسلامية ، كما اعتبر أن ما حصل لآل رسول الله (ص) ثلثة عظيمة في الإسلام (٣١٩).

وعاش الإمام علي بن الحسين (ع) أربعين سنة بعد إستشهاد والده قضاها باكياً ، صائماً نهاره ، قائماً ليله لم يهنأ بطعام ولا شراب (٣٢٠) . وحق له ذلك ، فإن الفاجعة التي عاشها ، وما ترتب عليها من ذل السلب والنهب والسبي ، لا يمكن أن تزيلها الأيام من الذاكرة . ومما ضاعف أحزانه أنه وجد المنازل خالية من الرجال الذين استشهدوا مع الإمام الحسين (ع) ، ليس بها سوى نساء ثواكل وأطفال يتامى (٣٢١) . إن ما حصل لآل رسول الله (ص) وصمة عار في جبين الأمة الإسلامية لا يمكن أن يمحوها الزمان وعلي بن الحسين لقب بالسجاد وزين العابدين لأنه قضى حياته بعد استشهاد أبيه في العبادة فأبوه الإمام الحسين وأمّه شاه زنان بنت يزدرجرد لذا كان من ألقابه ابن الخيرتين وروي أن أبا الأسود الديلمي قال فيه : (٣٢٢) .

وإن غلاماً بين كسرى وهاشم لأكرم من نيطت عليه التمام

إن السيدة زينب بعد العودة من رحلة الشهادة والسبي إلى مدينة جدها واصلت نضالها الإعلامي عن الثورة الإستشهادية وشرح ممارسات الأمويين مع آل رسول الله (ص) خلال رحلة السبي من كربلاء إلى الكوفة ومن الكوفة إلى الشام التي بالغ أهلها في الشتمة والبهجة بها حل بآل رسول الله (ص) حيث عاصمة الحكم الأموي دمشق ، وذلك بسرد الأحداث في التجمعات النسائية التي كانت تعقد بدور الهاشميين الخالية ، وظلت على هذه الحال ، وفيّة لتبليغ رسالة الإستشهاد ، حتى قضت نحبها في المدينة ودفنت في البقيع (٣٢٣) ، بعد أن قامت بدور طليعي لخدمة الدين .

لقد هاجر النبي محمد (ص) خائفاً من مكة إلى المدينة ليقم دولة النبوة، كذلك كانت هجرة حفيده وسبطه الإمام الحسين خائفاً أثناء خروجه من مكة إلى كربلاء، ولكن خوفه ليس على نفسه وإنما خشية أن تهتك حرمة الله، فكانت هجرته إلى كربلاء من أجل تقويم الإعوجاج والانحراف الذي حل بدولة جده نتيجة تسلط أعداء الرسول الذين حاربوا دولته بالأس بكل جبروتهم. لقد تسللوا داخل دولة النبوة بعد استسلامهم في فتح مكة، حتى تمكنوا من تأسيس سلطنة قريش التي حققت ما عجزوا عن تحقيقه في العهد النبوي.

إن سلطنة قريش التي أسسها الطلقاء وأبناء الطلقاء في دمشق هي أول نظام للحكم الوراثي القبلي في الإسلام، وكانت البداية لتوجهات الحكم القطري وتمزيق أوصال دولة النبوة منذ صراع معاوية بن أبي سفيان مع الإمام علي بن أبي طالب حيث أخفى أطماعه في الملك خلف قميص عثمان الذي طالب بدمه دهاءً ومكرًا. رجال سلطة الخلافة رفضوا أن تجتمع النبوة والخلافة في بيت النبي (ص) ولكن لم يعارضوا تأسيس سلطنة قريش في دمشق التي باركوا ومهدوا لإنشائها منذ عهد الخليفة الأول أبي بكر. آل رسول الله يقصون عن قيادة الأمة، وتكون القيادة لمن استسلم في فتح مكة. أئمة الهدى ومن سار على دربهم يطاردون بواسطة فراعنة الأمة من آل أمية وآل مروان وآل مخزوم، وحامي حمى الإسلام علي بن أبي طالب شتم وآله على منابر المسلمين مدة الحكم الأموي عدا فترة حكم العبد الصالح عمر بن عبد العزيز. وآل رسول الله (ص) وأنصارهم يبادون في كربلاء وتسبى وتسلب وتنهب نساؤهم وأطفالهم ويطاف بهم من بلد إلى بلد، فهل من العدل أن يحدث كل هذا في دولة النبوة والمسلمون بمسمع وبمنظر؟ أهكذا يكون جزاء رسول الله (ص) وحفظ عهده في ذريته؟ لا ليس من العدل أن يحدث كل هذا، ولكنه الإسلام السلطوي وليس النبوي إنه الإسلام المظهري وليس الإسلام الجوهرى، إنه الإسلام الشكلي وليس الإسلام الحقيقي. إنه الملك، فمن أجل سلامته يرخص

الابن عند أبيه فيفيه إذا نازعه فيه .

نعم لقد حوّلت سلطنة قريش من مقرّها في القصر الأخضر الإسلام إلى أفيون .
أفرغته من مضمونه وطوّعته كوسيلة من سائل توطيد الحكم ، وما أكثرها . وأنْخَذَ
ذلك الأسلوب سُنّة في دولة النبوّة عبر تعاقب العصور والأجيال .

الإمام الحسين (ع) وأنصاره جعلوا دماءهم درساً وأرواحهم قرباناً لتقويم الدين
وتفجير عروش الظالمين ، فكانت تلك التضحية رسالة مقدسة لكل أمم الأرض
لتتعلم كيفية مواجهة الظالمين والمستبدين . وزينب التي حملت رسالة
التضحية والإستشهاد إلى العالم وبلغتها بأمانة الوصي على تلك الثورة الإستشهادية ،
ووقفت بشموخ شاكلة الولد والأخوان وكل الأهل تقض عروش الطواغيت في عقر
دارهم في القصر الأبيض بالكوفة ، وفي القصر الأخضر بدمشق تقرعهم بكلمات
بركانية بالفصاحة والبلاغة التي تعلمتها من سيد العرب والدها تبلغ أمم العالم عبر
ابن زياد ويزيد كيف يجب أن يواجه الظالم . رسمت مع أخيها طريقاً لعشاق
المبادئ التي شيّد جدها عليها دولته وهي الحرية والحق والعدالة والمساواة . هذا
بالإستشهاد في ملحمة كربلاء وهذه بالكلمة في رحلة السبي ، فخلدت محبتهما في
قلوب السائرين على درب الأئمة وعشاق الحرية والفضيلة في كل زمان ومكان . إنها
بحق نموذج فذ للمرأة الرسالية في دولة النبوّة .

هوامش الفصل الثالث

- (١) المجلسي: المرجع السابق، ج ٤١، ص ٥٤.
- (٢) نفسه.
- (٣) نفسه: ص ٣٩-٤٠؛ أيضاً ابن طولون: نوادر المخطوطات (الأئمة الإثني عشر) ص ٥١.
- (٤) المجلسي: نفس المرجع، ص ٢٦.
- (٥) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٥٧.
- (٦) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ٢، ج ٩، ص ٤٩٥.
- (٧) نفسه: ص ٤٩٦.
- (٨) الأرشية: الخيال.
- (٩) الطوّي: البئر المطوية بالحجارة.
- (١٠) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ١، ص ٧١.
- (١١) ابن حجر: المرجع السابق، ج ١، ص ١٥٢؛ أيضاً، الطبري: المرجع السابق، ص ٢٠.
- (١٢) البحراني: المرجع السابق، ص ١٥٩.
- (١٣) نفسه: ص ١٦١-١٦٢.
- (١٤) ابن حجر: نفس المرجع، ج ١، ص ١٢٣؛ أيضاً الطبري: نفس المرجع، ص ٨٣.
- (١٥) المجلسي: نفس المرجع، ج ٤١، ص ١٤١؛ أيضاً، ابن حجر: نفس المرجع، ج ١، ص ١٢٦-١٢٧.
- (١٦) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ٤، ج ١٧، ص ١٣٣.
- (١٧) المجلسي: نفس المرجع، ج ١، ص ١٤٠-١٤١.
- (١٨) ابن حجر: نفس المرجع، ج ١، ص ١٢٢؛ أيضاً، الطبري: نفس المرجع، ص ٧٧-٧٩.
- (١٩) سورة الجن: ٢٧.
- (٢٠) البيضاوي: المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٧.
- (٢١) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ٢، ج ١٠، ص ٥٦٨.
- (٢٢) المجلسي: نفس المرجع، ج ٤١، ص ١٤٦.
- (٢٣) نفسه.
- (٢٤) البيضاوي: نفس المرجع، ج ٢، ص ٨٥.
- (٢٥) المجلسي: نفس المرجع، ج ٤١، ص ٦٩.
- (٢٦) ابن حجر: نفس المرجع، ج ١، ص ١٢٢؛ أيضاً، الطبري: نفس المرجع، ص ٧٠.
- (٢٧) سورة النحل: ٨٣.
- (٢٨) المجلسي: نفس المرجع، ج ٣٧، ص ١٦٦.
- (٢٩) الجزائري: المرجع السابق، ج ١، ص ١١٤.
- (٣٠) المفيد: تصحيح إعتقاد الإمامية، ص ٢٢.
- (٣١) العاملي، بهاء الدين محمد: المرجع السابق، ص ١٦٩.
- (٣٢) ابن حجر: نفس المرجع، ج ١، ص ١٢١؛ أيضاً، الطبري: نفس المرجع، ص ٦٣-٦٤.
- (٣٣) سورة النمل: ٦٠-٦٤.

- (٣٤) مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ٣٢٣-٣٢٥، عن المجلسي: نفس المرجع، ج ٤١، ص ١٧-١٨.
- (٣٥) نافجا حضنيه: إمتلاً بطنه طعاماً.
- (٣٦) نثله: روّثه.
- (٣٧) يعضمون: يأكلون بنهم.
- (٣٨) انتكث: انتقض.
- (٣٩) أجهز عليه عمله: قتله سوء صنيعه.
- (٤٠) كبت به بطنته: أسقطه الإسراف في الشبع.
- (٤١) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ١، ج ١، ص ٦٦.
- (٤٢) نفسه، ص ٦٦-٦٧؛ مجلد ٢، ج ١٠، ص ٥٣٧.
- (٤٣) الجزائري: نفس المرجع، ص ١١٤-١١٥.
- (٤٤) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ٢، ج ١، ص ٢١.
- (٤٥) الأمين: المرجع السابق، مجلد ٧، ج ٣٣، ص ١٣٧؛ أيضاً، الكاشي: مأساة الحسين بين السائل والمجيب، ص ٢٤٩.
- (٤٦) الأمين: نفس المرجع، مجلد ٧، ج ٣٢، ص ١٣٦؛ أيضاً، الطبري: نفس المرجع، ص ١٦٧.
- (٤٧) الأمين: نفس المرجع، مجلد ٧، ج ٣٢، ص ١٣٦.
- (٤٨) يثالون عليّ: ينصبون عليّ كإنصبا الماء.
- (٤٩) إنشق عظمائي: إنشق جانباً ثوبي من كثرة إزدحام الناس.
- (٥٠) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ١، ج ١، ص ٦٧؛ أيضاً، الجزائري: نفس المرجع، ص ١١٨.
- (٥١) الشرقاوي: علي إمام المتقين، ج ١، ص ٢٢٦، ١٣٩، ٢٤٠.
- (٥٢) نفسه: ص ٢٥.
- (٥٣) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ١، ج ١، ص ٤٥-٤٦.
- (٥٤) ابن حجر: نفس المرجع، ج ٢، ص ٦٦.
- (٥٥) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ١، ج ١، ص ٦٧.
- (٥٦) الشرقاوي: نفس المرجع، ج ١، ص ٢٦٦.
- (٥٧) ابن طولون: نفس المرجع، ص ٥٢.
- (٥٨) الشرقاوي: نفس المرجع، ج ١، ص ٢٩٣؛ أيضاً، جرداق: على وحقوق الإنسان (الامام علي صوت العدالة الانسانية)، ج ١، ص ٧٧.
- (٥٩) الشرقاوي: نفسه.
- (٦٠) جرداق: نفس المرجع، ص ٧٧.
- (٦١) الشرقاوي: نفس المرجع، ج ١، ص ٣٩.
- (٦٢) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ٢، ج ٩، ص ٤٦٦.
- (٦٣) نفسه، مجلد ١، ج ١، ص ٧٩.
- (٦٤) نفسه: مجلد ١، ج ٤، ص ٣٤٧.
- (٦٥) نفسه: ص ٣٥٥.

(٦٦) العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع السابق، ص ٢٦؛ أيضاً، ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ١، ج ٤، ص ٣٦٤.

(٦٧) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ٤، ج ١٧، ص ١١٩-١٥٨.

(٦٨) الشرقاوي: نفس المرجع، ج ٢، ص ٢٦٩.

(٦٩) نفسه: ص ٢٧٣.

(٧٠) نفسه: ص ٣٨٠.

(٧١) نفسه.

(٧٢) نفسه، ص ٣٤٤.

(٧٣) نفسه: ص ٢٦٣-٢٦٤.

(٧٤) نفسه: ص ٩٦، ١٢٧.

(٧٥) نفسه: ص ٢٣٣.

(٧٦) نفسه: ص ٢٢٩-٢٣٤.

(٧٧) نفسه: ص ٧٨.

(٧٨) نفسه: ص ٢٣٣.

(٧٩) Gihād and shahādāt, ed, Mehdi Abedi & Gary Legenhausen, PP.186-187.

(٨٠) ابن حجر: نفس المرجع، ج ٢، ص ٢٤.

(٨١) نفسه: ص ١٩.

(٨٢) نفسه، ج ١، ص ٩٩؛ أيضاً الشرقاوي:

نفس المرجع، ج ٢، ص ٢٧٣.

(٨٣) الشرقاوي: نفسه، ص ٣٤٢.

(٨٤) سورة الإسراء: ٦٠.

(٨٥) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ٢، ج ٩، ص ٤٦٦.

(٨٦) نفسه: ص ٤٦٦-٤٦٧؛ أيضاً، ابن حجر: نفس المرجع، ج ٢، ص ٥٣.

(٨٧) سورة القدر: ٣.

(٨٨) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، ص ٤٦٧.

(٨٩) ابن حجر: نفس المرجع، ج ١، ص ١٨١، صححه الحاكم.

(٩٠) نفسه: صححه الحاكم.

(٩١) سورة الأحقاف: ١٧.

(٩٢) ابن حجر: نفس المرجع، ج ١، ص ١٨١؛ أيضاً ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ٢، ج ٦، ص ٥٥.

(٩٣) سورة البقرة: ١٧٩.

(٩٤) سورة الأحزاب: ١٠-١١.

(٩٥) الاصفهاني: بيان في خلافة النبي، ص ٩.

(٩٦) العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٢٨، أيضاً، ابن طولون: نفس المرجع، ص ٦٤-٦٥؛

أيضاً، ابن حجر: نفس المرجع، ج ١، ص ١٣٦-١٣٧.

(٩٧) العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٢٨.

- (٩٨) نفسه: ص ٣٠.
- (٩٩) ملا علي، محمد: تكفير المكفرين، ص ١١.
- (١٠٠) نفسه.
- (١٠١) الشرقاوي: نفس المرجع، ج ١، ص ٣١٨-٣٢٠، ج ١، ص ١٢٧.
- (١٠٢) مناظرة بين الغروي والهروي ومجادلتها في أمر الخلافة حال إجتماعها بمشهد الإمام الرضا بمدينة مشهد في إيران، ص ٦٠؛ أيضاً، ابن حجر: نفس المرجع، ج ١، ص ١٢٣.
- (١٠٣) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ١، ج ٤، ص ٣٤٨.
- (١٠٤) نفسه: ص ٣٥٥.
- (١٠٥) ابن حجر: نفس المرجع، ج ٢، ص ٢٨.
- (١٠٦) نفسه: ص ٦٣.
- (١٠٧) العاملي: تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٠.
- (١٠٨) الحلبي: اللهوف على قتل الطفوف، ص ١٥-١٦؛ أيضاً، الشيرازي: كلمة الإمام الحسن، ص ٢٥.
- (١٠٩) العاملي: تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٠.
- (١١٠) نفسه؛ أيضاً القزطاني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ص ١٠٦.
- (١١١) العاملي نفسه.
- (١١٢) نفسه.
- (١١٣) نفسه.
- (١١٤) نفسه.
- (١١٥) ابن طولون: نفس المرجع، ص ٧١، قال الترمذي: حديث حسن؛ أيضاً، ابن حجر: نفس المرجع، ج ١، ص ١٩٢.
- Gihad and Shahadat, P.174. (١١٦)
- (١١٧) خالد: أبناء الرسول في كربلاء، ص ٩١-٩٣؛ أيضاً، العسكري: معالم المدرستين، المجلد الثالث، ص ٤٥.
- (١١٨) العسكري: نفسه، ص ١٨.
- (١١٩) ابن حجر: نفس المرجع، ج ١، ص ٢٢١.
- (١٢٠) نفسه: ج ٢، ص ٢٥.
- (١٢١) نفسه: ج ١، ص ٢٢١.
- (١٢٢) العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣١.
- (١٢٣) العسكري: نفس المرجع، ص ٤٥؛ أيضاً، الحلبي: نفس المرجع، ص ١٣؛ أيضاً، العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٣؛ أيضاً، ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٢٢٤-٢٢٦.
- (١٢٤) الحلبي: نفس المرجع، ص ١٥؛ أيضاً العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٣؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٤٦؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ٩٥.
- (١٢٥) يقصد الإمام الحسين بالفتح نبوة محمد (ص) مؤسس دولة النبوة. أما الختم فهو بالإمام الحجة المنتظر محمد ابن الحسن الإمام الثاني عشر آخر أوصياء وخلفاء رسول الله (ص)، وهو ختام دولة النبوة.
- (١٢٦) الحلبي: نفس المرجع، ص ١٤؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٤٦.

- (١٢٧) القزطاني: نفس المرجع، ص ١٠٧؛ أيضاً ابن حجر: نفس المرجع، ج ١، ص ١٩٤؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ١٦-٤٤؛ أيضاً، الحلبي: نفس المرجع، ص ١٦-١٧.
- (١٢٨) العسكري: نفس المرجع، ص ٤٧.
- (١٢٩) نفسه: ص ٤٨.
- (١٣٠) نفسه: ص ٥٠.
- (١٣١) نفسه: أيضاً، الحلبي، نفس المرجع، ص ١٨؛ أيضاً، العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٣؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ٩٦.
- (١٣٢) خالد: نفسه.
- (١٣٣) العسكري: نفس المرجع، ص ٥١.
- (١٣٤) سورة القصص: ٢١.
- (١٣٥) العسكري: نفس المرجع، ص ٥١.
- (١٣٦) سورة القصص: ٢٢.
- (١٣٧) الحلبي: نفس المرجع، ص ١٩؛ أيضاً، العاملي، تاج الدين بن علي، نفس المرجع، ص ٣٣؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٥٢.
- (١٣٨) الحلبي: نفس المرجع، ص ٢١؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٥٢.
- (١٣٩) المقصود بالشيعه هنا الموالون لأهل البيت النبوي.
- (١٤٠) الحلبي: نفس المرجع، ص ١٩-٢٠.
- (١٤١) وإلى الكوفة منذ عهد معاوية، وهنا يوضح كاتبوا الرسالة مقاطعتهم للوالي الأموي، وتلك المقاطعة تعني عدم إعترافيهم بسلطة الأمويين على الكوفة.
- (١٤٢) الحلبي: نفس المرجع، ص ٢٠-٢١؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٥٢.
- (١٤٣) العسكري: نفسه.
- (١٤٤) نفسه.
- (١٤٥) نفسه.
- (١٤٦) الحلبي: نفس المرجع، ص ٢١-٢٢.
- (١٤٧) نفسه.
- (١٤٨) خالد: نفس المرجع، ص ١٠٦-١٠٧؛ أيضاً، العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٣؛ أيضاً، الحلبي: نفس المرجع، ص ٢٢؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٥٣.
- (١٤٩) الحلبي: نفس المرجع، ص ٢٢.
- (١٥٠) العسكري: نفس المرجع، ص ٥٣-٥٤.
- (١٥١) الحلبي: نفس المرجع، ص ٢٢-٢٣؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٥٤؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٠٨.
- (١٥٢) العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٣-٣٤؛ أيضاً، الحلبي: نفس المرجع، ص ٢٩-٣٧؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٥٤-٥٥؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١١٤-١١٥.

- (١٥٣) الحلبي: نفس المرجع، ص ٣٧-٣٨.
- (١٥٤) نفسه: ص ٣٢-٣٣.
- (١٥٥) العسكري: نفس المرجع، ص ٥٥؛ أيضاً،
الحلبي: نفس المرجع، ص ٣٨؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١١٩.
- (١٥٦) خالد: نفسه، ص ١١٤-١١٥.
- (١٥٧) الحلبي: نفس المرجع، ص ٣٦.
- (١٥٨) نفسه.
- (١٥٩) نفسه، ص ٣٨؛ أيضاً، العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٤.
- (١٦٠) الحلبي: نفسه، ص ٢٣-٢٧؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١١٠-١١١.
- (١٦١) خالد: نفسه، ص ٩٦.
- (١٦٢) نفسه، ص ١١٩؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٥٦.
- (١٦٣) الحلبي: نفس المرجع، ص ٤٠؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٢٤-١٢٥.
- (١٦٤) العسكري: نفس المرجع، ص ٥٦.
- (١٦٥) سورة الصافات: ١٠٧.
- (١٦٦) الجزائري: نفس المرجع، ص ١٣٥-١٣٦.
- (١٦٧) نفسه.
- (١٦٨) الحلبي: نفس المرجع، ص ٤١.
- (١٦٩) العسكري: نفس المرجع، ص ٥٦-٥٨؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٢٠-١٢٤، أيضاً، الحلبي:
نفس المرجع، ص ٣٩، ١٩، ٤٠.
- (١٧٠) الحلبي: نفسه، ص ١٩.
- (١٧١) نفسه، ص ٣٩-٤٠.
- (١٧٢) نفسه، ص ٤٢؛ أيضاً، كامل الزيارة ص ٧٥ باب ٧٥، عن العسكري: نفس المرجع، ص ٥٨، ويذكر
مصدر العسكري (كامل الزيارة) إن كتاب الإمام الحسين آل بني هاشم هو نفس النص ويختلف فقط في
عنوانه: «إلى محمد بن علي ومن قبله من بني هاشم...» كما يختلف في وقت إرساله عن الحلبي. ففي حين ينص
كامل الزيارة مصدر العسكري على إرساله قبل خروج الحسين من مكة إلى العراق بفترة، يذكر الحلبي أنه تم
إرساله خلال خروج الحسين من مكة.
- (١٧٣) العسكري: نفس المرجع، ص ٥٨-٥٩.
- (١٧٤) الحلبي: نفس المرجع، ص ٣٩.
- (١٧٥) تاريخ الطبري ٦/١٩١، عن العسكري: نفس المرجع، ص ٥٢.
- (١٧٦) البلاذري: أنساب الأشراف، القسم الرابع، ج ١، ص ٢٩٩.
- (١٧٧) كتاب عبد الله بن سبأ ج ١، فصل إستلحاق زياد، عن العسكري: نفس المرجع، ص ٦٢.
- (١٧٨) خالد: نفس المرجع، ص ١٢٦.
- (١٧٩) الحلبي: نفس المرجع، ص ٤٦-٤٧؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٦٤.
- (١٨٠) العسكري: نفسه، ص ٦٢؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٢٦.
- (١٨١) العسكري: نفسه؛ أيضاً، خالد: نفسه، ص ١٢٧.

- (١٨٢) الحلبي : نفس المرجع ، ص ٤٥ .
- (١٨٣) نفسه ، ص ٤٥ - ٤٦ .
- (١٨٤) نفسه ، ص ٤٧ - ٤٨ ؛ أيضاً ، العسكري : نفس المرجع ، ص ٦٥ - ٦٨ ؛ أيضاً ، خالد : نفس المرجع ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .
- (١٨٥) الحلبي : نفسه ، ص ٤٨ .
- (١٨٦) الأمين : المرجع السابق ، مجلد ١ ، ج ٤ ، ص ٥٨١ .
- (١٨٧) الحلبي : نفس المرجع ، ص ٤٨ - ٥٠ ؛ أيضاً ، خالد : نفس المرجع ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .
- (١٨٨) الحلبي : نفسه ، ص ٥٠ .
- (١٨٩) العاملي ، تاج الدين بن علي : المرجع السابق ، ص ٣٤ .
- (١٩٠) الحلبي : نفسه ، ص ٢٣ .
- (١٩١) خالد : نفس المرجع ، ص ١٣٣ .
- (١٩٢) نفسه : أيضاً ، الحلبي : نفسه ، ص ٥٠ - ٥١ ؛ أيضاً ، العسكري : نفس المرجع ، ص ٦٩ .
- (١٩٣) الحلبي : نفسه ، ص ٥٠ ؛ أيضاً ، خالد : نفس المرجع ، ص ١٣٣ ؛ أيضاً ، العسكري : نفسه ، ص ٦٩ .
- (١٩٤) الحلبي : نفسه . ص ٥١ ؛ أيضاً ، خالد : نفسه ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .
- (١٩٥) العسكري : نفسه ، ص ٧١ - ٧٢ ، أنظر ملحق ٦ .
- (١٩٦) الحلبي : نفسه ، ص ٥١ - ٥٢ ؛ أيضاً ، العسكري : نفسه ، ص ٧٢ .
- (١٩٧) الحلبي : نفسه ، ص ٥٢ ؛ أيضاً ، العسكري : نفسه ، ص ٧٢ .
- (١٩٨) العسكري : نفسه .
- (١٩٩) نفسه : ص ٧٢ - ٧٣ .
- (٢٠٠) نفسه ، ص ٧٣ .
- (٢٠١) نفسه : ص ٧٣ - ٧٤ .
- (٢٠٢) الحلبي : نفس المرجع ، ص ٥٢ ؛ أيضاً ، العسكري : نفسه ، ص ٧٧ .
- (٢٠٣) الحلبي : نفسه ، ص ٥٣ .
- (٢٠٤) العسكري : نفس المرجع ، ص ٧٧ ؛ أيضاً ابن حجر : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٩٣ .
- (٢٠٥) ابن حجر : نفسه ، ج ١ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .
- (٢٠٦) العسكري : نفسه ، ص ٧٧ ؛ أيضاً ، خالد : نفس المرجع ، ص ١٣٧ ؛ أيضاً ، ابن حجر : نفسه ، ج ١ ، ص ١٩٣ ؛ أيضاً القزطاني : المرجع السابق ، ص ١٠٧ .
- (٢٠٧) كامل الزيارة لإبن قولوية ، ص ٧٥ ، باب ٢٣ ، عن العسكري ، نفسه ، ص ٧٧ .
- (٢٠٨) العاملي ، تاج الدين بن علي : المرجع السابق ، ص ٣٤ - ٦٦ ؛ أيضاً ، خالد : نفس المرجع ، ص ١٦٦ .
- (٢٠٩) العسكري : نفسه ، ص ٨٣ ؛ أيضاً ، الحلبي : نفس المرجع ، ص ٥٦ .
- (٢١٠) خالد : نفسه ، ص ١٥٠ .
- (٢١١) الكاشي : المرجع السابق ، ص ٧٠ - ٧١ .
- (٢١٢) العاملي تاج الدين ، نفس المصدر ص ٣٤ .
- (٢١٣) العسكري ، نفس المرجع ص ٨٢ ؛ أيضاً خالد ، نفس المرجع ص ١٤٤ .
- (٢١٤) أنظر ملحق ٦ .

- (٢١٥) أنظر ملحق ٧.
- (٢١٦) أنظر ملحق ٩.
- (٢١٧) الحلي: نفس المرجع، ص ٦٩-٧٠، أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٦٢-١٦٣.
- (٢١٨) خالد: نفسه، ص ١٦٣.
- (٢١٩) أنظر ملحق ٨.
- (٢٢٠) الحلي: نفسه، ص ٦٠-٦٢؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٩٠-٩١، أيضاً، خالد: نفسه، ص ١٥٦-١٥٨.
- (٢٢١) الحلي: نفسه، ص ٦٢.
- (٢٢٢) نفسه، ص ٥٩؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ٨٩؛ أيضاً، خالد: نفسه، ص ١٥٢.
- (٢٢٣) الحلي: نفسه، ص ٥٩؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ٨٨.
- (٢٢٤) نفسه، ص ٥٣؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ٩١.
- (٢٢٥) الحلي: نفسه، ص ٥٣-٥٤؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ٩١-٩٢.
- (٢٢٦) نفسه، ص ٦٢-٦٣.
- (٢٢٧) سورة البقرة: ١٨.
- (٢٢٨) سورة البقرة: ٧.
- (٢٢٩) الحلي: نفس المرجع، ص ٦٧.
- (٢٣٠) نفسه.
- (٢٣١) العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٤-٣٥؛ أيضاً، الحلي: نفسه، ص ٨٠-٨١.
- (٢٣٢) الحلي: نفسه، ص ٨٩.
- (٢٣٣) نفسه؛ أيضاً، القزطاني: المرجع السابق، ص ١٠٨.
- (٢٣٤) الحلي: نفسه، ص ٨٩-٩٠.
- (٢٣٥) نفسه، ص ٩٤؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ١٣٧؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٤٧.
- (٢٣٦) الحلي: نفسه، ص ٩١-٩٢.
- (٢٣٧) العسكري: نفس المرجع، ص ١٥٢.
- (٢٣٨) مناظرة بين الغروي والحروي: ص ٦١.
- (٢٣٩) نفسه: ص ٦١-٦٢.
- (٢٤٠) نفسه: ص ٦٢-٦٣.
- (٢٤١) ابن قتيبة الدينوري: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٢؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ١٢٢-١٣٤؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٧٤-١٧٦.
- (٢٤٢) العسكري: نفس المرجع، ص ١٥٣.
- (٢٤٣) الحلي: نفس المرجع، ص ٨٧-٨٨.
- (٢٤٤) العسكري: نفسه، ص ١٥٢.
- (٢٤٥) الكاشي: المرجع السابق، ص ١٥٦.
- (٢٤٦) نفسه، ص ٦٨-٦٩.
- (٢٤٧) الحلي: نفس المرجع، ص ٩٨.

- (٢٤٨) نفسه، ص ٩٩؛ أيضاً، ابن قتيبة الدينوري: نفس المرجع، ج ٢، ص ١٢.
- (٢٤٩) الكاشي: نفس المرجع، ص ١٥٦.
- (٢٥٠) الحلبي: نفس المرجع، ص ٩٩.
- (٢٥١) نفسه: ص ٩٢.
- (٢٥٢) الكاشي: نفس المرجع، ص ٧٠.
- (٢٥٣) الحلبي: نفس المرجع، ص ٩٩؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ١٥٣.
- (٢٥٤) الحلبي: نفسه، ص ١٠٠.
- (٢٥٥) نفسه.
- (٢٥٦) نفسه: ص ١٠١-١٠٢.
- (٢٥٧) نفسه: ص ١٠٢-١٠٣.
- (٢٥٨) أنظر ملحق ١٠.
- (٢٥٩) أنظر ملحق ١١.
- (٢٦٠) الحلبي: نفس المرجع، ص ١٠٨.
- (٢٦١) أنظر ملحق ١٢.
- (٢٦٢) سورة التوبة: ٣٢.
- (٢٦٣) سورة آل عمران: ١٦٩.
- (٢٦٤) الحلبي: نفس المرجع، ص ١١١-١١٢؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٨٦-١٨٧.
- (٢٦٥) سورة الزمر: ٤٢.
- (٢٦٦) الحلبي: نفس المرجع، ص ١١٢؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٨٧-١٨٨.
- (٢٦٧) الحلبي: نفسه، ص ١١٢-١١٣.
- (٢٦٨) نفسه: ص ١١٣.
- (٢٦٩) نفسه.
- (٢٧٠) نفسه: ص ١١٣-١١٤.
- (٢٧١) نفسه: ص ١١٤.
- (٢٧٢) نفسه: ص ١١٤-١١٧.
- (٢٧٣) ابن حجر: المرجع السابق، ج ١، ص ١٩٨؛ أيضاً الكبداتي: المرجع السابق، ص ٣٤٢.
- (٢٧٤) ابن حجر: نفسه.
- (٢٧٥) نفسه: ج ١، ص ١١٧؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ١٥٤.
- (٢٧٦) الحلبي: نفس المرجع، ص ١١٧؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ١٥٢-١٥٣.
- (٢٧٧) الحلبي: نفسه، ص ١١٧-١١٨.
- (٢٧٨) نفسه: ص ١١٨.
- (٢٧٩) نفسه: أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ١٥٤؛ أيضاً، القرطبي: المرجع السابق، ص ١٠٨.
- (٢٨٠) سورة الشورى: ٢٣.
- (٢٨١) الحلبي: نفس المرجع، ص ١٢٠؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ١٥٥.
- (٢٨٢) الحلبي: نفسه، ص ١٢٠-١٢١؛ أيضاً، العسكري: نفسه.

- (٢٨٣) العسكري: نفسه، ص ١٥٥-١٥٦ .
- (٢٨٤) نفسه: ص ١٥٥ .
- (٢٨٥) الشرقاوي: المرجع السابق، ج ٢، ص ٧٧ .
- (٢٨٦) نفسه: ج ٢، ص ٢٦٢ .
- (٢٨٧) الأمين: المرجع السابق، مجلد ٨، ج ٣٨، ص ٣٧٦ .
- (٢٨٨) نفسه .
- (٢٨٩) ابن أبي الحديد: المرجع السابق، مجلد ١، ج ٢، ١١٩-١٢٠؛ أيضاً، الشرقاوي: نفس المرجع، ج ٢، ص ٣٢١ .
- (٢٩٠) الشرقاوي: نفسه، ج ٢، ص ٣٢٢ .
- (٢٩١) البلاذري: المرجع السابق، القسم الرابع، ج ١، ص ٢٨٦-٢٨٨ .
- (٢٩٢) الكاشي: المرجع السابق، ص ١٥٥ .
- (٢٩٣) نفسه .
- (٢٩٤) الحلي: نفس المرجع، ص ١٢١ .
- (٢٩٥) مقتل الخوارزمي، ج ٢/٦٠-٦١، عن العسكري: نفس المرجع، ص ١٥٦ .
- (٢٩٦) الحلي: نفس المرجع، ص ١٢١؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ١٥٧-١٥٨ .
- (٢٩٧) سورة الأحزاب: ٣٣ .
- (٢٩٨) الحلي: نفسه، ص ١٢٢-١٢٣ .
- (٢٩٩) نفسه، ص ١٢٣؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ١٥٨ .
- (٣٠٠) العسكري: نفسه .
- (٣٠١) نفسه .
- (٣٠٢) نفسه: ص ١٦٠؛ أيضاً، الحلي: نفس المرجع، ص ١٢٤ .
- (٣٠٣) الحلي: نفسه؛ العسكري: نفسه .
- (٣٠٤) الحلي: نفسه، ص ١٢٤-١٢٥؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ١٦١ .
- (٣٠٥) الحلي: نفسه، ص ١٢٥-١٢٨ .
- (٣٠٦) نفسه: ص ١٢٨؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ١٦٤ .
- (٣٠٧) الحلي: نفسه .
- (٣٠٨) نفسه: ص ١٢٩؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ١٥٩-١٦٠ .
- (٣٠٩) نفسه .
- (٣١٠) نفسه: ص ١٢٩-١٣٠ .
- (٣١١) نفسه: ص ١٣٠ .
- (٣١٢) أنظر ملحق ١٣ .
- (٣١٣) الحلي: نفس المرجع، ص ١٣٠؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ١٦٦ .
- (٣١٤) الحلي: نفسه، ص ١٣٣-١٣٤؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ١٦٧ .
- (٣١٥) الحلي: نفسه، ص ١٣٤-١٣٥ .
- (٣١٦) العسكري: نفسه، ص ١٦٨ .

- (٣١٧) نفسه؛ أيضاً، الحلي: نفسه، ص ١٣٥-١٣٦.
- (٣١٨) الحلي: نفسه، ص ١٣٦.
- (٣١٩) أنظر ملحق ١٤.
- (٣٢٠) الحلي: نفسه، ص ١٤٥.
- (٣٢١) نفسه: ص ١٤٠.
- (٣٢٢) العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع السابق، ص ٣٦-٣٧.
- (٣٢٣) الأمين: المرجع السابق، مجلد ٧، ج ٣٢، ص ١٤٠. ليس غريباً أن يعفى قبر السيدة زينب الكبرى خوفاً من نبشه من قبل الامويين. ولها في أخفاء قبري والديها اسوة. فقد أخفي قبر امها السيدة فاطمة الزهراء وما يزال حتى الآن مجهولاً لدى الكثير من المسلمين ويستدل على مكانه يقول رسول الله (ص): «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة». ويعتقد أتباع مدرسة الامامة ان هذا المكان يضم قبر السيدة فاطمة الزهراء (ع).
- أما قبر السيدة زينب الموجودة في قرية راويه على نحو فرسخ من دمشق والذي يسمى مشهد الست فهو قبر السيدة زينب الصغرى المكناة بام كلثوم، بينما قبر السيدة الموجودة في القاهرة فيخص السيدة زينب بنت يحيى المتوحي بن الحسن الانور بن زيد الأبلج بن الحسن السبط بن علي بن ابي طالب (ع).

الفصل الرابع

نماذج من نضال المرأة الرسالية في دولة النبوة

- ١ - سُمَيَّة بنت خُباط (أم عمار بن ياسر)
- ٢ - أسماء بنت عميس .
- ٣ - بطلات أحد :
- أ - نسيبة بنت كعب (أم عمار)
- ب - هند بنت عمرو بن حزام .
- ج - السمداء بنت قيس .
- ٤ - أسماء بنت يزيد بن السكن (أم سلمة) .
- ٥ - ثُمَاض بنت عمرو (الخنساء)
- ٦ - سودة بنت عمار الهمدانية (أم الخير) .
- ٧ - فاطمة بنت حزام بن خالد الكلابية (أم البنين) .
- ٨ - آمنة بنت السيد حيدر الصدر (بنت الهدى) .

١ - سميّة بنت خبّاط (أم عمار بن ياسر)

إن التاريخ الإسلامي حافل بالمناضلين والمناضلات الذين قدموا أرواحهم فداء للعقيدة والمبدأ فكانوا خير معين للأجيال، وكان إستشهادهم خير حافز للاحقين من أبناء الأمة من ناحية، ودعامة لتثبيت أركان الدين ونشره من ناحية أخرى.

ياسر وزوجته سميّة وابنتهما عمار أسرة نموذجية للإستشهاد، من السابقين والمؤمنين برسالة النبي محمد (ص)، تعلقوا بالدين حتى الثمالة، لذلك عشقوا الشهادة. ياسر بن عامر بن كنانة بن قيس العفسي المذحجي هو والد عمار، عربي قحطاني من عنس في مذحج باليمن. قدم مكة مع أخوين له هما مالك والحارث في طلب أخ لهم رابع، فرجع الحارث ومالك إلى اليمن، وأقام ياسر بمكة. فحالف أبا حذيفة بن المغيرة ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم. فزوجه أبو حذيفة أمة يقال لها سميّة بنت خباط، فأولدها عماراً، فأعتقه أبو حذيفة فمن هنا كان عمار مولى بني مخزوم^(١).

أسلم ياسر وزوجته وابنتهما سرّاً، ثم جاھروا بإسلامهم، ولم يكن لهم من يحميهم، فعذبهم مشركو قريش، بأن البسوهم دراع الحديد، وكانوا يتركونهم بالشمس، وحينما يحمى الحديد من حرارة الشمس تشتعل أجسامهم ناراً^(٢).

وحينما سُئل ابن عباس عن تعذيب آل ياسر قال: «كان رسول الله (ص) في أول الدعوة يمر بعمار وأمه سميّة وأبيه ياسر وهم يعذبون في رمضان مكة فيقول: (صبراً آل ياسر، موعدكم الجنة!) وكان المشركون يبلغون من المسلمين في العذاب ما

يعذرون به عل ترك دينهم ! إن كانوا ليضربون أحدهم ويبيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر على أن يستوي جالساً ، من شدة الضر الذي به حتى أنه ليعطيهم ما سألوه من الفتنة ، وحتى يقولوا له : اللات والعزى الهك من دون الله ! فيقول : نعم^(٣) .

كان ياسر وزوجته سمية وابنه عمار يتعرضون للتعذيب بشكل مستمر ويطلب منهم المشركون الذين يمارسون أعمال التعذيب الوحشية معهم وعلى رأسهم أبو جهل ، البراءة من محمد (ص) ودينه ، ولكنهم يواجهونهم بالإصرار على التمسك بعقيدتهم مستلهمين في ذلك صبر النبي (ص) وتحمله إيذاء قريش ، ومستلهمين صبر عضيده السيدة خديجة وتضحياتها بكل ما تملك من أجل نصره الدين ، وتثبيت أركانه .

وقد بلغ التعذيب من عمار مبلغه ذات مرة حتى أنه استسلم لما يريد عدوه ، حيث سبَّ النبي (ص) وذكر آهتهم بخير ، ثم تركوه . فأتى إلى الرسول (ص) باكياً . فسأله الرسول قائلاً : « ما وراءك ؟ » قال : « شرُّ يا رسول الله ، ما تركوني حتى نلتُ منك ، وذكرت آهتهم بخير » . قال الرسول (ص) : « كيف تجدُ قلبك ؟ » قال : « مطمئناً بالإيمان » قال : « فإن عادوا لك فعدلهم »^(٤) . فنزلت هذه الآية : ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾^(٥) .

رأى عمار بعينه تعذيب والديه ، اللذين لم يقبلا المساومة على دينهما ، فكان لصبرهما أثر عميق في نفسه حيث تعمق إيمانه ، وصار موضع إفتخار لرسول الله (ص) يباهى به أصحابه ، في مواقف عديدة . لأنه تربية أول شهيدين في الإسلام . عذباً حتى إستشهدا دون أن تضعف نفسيهما ويستسلما لإرادة المشركين . لذلك أقدم أبو جهل على ضرب سمية بحربة في قلبها فقضت نحبها في الحال . فكانت أول الشهداء ، كما استشهد زوجها أيضاً في التعذيب^(٦) . أنها أول المتقدمين في قافلة شهداء دين الإسلام . ، لقد صار ثباتهما على العقيدة والمبدأ نموذجاً يحتذى به في دولة النبوة .

إلتحق عمار بالمهاجرين إلى أرض الحبشة فراراً بعقيدته فهو من المهاجرين الأولين ، وبعدها إلى المدينة . شهد بداراً وجميع الغزوات ودافع ببسالة عن الإسلام .

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾^(٧) إنه عمار بن ياسر ﴿كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾^(٨) إنه أبو جهل بن هشام^(٩). وقال ابن عباس أيضاً: قال رسول الله (ص): «أن عماراً مليء إيماناً إلى مشاشه»^(١٠). وقيل: «إلى أخمص قدميه»^(١١).

وروى أبو عمرو من حديث علي بن أبي طالب (ع) أن عماراً جاء يستأذن على رسول الله (ص) يوماً فعرف صوته فقال: «مرحبا بالطيب المطيب - يعني عماراً - أئذنوا له»^(١٢).

وروى الأعمش عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: «شهدنا مع علي (ع) صفين فرأيت عمار بن ياسر لا يأخذ في ناحية ولا واد من أودية صفين إلا رأيت أصحاب محمد (ص) يتبعونه كأنه علم لهم وسمعتهم يقول يومئذ لهاشم بن عتبة: «يا هاشم تقدم الجنة تحت البارقة».

اليوم ألقى الأجابة محمدأ وحزبه
والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر^(١٣) لعلمت أننا على الحق وأنهم على
الباطل ثم قال^(١٤):

نحن ضربناكم على تنزيله فالיום نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق على سبيله

وبعدها استشهد على أيدي رجال معاوية وبذلك صدقت نبوءة الرسول في مقتله بقوله (ص): «تقتل عمارا الفئة الباغية» ثم قطع رأسه وأهدى لمعاوية^(١٥)، فكان أول رأس يهدى لمعاوية خلال محاولاته تأسيس حكم وراثي قبلي في دولة النبوة والقضاء على خلافة علي (ع) بحد السيف.

وعندما علم الإمام علي (ع) باستشهاد عمار، بكاه وصلى عليه، وأمر بدفنه حيث استشهد^(١٦).

وقال فيه الإمام علي عند استشهاده: «إن امرأ من المسلمين لم يعظم عليه قتل

عمار بن ياسر ويدخل عليه المصيبة لغير رشيد، رحم الله عماراً يوم أسلم، ورحم الله عماراً يوم قتل ورحم الله عماراً يوم يبعث حياً. لقد رأيتُ عماراً وما يذكر من أصحاب رسول الله (ص) أربعة إلا كان رابعاً ولا خمسة إلا كان خامساً» (١٧).

نعم عمار أسلم ثم هدى الله على يديه أبويه وأخاه عبد الله الذين أسلموا بعده (١٨). هاجر الهجرتين وصلى القبلتين.

وشهد بداراً وأحدأً وبيعة الرضوان وجميع الغزوات والمشاهد مع رسول الله (ص)، وأبلى بلاءً حسناً. وكان من المبرزين في الجيش الذي استمات من أجل نصرة الحق. واستمر بعد وفاة الرسول (ص) يعمل على رفع راية الاسلام ونشر مبادئه (١٩).

وحينما ثار مسيلمة الكذاب باليمامة، كان عمار أحد رجال ذلك اليوم البارزين الذي انتصر فيه المسلمون على المرتدين. روى الواقدي عن عبد الله بن عمر قال: «رأيتُ عماراً يوم اليمامة على صخرة وقد أشرف عليها يصيح: يا معشر المسلمين أمن الجنة تفرون أنا عمار بن ياسر، هلموا إليّ، وأنا أنظر إلى أذنه قد قطعت فهي تذبذب [كذا] وهو يقاتل أشد القتال» (٢٠).

عذبتة قريش مع والديه حينما كانت تحت زعامة أبي سفيان حيث لوحظت آثار النار على ظهر عمار حتى أواخر حياته. وقتل عمار على أيدي رجال معاوية بن أبي سفيان. إنه استمرار لصراع الحق مع الباطل. كان عُمر عمار عند استشهاده أربع وتسعين سنة (٢١)، وما بكاء الامام علي (ع) على عمار ورثائه بتلك الكلمات البليغة إلا دليل مكانته العظيمة في الاسلام. لقد كان أحد صفوة رجاله القلائل الذين نذروا حياتهم لخدمة العقيدة. انه سليل سميّة وياسر.

٢- أسماء بنت عميس

إحدى نساء دولة النبوة الفاضلات ومن أوائل السابقات إلى الإسلام، حيث أسلمت قبل دخول الرسول (ص) دار الأرقم بمكة (٢٢). وهي بنت عميس بن النعمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن خثعم. أمها خولة بنت عوف بن زهير بن الحارث بن حمادة بن حرش (٢٣). زوجها جعفر بن أبي طالب (الطيار) من السابقين إلى الإسلام أيضاً. وهي إحدى النساء العشر اللواتي ساهنَّ الرسول (ص) الأخوات

المؤمنات^(٢٤). قيل فيها أنها أكرم الناس أصهاراً، فمن أصهارها النبي (ص) لأنه زوج أختها ميمونة لأُمها، وحمة بن عبد المطلب زوج أختها سلمى، والعباس بن عبد المطلب زوج أختها لبابة أم الفضل^(٢٥).

وحينما إزداد تعذيب مشركي قريش للمسلمين ووجد النبي (ص) نفسه عاجزاً عن حمايتهم نصحبهم بالهجرة إلى الحبشة لشهرة ملكها النجاشي بالعدل. فكانوا أحد عشر رجلاً وقيل عشرة مع أربع نساء برئاسة عثمان بن مضعون وكان ذلك في رجب السنة الخامسة للبعثة النبوية الشريفة، وكانت وسيلة نقلهم سفينتين تجاريتين، حيث مكثوا شعبان ورمضان بالحبشة وعادوا إلى مكة في شوال لسماعهم نبأ إسلام قريش^(٢٦). وحين اكتشف المهاجرون الأوائل عدم صحة تلك الأنباء وإزداد تعذيب المشركين لهم أمرهم الرسول (ص) بالهجرة مرة أخرى إلى الحبشة وكانوا خمسة وسبعين رجلاً وقيل ثمانين ومعهم اثنتا عشرة امرأة وقيل ثمانسي عشرة بينهم أسماء بنت عميس وزوجها جعفر بن أبي طالب المتحدث باسمهم بأمر من النبي (ص)^(٢٧).

وعاش المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة بعيداً عن الوطن فراراً من أذى قريش حيث وجدوا الدعم والعون من ملكها النجاشي على الرغم من محاولة قريش تحريضه لطردهم فباءت مكيدتهم بالفشل. وكانت قريش قد انتدبت عمرو بن العاص لهذه المهمة وحملته بالهدايا حيث رافقه عمارة بن الوليد بن المغيرة^(٢٨). ويظهر من حركة قريش تلك أنهم كانوا يحاولون أن يضيّقوا الخناق على المسلمين داخل وطنهم وخارجهم. ولكن الله نصر نبيه والمؤمنين به. فقد أعجب النجاشي ببراعة جعفر وقدرته على الحجّة والبرهان باستخدام الآيات القرآنية ولم يؤمره الرسول (ص) على وفد المهاجرين المسلمين إلا لمعرفة بالحنكة وفقهه في الدين. ولذلك أعاد النجاشي هدايا قريش إلى وفدهم^(٢٩). كما كان لإعجاب النجاشي بفصاحة وحجة جعفر في الحوار ودرايته بالدين أثر كبير في استجابته لدعوة الرسول (ص) باعتناقه الاسلام حينما سلمه عمرو بن أمية الضميري كتاب الرسول (ص) بهذا الخصوص^(٣٠). كما كتب الرسول (ص) إلى النجاشي بعد ذلك أن يزوجه رملة بنت أبي سفيان التي كانت قد أسلمت وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش - أخو السيدة زينب بنت جحش زوجة الرسول (ص) - الذي إرتدّ عن

الاسلام وتنصر في الحبشة بعد أن ولدت رملة له بتأ تدعى حبيبة فكنت بأم حبيبة (٣١).

وحينما أبلغها النجاشي كتاب رسول الله (ص) وافقت فوكلت خالد بن سعيد ابن العاص بن أمية ليزوجها. فحضر مهاجروا الحبشة من المسلمين مجلس العقد، ودفع النجاشي المهر عن رسول الله (ص) وأقام لهم وليمة احتفاء بالمناسبة، كما أرسل نسائه الطرف والهدايا من طيب وغيره إلى زوجة الرسول (ص) المهاجرة أم حبيبة (٣٢).

نعم، مكثت أسماء بنت عميس مع زوجها جعفر في رعاية المسلمين المهاجرين بالحبشة بعيداً عن أهلهم وديارهم حوالي خمسة عشر عاماً من العام الخامس للبعثة إلى العام السابع للهجرة. وهناك ولدت أسماء لجعفر ثلاثة أولاد هم عبد الله ومحمد وعون. وقدم جعفر وزوجته أسماء وأولاده إلى المدينة وهي الهجرة الثانية، وجميع من معه من المسلمين وكان يوم وصولهم يوم فتح خيبر في السنة السابعة للهجرة. فعانقه النبي (ص) عند قدومه وقال: «ما أدري بأيها أسر بفتح خيبر أم بقدم جعفر» (٣٣). وقيل أن جعفر كان أشبه الناس خلقاً وخلقاً برسول الله (ص) (٣٤). وكان كريماً وجواداً يحب أن يصل المساكين حتى سماه الرسول (ص) أبا المساكين (٣٥).

قتل جعفر شهيداً في غزوة مؤتة عند الكرك. وكانت في جمادي الأولى سنة ٧ هـ، وهو أول قتل من الطالبين في دولة النبوة حيث كان أميراً على جيش المسلمين، وقتل معه أيضاً في المعركة زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة واحد بعد الآخر وهما اللذان توليا أمره الجيش من بعده، فرزىء النبي والمسلمون بفقدهم. وقد استبسل جعفر في الدفاع عن الاسلام في تلك المعركة، فقد قطعت يده وبلغت جراحه حسباً روي في مقدم جسمه ما يزيد على تسعين جرحاً (٣٦).

أما مرقف أسماء حينما وردها خبر استشهاد جعفر فقد روي أنها قالت: «أصبت في اليوم الذي أصيب فيه جعفر وأصحابه فأتاني رسول الله (ص) ولقد هنأت يعني دبغت أربعين أهاباً من آدم وعجنت عجيني وأخذت بني، ففسلت وجوههم ودهنتهم، فدخل علي رسول الله (ص) فقال: (يا أسماء أين بنو جعفر؟ فجلست بهم إليه فضمهم وشمهم، ثم ذرفت عيناه فبكى، فقلت: أي رسول الله لعله بلغك عن جعفر شيء؟ قال: نعم: قتل اليوم. فقمْتُ أصبح فاجتمع إليَّ

النساء، فجعل رسول الله (ص) يقول: يا أسماء! لا تقولي هجراً، ولا تضري صدرأ. ودخل على ابنته فاطمة وهي تقول: واعمأه، فقال (ص): على مثل جعفر فلتبك الباكية). ثم قال اصنعوا لآل جعفر طعاماً فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم^(٣٧) كما بشرها الرسول بكرامة جعفر عند الله وأنه جعل له جناحين يطير بهما في الجنة، وقد أخبر الرسول المسلمين، بتلك المكرمة الإلهية لجعفر^(٣٨) وعاشت أسماء حزينة على فقد جعفر، ثم تزوجها أبو بكر فولدت له محمد بن أبي بكر، وبعد وفاته تزوجها علي بن أبي طالب وكان سن محمد بن أبي بكر عند وفاة أبيه نحو ثلاث سنوات، فرباه علي بن أبي طالب، فكان ربييه وخرّيج حجره ومدرسته وفي مكانة أولاده. تعلق محمد بن أبي بكر بالإمام علي فلم يكن يعرف له أباً سواه، ولا يعتقد لأحد فضيلة غيره، حتى قال الإمام علي (ع): «محمد ابني من صلب أبي بكر»^(٣٩). وقد ولدت أسماء لعلي يحيى وعوناً^(٤٠).

وكانت لأسماء بنت عميس منزلة عند رسول الله (ص) لسبقها إلى الاسلام وصبرها على النأى عن الوطن، وتحمل آلام الغربة في سبيل الله وتعلقها بحب الرسول وآله إلى جانب وشائج المصاهرة فهي زوجة ابن عمه جعفر الذي يعتبر ثاني المصلين خلف الرسول (ص) بعد الإمام علي (ع) من الرجال، وكانت خديجة (ع) ثالثتهما^(٤١). فقد روي أن أبا طالب مرّ على رسول الله (ص) وهو يصلي وعلي إلى جانبه وخديجة خلفه، فقال لابنه جعفر الذي كان برفقته صل جناح ابن عمك، فوقف على يسار رسول الله (ص) وصلى. وانصرف أبو طالب مسروراً وهو يقول^(٤٢).

إن علياً وجعفرًا ثقتي عند ملم الزمان والكرب

والله لا أخذل النبي ولا يخذله من بني ذو حسب

لا تخذلا وانصرا ابن عمكما أخي لأمي من بينهم وأبي

وحفظ رسول الله (ص) لأسماء منزلتها عن طريق الإشادة بتضحياتها في مواقف عديدة. روى البخاري عن أبي موسى قال: «بلغنا نخرج النبي (ص) ونحن باليمن فخرجنا مهاجرين إليه أنا وإخوان لي أنا أصغرهم، أحدهما أبو بردة والآخر أبو

رُهم، في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي . فركبنا سفينة فالتقتنا سفيتتنا إلى النجاشي بالحبشة فوافقنا جعفر بن أبي طالب ، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً ، فوافقنا النبي (ص) حين افتتح خير . وكان أناس من الناس يقولون لنا - يعني لأهل السفينة - سبقناكم بالهجرة . ودخلت أسماء بنت عميس ، وهي ممن قدم معنا على حفصة زوج النبي (ص) زائرة ، وكانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر . فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها ، فقال عمر حين رأى أسماء : من هذه؟ قالت : أسماء بنت عميس . قال عمر : الحبشية هذه ، البحرية هذه؟ قالت أسماء : نعم ، قال : سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله (ص) منكم . فغضبت وقالت : كلا والله كنتم مع رسول الله (ص) يطعمُ جائعكم ، ويعطُ جاهلكم ، وكنا في دار أوني دار البعداء بغضاء الحبشة ، وذلك في الله وفي رسول الله (ص) ونحن كنا نُؤذى ونخاف ، وسأذكر ذلك للنبي (ص) وأسأله ، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيدُ عليه . فلما جاء النبي (ص) قالت : «يا نبي الله إن عُمرَ قال : كذا وكذا ، وقلْتُ له كذا وكذا . قال : «ليس بأحق بي منكم ، وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان» .

قالت : فلقد رأيتُ أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونني أرسالا يسألوني عن هذا الحديث ، وما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي (ص) . قال أبو بردة ، قالت أسماء : فلقد رأيتُ أبا موسى وأنه ليستعيدُ هذا الحديث مني^(٤٣) هكذا كان يجُلُّ الرسول (ص) قدر المسلمين المناضلين والمضحين في سبيل الدين ولا فرق في ذلك عنده بين ذكور وإناث ، بمثل تلك المعاملة ربي رجال ونساء دولة النبوة . فكانوا خير نموذج للأجيال اللاحقة عبر تعاقب العصور .

إزداد تعلق أسماء وشدة حبها لأهل بيت رسول الله بعد وفاته (ص) ولازمت بيت فاطمة الزهراء لخدمتها خصوصاً في مرضها . وقد ورد ذكر النعش الذي صنعتها لفاطمة الزهراء قرب موتها في الفصل الثاني ، والذي يعتبر إحدى حصائل خبراتها في الحبشة من ناحية ، كما يدل ذلك الخبر على ملازمة أسماء خادمة فاطمة الزهراء لحبها لها وتعبيراً عن ولائها لآل رسول الله (ص) والتزاماً بحفظ رسول الله (ص) في ذريته

وفقاً لوصيته للأمة . كما ورد في الفصل الثاني أيضاً مشاركتها الامام علي (ع) في تغسيل فاطمة بعد وفاتها^(٤٤). وإن دلّ ذلك على شيء فإنما يدل على الثقة التي نالتها أسماء عند البيت النبوي وصدق ولائها لهم طمعاً في مرضاة الله . كما أن إقدام كل من أبي بكر وبعده الامام علي (ع) على الزواج منها يعكس مكانتها العالية عند المسلمين لأنها هاجرت الهجرتين وصلت القبلتين . وأنجبت من أزواجها الثلاثة وكل بنيتها تربوا تحت رعايتها لم تقنط في حق أحد منهم . ويقال أنها لما بلغها نبأ استشهاد ابنها محمد بن أبي بكر بمصر قامت إلى مسجد بيتها وكظمت حتى شخبت ثدياها دماً^(٤٥).

ولا شك أن قَدَمَ إسلامها وما تحملته من معاناة الاغتراب في سبيل عقيدتها وفجيعتها باستشهاد زوجها جعفر في ربيع شبابه إذ لم يبلغ الأربعين عاماً ، وعشرتها الإمام علي آخر أزواجها كل ذلك صقل شخصيتها وعمّق إيمانها وانعكس على سلوكها في مواجهة المصائب ، حيث أن ولاءها لأهل البيت قولاً وفعلاً جعلها تلتزم سيرتهم وتتخذهم أسوة في مواجهة محن الزمان .

وكما استشهد ابنها محمد بن أبي بكر لثباته على الولاء المطلق لأهل البيت ، كذلك استشهد حفيدها محمد وعون ولدا ابنها عبد الله بن جعفر ، في ملحمة الشهادة بكر بلاء دفاعاً عن الحق والدين والأمة . أما على الصعيد العلمي فقد روت أسماء الحديث عن النبي (ص)^(٤٦).

كانت سيرة أسماء بنت عميس نموذجاً للمرأة الرسالية التي تضحي من أجل عقيدتها وتلتزم بأخلاقيات تلك العقيدة في القول والفعل وضحت بالنأي عن الوطن من أجل سلامة تلك العقيدة . وكانت حياتها نموذجاً للمسلمة الملتزمة بشرائع دينها ، ونموذجاً للزوجة الصالحة ، ونموذجاً فذاً للأم المتفانية في رعاية أولادها .

ولتلك السيرة العطرة حق لها أن تكون قدوة لنساء دولة النبوة . فهي زوجة الشهيد الطيار وجدة الشهيدين محمد وعون . إنه عطاء الإيمان العظيم للمرأة رسالية عظيمة .

٣- بطلات أحد

أولاً: نسيية أم عمارة

ثانياً: هند بنت عمرو بن حزام

ثالثاً: السمداء بنت قيس

إن تاريخ دولة النبوة حافل بتماذج متعددة من الشخصيات النسائية اللاقي أعطين للدين والأمة الكثير من حياتهن وتقدمن النموذج الأمثل لأجيال دولة النبوة المتعاقبة . كان حافزهن في ذلك المبادئ التي قامت عليها دولة النبوة والمتمثلة في الحق والعدل والمساواة والحرية ، التي تعتبر خلاصة للقيم الحضارية التي عرفتها البشرية من جانب وتضحيات النساء السابقات إلى الإسلام بكل شيء ، وتساميهن على بهارج الحياة الدنيوية أو بمعنى آخر على الماديات من جانب آخر.

فالسيدة خديجة ضحت بكل ما تملك وهي سعيدة بذلك من أجل أن تنتصر مبادئ الدين الذي جاء به زوجها محمد (ص). وسمية زوجها ياسر قدما أرواحهما قرابين من أجل انتصار نفس المبادئ ، وغيرهن من السابقات إلى الاسلام نأين عن الأهل والأحبة والوطن وتحملن الكثير من الآلام في أرض الهجرة بالحبشة ، مثل أسماء بنت عميس ورملة بنت أبي سفيان وغيرهن من أجل مساندة الحق ضد الباطل ، وحتى تبقى كلمة الله هي العليا . إنه الذوبان في العقيدة ، إنه الذوبان في ذات الله بعمق الإيمان . ولقد سجلت المرأة المؤمنة المتعالية على بهارج الحياة وزيتها مواقف خالدة خلال أشد المعارك ضراوة . وكانت معركة أحد واحدة من أهم المعارك الحاسمة في الصراع من أجل البقاء بين حزب الشيطان الذي مثلته قريش وحزب الله الذي مثله النبي محمد وأتباعه من المسلمين ، حيث تعرضت فيه حياة الرسول (ص) للخطر وفرَّ العديد من المسلمين من جبهة القتال نتيجة لضعف إيمانهم وقد برزت في هذه المعركة بطولة ثلاث شخصيات نسائية يستحق أن يقف عندها التاريخ والمؤرخون لتسجيل هذه المواقف الفذة ، لتتخذ منها المرأة في دولة النبوة العبرة والقدوة والتباهي بمواقفهن بين نساء العالم . بل والتحدث عنهن بإعزاز وفخار . خاصة بالنسبة للذين يجهلون المبادئ الحقيقية التي أسس محمد (ص)

عليها دينه ودولته . ومما يؤسف له أن هذا الجهل لا يقتصر على غير المسلمين ، وإنما يشمل بعض المسلمين بالهوية الذين ينظرون للمرأة نظرة ترفضها حتى الأديان غير السماوية .

فكيف لا يرفض مثل تلك النظرة الدين الذي جاء خلاصة لتلك الحضارات التي عرفت البشيرة .

فعلى الرغم من فرار الكثير من المقاتلين المسلمين من معركة أحد إلا أن رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات صمدوا ونذروا أرواحهم فداء لله . فعن أنس بن مالك أنه أتى رسول الله (ص) بعلي وعليه نيف وستون جراحة . قال أبان : أمر النبي (ص) أم سليم وأم عطية أن تداوياه فقالتا ؛ قد خفنا عليه ، فدخل النبي (ص) والمسلمون يعودونه - بعد انتهاء المعركة - وهو قرحة واحدة ، فجعل النبي (ص) يمسحه بيده ويقول : «إن رجلاً لقي هذا في الله لقد أبلى ، وأعذر ، فكان يلتئم ، فقال علي : الحمد لله الذي جعلني لم أفر ولم أولي الدبر» فشكر الله تعالى له ذلك في موضعين من القرآن^(٤٧) ، وهو قوله تعالى : ﴿سيجزي الله الشاكرين﴾^(٤٨) . ﴿وسنجزي الشاكرين﴾^(٤٩) .

أما هؤلاء النساء الثلاث اللاتي برزت بطولتهن في أحد فهن :

أولاً : نسيبة أم عمار :

لم يقتصر دور المرأة خلال المشاركة في الحروب في العهد الأول لدولة النبوة على توصيل الماء والطعام ومداواة الجرحى ، ولكن لعبن أدواراً أكثر فاعلية وأكثر شجاعة وكما برزت بطولات رجالية في معركة أحد كذلك برزت بطولات نسائية . فقد نقل ابن أبي الحديد عن الواقدي قوله : «كانت نسيبة بنت كعب أم عمار بن غزية بن عمرو قد شهدت أحداً وزوجها غزية وابناها عمار بن غزية وعبد الله بن زيد . وخرجت ومعها شن لها في أول النهار تريد أن تسقي الجرحى ، فقاتلت يومئذ وأبليت بلاء حسناً فجُرحت اثني عشر جرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف . فكانت أم سعد بنت سعد بن الربيع تحدث فتقول دخلتُ عليها فقلت لها يا خالة : (حدثيني خبرك فقالت : خرجتُ أول النهار إلى أحد وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعني سقاء فيه ماء ، فانتبهتُ إلى رسول الله (ص) وهو في الصحابة والدولة [كذا] والريح للمسلمين ،

فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله (ص) فجعلتُ أباشِرُ القتال وأذُبُ عن رسول الله (ص) بالسيف وأرمي بالقوس حتى خلصت إلى الجراح. فرأيتُ على عاتقها جرحاً أجوف له غور. فقلتُ؛ يا أمَّ عمارة! من أصابك بهذا؟ قالت؛ أقبل ابن قميئة، وقد ولَّى الناس عن رسول الله (ص) يصيح دلوني على محمد لا نجوتُ إن نجى. فاعترض له مصعب بن عمير وناس معه، فكنتُ فيهم، فضربني هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكنه عدو الله كان عليه درعان» (٥٠).

وعن استبسال أم عمارة في قتال المشركين في أحد وتشجيعها أبناءها، روى الواقدي عن عبد الله بن زيد المازني قال: جرحت يومئذ جرحاً في عضدي اليسرى، ضربني رجل كأنه الأقل ولم يعرج علي ومضى عني وجعل الدم لا يرقأ. فقال رسول الله (ص) اعصب جرحك، فتقبل أُمِّي إليَّ ومعها عصائب في حقوبها قد أعدتها للجراح، فربطت جرحي والنبي (ص) واقف ينظر، ثم قالت: انهض يا بني فقاتل القوم، فجعل رسول الله (ص) يقول: «ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة؟» قالت وأقبل الرجل الذي ضربني، فقال رسول الله (ص) هذا ضارب إبنك، فاعترضت أُمِّي له فضربت ساقه فبرك. فرأيتُ النبي (ص) تبسم حتى بدت نواجذه ثم قال استقدت يا أم عمارة. ثم أقبلنا نعلّه بالسلاح حتى أتينا على نفسه، فقال النبي (ص): (الحمد لله الذي ظفرك وأقر عينك من عدوك وأراك تارك بعينك)» (٥١).

لقد استبسلت الأسرة بكاملها من أجل إنقاذ حياة الرسول (ص) خاصة وأن وجود المرأة بينهم واستماتتها في القتال لا شك أنه يثير النخوة والحمية في الرجال، فكيف بالمرأة وهي تباشر القتال بنفسها، مما يضاعف همّة الرجال خصوصاً حين الدفاع عن العقيدة.

وعن تفاصيل بعض المواقف القتالية في أحد وثبات أم عمارة روى الواقدي عن الحارث بن عبد الله قال: سمعت عبد الله بن زيد بن عاصم يقول: «شهدتُ أحداً مع رسول الله (ص) فلما تفرق الناس عنه دنوتُ منه وأُمِّي تذبُّ عنه فقال: يا ابن عمارة قلتُ: نعم، قال: أرم، فرميتُ بين يديه رجلاً من المشركين بحجر وهو على فرس فأصيب عَيْنُ الفرس، فاضطرب الفرس حتى وقع هو وصاحبه وجعلتُ أعلوهُ بالحجارة حتى لقوت عليه منها وقراً، والنبي (ص) ينظر إليَّ ويبتسم، فنظر

إلى جرح بألمي على عاتقها فقال : (أملك! أملك! اعصب جرحها بارك الله عليكم من أهل بيت . لمقام أملك خير من مقام فلان وفلان ، ومقام ربيك - يعني زوج أمه - خير من مقام فلان رحمكم الله من أهل بيت» فقالت أُمِّي : ادعُ لنا يا رسول الله أن نرافقك في الجنة فقال : (اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة) ، قالت : فما أبالي ما أصابني من الدنيا^(٥٢) . نعم ، الرجال يفرون والمرأة تصمّد ، انه سلاح العقيدة الذي يثبت القلوب ، وقوة الإيمان التي تندك عندها الجبال الرواسي ، وقوة الإيمان والإقدام على التضحية تتسامى على الموت ، وتحتقره . هكذا كانت الروح ، التي حملتها النساء الرساليات بين ثنايا أضلعهنّ في الصدر الأول لدولة النبوة . إنه الثبات على العقيدة والمبدأ المرأة المؤمنة المجاهدة نسبية في أحد تقدم على الموت من أجل انقاذ حياة منقذ البشرية من الظلمات إلى النور لأنها لمست عن قرب النقلة التي أحدثها الإسلام في حياتهم في شتى المجالات . تستميت نسبية في انقاذ الرسول (ص) مع زوجها وأولادها ليكمل رسالته الإلهية . بينما غالبية المقاتلين المسلمين بما فيهم بعض الصحابة يفرون تاركين الرسول يواجه مصيره في لحظات الخطر والحسم ، انهم يفرون خوفاً من الموت . اختلاف الدرجات الايمانية هو الفاصل ، وهو المحك في الساعات الحرجة قال تعالى : ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾^(٥٣) .

قوة العقيدة تتحول إلى شعله وهاجة داخل النفس البشرية تضيء الطريق للإقدام على الشهادة وتجعل الحياة رخيصة من أجل سلامة المعتقد في ساعات الحسم . وإذا تمكنت العقيدة من النفس ، كانت أعز من الأهل والمال والولد والوطن .

وحينما سُئِلت أم عمارة عما إذا كانت نساء قريش قد شاركن في قتال المسلمين يوم أحد ، قالت كما يروي الواقدي : «لا والله ما رأيت امرأة منهن رمت بسهم ولا حجر ، ولكن رأيتُ معهن مكاحل ومراد ، فكلما ولى رجل أو تكعكع ناولته إحداهن مروءاً»^(٥٤) .

كما أبدت نسبية تدمرها من عصيان الرمة وأمر الرسول (ص) وكان ذلك سبباً لهزيمة المسلمين وكثرة خسائرهم البشرية بقولها : «ف عند الله نحسب ما أصابنا يومئذ

من قبل الرمة ومعصيتهم لرسول الله (ص) «(٥٥)».

ولم تقتصر مشاركة نسبية المقاتلين المسلمين في معركة أحد ولم يدخل قلبها روع مما حدث لقوة إيمانها، ولذلك شاركت في حرب المرتدين باليامة بزعامة مسيلمة الكذاب فسجلت موقفاً بطولياً آخر وعلى الرغم من أن يدها قد قطعت في هذه الحرب، إلا أنها لم تلتفت لذلك، إلا بعد أن إطمأنت على قتل مسيلمة الكذاب على يد ابنها زيد المازني، فسجدت لله شكراً على تخلص الأمة والدين من أحد أعداء الله الضالين المضللين (٥٦).

وقد حفظ لها عمر بن الخطاب مكانتها ومنزلتها عند رسول الله (ص) أن برها في العطاء، وكان يقول: «سمعت رسول الله (ص) يوم أحد يقول: (ما التفتُ يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني)» (٥٧).

وهكذا قدمت نسبية أم عمارة نموذجاً للمرأة الرسالية في دولة النبوة من خلال الدور البطولي الذي لعبته في ساحات القتال جنباً لجنب مع أخوتها المقاتلين في جيش دولة النبوة. إنها تستحق أن تكون قدوة في تضحياتها من أجل الدين والأمة، لأنها امرأة رسالية أعطت الدروس الحقيقية لنساء دولة النبوة عبر الأجيال بشكل خاص ولنساء العالم بشكل عام. إن الدور الذي قامت به إنها هو نتاج التربية النبوية لنساء الأمة عبر مبادئ الرسالة النبوية من جانب والسيرة المعطاءة لنساء البيت النبوي كخديجة وفاطمة الزهراء والعقيلة زينب من جانب آخر.

ثانياً: هند بنت عمرو بن حزام:

لم تكن نسبية وأسرتهما الوحيدتين، الذين قدموا مواقف بطولية في معركة أحد، فقد فجّرت مبادئ دولة النبوة ورسالة مؤسسها في نفوس المؤمنين والمؤمنات روح التضحية والفداء. فهند بنت عمرو بن حزام وأسرتهما المكونة من زوجها عمرو بن الجموح وأولادها نموذجاً آخر من نماذج أحد البطولية التي تستحق الوقوف عندها لاتخاذ العظة والعبرة واستلهاهم روح الاقدام والتضحية من مواقف هذه الأسرة المؤمنة المعطاءة. وهند هي أخت عبد الله بن عمرو بن حزام والد جابر بن عبد الله الأنصاري الصحابي الجليل (٥٨)، الذي يعتبر أول زائر لقبر أبي عبد الله الامام

الحسين (ع)، كما ورد ذلك في الفصل الثالث .

كان عمرو بن الجموح رجلاً أعرج كما روى الواقدي ، وكان له بنون أربعة يناضلون بين يدي النبي في الغزوات كأنهم الأسود الضارية . فلما كان يوم أحد تآقت نفس عمرو إلى الشهادة فأراد قومه أن يحبسوه لسبيين : الأول أن أولاده الأربعة قد التحقوا بالرسول (ص) للقتال بين يديه دفاعاً عن الاسلام^(٥٩) . والثاني أنه أعرج ولا حرج عليه ، أي أن واجب الجهاد يسقط عنه شرعاً ، لقوله تعالى : ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً﴾^(٦٠) .

فكيف كان موقفه من الحاح قومه عليه بلزوم بيته؟

إن عشق الشهادة جعله يتمرد على مقترحاتهم النابعة من عواطفهم وشفقتهم عليه كأقرباء فقال : «بخ يذهبون إلى الجنة وأجلس أنا عندكم؟»^(٦١) . إنه يغبط أولاده على أن جهادهم سيقودهم إلى الجنة فهو لا يريد أن يكون حبيس داره ، ويحظى أبناءه بنعيم الجنان والخلود في الدارين . وقالت زوجته هند بنت عمرو بن حزام تصف حاله حين خروجه من الدار كما يروي الواقدي قائلة : «كأني أنظرُ إليه مولياً قد أخذ درقته وهو يقول : (اللهم لا تردني إلى أهلي)»^(٦٢) .

عمرو بن الجموح رفض أن تكون عاهة العرج حائلاً بينه وبين عشقه للشهادة . تمرد على أبنائه ، وعلى كبار قومه وعلى شيخوخته وعلى عاهته وذهب شاكياً لرسول الله (ص) هم ، ملتمساً إذن الجهاد قائلاً : «يا رسول الله إن قومي يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك ، والله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة»^(٦٣) . لقد كان رسول الله (ص) بينهم النبي والمعلم والصديق . إنها أخلاق خاتم الأنبياء والمرسلين الذي امتدح الله أخلاقه في كتابه العزيز بقوله تعالى : ﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾^(٦٤) .

كان موقف الرسول (ص) من التماس عمرو بن الجموح تدريجياً فقد بين له الموقف الشرعي أولاً ، بقوله : «أما أنت فقد عذرك الله ولا جهاد عليك»^(٦٥) ، وحينما

لاحظ عليه رسول الله (ص) تعطشه للشهادة لأنه أبى التقيد بالحكم الشرعي بسبب عاهته توجه النبي (ص) لقومه وبنيه الذين عارضوا التحاقه بميدان القتال في أحد قائلاً لهم: «لا عليكم أن تمنعوه لعل الله يرزقه الشهادة»^(٦٦) لقد أوضح الرسول (ص) بحنكته المرونة في تطبيق الحكم الشرعي . وبعد أن أذن له الرسول (ص) خرس خطب قومه وبنيه ، والتحق عمرو بساحة القتال في أحد وقاتل يومئذ حتى رُزق الشهادة بين يدي رسول الله (ص)^(٦٧).

ويقول أبو طلحة - شاهد عيان في معركة أحد - يصف الموقف البطولي لأسرة ابن الجموح قائلاً: «نظرتُ إلى عمرو بن الجموح حين انكشف المسلمون ثم ثابوا وهو في الرعيل الأول . لكأني أنظر إلى ضلعه وهو يعرج في مشيته وهو يقول: (أنا والله مشتاق إلى الجنة) ، ثم انظر إلى ابنه يعدو في أثره حتى قتلا جميعاً»^(٦٨)، كما قتل أيضاً عبد الله بن عمرو بن حزام أخو هند . ثلاثة شهداء لهند : ابنها وأخوها وزوجها . كلهم تسابقوا لنيل الشهادة ، وفدوا الرسول (ص) والدين والأمة بأرواحهم الطاهرة من أجل أن ينتصر الحق وتعلو كلمة الله .

ونتيجة لهزيمة المسلمين في هذه المعركة وإصابتهم بخسائر بشرية كبيرة وانتشار خبر مقتل الرسول (ص) في المدينة ، توجه عدد من نساء المدينة إلى مكان المعركة مدعورات بينهن فاطمة الزهراء وعائشة كما ورد ذلك في الفصل الثاني ، حيث قرب مكان المعركة من المدينة .

كانت هند واحدة من تلك النساء حيث انطلقت بغيرها إلى مكان المعركة ورأت مصارع زوجها عمرو بن الجموح وابنها خلاد وأخيها عبد الله بن عمرو بن حزام ، فحملت جثثهم على بغيرها وتوجهت بهم نحو المدينة لدفنهم ، حتى تكون قريبة من قبور الأحبة لزيارتهم . قال الواقدي يصف هذا المشهد ، وما حصل من إعجاز في نقل تلك الأجساد الطاهرة: «وكانت عائشة خرجت في نسوة تستروح الخبر، ولم يكن قد ضرب الحجاب يومئذ حتى كانت بمنقطع الحرة وهي هابطة من بني حارثة إلى الوادي لقيت هنداً بنت عمرو بن حزام أخت عبد الله بن عمرو بن حزام تسوق بغيراً لها عليه زوجها عمرو بن الجموح وأخوها عبد الله بن عمرو بن حزام أبو جابر ابن عبد الله وابنها خلاد فقالت لها عائشة: (عندك الخبر فما وراءك؟) فقالت هند: خير أما رسول الله (ص) فصالح وكل مصيبة بعده جليل واتخذ الله من المؤمنين

شهداء ورد الله الذين كفروا بغيظهم» (٦٩).

إنها قوة الإيمان، إنها تحمل نفس الروح التي قدمتها أجساد الأحبة الذين تحملهم على بغيرها في ميدان القتال فداء للعقيدة، إنها ترد على عائشة بكل وقار وإفتخار ما دام رسول الله (ص) سالماً فكل غال يرخص من أجل الدين من أجل سلامة النبوة، ومن أجل الأمة. إن هؤلاء الثلاثة ذخيرة غالية لهند في الحياة، لكنها تعلم أن الصرح الذي شيدوه بتلك التضحية هو خير عزاء إنه صرح الخلود في الدارين. تلك كانت رسالة هند إلى مجتمع المدينة وإلى مجتمع الأمة عبر تعاقب الأجيال أن سلامة الدين هي الحياة وأن سقوطه هو الموت الأبدي. كل حبيب يرخص من أجل الرسول (ص) لأنه يمثل كل شيء في حياة الأمة. وخطط الوثنيين أحبطها الله من خلال دماء الأمة وقرايبتها. وهكذا تجلت عظمة الاسلام في خلق مثل هذه الأسرة العظيمة، هكذا جنود الله وهكذا تكون النفوس الرسالية لا فرق في العطاء والحماس العقائدي بين شيخ وشاب أو بين رجل وامرأة، والكل يقدم من أجل تأسيس دولة النبوة ومن أجل صاحب الرسالة، ومن أجل سلامة الأمة وبنائها، لتبقى العزة لله ولدينه ولرسوله ولأمة الحق.

وحينما سألتها عائشة عن الأجساد التي تحملها على بغيرها قالت هند: «أخي وابني وزوجي قتلى، قالت: فأين تذهين بهم؟ قالت إلى المدينة أقبرهم بها» (٧٠). بعدها أرادت هند أن تواصل مسيرها إلى المدينة مستخدمة عبارة حل حل تزجر بغيرها وبدلاً من السير برك البعير. فقالت لها عائشة: «لثقل ما حمل» قالت هند: «ما ذاك به لربما حمل ما يحمله البعيران، ولكن أراه لغير ذلك» (٧١)، وحينما زجرت هند بغيرها قام، إلا أنه عاد وبرك حينما وجهته إلى المدينة. فاقترحت عليها عائشة أن يذهبن جميعاً إلى الرسول (ص) بأحد لإخباره بقصة البعير. فحينما وجهت هند البعير إلى أحد أسرع، فرجعت إلى أحد حتى التقت النبي (ص) فأخبرته بما كان من أمر البعير. فقال: «أن الجمل للمأمور، هل قال عمرو شيئاً حينما هم بالخروج من المنزل؟» قالت: «نعم إنه لما وجه إلى أحد استقبل القبلة ثم قال: اللهم لا تردني إلى أهلي وارزقني الشهادة». فقال (ص): «فلذلك الجمل لا يمضي، إن منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبره منهم عمرو بن الجموح، يا هند ما زالت

الملائكة مظلة على أخيك من لدن قُتِلَ إلى الساعة ينظرون أين يدفن» (٧٢).

هكذا شرح الرسول (ص) قصة الإعجاز في استجابة الله لدعاء عمرو بن الجموح العبد الصالح الذي أشاد الرسول (ص) بمكانته العالية عند الله وكذلك مكانة أخيها العالية عند الله أيضاً كما يتضح ذلك من قول رسول الله (ص) خلال حوارهِ مع هند في أحد هكذا يكرم الله عباده الصالحين الذين يقدمون أرواحهم فداءً لدينه وإعلاء كلمته.

وقد أمر الرسول (ص) بدفن عبد الله بن عمرو بن حزام أخو هند، وزوجها عمرو بن الجموح في قبر واحد، فقال: «إدفنوا هذين المتحابين في الدنيا في قبر واحد» (٧٣). ويروي الواقدي أن رسول الله (ص) مكث في قبرهم ثم قال: «يا هند قد ترافقوا في الجنة جميعاً عمرو بن الجموح بعلك وخلاد ابنك وعبد الله أخوك». فقالت هند يا رسول الله: «فادعُ الله لي عسى أن يجعلني معهم» (٧٤). وهذا يدل على أنهم دفنوا في قبر واحد. إلا أنه يقال أن سبب دفن عمرو وعبد الله في قبر واحد أنهما مثل بهما كل مثله حيث قطعت آدابهما عضواً عضواً فلا تعرف أبداً، لذا أمر النبي (ص) بدفنهما في قبر واحد (٧٥). وكما ينقل الواقدي عن جابر أن أباه أول قتيل من المسلمين في أحد، قتله سفيان بن عبد شمس أبو الأعور السلمي، فصلى عليه الرسول (ص) قبل هزيمة المسلمين في تلك المعركة (٧٦).

لقد مثلت هند دور المرأة المؤمنة الصابرة، دون أن تضعف وهي ثكلى، حمل بغيرها أجساد أعز الناس عندها في الحياة، لكن تبقى العقيدة عندها فوق كل إعتبار. إنها نموذج من نماذج نساء دولة النبوة الرساليات اللواتي يقدمن من خلال مواقفهن الإيمانية في لحظات حاسمة من تاريخ دولة النبوة وهي في طور النشأة، وهي في المهد تصارع جنود الباطل وأحزاب الشيطان، من أجل تحقيق الحياة الكريمة لكل إنسان مهما كان لونه أو عرقه أو دينه. كانت هند وأسرته من عوامل نجاح دولة النبوة التي كانت ما تزال في المهد. في بناء الأسرة المناضلة المضحية الرسالية. إن موقفها البطولي يجب أن يكون نبراساً للمرأة المسلمة بشكل خاص لتستمد منه روح التضحية والفداء من أجل تربية أبناء في مستوى أبناء هند وزوجها

وأخيها ليكونوا عوناً وسنداً للدين والأمة والوطن .

ثالثاً : السمداء بنت قيس :

وتكررت المواقف البطولية لنساء دولة النبوة في ملحمة الاستشهاد في أحد ، حيث لم تقتصر تلك المواقف على نسيبة وهند مع أسرتيهما ، فقد سجلت السمداء بنت قيس موقفاً بطولياً آخر دلّ على الزخم النسائي العقائدي في تلك الفترة المبكرة من تاريخ دولة النبوة الفتية .

كان للسمداء ولدان شاركوا في تلك المعركة فخرجت منطلقاً على بعيرها نحو ميدان القتال لاستكشاف خبرهما بعد أن شاعت أنباء هزيمة المسلمين أمام جيش حزب الشيطان . فقد روى الواقدي أن السمداء بنت قيس إحدى نساء بني دينار علمت باستشهاد ابنها النعمان بن عبد عمر وسليم بن الحارث بين يدي رسول الله (ص)، فلما نعى إليها قالت : «فما فعل رسول الله (ص)؟» قالوا بخير هو بحمد الله صالح على ما تحبين» ، فقالت : «أرونيه أنظر إليه» ، فأشاروا لها إليه فقالت : «كل مصيبة بعدك يا رسول الله جليل» (٧٧).

نسيبة ، هند ، السمداء كلهن ، اعتبرن أن سلامة رسول الله (ص) هي أهم شيء في الوجود عندهن ، لماذا؟ لأنه يمثل أمّلهن في خلق دولة المبادئ لإقامة حكم الله في الأرض . إن حياة الرسول (ص) تمثل عزهن وكرامتهن فكل عزيز يرخص من أجله . إن تلك الروح الإيمانية المتسامية على زخارف الحياة هي نتيجة تربية الرسول (ص) ومعايشتهن له ولأهل بيته وتأثرهن بأقواله وأفعاله ، إنهن نماذج أصيلة لثمره نضاله في إرساء قواعد الدين وبناء إنسان دولة النبوة .

لم تكن تلك النماذج غريبة على من نذر حياته في خدمة الدين والأمة هو وعترته إن مواقف نسيبة وهند والسمداء إنما هو تأسيساً بسيرة الرسول (ص) وأهل بيته ، وفي مقدمتهن خديجة وفاطمة الزهراء وعلي والحسين .

بعد أن وصلت السمداء بنت قيس إلى مصرع ولديها حملتهما على بعير وساقته متجهة للمدينة والتقت في الطريق بعائشة مع بعض النساء المسلمات اللاتي توجهن إلى ميدان المعركة فسألتهن عائشة قائلة :

«ما وراءك؟» فأخبرتها قالت: «فمن هؤلاء معك؟» قالت أبنائي ثم سأقت جرحها نحو المدينة حيث دفنا بها^(٧٨).

أثبتت كل من نسيبة وهند والسمداء إنهن رساليات تسامين بعقيدتهن وأعطين النموذج الحق والأمثل للمرأة التي تنكرت لذاتها، وأعطين الدرس لنساء دولة النبوة عبر تعاقب أجيالها. أنه طالما كان في الأمة نساء في مستوى إيمانهن، فلن يتجرأ أحد على إنتهاك حرمة الدين، والنيل من كرامة الأمة.

إنهن نموذج مشرف يحق لدولة النبوة أن تتباهى به ويحق لهن أن يكن القدوة الحسنة لكل امرأة حريصة على التمسك بعقيدتها. والولاء لأمتها ووطنها.

٤ - أسماء بنت يزيد بن السكن (أم سلمة):

إن تاريخ دولة النبوة زاخر بنماذج عديدة للدور المشرف الذي قامت به المرأة المسلمة في الحروب خلال العقود الأربعة الأولى من تأسيس هذه الدولة. لقد سجّلت المرأة المسلمة مواقف بطولية ومشرفة في السلم والحرب على عهد الرسول (ص) لإيمان المرأة أن دورها النضالي في دولة النبوة يجب أن لا يقل أهمية عن دور الرجل وعطائه للدفاع عن العقيدة والأمة ونشر الاسلام في العالم لتحرير الشعوب من ظلم حكامها وجبروتهم عن طريق تطبيق مبادئ دولة النبوة.

ففي معركة اليرموك، التي وقعت في السنة الثالثة عشرة من الهجرة بين المسلمين والروم، حيث كانت حرباً طاحنة دامت أياماً عديدة، كان للمرأة المسلمة موقف بطولي يعتبر موضع افتخار لنساء دولة النبوة بشكل خاص. منهن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصاري المكناة بأم سلمة. وإلى جانب الخطابة، التي اشتهرت بها تميزت أيضاً بالشجاعة والاقدام^(٧٩).

أسلمت في السنة الأولى للهجرة فبايعت الرسول (ص) وسمعت حديثه^(٨٠).

وحضرت زواج السيدة فاطمة الزهراء وقامت بخدمتها في زواجها^(٨١).

تشرّبت أسماء بنت يزيد الأنصاري بالروح الإيمانية للبيت النبوي حيث تأثرت بسيرة السيدة فاطمة الزهراء وتحملها شظف العيش. وفي معركة اليرموك التحقت

بعجيش دولة النبوة تسقي الجنود وتضمّد جراحهم مع عدد من المسلمين . وحينما اشتدت الحرب وحمي وطيسها ، ورأت تساقط الشهداء من المسلمين ، أبت أن تقف موقف المتفرج فإنقضت على عمود خيمتها بكل ما تملك من شجاعة وغاصت في ميدان المعركة ، وتمكنت من قتل تسعة من جنود الروم ، وتوفيت بعد انتهاء تلك المعركة بفترة ليست قصيرة^(٨٢).

إن قوة إيمانها دونها شك هو الذي دفعها لأن ترخص بحياتها من أجل نصرة إخوتها الذين يدافعون عن الدين وعن الأمة ، إنّ أسماء الأنصارية نموذج من نماذج المرأة الرسالية في دولة النبوة التي قامت بدور بطولي خلّد ذكرها في تاريخ هذه الدولة ، وكانت موضع تقدير ونموذجاً يحتذى ببطولتها وإقدامها وتضحيتها من أجل رفعة الدين وإعلاء شأن الأمة .

٥ - تماضر بنت عمرو (الخنساء) :

لم تتوقف تضحيات المرأة المسلمة في دولة النبوة خلال العقود الأربعة الأولى ، لأن هذه الفترة تمثل قمة إلزام المسلمين رجالاً ونساءً بالعقيدة ومبادئ دولة النبوة ولأنهم عاصروا الرسول (ص) وذريته وتأثروا بسيرتهم . لذا فإن التضحيات مصدرها الإيمان والاقتران بسيرة الرسول (ص) وآله الذين كانوا يلتزمون بنصوص الشريعة قولاً وعملاً .

ومن المعارك الحاسمة في تاريخ دولة النبوة في مطلع العقد الثاني من الهجرة في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب معركة القادسية بين جيش دولة النبوة وجيش الامبراطورية الكسروية في عهد يزيدجرد آخر ملوك تلك الامبراطورية التي أطاح بها جيش دولة النبوة . وقعت هذه المعركة بالقادسية بالعراق في السنة الرابعة عشرة من الهجرة . كان قائد جيش الدولة النبوية سعد بن أبي وقاص وقائد الجيش الكسروي رستم الأرمني^(٨٣).

الأسباب غير المباشرة لهذه المعركة هي محاولة مد نفوذ دولة النبوة وتوسيعها لنشر المبادئ المحمدية التي قامت عليها رسالته ودولته . أما المباشرة فتعود إلى استفزازه من جانب سعد بن أبي وقاص من ناحية وامتلاكه قوة عسكرية هائلة من ناحية أخرى تفوق أضعاف قوة المسلمين . كان رسول سعد بن أبي وقاص إلى يزيدجرد هو النعمان بن مقرن الذي توجه إلى المدائن يدعو إلى الإسلام والطاعة لخليفة المسلمين ،

وكانت ردود فعل يزدجرد عنيفة حيث قال للرسول المسلم . «لولا أن الرُّسل لا تقتل لقتلتك»^(٨٤). فأخرجه من المدائن بعد أن حمّله وقرا من التراب على رأسه ، قائلاً له : «إرجع إلى صاحبك فقد كتبت إلى رستم أن يدفعه وجنده من العرب في خندق القادسية ثم لأشغلن العرب بعدها بأنفسهم ولأصيينهم بأشد مما أصابهم به سابور ذو الأكتاف»^(٨٥).

وحينما عاد النعمان بن مقرن إلى سعد وأخبره بما حصل له مع يزدجرد طمأنه قائلاً : «لا تخف إنّ الله قد ملكنا أرضهم تفاؤلاً بالتراب»^(٨٦).

كان جيش المسلمين يتكون من بضعة وثلاثين ألفاً بينما الجيش الكسروي كان يتكون من مئة وعشرين ألفاً ، إضافة إلى ثلاثة وثلاثين فيلاً بينهم فيل يزدجرد الأبيض الضخم . لقد أقام رستم من جيشه لكثرة عدده بريدأ بين القادسية والمدائن حيث يمكن أن تصل كلمته عن طريق نقلها من جندي إلى آخر^(٨٧).

وعلى الرغم من الاستعدادات الضخمة للجيش الكسروي وتفوقه على جيش المسلمين إلا أن رستم كان كارها القتال مؤثراً الوصول إلى حل سلمي ، بيد أن الحاج يزدجرد على القتال أدى لإستسلام القائد لتنفيذ رغبة الملك . ومن ضمن استعدادات رستم وخططه أنه قيّد ثلاثين ألف جندي بالسلاسل لعدم الفرار عن المواجهة^(٨٨).

وحينما التحم الجيشان تمكنت الفيلة من القضاء على خيول المسلمين . وكان رد المسلمين الحاسم والحازم أن ثبت الرِّجَالُ للفيلة وقطعوا خراطيمها بالسيوف فملأت ساحة القتال عواء . وكانت حصيلة الخسائر البشرية في اليوم الأول خمسمئة جندي من المسلمين ومن الجيش الكسروي ألفي جندي . وكان اليوم الثاني للقتال أشد وطأة على الجيش الكسروي من اليوم الأول لوصول أبي عبيدة بن الجراح من الشام في ذلك اليوم على رأس جيش آخر لدولة النبوة ، فشكل الجيش الإسلامي الجديد دعماً وسنداً لجيش دولة النبوة ورفع معنويات المقاتلين المسلمين . وكانت حصيلة ذلك اليوم من الخسائر البشرية في الصفين الفين من المسلمين ، ومن الجيش الكسروي عشرة آلاف^(٨٩).

أما اليوم الثالث فقد كان مهولاً على الجيشين المتحاربين لاستماتة كلّ منهما حيث

استمرت الحرب طوال النهار وطوال الليل لا ينطقون، كلامهم الهدير فسميت ليلة الهدير، إذ انقطعت أخبار المعركة عن قائدي الجيشين، وظلت الحرب مشتعلة إلى وقت ظهر اليوم الرابع. فانهزم الجيش الكسروي نتيجة إرهاقه واستبسال جيش دولة النبوة وثباتهم بالإضافة إلى هبوب ريح عاتية، حتى تمكن جيش الاسلام من الوصول إلى سرير رستم فقتله هلال معلناً نبأ مقتله على يديه. فلم تبق لجيش كسرى عزيمة لمواصلة القتال وفروا نحو المدائن مخلفين وراءهم ثلاثين ألف قتيل، فاستولى المسلمون على أموالهم وأحاطهم الكثيرة، كما جمع جنود الاسلام الكثير من كميات الذهب والفضة، فأرسل سعد بن أبي وقاص الأنفال والغنائم إلى الخليفة عمر بن الخطاب بالمدينة، وقد تلقى سعد رسالة من عمر بن الخطاب تأمره بالبقاء في موضعه وأن لا يلحق بجيش العدو المنهزم، فتمكن من تأسيس مسجد ومدينة الكوفة المعروفة اليوم التي أصبحت فيما بعد عاصمة لدولة النبوة في عهد الإمام علي (ع) (٩٠).

في هذه الحرب السّجال شارك عدد من النساء المسلمات لإمداد المقاتلين العطشى بالماء وتضميد جراح المصابين. وكانت بينهن ثُمّاض بنت عمرو بن الحارث بن الشريد الملقبة بالخنساء، من بني سليم، من قيس عيلان من مضر، من أشهر شاعرات العرب، وهي من بادية الحجاز في الشمال الشرقي من يثرب عاشت أكثر عمرها في العصر الجاهلي، وحينما ظهر الإسلام وفدت على رسول الله (ص) مع قومها بني سليم، وكانت تنشد الرسول (ص) شعراً فيعجب بشعرها (٩١).

تزوجت الخنساء من زوجين من قبيلتها: الأول اسمه عبد العزى بن عبد الله بن رواحة، فأنجبت له ابناً أبا شجرة عبد الله. ثم تزوجت بعد وفاته مرداس بن أبي عامر، فأولدها بنين ثلاثة هم زيد ومعاوية وعمر ثم ابنتها عمره وهي الأصغر (٩٢). أكثر شعرها جودة رثاؤها لأخويها: صخر ومعاوية اللذين قتلوا في العصر الجاهلي.

ومن شعرها في رثائهما: (٩٣)

بكت عيني وحق لها العويل وهاض جناحي الحدث الجليل

ثم تراصل قائلة

معاوية بن عمرو كان ركني وصخراً كان ظلهم الظليل

في معركة القادسية أهدت الخنساء لجيش دولة النبوة أبناءها الأربعة فجعلت
تحمسهم وترفع من معنوياتهم للثبات في ميدان القتال دفاعاً عن الدين والأمة
قائلة: «يا بني! إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله غيره،
إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت
أخوالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله تعالى
للمؤمنين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا إن الدار الآخرة خير من
الدار الفانية، يقول الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا
الله لعلكم تفلحون﴾؛ فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، فتيممو وطيسها،
وجالدوا رسيسها، تظفروا بالغنى والكرامة في دار الخلد والمقامة» (٩٤).

إنها تحثهم على الثبات في الجهاد لبلوغ الشهادة والفوز بنعيم الآخرة وخلود الذكر
في الدنيا. أم تقذف بفلذات كبدها في لهيب الحرب المشتعلة متسامية على كل
العواطف، على كل الماديات، بكل شجاعة، هكذا يكون عطاء المرأة الرسالية،
تربي بنيتها وذخرها في الحياة الفانية لكنها ببصيرة الإنسان المؤمن تعرف درجة
الشهداء عند الله وما أعد لهم من النعيم إن حبها العظيم لهم وللدين هو الذي
دفعها لأن تحمسهم من أجل الاستشهاد والاستماتة في سبيل الله ونصرة دينه.

فلما أصبح الأبناء، قصدوا مراكزهم مبكرين في ميدان القتال وساحة الشرف
والشهادة، وتقدموا واحداً تلو الآخر وهم يرتجزون ذاكرين وصية أمهم العجوز،
فقال الأول (٩٥):

يا إخوتي إن العجوز الناصحة قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة

بقالة ذات بيان واضحة فباكروا الحرب الضروس الكالحة

وإنها تلقون عند الصائحة من آل ساسان كلاباً نابحة

قد أيقنوا منكم بوقع الجائحة وأنتم بين حياة صالحة

وميتة تورث غنياً رابحة

وقال الثاني (٩٦):

إن العجوز ذات حزم وجلد والنظر الأفوق والرأي السدد
قد أمرتنا بالسداد والرشد نصيحة منها، وبراً بالولد
فباكروا الحرب كرامة في العدد إما بفوز بارد على الكبد
أو ميتة تورثكم غنم الأبد في جنة الفردوس والعيش الرغد
وأنشد الثالث (٩٧):

والله لا نعصي العجوز حرفاً قد أمرتنا حرباً وعطفاً
نصحاً وبراً صادقاً ولطفاً فبادروا الحرب الضروس زحفاً
حتى تلفوا آل كسرى لفاً أو تكشفوهم عن حماكم كشفاً
إنا نرى التقصير منكم ضعفاً والقتل فيكم نجوة وعرفاً
وقال الرابع (٩٨):

لسنا لخنساء ولا للاحزم ولا لعمرو ذي السناء الأقدم
إن لم أر في الجيش الأعجم ماض على هول خضم خضم
إما لفوز عاجل، ومغنم أو لوفاة في السبيل الأكرم

نعم لقد كانت كلمات أمهم مصدر إلهام لتحمسهم ورفع معنوياتهم القتالية وذلك يتضح من خلال الأبيات التي أنشدها كل منهم . قاتلوا قتال الأبطال حتى استشهدوا جميعهم . إنهم خير رفاق للعقيدة وخير الأبناء البارين لأهمهم ودينهم وأمتهم . لقد كان وجود مثل هذه النماذج من الأبطال في جيش دولة النبوة بهذه المعركة مع الفارق الكبير بين الجيشين في العدد والعدة ، هو العامل الحاسم في تحقيق النصر للمسلمين .

كيف استقبلت الخنساء نبأ استشهاد أبنائها الأربعة؟ قالت ؛ « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجوا من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته » . ولم تزد على هذه الكلمات شيئاً (٩٩) .

إنها تعتبر استشهاد أبنائها الأربعة في سبيل العقيدة والمبدأ ورفع راية الاسلام شرفاً عظيماً لها . إنه الإيمان العميق . إن الخنساء المرأة الرسالية تعرف أن أولادها قد

خلدوا في الدارين وعاشوا الحياة الأبدية ونعيمها وحفروا أساءهم في سجل التاريخ البشري باستشهادهم . إن ولاء الخنساء للأمة ودولة النبوة وتمكن العقيدة من نفسها جعلها تتسامى على عواطف الأمومة وتنظر إلى استشهادهم نظرة روحانية بعيدة عن الماديات الدنيوية كحب المال والولد ، فكلها زائلة ، لأن هناك نصب عينيها هدفاً أعلى وأسمى يجب أن يرخص من أجله كل شيء وهو حرمة الدين وسلامة الأمة .

٦ - سودة بنت عمارة الهمدانية (أم الخير) :

قامت المرأة الرسالية في دولة النبوة بتسجيل مواقف بطولية في السلم والحرب رائدها في ذلك إعلاء كلمة الحق وتثبيت حكم الله في الأرض وسلاحها الايمان بصدق عقيدتها . فخلدت تلك المواقف في تاريخ دولة النبوة بشكل خاص وفي التاريخ البشري بشكل عام . وهناك نساء في دولة النبوة سجّلت مواقف مشرفة لنضال المرأة في السلم وفي الحرب ، وكانت وسيلة نضالها الكلمة الصادقة التي تنبعث من إيمان عميق وعقيدة صادقة ترخص من أجلها كل متع الحياة الزائلة .

سودة بنت عمارة الهمدانية الملقبة بأم الخير واحدة من هؤلاء النسوة من الكوفة ، فقد كان لها موقفان أحدهما في معركة صفين ، والثاني في ديوان القصر الأخضر في عهد معاوية بعد استشهاد الإمام علي (ع) . إمتازت سودة بالفصاحة والخطابة إلى جانب الشجاعة والإقدام ، وكانت من المؤمنات المتمسكات بحب آل رسول الله وولايتهم .

فالدور الذي لعبته في صفين حيث كانت في جيش الامام علي (ع) ويوم قتل عمار بن ياسر دُعر جيش الإمام علي (ع) فتراجعوا أمام جيش معاوية ، فما كان من أم الخير إلا أن ركبت على بعيرها وصارت تخطب فيهم بصوتها الجهوري تستنهض فيهم الحمية والشجاعة بقولها :

«يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، إن الله قد أوضح لكم الحق ، وأبان الدليل ونور السبيل ورفع العلم فلم يدعكم في عمياء مبهمة ولا سوداء مدلهمة ، فإلى أين تريدون رحمكم الله ، أفرار عن أمير المؤمنين ؟ أم فرارا من الزحف أم رغبة عن الإسلام ؟ أم ارتداداً عن الحق ؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (١٠٠) .

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول: «أللهم قد عيل الصبر وضعف اليقين وانتشر الرعب وييدك يا رب أزمة القلوب فإجمع اللهم الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى وأردد الحق إلى أهله. هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل والوصي الوفي والصدِّيق الأكبر، إنها إحنٌ» (١٠١) بدرية، وأحقاد جاهلية، وضغائن أُخدية وثب بها معاوية حين الغفلة، ليدرك بها ثارات بني عبد شمس» ثم قالت: (فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون) (١٠٢).

«صبراً معشر الأنصار والمهاجرين قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم، وكأني بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كحُمُرٍ مستنفرة فرت من قسورة لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى، وعمّا قليل ليصبحن نادمين حتى تحلّ بهم الندامة، فيطلبون الإقالة ولات حين مناص. إنه والله من ضلّ عن الحق وقع في الباطل، ومن لم يسكن الجنة نزل النار».

«أيها الناس إن الأكياس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها، واستبطأوا مدة الآخرة فسعوا لها، والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان لما إخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه. فلمّا أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله (ص)، وزوج ابنته، وأبي ابنه، خُلِقَ من طيبته، وتفرّع من نبعته، وخصه بسرّه وجعله باب مدينته، وعلم المسلمين، وأبان ببغضه المنافقين، فلم يزل كذلك يؤيده الله عز وجل بمعونته، ويمضي على سنن استقامته لا يعرج لراحة الدأب» (١٠٣). وها هو ذا مفلق الهام ومكسر الأصنام، صلى والناس مشركون، وأطاع والناس مرتابون، فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزي بدر وأفنى أهل أحد، وهزم الأحزاب، وقتل الله به أهل خيبر، وفرّق جمع هوزان».

«فيا لها من وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقاً ورّدة وشقاقاً، وزادت المؤمنين إيماناً، قد أجتهدت في القول وبالغت في النصيحة وبالله التوفيق، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته» (١٠٤).

إنها خطبة عصماء ألقته في معركة، كانت صفحة سوداء في تاريخ دولة النبوة النضالي. فقد بلغ جيش دولة النبوة الذي يقوده الإمام علي تسعين ألف مقاتل، بينما بلغ جيش بقية الأحزاب مئة وعشرين ألف مقاتل، يقودهم معاوية في محاولة الاستيلاء على حكم دولة النبوة بالقوة، ضمن أول حركة انفصالية علنية عن الدولة متشبهاً بدم عثمان وقميصه. كانت كلمات أم الخير في تلك الخطبة كالسياط على مسامع المقاتلين الفارين، حيث كانت تستنفر فيهم الرجولة والشجاعة والحمية، وتدعوهم إلى الثبات، وفي الوقت نفسه كانت تحتقر جنهم، كذلك استعرضت أم الخير الخلفية التاريخية لنضال الإمام علي (ع) منذ إسلامه بالإضافة إلى فضائله التي تجعله ثاني رجل بعد رسول الله (ص) في الدولة النبوية من جانب، والخلفية التاريخية لعداء معاوية وآله وأعدائه ضد هذه الدولة منذ تأسيسها ولا يزال من جانب آخر.

لقد كشفت أم الخير بفضل إيمانها وصدق عقيدتها الحقائق للمقاتلين وهم يمرون بأحرج اللحظات. كانت تعتقد أن واجبها الديني يحتم عليها أن تلقي تلك الخطبة، عليها تتمكن من إنقاذ جيش دولة النبوة من البليلة، التي إجتاحتها بسبب مقتل عمار بن ياسر والاشاعات التي روجها معاوية، ورددها رجاله إن علياً هو قاتل عمار وليس معاوية، بغية التعقيم على الحديث النبوي: «عمار تقتله الفئة الباغية» إن كلمات أم الخير قد أثرت في أسماع ونفوس الفارين من جيش دولة النبوة، فعادوا مستشارين في حماسة عارمة فحملوا على جند معاوية بثبات. ذلك هو موقف أم الخير البطولي في معركة صفين ودورها الرسالي الذي لعبته من أجل حماية العقيدة والمبدأ، ومن أجل الحفاظ على تماسك جيش دولة النبوة في ساعات الحسم.

أما موقف أم الخير في ديوان معاوية بالقصر بدمشق. فقد رُوي أنها دخلت على معاوية بعد استشهاد الإمام علي (ع)، فجعل يؤنبها على خطبتها التحريضية يوم صفين. وآل أمره إلى أن قال: ما حاجتك؟ قالت: «إن الله سائلك عن أمرنا، وما افترض عليك من حقنا، ولا يزال يتقدم علينا من قبلك من يسمو بمكانك ويبطش بقوة سلطانك، فيحصدنا حصيد السنبل، ويدوسنا دوس الحرمل (١٠٥)،

يسومنا الخسف^(١٠٦)، ويذيقنا الحتف، هذا بسر بن أرطاة قدم علينا فقتل رجالنا، وأخذ أموالنا، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة، فإن عزلته عنا شكرناك، وإلا كفرناك» فقال معاوية: «إياي تهددين بقومك يا سودة، لقد هممتُ أن أحملك على قتب أشوس، فأرذك إليه فينفذ فيك حكمه»^(١٠٧).

فأطرقت سودة ساعة ثم قالت^(١٠٨).

صلى الإله على روح تضمَّنْها قبرٌ فأصبح فيه العدلُ مدفوناً
قد حالف الحق لا يبغي به بدلاً فصار بالحق والإيمان مقروناً

فقال معاوية: «من هذا يا سودة؟» قالت: هو والله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والله لقد جئتُه في رجل كان قد ولَّاهُ صدقاتنا فجار علينا فصادفته قائماً يصلي، فلما رأيته انتقل من صلاته، ثم أقبل عليَّ برحمة ورفق ورأفة وتعطف، وقال: (ألك حاجة؟) قلتُ: نعم، فأخبرته الخبر، فبكى ثم قال: (اللهم أنت الشاهد عليَّ وعليهم، وأني لم آمرهم بظلم خلقك؛ ثم أخرج قطعة جلد فكتب فيه: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم قد جاءكم بئنة من ربكم، فأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾^(١٠٩).

(فإذا قرأت كتابي هذا فاحتفظ بها في يدك من عملنا حتى يقدم عليك من يقبضه منك، والسلام). فجئتُ بالرقعة إلى صاحبه، فانصرف عنا معزولاً فقال معاوية: (اكتبوا لها كما تريد، واصرفوها إلى بلدها غير شاكية)^(١١٠).

إن موقف أم الخير في مجلس معاوية هو أكثر شجاعة وأعلى جرأة، ففي الوقت الذي امتدحت فيه سيرة الإمام علي (ع) العادلة في رعيته، أفصحت عن الظلامة التي تعيشها الأمة في عهد معاوية من خلال أمرائه على ولايات الدولة، وأن العدل قد اختفى من حياة الأمة، حيث قبر مع علي لاقرانه به، فذلك ذم فاضح لسيرة معاوية، وهي في عقر داره بالقصر الأخضر، وهو بين حاشيته وجلالوته.

إن موقف أم الخير في ديوان القصر الأخضر بدمشق بين يدي معاوية يعتبر نموذجاً فذاً لنضال المرأة الرسالية وإصرارها على كشف الحقيقة مهما كانت النتائج.

إنه درس لنساء دولة النبوة عبر الأجيال ، كيف يجب عليهن أن يواجهن الطواغيت والفساد . إنه استجابة وإمتثال لأوامر الله ورسوله في مواجهة الجور والظلم لقوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ (١١١) . وقال رسول الله في الحث على الأمر بالمعروف وأهميته في حياة الأمة : « إن أفضل أنواع الجهاد ، كلمة حق عند سلطان جائر » (١١٢) . تمكنت أم الخير أن تخرج وتفحم معاوية وهو في كامل سلطته وسطوه أمام حاشيته عن طريق إشادتها بعدل الإمام علي (ع) وفضح سيرة أمرائه وتسليطهم على رقاب المسلمين ، فلم يجد مناصاً من قضاء حاجتها .

٧ - فاطمة بنت حزام بن خالد الكلابية (أم البنين) :

ويستمر البيت النبوي في تقديم نماذج للأمة من المضحين والمضحيات في سبيل الله وفي سبيل المبدأ والعقيدة . كانت كربلاء قمة العطاء النبوي ، حتى لا ينطفئ نور الله ، الرجال ، والنساء ، والأطفال حتى الرضع منهم ساهموا في ذلك العطاء . تلك رسالتهم في الحياة الدنيا ، كالقناديل يزيلون دياجير الظلام عن بصيرة وأبصار عشاق المبادئ النبوية . وكان وقع فاجعة كربلاء أليماً على نفوس المسلمين بشكل عام والهاشميين ومن تبقى من آل أبي طالب بشكل خاص . حيث أن غالبية من بقي من الطالبين كان من النساء والأطفال . وكانت أم البنين أعظم من فجع من بين هؤلاء النسوة . فمن هي أم البنين؟ وبمن فجعت؟

كان عقيل بن أبي طالب أحد النسابة العرب البارزين على دراية تامة بأنساب القبائل العربية ، فطلب منه الإمام علي (ع) - في مطلع عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان - أن يبحث له عن امرأة ولدتها الفحولة من العرب يتزوجها لتلد له غلاماً . فدلّه عقيل على فاطمة بنت حزام بن خالد الكلابية التي إمتاز أبؤها بالشجاعة والفروسية (١١٣) .

فتزوجها الإمام علي (ع) فولدت له أربعة أولاد وهم على التوالي العباس ثم عبد الله ثم جعفر ثم عثمان ولقبت بأم البنين لأنها لم تلد بنتاً . وكلهم استشهدوا مع الإمام الحسين (ع) في ملحمة الشهادة بكربلاء . وكان العباس أكبر أولادها ، فارساً مغواراً ، وبطلاً شجاعاً ويكفيه فخراً إنه خريج مدرسة أبيه الإمام علي (ع) أما

شجاعته فهي امتداد لشجاعة البيتین الطالبي والكلابي . ومع أن إخوته الثلاثة الآخرين كانوا شجعاناً إلا أن شجاعته كانت أعظم لذلك كان لواء الإمام الحسين بيده يوم كربلاء (١١٤).

في ليلة العاشر من محرم سنة إحدى وستين من الهجرة حينما خطب الإمام الحسين (ع) رجاله كي يختبرهم وأحلهم من بيعته ، وطلب منهم الإنصراف وتركه مع الجيش الأموي كي ينجو بأنفسهم من الموت .

كان العباس بن علي هو أول المتحدثين للرد على خطاب الإمام الحسين فقال : « ولم نفعل ذلك ! لنبقى بعدك ! لا أرانا الله ذلك أبداً » (١١٥).

وفي يوم العاشر حينما بدأت المعركة طلب العباس من إخوته لأمه أن يبرزوا للقتال قائلاً : تقدموا حتى أراكم قد نصحتهم لله ولرسوله فإنه لا ولد لكم (١١٦) . . . وكان العباس آخر من قتل من رجال الإمام الحسين حيث قتل بعده الأطفال ، وذكر العباس ببطولته وحملاته في المعركة الجيش الأموي ببطولات أبيه الإمام علي (ع) في ساحات القتال . لذلك قال عنه الإمام زين العابدين علي بن الحسين (ع) : « رحم الله العباس فلقد آثر وأبلى وفدى أخاه بنفسه » (١١٧).

كان وقع نبأ استشهادهم عظيماً على أمهم أم البنين التي كانت مع إعتزازها باستشهادهم مع أخيهم الإمام الحسين إلا أنها بكتهم حتى رق لبكائها أعداء البيت النبوي . كانت أم البنين شاعرة فصيحة . وكانت تخرج كل يوم إلى البقيع ومعها حفيدها عبيد الله ابن ولدها العباس فتندب أولادها الأربعة خصوصاً العباس الذي كانت فاجعتها به أعظم من بقية إخوته لجمالته وعلمه وشجاعته . وقد سمعت أنباء نضال أبنائها واستماتتهم في الدفاع عن سبط رسول الله (ص) وعن الإسلام من زين العابدين والعقيلة زينب . وكان الناس يجتمعون حولها رجالاً ونساء يسمعون بكاءها ورثاءها لبنيها الأربعة فكان مروان بن الحكم على شدة عداوته لأهل البيت النبوي يجيء مع هؤلاء الناس فلا يزال يسمع رثاءها فيبكي (١١٨) . فمن قولها في رثاء ابنها العباس (١١٩) :

يا من رأى العباس كر	على جماهير النقـد
ووراه من أبناء حيـ	در كل ليث ذي لبـد
أنبت أن أبنـي أصيـ	ب برأسه مقطوع يد

ويلى على شبلى أمــــا
لو كان سيفك في يديـه
ل برأسه ضرب العمـد
كـ لما دنـا منه أحد

إنها تعبر عن لوعتها وئكلها بأعز الأبناء الأربعة الذي استعرضت في آيات رثائه ما تحمله في ميدان القتال من فضخ رأسه بعمود من حديد وقطع يديه نتيجة لإستماتته واستبساله في مقاومة الأعداء بوصفه حامل اللواء . وقد اقتضت العادة أن لا يعطى اللواء إلا لأشجع الرجال المقاتلين . فهي تعبر في البيت الأخير أنه لو لم تقطع يده وبقي السيف في يديه ، لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه . وكان يكنى أبا الفضل ، وأبا قربة ، والسقاء ، لأنه كان يقتحم صفوف الجيش الأموي بالقوة ويأتي بالماء إلى أطفال الإمام الحسين ونسائه ، وكنى أيضاً بقمر بني هاشم لجمالـه الفائق (١٢٠) .

ومن رثائها لأبنائها الأربعة قولها : (١٢١) .

لا تدعوني ويك أم البنين
كانت بنون لي أدعى بهم
أربعة مثل نسور الرُّبى
تنازع الخرصان أشلاءهم
ياليت شعري أكما اخبروا
بأن عباساً قطع اليمين
تذكريني بليوث العرين
واليوم أصبحْتُ ولا من بنين
قد واصلوا الموت بقطع الوتين
فكلهم أمسى صريعاً طعين

نعم أم البنين رثت أولادها وحزنت عليهم لا جزعاً منها ولكن لبشاعة الجريمة التي ارتكبت في حق قتلى كربلاء ، حيث قطعت رؤسهم ، وتركت أجسادهم دون دفن في البيداء تصهرها الشمس المحرقة ولم يدفنوا إلا في اليوم الثالث عشر ، كما مر ذلك في الفصل الثالث .

إن أم البنين قدمت في ملحمة الإستشهاد بكربلاء أربعة قرابين فداء للدين من أجل أن تفيق الأمة من سباتها العميق ومن أجل أن ينقشع الظلام ويزول الصمت عن مقبرة الأحياء . لقد تعبت أم البنين في تربية أولادها تربية تليق باليوم الذي إدخرهم فيه الإمام علي (ع) ليقفوا إلى جانب أخيهام الإمام الحسين الذبح العظيم - ليدافعوا عن سبط رسول الله (ص) ويشاركوا في انقاذ الدين بدمائهم وأرواحهم .

لقد اقتطفت أم البنين ثمرة تربيتها يوم كربلاء الخالد صفحة ناصعة في جبين التاريخ البشري . إن تضحية أبنائها خلّدت ذكرها ، وخلّدت دورها في اعدادهم لذلك اليوم العظيم .

إن بكاء أم البنين ورثاءها لبنيها الأربعة إنما هو جزء من الرسالة الإعلامية للإستشهاد ، لفضح الجريمة وكشف الحقيقة للناس ، وتذكيرهم بأحاديث الرسول (ص) عن فضائل أهل بيته وكراماتهم وتوقعاته بما يلحقهم من أذى ومطاردة وتقتيل على أيدي الأمويين والمروانيين وبني المغيرة ، كما مر ذلك في الفصل الثالث .

إن أم البنين واحدة من رموز العطاء لدينها وأمتها ، فهي نموذج للمرأة المؤمنة الصابرة .

٨ - أمّنة بنت السيد حيدر الصدر (بنت الهدى) :

استمر صراع الحق مع الباطل مع تعاقب العصور والأجيال في دولة النبوة ، ومع تمزق هذه الدولة إلى كيانات سياسية متعددة نتيجة الأطماع الشخصية والتطلع للسلطة من جانب واشتداد ظلم الحاكمين من جانب آخر .

وتعاقب على حكم دولة النبوة بكياناتها الجغرافية والسياسية المتعددة أنظمة سياسية كثيرة مع انتهاء الحكم الأموي . أبرزها العباسيون والفاطيون والمماليك والصفويون والعثمانيون الذين كانت نهاية حكمهم اقتسام دولة النبوة من قبل ما عرف بالاستعمار الأوروبي . وأبرز هذه الدول الأوروبية المستعمرة بريطانيا وفرنسا . ومع ظهور حركات التحرر بالعالم في مطلع القرن الحالي حصلت الأقطار التي خضعت للإستعمار الأوروبي القديم على استقلالها بصورة شكلية وظل النفوذ الأوروبي مهيمناً على هذه الأقطار بشكل جديد شمل الجوانب السياسية والثقافية والاقتصادية . وتمكنت دول الإستعمار الجديد ممثلة في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا من السيطرة على زمام الأمور في جميع دول العالم الثالث بشكل خاص ، وبصورة مباشرة أو غير مباشرة .

ومن ضمن أقطار دولة النبوة التي وقعت ضحية للنفوذ الغربي العراق الذي يمتلك تراثاً حضارياً عظيماً ، فقد شهد العراق قيام حضارات السومريين والبابليين

والكلدانين والآشوريين ، إضافة إلى خضوعه للإمبراطورية الكسروية ، كما شهد نشأة الحضارة الإسلامية ، فكانت الكوفة حاضرة دولة النبوة في عهد الإمام علي (ع) وبغداد حاضرة دولة النبوة في العهد العباسي الذي دام خمسة قرون .

ومنذ ثورة العشرين بالعراق التي تولى قيادتها رجال الدين ، وشاركت فيها غالبية شرائح المجتمع العراقي في مواجهتهم لجيش الاحتلال البريطاني ، وإلى اليوم لا يزال العراق يعاني من ويلات التسلط الأجنبي على الرغم من الإستقلال الشكلي للعراق منذ عام ١٩٢٣ . ومع تغير نظام الحكم في العراق من ملكي إلى جمهوري منذ الثورة الشعبية في ١٤ يوليو ١٩٥٨ التي قضت على الحكم الملكي وإلى اليوم لم يشهد العراق استقراراً سياسياً ، وذلك لغياب الحكم البرلماني الدستوري في العهد الجمهوري ، علماً بأن العراق قد عرف الحكم البرلماني الدستوري في العهد الملكي منذ عام ١٩٢٥ . كما شهد قيام أحزاب سياسية موالية ومعارضة للحكومة .

وقد اتضح فيما بعد أن هدف تلك الأحزاب هو استقطاب العناصر الشابة والمثقفة بها لإلهائهم بشعارات جوفاء ظاهرها خدمة الوطن وباطنها إضاعة وقتهم من جانب وإضعاف نفوذ القيادة الدينية المخلصة من جانب آخر للنفوذ الواسع الذي كانت تتمتع به بين غالبية شرائح المجتمع آنذاك .

لقد عانى المجتمع العراقي خلال العهد الجمهوري الويلات منذ الإطاحة بحكم عبد الكريم قاسم في ٨ فبراير ١٩٦٣ ، حيث حكم العراق حزب البعث منذ الإطاحة بنظام قاسم إلى نوفمبر ١٩٦٣ ، وحيث لم يجن الشعب العراقي خلالها غير إراقة الدماء وتصفية الحسابات بين الحزبيين خصوصاً البعث والشيوعيون . ومنذ نوفمبر ١٩٦٣ إلى عام ١٩٦٨ حكم العراق الأخوان عبد السلام عارف ومن بعده عبد الرحمن عارف ، لم يجن الشعب العراقي أي تغيير أو تقدم خلال فترة حكمهما ، بل عم الفساد الإداري جميع مرافق الدولة . ثم سيطر البعثيون على حكم العراق منذ ٣٠ يوليو ١٩٦٨ ، وإلى اليوم . وقد حرص نظام الحكم الأخير في العراق على أدلجة جميع فئات الشعب بالترغيب والترهيب حتى غدا العراق سجناً كبيراً ، مما اضطر عشرات الآلاف للهجرة إلى جميع أنحاء العالم ، خصوصاً بين صفوف المتعلمين والمثقفين والملتزمين دينياً .

ومن أبرز إنجازات نظام البعث في العراق بناء قوة عسكرية كبيرة حيث أصبحت تمثل رابع قوة في العالم . ولم تبلغ تلك القوة ذلك المستوى إلا بعاملين أساسيين : تكنولوجيا دول أوروبا الغربية والشرقية والصين ، ودولارات النفط الخليجي ، حيث انهالت عليه المساعدات المالية الضخمة من دول المنطقة منذ اشتعال حرب الخليج الأولى في ٢٢ سبتمبر ١٩٨٠ وحتى قبيل حرب الخليج الثانية التي بدأها العراق باحتلال الكويت في الثاني من أغسطس ١٩٩٠ . وقد تمكنت حكومة البعث من الحصول على تلك المساعدات من دول الخليج (السعودية ، الكويت) عن طريق ابتزازها وتخويفها من أطماع الجمهورية الإسلامية الإيرانية التوسعية في العهد الجمهوري ، خاصة وأنها دول صغيرة وثرية .

إن صراع الحق مع الباطل ظل قائماً ومستمراً بعد استشهاد الإمام الحسين (ع) وبعد موت يزيد . وإذا كان صراع هابيل وقابيل نموذجاً للبشرية في الصراع بين الحق والباطل ، فإن كل محب للحق هابيل ، وكل محب للباطل قابيل . كذلك الحال في دولة النبوة ، حيث مثل الإمام الحسين (ع) في ملحمة كربلاء الاستشهادية وأخته زينب (ع) حزب الله وهو حزب الحق ، بينما مثل يزيد بجيشه حزب الشيطان ، حزب الباطل ، فأصبح كل محب للحق : عبر تعاقب الأجيال هو استمرارية للإمام الحسين (ع) وأخته العقيلة زينب ، وأن كل محب ليزيد إنما هو استمرار للباطل في هذه الدولة .

وكما كان القصر الأخضر بدمشق الذي أسسه معاوية بن أبي سفيان خلال حكمه ، الذي دام اثنين وأربعين عاماً وكرراً لاجتثاث مبادئ الإسلام الحقّة أو جوهر الإسلام أو تفرغ الإسلام من محتواه والابقاء على الإسلام الشكلي بطقوسه وشعائره التقليدية التي لا تمس جوهر الحياة ، كذلك نظام البعث في العراق ، الذي تمخض فولد للشعب العراقي عار العروبة والإسلام ، بل عار البشرية صدام حسين ، وحول العراق من قلعة الأحرار والحرية إلى سجن كبير لجميع أبناء الشعب العراقي . ومن مركز للإشعاع الحضاري ، يرفد الحضارة الإنسانية بالعطاء في جميع المجالات ويخفف من حدة التخلف في المنطقة بشكل خاص ، إلى جمهورية للرعب والدمار ، فأصبح أبناء العراق وبناته رجالاً ونساء وأطفالاً مشتتين في جميع أرجاء المعمورة شرفاً

وغرباً كما انعكست ممارسات نظام صدام بالسلب أيضاً على شتى مناحي حياة مجتمع المنطقة بشكل خاص ، وعلى الإقتصاد العالمي بشكل عام منذ تولى حكم العراق بشكل مباشر في ١٧ يوليو ١٩٧٩ .

لقد فقدت العراق من أبنائها في حرب الخليج الأولى أكثر من ثلاثمئة وخمسين ألف رجل ، وفي الحرب الثانية والثورة الشعبية التي أعقبتها ما يزيد على أربعمئة ألف قتيل من رجال ونساء وأطفال فأصبح إجمالي القتلى في الحريين حسب تقديرات الصحف الإقليمية والعالمية والمنظمات الدولية ما يزيد على سبعمئة وخمسين ألفاً . ونتيجة لذلك فإن عدد الأرمال حسب التقديرات الأولية التي خلفتها الحربان والثورة الشعبية لا يقل عن أربعمئة ألف أرملة .

ولكن على الرغم من وسائل البطش التي يحكم بها دكتاتور العراق المجتمع العراقي ، فإن البقية الباقية من أحرار العراق رفضت الصمت ، وانتفضت متمردة على كل ما يمتلكه نظام العبودية من أبشع وسائل الإبادة والقمع .

فبنت الهدى نموذج فذ للمرأة العراقية بشكل عام والمسلمة المؤمنة الرسالية بشكل خاص .

فبعد مرور ألف وثلاثمائة وأربعين سنة على ملحمة الاستشهاد بكر بلاء أدى المفكر الاسلامي الشهيد آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر الدور الإصلاحي في الأمة الذي أنجزه الإمام الحسين (ع) كما قامت أخته الشهيدة المفكرة بنت الهدى بدور رسالي سالكة خطى عقيلة الطالبين زينب . والصدر وأخته كان هدفهما خدمة الدين عن طريق توعية الأمة ورسم الطريق الأمثل لها للتخلص من الفساد والتحرر من النظام المتسلط على رقاب الأمة بصورة غير شرعية ، فكان مصيرهما الإعدام .

بالسلاح وحده تسلط صدام على رقاب العراقيين وبالسلاح وحده يضمن بقاءه ، فلغة التحدث مع أبناء شعبه هي لغة السلاح والبطش . إنه اسلوب كل الأنظمة السياسية بالعالم التي تفتقر إلى الشرعية كما كان عليه نظام سلطنة قریش منذ بداية تأسيسه في عهد معاوية .

بنت الهدى هو الأسم الأدبي للشهيدة المفكرة آمنة بنت السيد حيدر الصدر

شقيقة الشهيد آية الله العظمى محمد باقر الصدر وهي رفيقته في رحلته الاستشهادية . كفلها وأخوها الشهيد الصدر والسيد اسماعيل أخوها ، ثم كفلها أخوها السيد إسماعيل فترة من الزمن ، ثم فضلت الالتحاق بأخيها الشهيد وعاشت معه فترات صباها وشبابها وكهولتها ، وقد شاء الله أن تكون شقيقته في القرابة ورفيقته في درب العقيدة والمبدأ ، كما رافقته في درب الإستشهاد وجاور قبرها بقره بعد الإستشهاد (١٢٢).

كانت بنت الهدى للشهيد الصدر كما كانت العقيلة زينب للإمام الحسين (ع) ، نذرت حياتها لخدمة الدين وقضايا المرأة ، وعملت على نشر الوعي الديني والسياسي في صفوف المجتمع النسائي في العراق بشكل خاص والمنطقة بشكل عام ، وكان الشهيد الصدر بالنسبة لها الأخ والأستاذ والمربي والصديق . إن تفرغها لخدمة العقيدة والمبدأ جعلها تعزف عن متاع الدنيا حتى عن الزواج على الرغم من أنه قد تقدم لخطبتها رجال من علية القوم (١٢٣).

وقبل الإسترسال في مناقشة الدور الذي لعبته الشاهدة بنت الهدى في خدمة قضايا المرأة والعقيدة يلزم التعرف على لمحة موجزة من حياة أخيها الشهيد الصدر الذي صاغ شخصيتها بكل ما فيها من ملابسات .

هو أحد كبار مراجع ومفكري المسلمين البارزين في العالم . تتلمذ على يدي الإمام الراحل آية الله الخوئي ابتداء من ١٣٦٥ هـ إلى ١٣٧٩ هـ ، حيث قضى مدة أربع عشرة سنة بالنجف ، فكان التحاقه بالحوزة العلمية بالنجف منذ هجرته من بغداد إلى النجف (١٢٤).

كان الشهيد الصدر فيلسوفاً وعالمًا بالاقتصاد والمنطق والتاريخ والتفسير واللغة والرجال (١٢٥) من مؤلفاته التي تُرجم بعضها لعدة لغات : إقتصادنا ، فدك في التاريخ ، فلسفتنا ، الأسس المنطقية للإستقراء ، التفسير الموضوعي للقرآن ، الإمام المنتظر ، مشروع دستور جمهورية إيران الإسلامية ، الذي صدر في كتيب بعنوان لمحة تمهيدية في الدستور الإسلامي ، الفتاوى الواضحة ، ودروس في علم الأصول (١٢٦).

كما تصدى لتجديد المناهج في مدرسة النجف ومشروع جامعة الكوفة الكبرى (١٢٧) . كذلك أدرك الواقع المتخلف للمرجعية المعاصرة فوضع أطروحة

لمشروع المرجعية الرشيدة التي تتعامل بفعالية مع آلام وآمال الأمة وتعمل جاهدة على تحقيق تطلعاتها في مرحلة صراعها مع القوى الإستكبارية^(١٢٨). كذلك كانت تصدر له مواضيع تعالج هموم الأمة بشكل عام نشرها في مجلة الأضواء التي تشرف الحوزة العلمية بالنجف على إصدارها. ثم جمعت تلك المقالات ونشرت في كتاب بعنوان «رسالتنا»، قدم له المفكر الإسلامي محمد حسين فضل الله. وللشهيد الصدر مقلدون من مدرسة الإمامة يتجاوز المليون بين رجل وامرأة من داخل وخارج العراق^(١٢٩). أسس حزب الدعوة في نهاية الستينات بعد أن لاحظ فشل الأحزاب الليبرالية في تحقيق تطلعات الأمة وحماية مكتسباتها وقد تأسست لهذا الحزب فروع في جميع أنحاء العالم بين صفوف مدرسة الإمامة، وخاصة العناصر الشابة التي استقطبتها أفكار الشهيد الصدر التي نادى وعملت على حتمية التغيير في العالم الإسلامي لإعادة الحياة للدولة النبوية بمبادئها الإلهية^(١٣٠).

هذه هي الشخصية العظيمة التي تتلمذت الشهيذة بنت الهدى على يديها، فذابت في ذات الله حيث ترفعت على كل الماديات ولعل هذا هو سر عزوفها عن الزواج، إذ اختارت أن تقضي عمرها في جوار أخيها تنهل من نعيم علمه وتستضيء بأفكاره الثيرة في كفاحها من أجل توعية المرأة والنهوض بها من وحل الماديات.

هكذا نشأت الشهيذة في بيئة علمية، فتعلقت بالعلم منذ نعومة أظافرها من خلال المواظبة على القراءة وحضور الدروس في علم الفقه والعربية. وعلى الرغم من ضنك العيش الذي ألم ببعائلها إلا أنها كانت تحرص على توفير بعض المال لشراء الكتب حيث عملت على تبادل الكتب بينها وبين إحدى صديقاتها^(١٣١).

ونقلت والدتها أنها كانت تهتم بالقراءة والتركيز كما كانت تميل إلى الانفراد والتأمل، وتبوء فكرها للعطاء على الرغم من ميلها للمجاملات الإجتماعية المألوفة^(١٣٢).

نقل عنها أنها كانت، في إحدى الجلسات، مع أخيها الشهيد، وبين يديه كتاب «فلسفتنا» محاولاً شرحه وبيان بعض غوامضه، فقالت له: «سيدنا أين أنا منكم؟»، إن الفلسفة معقدة وأنتم أهل لها. فأجابها الشهيد قائلاً: «لا يهم، أنت أقدر مني...!» فقالت: «وكيف؟» فقال: «أنت تكتبين الشعر، وأنا مع حبي للشعر وتذوقي له وقدرتي على صياغة الأسلوب البلاغي حاولت فلم أستطع أن

أَنْظَمَ بيتاً واحداً، إنها موهبة فأنّت أقدر مني في هذا المجال . إذن تعادلنا» (١٣٣).

إنه يحاول أن يأخذ بيدها ويعدها لتقوم بدور قيادي لتوجيه المرأة وتنوير الطريق لها لتلعب دور الإنسان الطبيعي في مجتمعتها . فقد لمع نجم الشهيدة بنت الهدى في المجال الاجتماعي والتربوي والعلمي ، وصار لها شأن كبير على صعيد العمل النسائي فعهدت إليها مسؤوليات أثبتت كفاءة عالية في انجازها . منها أنها أشرفت على المدارس الدينية التي أسستها الحوزة العلمية في كل من النجف والكاظمية ، إلا أنها سرعان ما بادرت للإستقالة من عملها على أثر الحملة القمعية التي أقدمت عليها حكومة البعث في العراق والتي أدت إلى فصل تلك المدارس عن إدارة وإشراف الحوزة العلمية بالنجف وتحويلها إلى مدارس رسمية بعيدة عن الطابع الإسلامي . إنها امرأة رسالية لا يمكن أن تستسلم لمثل تلك الحركات الجبانية التي ملأتها حماساً واصراراً على مواصلة دورها الرسالي بين صفوف المجتمع النسائي بالنجف ، فحولت مجلسها المتواضع في بيت أخيها الشهيد إلى مدرسة للنساء تدرسهم الأحكام الإسلامية وتفسير القرآن والثقافة الإسلامية وتنشر الوعي الديني والسياسي بينهن ، فتخرج العديد من النساء المسلمات الملتزمات من ذلك البيت المتواضع الصغير بحجمه الكبير بتطلعاته لتحقيق آمال الأمة وإصلاح ما أفسده الحكم الجائر (١٣٤).

بدأت تجربتها في الكتابة بنشر مقالات في مجلة «الأضواء» التي تعالج قضايا المرأة بشكل عام (١٣٥).

كما أنها أصدرت أحد عشر كتاباً وهي مجموعة من القصص ركزت فيها على قضايا المرأة المسلمة بشكل عام خصوصاً ما يتعلق بالآداب العامة للمرأة المسلمة من قضايا الحشمة والحجاب .

وحرصت في كتابتها على استخدام الأسلوب الأدبي القصصي بتوجيه من أخيها الشهيد الصدر (١٣٦) . كما تميزت كتابتها بلغة تتماشى مع روح العصر واستخدمت عناوين جذابة لهذه القصص تتفق وميول نساء وفتيات العصر، كما يتضح من عناوين هذه الكتب وهي : صراع من واقع الحياة ، الخالة الضائعة ، الفضيلة

تنتصر، ذكريات على تلال مكة، المرأة مع النبي، كلمة ودعوة، ليتني كنت أعلم،
امرأتان ورجل، لقاء في المستشفى، الباحثة عن الحقيقة، بطولة المرأة المسلمة (١٣٧).
ومن مختاراتها الشعرية (١٣٨):

قسماً وإن ملئ الطريق	بما يعيق السير قدما
قسماً وإن جهد الزمان	لكي يشبط في عزمنا
أو حاول الدهر الخزون	بأن يريش إليّ سهما
وتفاعلت شتى الظروف	تكيل آلامنا وهما
فترأى شحْبُ المهموم	بأفق فكفري فأدلهما
لن أنثنى عما أروم	وإن غدت قدماي تدمي
كلا، ولن أدع الجهاد	فغاياتي أعلى وأسمى

وقالت أيضاً (١٣٩):

أنا كنت أعلم أن درب	الحق بالأشواك حافل
خال من الريحان ينشر	عطوره بين الجداول
لكنني أقدمت أقفو السير	في خطو الأوائل
فلطالما كان المجاهد	مفرداً بين الجحافل
فالحق يخلد في الوجود	وكل ما يعدوه زائل
سأظل أشدو باسم اسلامي	وأنكر كل باطل

تقسم الشهيدة بنت الهدى في الأبيات الأولى، على المضي في الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله ومن أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل، إنها تصوّر الأوضاع التي تحتاج العراق فتبدو أوضاعاً مؤلمة ملأت قلوب الناس بالهموم الخائفة، وخيم الظلام الذي يعني الجور ومصادرة الحريات، فمهما بلغ القمع إلا أنها ستواصل رسالتها الجهادية غير عابئة بتلك العقبات وستقفز عليها لتحقيق الغايات السامية، فهي أعلى من حياتها. إنه لا يقبل بالعيش الذليل إلا الذليل، فإذا استحالت الحياة

الكريمة عند الحر فإن وسيلته الوحيدة للحياة الأبدية هي القفز على الموت لبلوغ الشهادة التي تضمن له كرامته . قال المتنبي :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريمٌ تحت ظل القنا وخفق البنود

أما في المجموعة الثانية من شعرها فإنها تؤكد أنها اختارت طريق الحق لمقارعة الباطل ومصارعته ، مع علمها أن ذلك الطريق مليء بالشوك ، لكنها عشقت طريق خديجة وفاطمة الزهراء وزينب وسمية أم عمار وأم البنين وجميع النساء الرساليات اللاتي قدّمن النموذج للمرأة الرسالية من أجل الانتصار للدين ، ومن أجل الكرامة والحرية .

إن الشهيدة بنت الهدى قد عشقت الخلود ، لذلك أصرت على مواصلة إعلاء كلمة الحق واستنكار الباطل . إنها تسخر من أساليب القمع ، لأنها تعلم أن تلك الأساليب جسراً سهلاً لبلوغ الشهادة والعزة والكرامة .

وقالت أيضاً متباهية بعفتها وعصمتها (١٤٠) :

بيد العفاف أصون عز حجابي وبعصمتي أسمو على أترابي

وبفكرة وقادة وقريجة نفاذة قد كملت آدائي

ما عاقني خجلي عن العليا ولا سد الخمار بلمتي ونقابي

إنها تفخر بأن العفاف لا يعيق المرأة المسلمة من تأدية دورها الفعال في المجتمع في مختلف المجالات التي يمكن أن تطرقها المرأة .

ولها أيضاً (١٤١) :

«رجعية» إن قيل عنك فلا تبالي واصمدي

قولي : أنا بنت الرسالة من هداها أهتدي

لم يثنني خجلي عن العليا ولم يغلل يدي

كلا . ولا هذا الحجاب يعيقني عن مقصدي

فغدّ لنا ، أختاه ، فامضي في طريقك واصعدي

الحق يا أختاه يعلو فوق كيد المعتدي

تمكنت الشهيدة بنت الهدى من أن تلعب دوراً فعّالاً عن طريق الكلمة لنشر الوعي الديني والسياسي في الأوساط النسائية ؛ ذلك الوعي الذي يقوم على مبادئ الإسلام، ويذكر المسلمات بتضحيات النماذج النسائية الرسالية من آل رسول الله (ص)، سواء كان خلال إشرافها على المدارس الدينية للحوزة العلمية أم أثناء تدريسها في بيتها، أم عند نشر المقالات في مجلة الأضواء، أم في كتبها القصصية التي تداولتها المرأة داخل وخارج العراق .

لذا يمكن القول بان انتشار الوعي الإسلامي في الوسط النسائي في العراق بشكل خاص ومنطقة الخليج بشكل عام من اتباع مدرسة الإمامة راجع إلى نشاط الشهيدة بنت الهدى وعلى الأخص بين العناصر النسائية الشابة . فلا غرابة أن تقدم سلطات العراق الظالمة على إخماد هذا الصوت الرسالي الذي يحث نساء الأمة وبناتها على أن يقتدوا بسيرة خديجة وفاطمة وزينب وكل النساء المؤمنات بدولة النبوة السائرات على دربهن .

لقد علمت سلطة البعث بموقع الشهيدة بنت الهدى من الحركة الإسلامية التي يقودها الشهيد الصدر، في محاولته لتأسيس نظام إسلامي، فعزمت على التخلص منها ومن أخيها عن طريق التصفيات الجسدية^(١٤٢).

وحينما اعتقلت السلطات العراقية الشهيد الصدر في مارس ١٩٨٠، ذهبت إلى مرقد الإمام علي (ع) تخبر الناس باعتقال الشهيد الصدر وتمخض عن ذلك خروج مظاهرة تدين النظام الحاكم في العراق وتهتف بحياة الشهيد الصدر^(١٤٣). لقد كانت تعلم بردود فعل السلطات العراقية العنيفة ضدها، لكنها كانت تقوم بواجبها الرسالي تجاه الدين وتجاه الأمة لكشف أساليب ذلك الحكم الجائر أمام كل الناس ليقوموا بواجبهم الشرعي، ولإلقاء الحجة عليهم.

لذلك وقفت السلطات البعثية بالمرصاد للشهيدة المناضلة بنت الهدى، تتحين الفرصة لاعتقالها والتخلص منها إلى الأبد. فما أن القت القبض على الشهيد الصدر حتى قام جلاوزة صدام: أبو سعد مدير الأمن في النجف ومعاونه أبو شياء باعتقال

الشهيدة البطلة بنت الهدى بحجة أن أخاها الشهيد الصدر قد طلبها وأنها ستعود إلى بيتها عاجلاً، فما كان من زوجة الشهيد الصدر إلا أن تعلقت بأذيالها حيث بقيت بدون كفيل وأبت إلا اصطحابها، لولا أن الشهيدة الصابرة بنت الهدى طلبت منها الصمود لتحمل رعاية الأسرة قائلة: «أُخِيَّة، وكيف تأتين معي؟ ومن يبقى للأطفال ووالدي العجوز المنكوبة؟. . ابقِ هنا وسأذهب برعاية الله تعالى». نعم كانت تلك الرحلة من النجف إلى بغداد بمثابة رحلة الشهادة مع أخيها المفكر والمناضل العظيم الشهيد الصدر وكان استشهادهما في التاسع من نيسان/ابريل ١٩٨٠م (١٤٤).

إنها اختارت حياة العزة وحياة الخلود على العيش الذليل الذي لا يرضاه إلا الصامتون في مقبرة الأحياء. نعم، لقد تحوّل العراق بفضل الآلة العسكرية الضخمة التي مولها حكام الاستكبار العالمي وامتلكها صدام، إلى مقبرة كبيرة للأجيال يلفها ظلام دامس وليل طويل.

إن صراع الحق مع الباطل قائم. كل تابع للباطل هو يزيد وكل تابع للحق هو حسين وزينب. فالشهادة بنت الهدى نموذج لزينب، والشهيد الصدر نموذج للحسين، وصدام نموذج ليزيد. يزيد أباد الرجال والأطفال في كربلاء، كما سيّر النساء والأطفال من آل رسول الله (ص) في رحلة السبي الشاقّة من بلد إلى بلد، لكنه لم يقتل النساء بعد قتل رجالهن كما فعل صدام، على الرغم من أن السيدة زينب قد قرعت ابن زياد في القصر الأبيض بالكوفة ويزيد بالقصر الأخضر بدمشق بكلماتها القاسية وبصوتها الجمهوري.

يزيد سمح لآل رسول الله (ص) باقامة مأتم على الإمام الحسين (ع) في قصره، حينما ثارت عليه نساؤه واستنكرت عمله (١٤٥)، لكنّ صداماً منع إقامة مجالس الفاتحة على الشهيد الصدر والشهيدة أخته بنت الهدى، كما إنهم لم يحظوا بالتشييع، ودفنوا ليلاً بواسطة جلاوزة السلطة البعثية حتى إن المرجعية بالنجف لم تجرؤ على إقامة الفاتحة على روح الشهيدين، ولا على شجب جريمة الإعدام البشعة. إن هذا الموقف السلبي جاء امتداداً للصمت الرهيب الذي يلف مقبرة الأحياء في عراق علي

وفي عراق ملحمة الشهادة . ولم يكتف صدام بذلك بل نقل أسرة الشهيد الباقية المكونة من زوجته وأولاده الأطفال الأربعة وأمه العجوز إلى بغداد . نعم كأنهن سبايا ، كما سير يزيد آل رسول الله (ص) من كربلاء إلى الكوفة ومن الكوفة إلى دمشق ، كذلك فعل صدام بالثكالي ، هكذا يكافأ المفكرون والعظماء في عراق صدام . وهكذا يحكم «التقدميون» أمة الإسلام بعد النبي محمد (ص) . أمن أجل هذا المصير استشهد المسلمون الأوائل في حروب الحق مع الباطل ؟ إن صداماً ورجاله امتداداً لبقايا الأحزاب والمنافقين . فلا عجب من إقدامهم على مثل تلك الجرائم التي يندى لها جبين الإنسانية .

ولكن يبقى الاختيار للإنسان وحده كيف يعيش وكيف يموت . إن من يختار أن يعيش بعز يموت بعز ، ومن يختار أن يعيش بذل يموت بذل كذلك .
إن الشهادة ميراث العظماء ودعاة الحق في التاريخ ، كما أن الجريمة ميراث الجناة والمجرمين ودعاة الباطل في التاريخ أيضاً . عليك أن تختار فيما أن تكون داعية حق أو داعية باطل !

والملتقى عند الشروق ﴿...﴾ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴿(١٤٦)﴾ .
حينها سيفيق الناس من سباتهم ليتغنوا بشعر بنت الهدى في الحرية

هوامش الفصل الرابع

- (١) ابن أبي الحديد: المرجع السابق، مجلد ٢، ج ١ ص ٥٣٧، أيضاً، الزركلي: الأعلام، المجلد الثالث، ص ١٤٠.
- (٢) الزركلي: نفسه، ص ١٤٠ - ١٤١.
- (٣) الشرقاوي: المرجع السابق، ج ٢، ص ٧١.
- (٤) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ٢، ج ١٠، ص ٥٣٧ - ٥٣٨، أيضاً الشرقاوي: نفسه، ج ٢ ص ٧٢.
- (٥) سورة النحل: ١٠٦.
- (٦) الزركلي: نفسه، ص ١٤١، أيضاً، الشرقاوي: نفسه، ج ٢، ص ٧٠.
- (٧) سورة الأنعام: ١٢٢.
- (٨) نفسها.
- (٩) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ٢، ج ١٠، ص ٥٣٨.
- (١٠) نفسه.
- (١١) نفسه.
- (١٢) نفسه.
- (١٣) هجر: الاحساء.
- (١٤) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ٢، ج ١٠، ص ٥٣٨.
- (١٥) الشرقاوي: المرجع نفسه، ج ٢، ص ٧٨.
- (١٦) نفسه، ص ٨٥.
- (١٧) الأمين: المرجع السابق، مجلد ٨، ج ٤١، ص ٣٧٥.
- (١٨) نفسه، ص ٣٧٢.
- (١٩) نفسه، ص ٣٧٣.
- (٢٠) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ٢، ج ١٠، ص ٥٣٨.
- (٢١) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ٨، ج ٤١، ص ٣٧٣.
- (٢٢) نفسه، مجلد ٣، ج ١١، ص ٣٠٦.
- (٢٣) نفسه، ص ٣٠٥ - ٣٠٦.
- (٢٤) نفسه، ص ٣٠٦.
- (٢٥) نفسه.
- (٢٦) نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ٢٣٣.
- (٢٧) نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ٢٣٣، مجلد ٣، ج ١١، ص ٣٠٦، مجلد ٤، ج ١٦، ص ١٢٠ - ١٢١.
- (٢٨) نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ٢٣٣ - ٢٣٤، مجلد ٤، ج ١٦، ص ١٢١ - ١٢٣.
- (٢٩) نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ٢٣٢، مجلد ٤، ج ١٦، ص ١٢٢ - ١٢٣.
- (٣٠) نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ٢٣٤.
- (٣١) بياني: المرجع السابق، ص ٢١٤ - ٢١٥.

- (٣٢) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ٣، ج ١١، ص ٣٠٧.
- (٣٣) نفسه، مجلد ٤، ج ١٦، ص ١٢٠.
- (٣٤) نفسه.
- (٣٥) نفسه.
- (٣٦) نفسه، ص ١٢٠، ١٢١.
- (٣٧) نفسه، مجلد ٣، ج ١١، ص ٣٠٦، أيضاً، ابن الحديد، مجلد ٣، ج ١٥، ص ٤٠٦.
- (٣٨) الأمين: نفسه، مجلد ٤، ج ١٦، ص ١٢٥، أيضاً، ابن أبي الحديد: نفسه، ص ٤٠٦-٤٠٧.
- (٣٩) ابن أبي الحديد: نفسه، مجلد ٢، ج ٦، ص ٢١.
- (٤٠) الساملي، تاج الدين بن علي: المرجع السابق، ص ٢٢، أيضاً، الأمين: نفس المرجع، مجلد ٣، ج ١١، ص ٣٠٦.
- (٤١) الأمين: نفسه، مجلد ٤، ج ١٦، ص ١١٩.
- (٤٢) نفسه.
- (٤٣) البخاري: المرجع السابق، مجلد ٢، ج ١٧، ص ٣٣٦، أيضاً، الطبري: المرجع السابق، ص ٢١٣-٢١٤.
- (٤٤) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ٣، ج ١١، ص ٣٠٧.
- (٤٥) نفسه، ص ٣٠٨.
- (٤٦) نفسه.
- (٤٧) المجلسي: المرجع السابق، ج ٤١، ص ٣.
- (٤٨) سورة آل عمران: ١٤٤
- (٤٩) سورة آل عمران: ١٤٥.
- (٥٠) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ٢، ج ١٤، ص ٣٧٦-٣٧٧.
- (٥١) نفسه، ص ٣٧٧.
- (٥٢) نفسه، ص ٣٧٨.
- (٥٣) سورة الحجرات: ١٤.
- (٥٤) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ٣، ج ١٤، ص ٣٧٨.
- (٥٥) نفسه.
- (٥٦) نفسه، ص ٣٧٧.
- (٥٧) نفسه، ص ٣٧٨.
- (٥٨) نفسه، ص ٣٧٥.
- (٥٩) نفسه.
- (٦٠) سورة الفتح: ٧١.
- (٦١) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ٣، ج ١٤، ص ٣٧٥.
- (٦٢) نفسه.
- (٦٣) نفسه.
- (٦٤) سورة القلم: ٤.
- (٦٥) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ٣، ج ١٤، ص ٣٧٥.
- (٦٦) نفسه.
- (٦٧) نفسه.
- (٦٨) نفسه.

- (٦٩) نفسه .
- (٧٠) نفسه .
- (٧١) نفسه .
- (٧٢) نفسه، ص ٣٧٥-٣٧٦ .
- (٧٣) نفسه، ص ٣٧٦ .
- (٧٤) نفسه .
- (٧٥) نفسه .
- (٧٦) نفسه .
- (٧٧) نفسه، مجلد ٣، ج ١٥، ص ٣٩٥ .
- (٧٨) نفسه .
- (٧٩) الزركلي: المرجع السابق، مجلد ١، ص ٣٠٦ .
- (٨٠) نفسه .
- (٨١) الأمين: المرجع السابق، مجلد ٣، ج ١١، ص ٣٠٧ .
- (٨٢) الزلاكي: المرجع نفسه، مجلد ١، ص ٣٠٦ .
- (٨٣) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ٢، ج ٩، ص ٤٢٥ .
- (٨٤) نفسه .
- (٨٥) نفسه .
- (٨٦) نفسه .
- (٨٧) نفسه .
- (٨٨) نفسه .
- (٨٩) نفسه، ص ٤٢٦ .
- (٩٠) نفسه .
- (٩١) الزركلي: المرجع نفسه، مجلد ٢، ص ٨٦، أيضاً، عوضين: ديوان الخنساء، القسم الأول، ص ١١-١٥ .
- (٩٢) عوضين: نفس المرجع، القسم الأول، ص ٤٠-٤١ .
- (٩٣) نفسه، القسم الثاني، ص ٤٠٨-٤٠٩ .
- (٩٤) نفسه، القسم الأول، ص ٦٨ .
- (٩٥) نفسه .
- (٩٦) نفسه، ص ٦٨-٦٩ .
- (٩٧) نفسه، ص ٦٩ .
- (٩٨) نفسه .
- (٩٩) نفسه .
- (١٠٠) سورة محمد: ٣١ .
- (١٠١) أحن: ضغائن .
- (١٠٢) سورة التوبة: ١٢ .
- (١٠٣) يعرج: يعيل، الدأب: العادة .
- (١٠٤) الأمين: المرجع السابق، مجلد ٣، ج ١٢، ص ٤٧٧، أيضاً، الشرقاوي: المرجع السابق، ج ٢، ص ٦١ .
- (١٠٥) الحرمل: نبات كالسمسم .

- (١٠٦) سامة خسفاً: أذلة .
- (١٠٧) كشف الغمة، ص ٥٠، عن المجلسي: المرجع السابق، ج ٤١، ص ١١٩ .
- (١٠٨) نفسه .
- (١٠٩) سورة الأعراف: ٨٥ .
- (١١٠) كشف الغمة، ص ٥٠ عن المجلسي: المرجع نفسه، ج ٤١، ص ١١٩-١٢٠ .
- (١١١) سورة آل عمران: ١١٠ .
- (١١٢) متفق عليه .
- (١١٣) الأمين: المرجع السابق، مجلد ٧، ج ٣٧، ص ٤٢٩، مجلد ٨، ج ٤١، ص ٣٨٩ .
- (١١٤) نفسه، مجلد ٧، ج ٣٧، ص ٤٢٩-٤٣٠ .
- (١١٥) نفسه، ص ٤٣٠ .
- (١١٦) نفسه .
- (١١٧) نفسه .
- (١١٨) نفسه، مجلد ٨، ج ٤١، ص ٣٨٩ .
- (١١٩) نفسه .
- (١٢٠) نفسه، مجلد ٧، ج ٣٧، ص ٤٢٩ .
- (١٢١) نفسه، مجلد ٨، ج ٤١، ص ٣٨٩ .
- (١٢٢) الحسيني: الإمام الشهيد، محمد باقر الصدر، ص ٣٢٧ .
- (١٢٣) مصادر خاصة .
- (١٢٤) الحسيني: المرجع نفسه، ص ٦٨-٧٠ .
- (١٢٥) نفسه، ١٠٧ .
- (١٢٦) نفسه، ص ١٠٧-١٩٦ .
- (١٢٧) نفسه، ص ٧١، ٢٠١-٢١٨ .
- (١٢٨) نفسه، ص ٢٦٩-٢٨٩ .
- (١٢٩) أيضاً، مصادر خاصة .
- (١٣٠) الحسيني: نفسه، ص ٢٢١-٢٦٧، ٢٩٢-٣٢١ .
- ايضاً،

Batatu, Hanna: Iraqs Underground
Shi Movements: characterstics,
causes, and prospects, a paper
submitted to a symposium on
"Iraq: The contemporary state"
Which was held at the university
of Exeter, united kingdom between
9 and 12 July 1981.

- (١٣١) أم فرقان: بطللة النجف، ص ١٧، عن الحسيني: المرجع نفسه، ص ٣٢٨.
- (١٣٢) نزار، جعفر: الشهيدة زينب الهدى، عذراء العقيدة والمبدأ، ص ٢٥، عن الحسيني: المرجع نفسه، ص ٣٢٨.
- (١٣٣) أم فرقان: نفس المرجع، ص ٤٢، عن الحسيني: نفسه، ص ٣٢٨.
- (١٣٤) الحسيني: نفسه، ص ٣٢٨-٣٢٩.
- (١٣٥) نفسه، ٢٣٩، ٣٣٠.
- (١٣٦) نفسه، ص ٣٢٩.
- (١٣٧) نفسه.
- (١٣٨) نفسه، ص ٣٣٠.
- (١٣٩) نفسه، ص ٣٣٠-٣٣١.
- (١٤٠) نفسه، ص ٣٣١.
- (١٤١) نفسه.
- (١٤٢) نفسه، ص ٣٢٩.
- (١٤٣) نفسه، أيضاً، مصادر خاصة.
- (١٤٤) نفسه، ص ٤٠٥.
- (١٤٥) العسكري: المرجع السابق، ص ١٦٦.
- (١٤٦) سورة هود: ٨١.

الخاتمة العامة

من خلال النماذج النسائية التي تناولتها هذه الدراسة يمكن الاستنتاج أن المرأة المؤمنة كان لها دور مشرف وبارز قامت به في ظل دولة النبوة، سواء كان ذلك في السلم أم في الحرب، وخاصة خلال العقود الأربعة الأولى من قيام دولة النبوة.

أما دورها في السلم، فإن أول من استجاب للدعوة الإسلامية المحمدية امرأة هي السيدة خديجة بنت خويلد زوجة النبي (ص)، وإن أول من استشهد في سبيل الله وقاوم كل وسائل التعذيب الوحشي امرأة، وهي سمية أم عمار بن ياسر كما ضحّت المرأة بفراق الأهل والوطن، وتحملت آلام الغربة خلال هجريتي: الحبشة والمدينة المنورة، كذلك شاركت المرأة في بيعتي العقبة الأولى والثانية، وفي غدير خم شاركت المرأة في مبايعة الرسول (ص) وعلي حينما نصبه إماماً ووصياً وخليفة له على أمته. هذا إلى جانب دورها الاجتماعي في إعداد جيل صالح.

كما كانت تحضر المساجد - التي كانت عصرئذ أهم مؤسسة تعمل على بلورة الوعي الفكري والسياسي والاجتماعي - لتمارس دورها الإيجابي في التعليم، وتناقش الخليفة في إبداء رأيها حول قضايا المرأة فيما يتعلق بحقوقها وواجباتها. أما دور المرأة الرسالية في الحرب، فقد قامت بواجبها الديني والإنساني في الدفاع عن دينها وأمتها ووطنها وفقاً لإمكاناتها المتواضعة آنذاك. فقد وقفت بكل شجاعة وشمم تساند مقاتلي جيش دولة النبوة، فكان النساء يسعفن الجرحى بتضميد جراحهم، ويوفرن الماء والطعام لهم ويصطحبن الجرحى، وأحياناً القتلى إلى المدينة كما حصل في معركة أحد.

لذا، فإنه لا يستصغر دور المرأة إلا جاهل أو مكابر. وإذا حصل اضطهاد لها في

العهود اللاحقة، فإنما هو جزء من اضطهاد الكل فيصبح اضطهادها مضاعفاً، وذلك يعود إلى استبداد غالبية الحكومات الإسلامية وإنحرافها عن المبادئ التي رسمها النبي (ص) لتأسيس دولته .

لقد أراد الرسول (ص) الكمال لمجتمع دولته : رجالاً ونساءً مهما تعددت ألوانهم وأعراقهم وأديانهم ، كل يخدم الدولة وفق إمكانياته ، سواء كان ذلك في السلم أم في الحرب ، مع ضمان كافة حقوقه الاجتماعية والسياسية . .

في حرب الخليج الثانية ، ومنذ سيطرة القوات العراقية في أغسطس ١٩٩٠ ، على الأراضي الكويتية وحتى جلائها في ٢٨ فبراير ١٩٩١ ، حشدت دول الحلفاء جيوشاً بلغت مئات الآلاف من الجنود بينهم آلاف المقاتلات في الأسلحة الثلاثة : البرية والجوية والبحرية . لقد استغربت بعض فئات المجتمع الخليجي : رجالاً ونساءً من مشاركة المرأة في هذه الحرب ، علماً بأن المرأة الرسالية في دولة النبوة قد لعبت دوراً مشرفاً في الحروب ، قبل أربعة عشر قرناً من حرب الخليج الثانية ، سواء كان بممارسة القتال كما فعلت نسيبة في أحد وأسماء بنت يزيد في اليرموك ، أو بقيامها بأعمال الإغاثة في العديد من الحروب . فلماذا هذا الإستغراب ؛ إنه جهل بالتراث والتاريخ حيث يعيش الإسلام في غربته بين أهله ، إنه ناتج عن سيادة الإسلام السلطوي وغياب الإسلام النبوي .

فمنذ مطلع العقد الهجري الخامس وإلى اليوم عانى الإنسان في ظل ما يسمى بالحكم الإسلامي المتعصب والآلام نتيجة التغير والتحرير . إنه ظلم للتاريخ وحقائقه ، الإعتقاد بأن تخلف المجتمعات الإسلامية عن الركب الحضاري للإنسانية ناشئ عن قصور في تشريعات الإسلام . إن حكماً كهذا يعتبر ظلماً للحقيقية بكل المقاييس . فالدين الإسلامي ، سواء كان عقيدة أم نظاماً ، صار أسيراً بيد الحكام يكتفونه وفقاً لما تقتضيه مصالحهم . ولهذا السبب بدأ هجوم المستشرقين وغيرهم على الإسلام ، واعتبروه أفيوناً للشعوب .

نعم ، إن الإسلام الشكلي ، وهو السائد اليوم ، هو أفيون للشعوب ، لأنه يقتصر على المظهر ولا يمتُّ بصلة إلى الجوهر . وليس من شك في أنه لا يحق لأحد بعد

رسول الله (ص) أن يغير أو يبذل ما أحله أو حرمه، فحلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة. وكما مر سابقاً فإن سلطنة قريش التي أسسها الأمويون مسؤولة بشكل كامل عن كل هذه التغيرات والتحريفات التي أملت بالتشريعات الإسلامية بشكل عام وتفسير القرآن والحديث بشكل خاص، علماً بأن رجال سلطة الخلافة هم الذين مهدوا بقصد أو غير قصد لتأسيس النفوذ الأموي.

وعلى أية حال، فمهما ارتكب رجال سلطة الخلافة من أخطاء في حق العترة والأمة، فإن صحبتهم لرسول الله (ص) في السلم والحرب يجب أن يكون لها تقديرها واحترامها عند الجميع. وكما كانت لهم سلبات فقد كانت لهم إيجابيات، أبرزها الحفاظ على وحدة الرقعة الجغرافية لدولة النبوة بعد وفاة المؤسس، بل وتوسيعها ونشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية، بالإضافة إلى نسخ القرآن وتوزيعه على أقاليم الدولة، المعروفة آنذاك.

إن الأجيال المتعاقبة في دولة النبوة ليست مسؤولة عن ارتكاب أخطاء السلف، ولكن مسؤوليتها تكمن في إصلاح تلك الأخطاء وليس في تعميقها، بهدف الحفاظ على وحدة الأمة، وفهم التاريخ والتراث لدولة النبوة فهماً وإعياً متحرراً بعيداً عن التزييف والتشويه والعصية. وإن هذا الواجب لا يناط فقط بالشعوب ولكنه مسؤولية الحاكمين.

إن المواقف التي سجلتها المرأة المؤمنة، خلال العقود الأربعة الأولى من الهجرة، بل ومنذ بداية الدعوة تعتبر مصدر فخر واعتزاز، لا لنساء دولة النبوة فقط، وإنما لبنات حواء بشكل عام في كل زمان ومكان. لقد ضحت المرأة إلى جانب الرجل بكل ما تملك من أجل إبراز كيانها من جانب ونصر رسالة السماء ومؤازرة إخوتها وأخواتها في العقيدة.

كانت كل من السيدة خديجة والسيدة فاطمة الزهراء والعقيلة زينب، نموذج البيت النبوي للمرأة، مدرسة لأجيال المجتمع النسائي في دولة النبوة. فالسيدة خديجة هي النموذج الرسالي الأول، فقد قاومت كل كبرياء قريش، وفُضِّلَتْ أن تضحي بكل شيء حتى بصحتها وصمدت لدعم الحق وهي سيدة قريش وجدة الأئمة الأطهار.

وهذه السيدة فاطمة الزهراء ، أم الأئمة الأطهار ، وأم المصائب ، تواجه اليتيم منذ طفولتها كما واجهه أبوها ، وتعيش مع والدها معاناته وتحمله إيذاء قريش ، ثم تتحمل مسؤولية حياتها الزوجية القاسية فتكون نعم الزوجة الصابرة للإمام علي ؛ حيث أفنت عمرها القصير في خدمة زوجها وأولادها وتحملت شظف العيش دون أن يكون لها ميزة على سائر نساء الأمة . وقد وقفت بكل شموخ بعد رحيل والدها (ص) معلنة استنكارها ورفضها ظلم السلطة للعترة باغتصابها حقها حتى قضت شهيدة بغصصها .

كذلك فإن عقيلة الطالبين زينب ثمرة بيت النبوة ، وجامعة الرزايا تضرب المثل الأعلى للمرأة المناضلة المتمسكة بعقيدتها صمدت بكل شموخ متحدية السلطة الأموية بكل جبروتها وهمجيتها على الرغم من عظم المصيبة وفداحة الخطب ، وقفت في القصور الأموية بالكوفة ودمشق تقرّع رجال السلطة باللغة الرسالية التي تعلمتها في بيت السوي والطهارة والإيمان والعصمة ، وتعلن في تلك القصور أن دين محمد (ص) لن يموت ، وأن نور الإسلام لن ينطفئ ، وظلت تكشف في خطبتها الجماهير المجتمع الإسلامي رياح التغيير والتحريف التي هبت على دولة النبوة في محاولة لزعزعة أركان هذه الدولة التي قامت عليها ، وهي مبادئ لا تتفق وأهواءهم وتطلعاتهم الشخصية . فكانت شريكاً صادقاً وأميناً لثورة أبي الأحرار الإمام الحسين (ع) .

لقد أثبتت نساء البيت النبوي الثلاث بشكل خاص والنماذج العشرة لنساء دولة النبوة : سمية ، وأسماء بنت عميس ونسبية وهند والسمداء وأسماء بنت يزيد ومُناضر وسودة وأم البنين وبنت الهدى بشكل عام أنّ جذوة النبوة سيظل نورها مشتعلًا طالما وجد في الأمة نساء أمثالهن أو يقتدين بسيرتهن ، وطالما وجد في الأمة رجال أمثال الإمام الحسين (ع) أو مسلم بن عقيل أو الحر بن يزيد الرياحي وعبد الله بن عفيف الأزدي ، وزيد بن أرقم وغيرهم ، إنه طالما وجد من يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، ويضحي في سبيل الله والعقيدة والمبدأ من أمثال هؤلاء النساء وهؤلاء الرجال فستبقى مبادئ دولة النبوة ، وستبقى كربلاء شعلة للحرية ولكل ثورات العالم .

وقد ثبت ، بعد المناقشة والتحليل ، في هذه الدراسة أن السيدة زينب بنت الإمام علي (ع) قد تميزت بعبائنها وتضحياتها في سبيل الدين وإعلاء كلمة الحق على جميع

هذه النماذج من النساء الرساليات، بمن فيهن جدتها خديجة وأمها فاطمة الزهراء . فقد حاربت بالكلمة في القصور والميادين، كما شهدت مصارع كفيلها وابنيها وباقي أحبائها . إنها نموذج فذ للفداء والجرأة والشجاعة، عقلت البشرية أن تلد مثلها، فكانت بحق من أعظم النساء اللواتي عرفتهن البشرية على وجه الإطلاق .

إن الدور الرسالي الذي قامت به النماذج النسائية التي تناولتها هذه الدراسة نقاشاً وتحليلاً لم ينشأ من فراغ، إنما هو ميراث تربوي . فوقوف خديجة خلف زوجها في حصار الشعب بكل آلامه وهو حامل لواء الصمود أمام غطرسة القرشيين وهمجيتهم، على الرغم من كونها سيدة قريش المترفة، إنما جاء نتيجة تشربها بالأخلاق النبوية وذوبانها في ذات الله . وما وقوف الزهراء في مسجد أبيها وهي تقرّع الأمة بخطبتها العصماء على الرغم من المصائب التي توالى عليها إلا لكونها خريجة حجر النبوة وحجر سيدة قريش وأم المؤمنين الأولى، وسيدة النساء . وما حمل العقيلة زينب لواء الحرية في رحلة السبي المزرية للإنسانية بشكل عام، ولأمة محمد (ص) بشكل خاص، بعد كل الرزايا التي حلت بها وإقدامها على كشف أبعاد المؤامرة في خطبتها البلاغية بالكوفة ودمشق عبر ساحات مقابر الأحياء الصامته وقصور الطواغيت، معلنة انتصار الثورة الإشتهادية، إلا لتخرجها من حجري علي وفاطمة وتشربها بأخلاقها التي صاغت شخصيتها الفريدة .

أما الدور الرسالي الذي لعبته النماذج النسائية العشرة فيعود إلى عاملين : الأول تأثر هذه النماذج بتضحيات رائدات النضال في البيت النبوي وإتخاذهن قدوة لهن في التضحية والفداء .

أما العامل الثاني فيعود إلى تربيتهن الدينية الأصيلة وعمق إيمانهن .

وكذلك الحال بالنسبة للشهيدة بنت الهدى، حيث أفصححت في شعرها عن عشقها لدرب الأوائل وتعني بذلك رائدات النضال الثلاث في البيت النبوي وكذلك شهداء كربلاء، بالإضافة إلى البيئة الأسرية التي تشربت من أجوائها شذى الإيمان ونقاء العقيدة . وتعتبر الشهيدة بنت الهدى الوحيدة بين النماذج النسائية العشرة التي قضت غالبية حياتها في النضال، حتى استشهدت مظلومة على أيدي نظام لم تشهد

البشرية أسوأ منه في تاريخها عبر العصور. فكانت على خطى الرائدات الثلاث بحق سيرة ونضالا.

إن الأدوار التي لعبتها الرائدات الثلاث ، والنماذج النسائية العشرة للمرأة الرسالية في دولة النبوة إنما كان بوحى من واجبهن الديني ، وإرضاء لضماثرهن أمام الله وأمام الأجيال . فليس عزيزاً على المجتمع النسائي المعاصر أن يخلق مثل تلك النماذج ، إذا اتخذ منها قدوة ومنازلاً ، وتوفرت له بيئة تربوية مماثلة .

الملاحق

- (١) خطبة السيّد فاطمة الزهراء (ع) بالمسجد النبوي .
- (٢) الكلمة العتائية التي وجهتها السيدة فاطمة الزهراء (ع) لزوجها الإمام علي (ع) .
- (٣) الخطبة التي ألقتها السيدة فاطمة الزهراء في نساء المهاجرين والأنصار .
- (٤) كلمة الإمام علي (ع) عند دفنه السيدة فاطمة الزهراء (ع) مخاطباً رسول الله (ص) .
- (٥) قصيدة حجج دولة النبوة الثلاثة عشر؛ للشاعر حسين بن شمس الحسيني .
- (٦) خطاب الإمام الحسين (ع) الذي ألقاه في أصحابه وأصحاب الحر بن يزيد الرياحي قائد الطليعة الأولى للجيش الأموي، في منطقة اليضة .
- (٧) الخطاب الذي ألقاه الإمام الحسين (ع) في الجيش الأموي بكربلاء، يوم السادس من محرم، سنة ٦١ من الهجرة .
- (٨) الخطاب الذي ألقاه الإمام الحسين (ع) في أصحابه بكربلاء ليلة العاشر من محرم سنة ٦١ من الهجرة .
- (٩) الخطاب الذي وجهه الإمام الحسين (ع) للجيش الأموي بكربلاء، يوم العاشر من محرم . سنة ٦١ من الهجرة قبيل بدء القتال .
- (١٠) خطبة فاطمة الصّغرى بنت الإمام الحسين (ع) في جموع أهل الكوفة المحتشدة في السكك حين دخول قافلة الأسر والسبي من آل رسول الله (ص) .
- (١١) الخطبة التي ألقتها السيدة زينب الصغرى المكناة أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، في جموع أهل الكوفة بالسكك .
- (١٢) خطبة الإمام زين العابدين علي بن الحسين (ع)، في حشود أهل الكوفة بالسكك .
- (١٣) خطبة الإمام زين العابدين علي بن الحسين (ع)، في مجلس يزيد بالقصر الأخضر بدمشق .
- (١٤) خطبة الإمام زين العابدين علي بن الحسين (ع)، في حشود المستقبلين من أهالي المدينة بعد عودته من رحلة الإستشهاد والسبي .

ملحق رقم ١ (*)

نص خطبة السيدة فاطمة الزهراء بالمسجد النبوي بالمدينة ، يوم الجمعة ، ربيع الأول ، السنة الحادية عشرة من الهجرة .

«أبتدئُ بحمد من هو أولى بالحمد والطول والمجد .

الحمدُ لله على ما أنعم به ، وله الشكرُ على ما ألهم ، والثناء بما أقدم ، من عموم نعم إبتدائها ، وسبوغ آلاء أسداها ، وتمام نعم وإلاها ، جُمَّ عن الإحصاء عددها ، ونأي عن الجزاء أمدها ، وتفاوت عن الإدراك أبدها ، وندبهم لإستزادتها بالشكر لاتصالها ، واستحمد إلى الخلائق بأجزائها . وثنى بالندب إلى أمثالها .

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كلمة جعل الإخلاص تأويلها ، وضمن القلوب موصولها ، وأنار في التفكير معقولها ، الممتنع من الأبصار رؤيته ، ومن الألسن صفته ومن الأوهام كيفيته ، إبتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها ، وأنشأها بلا احتذاء امثلة امثلها ، كونها بقدرته ، وذراها بمشيئته . من غير حاجة منه إلى تكوينها ولا فائدة له في تصويرها ، إلا تثبيتاً لحكمته . وتنبهاً على طاعته ، وإظهاراً لقدرته . وتعبداً لبريته . وإعزازاً لدعوته ، ثم جعل الثواب على طاعته ، ووضع العقاب على معصيته ، زيادةً لعباده عن نعمته ، وحياسة لهم إلى جنته ، وأشهدُ أنَّ أبي محمدًا (ص) عبده ورسوله ، اختاره وانتجبه قبل أن أرسله ، وسماه قبل أن اجتباها ، واصطفاه قبل أن ابتعثه ، إذ الخلائق بالغيب مكنونة ، وبستر الأهواويل مصونة ، وبنهاية العدم مقرونة ، عملاً من الله تعالى بآل الأمور ، وإحاطة بحوادث الدهور ، ومعرفة بمواقع المقدور ، ابتعثه الله تعالى إماماً لأمره ، وعزيمة على إمضاء حكمه ، وإنفاذاً لمقادير حتمه ، فرأى الأمم فرقا في أديانها ، عكفاً على نيرانها ، عابدة لأوثانها ، منكرة لله مع عرفانها ، فأنار الله تعالى بأبي محمد (ص) ظلمها ، وكشف عن القلوب بهمها ، وجلى عن الأبصار غممها ، وقام في الناس بالهداية ، وأنقذهم من الغواية ، وبصرهم من العماية ، وهداهم إلى الدين القويم ، ودعاهم إلى الصراط المستقيم ، ثم قبضه الله إليه قبض رافة واختيار ، ورغبة وإيثار ، فمحمد (ص) عن

تعب هذه الدار في راحة قد حف بالملائكة الأبرار. ورضوان الرب الغفار، ومجاورة الملك الجبار، صلى الله على أبي نبيه، وأمينه على وحيه وصفيه، وخيرته من الخلق ورضيه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

ثم التفتت إلى أهل المجلس وقالت :

«أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحمله دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم وبلغاؤه إلى الأمم، وزعيم حق له فيكم، وعهد قدمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم، كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق والنور الساطع، والضياء اللامع، بينة بصائره، منكشفة سرائره، متجلية ظواهره، مغتبط به أشياعه، قائد إلى الرضوان أتباعه، مؤد إلى النجاة استماعه، به تنال حجج الله المنورة، وعزائمه المفسرة، ومحارمه المحذرة، وبياناته الجالية، وبراهينه الكافية، وقضائله المنسوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة، فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس، ونماء في الرزق، والصيام تثبيتاً للاخلاص، والحج تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملة، وإمامتنا أماناً من الفرقة، والجهاد عزاً للإسلام، وذلاً لأهل الكفر والنفاق، والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصلحة للعامة، وبر الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام مناة للعدد وزيادة في العمر، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعويضاً للمغفرة، وتوفية المكايل والموازين تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، وإجتنب القذف حجاباً عن اللعنة، وترك السرقة إيجاباً للعفة، وحرّم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية ﴿فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿فإنها يخشى الله من عباده العلماء﴾».

ثم قالت (عليها السلام) :

«يا أيها الناس، اعلّموا أبي فاطمة وأبي محمد (ص). أقول، عوداً وبدءاً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً، ولقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نساءكم وأخا ابن عمي دون رجالكم، ولنعم المعزي إليه فبلغ الرسالة،

صادعاً بالندارة، ماثلاً عن مدرجة المشركين، ضارباً ثيجهم، آخذاً بكظمهم، داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يكسر الأصنام، وينكت الهام حتى انهزم الجمع وولوا الذُّبُر حتى تفرّى الليل عن صبحه وأسفر الحق عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين، وطاح^(١) وشيظ^(٢) النفاق، وانحلت عقدة الكفر والشقاق وفهت بكلمة الإخلاص، في نفر من البيض الخياص، وكتتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ونهزة الطامع، وقُيسة العجلان، وموطىء الأقدام تشربون الطرُق، وتقتاتون القد أذلة خاسئين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله تبارك وتعالى بأبي محمد (ص) بعد اللتيا والتي، وبعد أن منى بهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب، ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾ أو نجم قرن للشيطان أو فغرت فاغرة من المشركين، قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفى حتى يطأ صماخها بأخصه ويخمد لهبها بسيفه مكدوداً في ذات الله، مجتهداً في أمر الله قريباً من رسول الله (ص)، سيداً في أولياء الله، مشمراً ناطحاً، مجدداً كادحاً، وأنتم في بلهنية من العيش، وادعون فاكهون آمنون، تربصون بنا الدوائر وتتوكفون الأخبار وتنكصون عند النزال، وتفرون من القتال.

فلما اختار الله لنبيه (ص) دار أنبيائه ومأوى أصفياه، ظهرت فيكم حسيكة النفاق وسمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين ونبيغ خامل الأقلين وهدر فيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم، واطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللغرة فيه ملاحظين، ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً، وأحشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير ابلكم واوردتم غير شربكم هذا والعهد قريب، والكلم رحيب والجرح لما يندمل والرسول لما يقبر ابتداراً زعمتم خوف الفتنة ﴿ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾.

فهيئات منكم وكيف بكم وأتى توفكون وهذا كتاب الله بين أظهركم أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجه لائحة، وأوامره واضحة، قد خلفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تدبرون، أم بغير تحكمون؟! ﴿بئس للظالمين بدلاً، ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾.

«ثم لم تلبثوا إلا ريثما تسكن نفرتها، ويساس قيادها، ثم أخذتم تورون وقدتها،

وتهيجون جمرتها ، وتستجييون لهتاف الشيطان الغوي ، وأطفاء نور الدين الجلي ، وإهماد سنن النبي الصفي ، تسرون حسوا في ارتغاء^(٣) وتمشون لأهله وولده في الخمر والضراء [كذا] ، ونصبر منكم على مثل حز المدى ووخز السنن في الحشى ، وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لي ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ أفلا تعلمون؟ بلى قد تجلى لكم كالشمس الضاحية أني ابتته .

وأئها المسلمون أغلب على إرثي ، يا ابن أبي قحافة ، أني كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فرياً ، أفعل عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول : ﴿وورث سليمان داود﴾ وقال فيما إختص من خبر يحيى بن زكريا عليها السلام إذ يقول : ﴿رب هب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ وقال : ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ وقال : ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ وقال : ﴿إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين﴾ . وزعتم أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي ولا رحم بيننا ، أفخصكم الله بآية أخرج منها أبي (ص)؟ أم تقولون أهل ملتين لا يتوارثان؟ ، أولست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟ ، أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟ .

فدونكها ، مخطومة ، مرحولة تلقاك يوم حشرك ، فنعم الحكم الله ، والزعيم محمد ، والموعد القيامة ، وعند الساعة يخسر المبطلون ، ولا ينفعكم إذ تندمون ﴿لكل نأباً مستقر ، وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾ .

ثم رنت بطرفها نحو الأنصار ، فقالت :

«يا معشر الفتية ، وأعضاء الملة ، وحصنة الإسلام ، ما هذه الغمزة في حقي ، والسنة عن ظلامتي؟ أما كان رسول الله (ص) أبي يقول : «المرء يحفظ في ولده»؟ سرعان ما أحدثتم وعجلان ذا إهالة^(٤) . ولكم طاقة بما أحاول ، وقوة على ما أطلب وأزاول ، أتقولون : مات محمد فخطب جليل ، استوسع وهنه واستنهر فتقه ، وانفتق رتقه ، وأظلمت الأرض لغيبته ، واكتأبت خيرة الله لمصيبته ، وكسفت الشمس

والقمر وانتشرت النجوم لمصيته ، وأكدت الآمال ، وخشعت الجبال ، واضيع الحريم وازيلت الحرمه عند مماته . فتلك والله النازلة الكبرى والمصيبة العظمى التي لا مثلها نازلة ولا بائقة عاجلة أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه في أفئيتكم في مماسكم ومصبحكم : هتافاً وصراخاً ، وتلاوة وألحاناً ولقبلة ما حلت بأنبياء الله ورسله حكم فصل وقضاء حتم ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين﴾ .

ويها بني قيلة ، أأهضم تراث أبي وأنتم بمرأى مني ومسمع ومنتدى ومجمع ، تلبسكم الدعوة وتشملكم الخبرة وأنتم ذور العدد والعدة والاداء والقوة وعندكم السلاح والجنه ، توافيكم الدعوة فلا تجيبون ، وتأتىكم الصرخة فلا تغثون ، وأنتم موصوفون بالكفاح ، معروفون بالخير والصلاح ، والنخبة التي انتخبت ، والخيرة التي إختيرت لنا أهل البيت ، قاتلتم العرب وتحملتم الكد والتعب ، وناطحتم الأمم وكافحتم البهم^(٥) فلا نبرج وتبرحون ، نأمركم فتأثمرون حتى إذا دارت بنا رحي^(٦) الإسلام ودرّ حلب الأيام وخضعت نعة الشرك وسكنت فورة الإفك ، وخدت نيران الكفر وهدأت دعوة المهرج واستوسق نظام الدين ، فأئى حرتم بعد البيان وأسرتهم بعد الإعلان ونكصتم بعد الإقدام وأشركتهم بعد الإيما ن ﴿بؤساً لقوم نكثوا إيمانهم ، وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة اتخسونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾ إلا قد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض وأبعدتم من هو أحق بالسط والقبض ، وركنتم إلى الدعة ونجوتهم من الضيق بالسعة ، فمججتم ما وعيتهم ودسعتهم الذي تسوغتم ﴿فإن تكفروا انتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾ .

«ألا وقد قلت ماقلت على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم والغدرة التي استشعرتها قلوبكم ، ولكنها فيضة النفس وبشة الصدر ونفثة الغيظ وتقدمة الحجة ، فدونكموها فاستبقوها دبرة الظهر نقية الخلف باقية العار ، موسومة بغضب الله وشنار الأبد موصولة بنار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفتدة ، فبعين الله ما تفعلون ، ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ وأنا ابنة نذير لكم بين يدي

عذاب شديد ﴿فاعملوا إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون﴾ .

فأجابها أبو بكر عبد الله بن عثمان - الخليفة الأول - فقال : «يا ابنة رسول الله ، لقد كان أبوك بالمؤمنين عطوفاً كريماً رؤوفاً رحيماً وعلى الكافرين عذاباً أليماً وعقاباً عظيماً ، فإن عزوناه وجدناه أباك دون النساء وأخا إلفك [كذا] دون الأخلاء ، أثره على كل حميم وساعده في كل أمر جسيم ، لا يحبكم إلا كل سعيد ولا يبغضكم إلا كل شقي ، فأنتم عترة رسول الله (ص) الطيبون والخيرة المتجربون ، على الخير أدلتنا وإلى الجنة مسالكنا . وأنت يا خيرة النساء ، وابنة خير الأنبياء ، صادقة في قولك سابقة في وفور عقلك ، غير مردودة عن حقك ولا مصدودة عن صدقك والله ما عدوت رأيي رسول (ص) ولا عملت إلا بإذنه وإن الرائد^(٧) لا يكذب أهله ، فإني أشهد الله وكفى به شهيداً ، إني سمعت رسول الله (ص) يقول : «نحن معشر الأنبياء لا نورث ذهباً ولا فضة ولا داراً ولا عقاراً وإنما نورث الكتاب والحكمة والعلم والنبوة ومالنا من طعمة فلولي الأمر بعدنا أن يحكم فيه بحكمه ، وقد جعلنا ما حاولته في الكراع والسلاح يقاتل بها المسلمون ويجاهدون الكفار ويجادلون المردة الفجار ، وذلك بإجماع من المسلمين لم أنفرد به وحدي ولم أستبد بها كان الرأي فيه عندي وهذه حالي ومالي هي لك وبين يديك لا تذوي عنك ولا تدخر دونك وأنت سيدة أم أيك والشجرة الطيبة لبنيك لا يدفع مالك من فضلك ولا يوضع من فرعك واصلك وحكمك نافذ فيما ملكت يداي فهل ترين أني أخالف في ذلك أباك(ص) ؟» .

فقالت ، (عليها السلام) :

«سبحان الله ، ما كان أبي رسول الله (ص) عن كتاب الله الآ صادقاً ولا لأحكامه مخالفاً ، بل كان يتبع أثره ويقف في سوره ، أفتجمعون إلى الغدر اعتلالاً عليه بالزور . وهذا بعد وفاته شبيه بما بغى له من الغوائل في حياته هذا كتاب الله حكماً عادلاً وناطقاً فصلاً ، يقول ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ ويقول : ﴿وورث سليمان داود﴾ فبين عز وجل فيما وزع من الأقسام وشرع من الفرائض والميراث وأباح من حظ الذكران والإناث ، ما أزاح علة المبطلين وأزال التظني والشبهات في الغابرين ، كلا ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ .

فقال أبو بكر:

«صدق الله، وصدق رسوله، وصدقت ابنته، أنت معدن الحكمة وموطن الهدى والرحمة وركن الدين. لا أبعد صوابك ولا أنكر خطأك. هؤلاء المسلمون بيني وبينك. قلدوني ما تقلدت وباتفاق منهم أخذت ما أخذت غير مكابر ولا مستبد ولا مستأثر، وهم بذلك شهود».

فالتفت فاطمة إلى الناس وقالت:

«معاشر الناس المسرعة إلى قيل الباطل المغضية على الفعل القبيح الخاسر ﴿فلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ كلا بل ران على قلوبكم ما أسأت من أعمالكم فأخذ بسمعكم وأبصاركم، لبس ما تأولتم وساء ما به أشرتم، وشر ما منه اعتضتم، لتجدن والله محمله ثقيلاً وغبه ويلاً، إذا كشف لكم الغطاء وبان ما وراء الضراء، وبدا لكم من ربكم ما لم تكونوا تحسبون وخسر هنالك المبطلون».

ثم عطفت على قبر النبي (ص)، وقالت متمثلة بأبيات أم مسطح هند بنت اثالة:

كانت أمور وأنباء وهنيئة	لو كنت شاهدا لم تكثر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها	واختل قومك فاشهدا ولا تغب

وأورد بعضهم قولها بعد هذين البيتين:

أبدى رجال لنا نجوى صدورهم	لما مضيت وحالت دونك التُّرْبُ
تجهمتنا أناس واستخف بنا	لما فقدت، وكل الإرث مغتصبُ
وكنت بدرأ ونوراً يستضاء به	عليك تنزل من ذي العزة الكتبُ
وكان جبريل بالآيات يؤنسنا	فقد فقدت وكل الخير محتجبُ
فليت قبلك كان الموت صادفنا	لما مضيت وحالت دونك الكتبُ
إنا رزئنا بهالم يرز ذو شجنٍ	من البرية لا عجم ولا عربُ

الهوامش:

* الأمين، السيد محسن: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ٢، ص ٣١٥-٣١٨.

(١) طاح: هلك.

(٢) الوشيظ: بمعجمتين، الرذل والسفلة من الناس.

(٣) الحسو: الشراب شيئاً بعد شيء؛ والإرتغاء: شرب الرغوة؛ مثل يضرب لمن يظهر أمراً وهو يريد غيره. أصله الرجل يؤتى باللبن فيظهر أنه يريد الرغوة خاصة، فيشربها وهو في ذلك ينال اللبن.

(٤) مثل يضرب لمن يخبر بكينونة الشيء قبل وقته. والمشهور سرعان ذا إهالة. أهاله (بكسر الهمزة): الدسم، أصله أن رجلاً كانت له نعجة وكان مخاطها يسيل، فقيل له: ما هذا؟ فقال: ودكها، أي دسمها. فقال السائل: سرعان ذا إهاله، وذا إشارة إلى الودك.

(٥) جمع بهمة، وهو الشجاع.

(٦) كناية عن انتظام أمره.

(٧) هذا مثل، والرائد هو الذي يتقدم يبصر لهم الكلاً ومساقط الغيث.

ملحق رقم ٢ *

نص الكلمة العتائية التي وجهتها السيدة فاطمة الزهراء إلى زوجها الإمام علي ،
بعد عودتها من المسجد إلى دارها واستقرارها قالت :

«يا ابن أبي طالب اشتملت شملة الجنين ، وقعدت حجرة الضنين ، نقضت
قادمة الأجلد فخانك ريش الأعزل . هذا ابنُ أبي قحافة يبتزني نحيلة أبي وبلغة إبني
لقد أجهد في خصامي ، وألفيته ألد في كلامي . حتى حسبتني قيلة نصرها والمهاجرة
وصلها ، وغضت الجماعة دوني طرفها ، فلا دافع ولا مانع ولا ناصر ولا شافع .
خرجت كاظمة وعدت راغمة ، أضرعت خدك يوم أضعت جدك . افترست الذئاب
وافترشت التراب . ما كفت قاتلاً ولا أعنيت طائلاً ولا خيار لي . ليتني مت قبل
منيتي ودون ذلتي . عذيري الله منك عادياً وفيك حامياً ويلاي في كل شارق ويلاي
في كل غارب مات العمد ووهت العضد وشكواي إلى أبي ، وعدواي إلى ربي اللهم
إنك أشد قوة وحولاً واحداً بأساً وتنكيلاً» .

فقال لها الإمام علي (عليه السلام) :

«لا ويل لك بل الويل لشانئك . نهني عن وجدك يا ابنة الصفوة وبقية النبوة
فما ونيت عن ديني ولا أخطأت مقدوري فإن كنت تريدن البلغة فرزقك مضمون
وكفيلك مأمون وما أعد لك أفضل مما قطع عنك فاحتسبي الله» .
فقالت : «حسبي الله» . وأمسكت .

الهوامش:

* الأمين ، السيد محسن : المرجع نفسه ، مجلد ١ ، ج ٢ ، ص ٣١٨ .

ملحق رقم ٣ *

نص الخطبة التي القتها السيدة فاطمة الزهراء ، في مرضها بمناسبة زيارة نساء المهاجرين والأنصار لها في بيتها ، وكانت تلك الخطبة عبارة عن رسالة منها لأزواجهن . فحينما سألنها عن علتها قالت بعد أن حمدت الله ، وصلت على أبيها :

«أصبحثُ والله عائفةً لدنياكُنَّ ، قالية لرجالكن ، لفظتهم بعد أن عجمتهم ، وشنأتهم بعد أن سبرتهم فقبحا لفلول الحد ، واللعب بعد الجدد وقرع الصفاة^(١) وصدع القناة وخطل الآراء وذلّل الأهواء ﴿ولبئسما قدمت لهم أنفسهم ان سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون﴾ .

لا جرم لقد قلدتهم ربقتها وحملتهم أوقتها^(٢) وشننت عليهم غارتها فجعدا وعقرأ وبعدا للقوم الظالمين ويحهم أنى زعزعوها عن رواسي الرسالة وقواعد النبوة والدلالة ومهبط الروح الأمين والطيبين^(٣) بأمور الدنيا والدين ، ألا ذلك هو الخسران المبين . وما الذي نقموا من أبي الحسن ؟ نقموا منه والله نكير سيفه وقلة مبالاته بحتفه وشدة وطأته ونكال وقعته وتنمره في ذات الله عز وجل وتالله لو مالوا عن المحجة اللائحة وزالوا عن قبول الحجة الواضحة ، لردهم إليها وحملهم عليها ، وتالله لو تكافوا عن زمام نبذه إليه رسول الله (ص) لاعتلقه ولسار بهم سُجُحاً لا يكلم خشاشة ولا يكمل سائره ولا يمل راكبه ولاؤردهم منهلاً نميراً صافياً رويأ فضفاضاً تطفح ضفتاه ولا يترنق جانباه ولا صدرهم بطاناً ونصح لهم سرأ وإعلاناً ، ولم يكن يتحلى من الغنى بطائل ولا يحظى من الدنيا بنائل غير ريّ الناهل وشبعة الكافل ولبان لهم الزاهد من الراغب ، والصادق من الكاذب ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين﴾ . ألا هلم فاستمع وما عشت أراك الدهر عجباً .

﴿وإن تعجب فعجب قولهم﴾ .

«ليت شعري إلى أي لجأ لجأوا، وإلى أي سناد استندوا، وعلى أي عماد اعتمدوا، وبأي عروة تمسكوا، وعلى أي ذرية قدموا وإحتنكوا» لبئس المولى ولبئس العشير وبئس للظالمين بدلاً» .

إستبدلوا والله الذنابي بالقوادم والعجز بالكاهل ، فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعا» ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون» ويجهم» أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي؛ إلا أن يهدي فما لكم كيف تحكمون» .

«أما لعمرى لقد لُفحت ، فنظرة ريثما تتج ثم احتلبوا ملء العقب دما عبيطاً وذعافاً ، واطمئنوا للفتنة جأشاً وابشروا بسيف صارم وسطوة معتد غاشم وبهرج دائم شامل واستبداد من الظالمين يدع فيأكم زهيداً وجمعكم حصيداً ، فيا حسرة لكم وأني بكم ، وقد عميت عليكم» انلزمكموها وأنتم لها كارهون» .» .

الهوامش:

* الأمين ، السيد محسن : المراجع نفسه ، مجلد ١ ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ .

(١) كناية عن النيل بسوء .

(٢) ثقلها .

(٣) الفطن ، الحاذق .

ملحق رقم ٤ *

نص الكلمة التي قالها الإمام علي (ع) بعد دفنه السيدة فاطمة الزهراء (ع) حيث حوّل وجهه إلى قبر رسول الله (ص) مناجياً:

«السلام عليك يا رسول الله: عني وعن ابنتك وزائرتك النازلة في جوارك والبائنة في الثرى ببقعتك والمختار الله لها سرعة اللحاق بك قل يا رسول الله، عن صفيتك صبري ورق عنها تجلدي، إلا أن في التأسي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز فلقد وسدتك في ملحود قبرك، وفاضت بين نحري وصدري نفسك بلى وفي كتاب الله لي نعم القبول إنا لله وإنا إليه راجعون.

قد استرجعت الوديعة، وأخذت الرهينة واختلست الزهراء فما أقبح الخضراء والغبراء يا رسول الله أما حزني فسرمد. وأما ليلي فمسهد إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت فيها مقيم كمد مقيح وهم مهيج سرعان ما فرق بيننا، وإلى الله أشكو، وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها فاحفها السؤال، واستخبرها الحال فكم من غليل معتلج بصدرها لم تجد إلى بشه سبيلاً وستقول ويحكم الله وهو خير الحاكمين، والسلام عليكما سلام مودع لا قال ولا سئم فإن انصرف فلا عن ملالة، وإن أقم فلا عن سوء ظن بيا وعد الله الصابرين.

واها واها والصبر أيمن وأجمل ولولا غلبة المستولين لجعلت المقام واللبث لزماً معكوفاً ولأعولت إعوالم الثكلى على جليل الرزية، فبعين الله تدفن ابنتك سراً، وتهضم حقها وتمنع إرثها، ولم يطل العهد ولم يخلق منك الذكر. إلى الله يا رسول الله المشتكى وفيك يا رسول الله أحسن العزاء. صلى الله عليك وعليها السلام والرضوان».

ولما إنتهى الإمام علي (ع) من دفنها وقف على شفير القبر، وأنشأ:
لكل اجتماع من خليلين فرقة وكل الذي دون الفراق قليل
وإن افتقادي واحداً بعد واحد دليل على أن لا يـدوم خليل

الهوامش:

* الأمين، السيد محسن: نفس المرجع، مجلد ١، ج-٢، ص ٣٢٢، أيضاً، ابن أبي الحديد: نفس المرجع،

مجلد ١، ج-١٠، ص ٥٩٠-٥٩١، ٥٩٨.

ملحق رقم ٥ *

قصيدة للشاعر حسين بن شمس الحسيني ، تتضمن حجج زعماء دولة النبوة الثلاثة عشر، بدءاً بالمؤسس النبي محمد (ص) وانتهاء بالخليفة الثاني عشر للرسول (ص)، محمد المهدي، مشتملة على أماكن مولدهم ووفاتهم، وكذلك تواريخ ميلادهم ووفاتهم. صلوات الله عليهم أجمعين .

قال أبو هاشم في بيانه	ولفظه يخبر عن جنانه
الحمد لله على الإيـان	بالمصطفى والآل والقرآن
عليهم الصلاة والسلام	ما غرّدت بأيكة حمام
وبعد فاسمع ثم سدّ الخلا	فجلّ من لا عيب فيه وعلا
لقد حداني من له أطيع	لنظم تاريخ له أذيع
فهاك تاريخ النبي المصطفى	وآله المطهرين الخلفا
فمولد النبي عام الفيل	بمكة والحرم الجليل
وفاته حادي عشر هجرته	بطيبة، وهي محل تربته
ومولد الوصي أيضاً في الحرم	بكعبة الله العلي ذي الكرم
من بعد عام الفيل في الحساب	عشر وعشرين بلا ارتياب

وفاته بالهجرة المعروفة	عام أربعين قبره بالكوفة
ومولد الزكيّ نجل الزهرة	بطيبة ثاني عام الهجرة
وقبره بها على يقين	ثم وفيها مولد الحسين
وعمره ثمان أربعوناً	وصحَّ أنَّ الموت في الخمسيناً
ومولد الحسين في ربيع	لثالث من هجرة الشفيع
حادي وستين قضى شهيداً	بكربلا تزوره الوفود
ومولد السجاد في شعبان	ثامن ثلاثين لذي اليان
ميلاده مدينة الرسول	حيب رب ملك جليل
وفاته في الخمس والتسعيناً	وفي البقيع قبره يقيناً
وباقر العلم ولد بطيبة	وقبره بها بغير ريبة
وسابع الخمسين من شهر صفر	مولده، وفاته الرابع عشر
بعد تمام مئة هجرية	وهذه رواية قويّة
وطيبة مولد نجل البخاقر	ثالث ثمانين سني الهاجر
وفاته ثامن وأربعيناً	ومائة معدودة ستيناً
وقبره بجانب البقيع	مجاوراً لجده الشفيع
ومولد الكاظم بالأبواء	ثامن وعشرين على استواء
ومئة من قبلها هجرية	ثالث ثمانين بها المنيّة
وقبره بجانب الزوراء	من أرض بغداد بلا مرأ

ومولد الرضا سليل الزهرة	مدينة الرسول دار الهجرة
مولده ثمان وأربعين	ثالث وميتين الوفا يقينا
وقبره في سناباد طوسا	حل بها مقدسا تقديسا
ومولد الجواد بعد المائة	خامس التسعين في الرواية
ميلاده بأفضل البقاع	مدينة الرسول خير داع
والقبض عشرين ومائتين	والقبر في الزورا بغير مين
ثم علي هادي الأنعام	ميلاده مدينة التهامي
ثاني عشر مائتي سنينا	وفاته في رابع الخمسينا
والعسكري ميلاده المدينة	مدينة المصحوب بالسكينة
ثاني ثلاثين ومائتين	والقبض ستين ومائتين
وسر من رأى مكان القبر	كفاك والده عظيم الفخر
ومولد المهدي في شعبان	خمس وخمسين ومائتان
في سر من رأى بدار العسكري	ونرجس الأم يقول الأكثر
تمت تواريخ الهداة الطاهرة	مشفوعة بالصلوات الفاخرة
نظم الفقير المذنب الحسيني	راجي عفو الله في الدارين
ثم شفاعة النبي الهادي	وآله خلاصة العباد

الهوامش:

* البياضى: نفس المرجع، ج ٢، ص ٢١٥-٢١٧.

ملحق رقم ٦ *

نص خطاب الإمام الحسين الذي ألقاه في أصحابه وأصحاب الحر بن يزيد الرياحي قائد الطليعة الأولى للجيش الأموي بالبيضة : قال الإمام الحسين (ع) بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

«أيها الناس، إن رسول الله (ص) قال : من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله (ص)، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يُغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله، ألا وإن هؤلاء قد لزمو طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله، وأنا أحقُّ من غيري، وقد أتتني كُتُبكم، وقدمت عليّ رسلكم ببيعتكم، أنكم لا تسلموني ولا تحذلونني، فإن تمتمت على بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله (ص)، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم فلكم فيّ أسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم، والمغرور من اغترّ بكم، فحظكم أخطأتم ونصيبكم ضيعتم، من نكث فإننا ينكث على نفسه وسيغني الله عنكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

* العسكري : نفس المرجع، ص ٧١-٧٢.

ملحق رقم ٧ *

نص الخطاب الذي وجهه الإمام الحسين (ع) للجيش الأموي بكر بلاء يوم السادس من محرم سنة ٦١ من الهجرة .

«أنشدكم الله هل تعرفونني قالوا: اللهم نعم، أنت ابن رسول الله وسبطه . فقال: أنشدكم الله هل تعلمون أن جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن جدّتي خديجة بنت خويلد أوّل نساء هذه الأمة إسلاماً؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن أبي علي بن أبي طالب؟ قالوا: اللهم نعم، قال أنشدكم الله هل تعلمون أن حمزة سيّد الشهداء عم أبي؟ قالوا: اللهم نعم. قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن الطيار في الجنة عمي؟ قالوا: اللهم نعم، قال أنشدكم الله هل تعلمون أن هذه عمامة رسول الله صلى الله عليه وآله أنا لابسها؟ قالوا: اللهم نعم، قال أنشدكم الله هل تعلمون أن علياً كان أولهم إسلاماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حليماً وأنه وليّ كل مؤمن ومؤمنة؟ قالوا: اللهم نعم، قال فبمّ تستحلّون دمي وأبي صلوات الله عليه هو الذائد عن الحوض يوم القيامة يذود عنه رجالاً كما يذود البعير الصادر عن الماء، ولواء الحمد في يده يوم القيامة؟ قالوا: قد علمنا ذلك كله، ونحن غير تاركيك حتى تذوق الموت عطشاً» .

* الحلي: نفس المرجع، ص ٥٩ - ٦٠ أيضاً .

العسكري: نفس المرجع، ص ٩٠ .

ملحق رقم ٨ *

نص خطاب الإمام الحسين (ع) في أصحابه ليلة العاشر من محرم سنة ٦١ من الهجرة.

روي عن علي بن الحسين قال : جمع الحسين أصحابه بعدما رجع عمر بن سعد ، وذلك عند قرب المساء ، قال علي بن الحسين : فدنوتُ منه لأسمع وأنا مريض فسمعتُ أبي وهو يقول لأصحابه :

«أُثني على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء ، اللهم ! إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة وعلمتنا القرآن ، وفقهتنا في الدين ، وجعلت لنا أسماً وأبصاراً وأفئدة ، ولم تجعلنا من المشركين ، أما بعد فإني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي ، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً ، ألا وإني أظنُّ يومنا من هؤلاء الأعداء غداً ، ألا وإني قد رأيتُ لكم ، فانطلقوا جميعاً في حل ليس عليكم مني ذمام . هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جلاً ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ثم تفرّقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرّج الله ، فإن القوم إنما يطلبوني ولو قد أصابوني لهُوا عن طلب غيري» .

ملحق رقم ٩ *

نص الخطاب الذي وجهه الإمام الحسين للجيش الأموي بكر بلاء يوم العاشر من محرم سنة ٦١ من الهجرة .

قال الإمام الحسين (ع) بعد أن استنصت الجيش وحمد الله واثني عليه وذكره بما هو أهله وصلى على الملائكة والأنبياء والرسل :

«تَبَّأَ لَكُمْ أَيَّتُهَا الْجَمَاعَةُ وَتَرْحَا، حِينَ اسْتَصْرَخْتُمُونَا وَالْهَيْنَ، فَأَصْرَخْنَاكُمْ مَوْجِفِينَ، سَلَلْتُمْ عَلَيْنَا سِيفاً لَنَا فِي إِيْمَانِكُمْ، وَحَشَوْتُمْ عَلَيْنَا نَاراً اقْتَدَحْنَاهَا عَلَى عَدُوِّكُمْ وَعَدُوَّنَا، فَاصْبَحْتُمْ الْبَاءَ لِأَعْدَائِكُمْ عَلَى أَوْلِيَائِكُمْ بِغَيْرِ عَدْلِ أَفْشَوْهُ فِيكُمْ، وَلَا أَمَلٍ أَصْبَحَ لَكُمْ فِيهِ، فَمَهْلاً لَكُمْ وَالْوِيَلَاتِ، تَرَكْتُمُونَا وَالسِّيفَ هَشِيمَ وَالْجَأْشَ طَامِنَ، وَالرَّأْيَ لَمْ يَسْتَصْحَفْ، وَلَكِنْ اسْرَعْتُمْ إِلَيْهَا كَطِيرَةِ الدِّبَا كَتَهَافَتِ الْفَرَّاشَ، فَسَحَقْنَا لَكُمْ يَا عِبِيدَ الْأُمَةِ، وَشَذَّاذِ الْأَحْزَابِ، وَنَبْذَةِ الْكِتَابِ، وَمَحَرَّفِي الْكَلِمِ، وَعَصْبَةِ الْأَثَامِ، وَنَفْثَةِ الشَّيْطَانِ، وَمُطْفِئِ نَوْرِ الْإِسْلَامِ، أَهْولاً تَعْصِدُونَ، وَعَنَا تَخَازِلُونَ، أَجَلَ وَاللَّهِ غَدْرَ فَيْكُم قَدِيمَ، شَجَّتْ عَلَيْهِ أَصُولُكُمْ وَتَأَزَّرَتْ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُكُمْ، فَكُنْتُمْ أَخْبَثَ ثَمَرِ شَجِي لِلنَّازِلِ، وَأَكْلَةً لِلْغَاصِبِ، أَلَا وَإِنَّ الدَّعِيَّ بْنَ الدَّعِيِّ قَدْ رَكِزَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ: بَيْنَ السَّلَّةِ وَالذِّلَّةِ، وَهِيَهَاتَ مِنَّا الذِّلَّةُ، يَا بِيَّ اللَّهِ لَنَا ذَلِكَ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَحُجُورٌ طَابَتْ وَظُهُورٌ طَهَرَتْ، وَأَنْوْفٌ حَمِيَّةٌ، وَنَفُوسٌ أَيْيَّةٌ، أَنْ نُؤْثِرَ طَاعَةَ اللَّثَامِ عَلَى مِصَارِعِ الْكِرَامِ. أَلَا وَإِنِّي زَاخِفٌ بِهَذِهِ الْأُسْرَةِ مَعَ قَلَةِ الْعَدَدِ، وَكَثْرَةِ الْعَدُوِّ وَخَذَلَةِ النَّاصِرِ». ثُمَّ تَمَثَّلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَبْيَاتِ فِرْوَةِ بْنِ مَسِيكٍ الْمُرَادِيِّ :

فَإِنْ تُهْزَمَ فَهَزَامُونَ قَدِمَا	وَإِنْ تُغْلَبَ فَغَيْرُ مَغْلَبِينَا
وَمَا إِنْ طُبْنَا جِبِينَ وَلَكِنْ	مَنَايَا وَدَوْلَةَ آخِرِينَا
إِذَا مَا الْمَوْتُ رَفَعَ عَنْ أَنْاسِ	مَنَازِلِهِ أَنْأَخَ بِآخِرِينَا
فَأَفْنَى ذَلِكَ سُرُورَاتِ قَوْمِي	كَمَا أَفْنَى الْقُرُونِ الْأُولِينَا
فَلَوْ خَلَدَ الْمَلُوكُ إِذَا خَلَدْنَا	وَلَوْ بَقِيَ الْكِرَامُ إِذَا بَقِينَا
فَقُلْ لِلشَّامَتِينَ بِنَا أَفِيقُوا	سَيَلْقَى الشَّامَتُونَ كَمَا لَقِينَا

ثم أيم الله لا تلبثون بعدها إلا كريت ما يركب الفرس حتى يدور بكم دور الرّحا
ويقلق بكم قلق المحور، عهد عهده إليّ أبي عن جدّي ، فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم
لا يكن أمركم عليكم غمة ثم أقضوا إليّ ولا تنظرون . إني توكلت على الله ربّي وربكم
ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربّي على صراط مستقيم . اللهم أحبس عنهم
قطر السماء وابعث عليهم سنين كسني يوسف عليه السلام وسلّط عليهم غلام
ثقيف يسومهم كأس مصبرة فإنهم كذبونا وخذلونا وأنت ربنا عليك توكلنا وإليك
أنبنا وإليك المصير. . .» .

ثم نزل صلوات الله عليه ونادى : «يا عمر بن سعد ، تقتلني وتزعم أن الدعي
ابن الدّعي ولآك الرّيّ وجرجان ، والله لا تتهنّى بذلك بعدي ابداً ، عهد معهود ،
فاصنع ما أنت صانع فإنك لا تفرح بعدي بدنيا ولا آخرة وكأني برأسك على قصبة
قد نُصبت بالكوفة ، تراماه الصبيان بالحجارة» .

الهوامش:

* الحلي: نفس المرجع، ص ٦٣-٦٦، أيضاً.

* العسكري: نفس المرجع، ص ١٠٠-١٠١.

ملحق رقم ١٠ *

نص خطبة فاطمة الصغرى بنت الإمام الحسين في جموع أهل الكوفة المحتشدة في السكك حين دخول قافلة الأسر والسبي من آل رسول الله .

«الحمد لله عدد الرمل والحصى ، وزنة العرش والثرى ، أحده وأمن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وأن ولده ذبحوا بشط الفرات من غير ذحل ولا ترات ، اللهم إني أعوذ بك أن أفترى عليك الكذب ، أو أن أقول عليك خلاف ما أنزلت عليه من أخذ العهد لوصيه علي بن أبي طالب ، المسلوب حقه ، المقتول من غير ذنب ، كما قتل ولده بالأمس في بيت من بيوت الله فيه معشر مسلمة بالسنتهم تعسا لرقوسهم ما دفعت عنه ضيماً في حياته ولا عند مماته حتى قبضته إليك محمود النقية ، طيب العريكة ، معروف المناقب ، مشهور المذاهب ، لم تأخذه فيك اللهم لومة لائم ، ولا عذل عاذل هديته يا رب بالاسلام صغيراً وحدث مناقبه كبيراً ولم يزل ناصحاً لك ورسولك (ص) حتى قبضته إليك زاهداً في الدنيا ، غير حريص عليها ، راغباً في الآخرة ، مجاهداً في سبيلك رضيته فهديته إلى صراط مستقيم . أما بعد . . يا أهل الكوفة . يا أهل الحنا والمكر والغدر والخيلاء ، فانا أهل بيت ابتلانا الله بكم وابتلاككم بنا ، فعجل بلانا حسناً ، وجعل علمه عندنا وفهمه لدينا ، فنحن عيبة علمه ، ووعاء فهمه وحكمته ، وحجته على أهل الأرض في بلاده لعباده ، وأكرمنا الله بكرامته ، وفضلنا بنبيه محمد (ص) على كثير ممن خلق تفضيلاً بينا ، فكذبتمونا وكرهتمونا ، ورأيتم قتلنا حالاً ؛ وأموالنا نهياً ، كأننا أولاد ترك أو كابل ، كما قتلتم جدنا بالأمس ، وسيوفكم تقطر من دمائنا أهل البيت . قررت لذاك عيونكم وفرحت قلوبكم افتراءً على الله ومكراً مكرتموه ، والله خير الماكرين ، فلا تدعونكم أنفسكم إلى الجدل بما أصبتم من دمائنا ، ونالت أيديكم من أموالنا ، فإن ما أصابنا من المصائب الجليلة والرزء

العظيم في كتاب من قبل أن نراها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم الله والله لا يحب كل مختال فخور [كذا].

اضربوا أمثالكم فانتظروا اللعنة والعذاب ، فكان قد حلَّ بكم ، وتواترت من السماء نجمات فيسحتكم بما كسبتم ، ويذيق بعضكم بأس بعض ثم تخلصون في العذاب الأليم يوم القيامة بما ظلمتمونا ، ألا لعنة الله على الظالمين . ويلكم أتدرون آية يد طاعتنا منكم وآية نفس فزعنا إلى قتالنا ، أم بأية رجل مشيت إلينا ، تبغون محاربتنا ، قست قلوبكم ، وغلظت أكبادكم ، وطبع على أفئدتكم ، وختم على سمعكم وبصركم وسؤل لكم الشيطان وأملى لكم ، وجعل على بصركم غشاوة فأنتم لا تهتدون تباً يا أهل الكوفة ، أي ترات [كذا] لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قتلتهم ودحول له لديكم بما عندتم بأخيه علي بن أبي طالب (ع) جدِّي وبنيه وعتره النبي (ص) الطاهرين الأخيار وافتخر بذككم مفتخركم فقال :

قد قتلنا عليا وبنِي علي بسيف هندية ورماح

وسبينا نساءهم سبي ترك ونطحناهم بأي نطاح

بفئتك أيها القائل الكشكث والأثالب افتخرت بقتل قوم زكاهم الله وطهرهم وأذهب عنهم الرجس ، فاكظم واقع كما اقعا أبوك وإنما لكل أمرئ ما اكتسبت يده ، وما قدمت أوأيله ، أحسدتمونا وبلادكم على ما فضلنا الله عليكم .

ثم قالت شعراً :

فما ذنبنا أن جاش دهرأ لجورنا وبحرك ساج ما يوارى الدعا مضى

«ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور» .

الهوامش:

* الحلي : نفس المرجع ، ص ١٠٣-١٠٧ .

ملحق رقم ١١ *

نص الخطبة التي ألقتها السيدة زينب الصغرى المكناة أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب في جموع أهل الكوفة حين دخول آل رسول الله في قافلة الأسر والسبي، فقالت:

«يا أهل الكوفة سوءة لكم، ما لكم خذلتُم حسيناً وقتلتموه وانتهبتم أمواله وورثتموه، وسيتم نساءه وبكيتُموه، فتباً لكم وسحقاً، ويلكم أتدرون أيُّ داهية دهكتُم، وأيُّ وزر على ظهوركم حملتم، وأيُّ دماءٍ سفكتُموها، وأيُّ كريمةٍ أصبتموها، وأيُّ صبيّةٍ سلبتموها، وأيُّ أموالٍ انتهبتموها، قتلتم خير رجالاتٍ بعد النبي (ص) ونزعت الرحمة من قلوبكم، ألا إن حزب الله هم الفائزون، وحزبُ الشيطان هم الخاسرون، ثم قالت شعراً:

قتلتُم أخي صبراً فويلاً لأنكم	ستُجزون ناراً حدّها يتوقدُ
سفكتُم دماء حرم الله سفكها	وحرّمها القرآن ثم محمّد
ألا فابشروا في النار إنكم غداً	لفي سقرٍ حقّاً يقيناً تخلدوا
وإني لأبكي في حياتي على أخي	على خير من بعد النبي سيولدُ
بدمع غزيرٍ مستهل مكفكفٍ	على الخدّ مني ذائباً ليس يحمّد

ملحق رقم ١٢ *

نص خطبة زين العابدين علي بن الحسين في حشود أهل الكوفة حينما دخل آل رسول الله (ص) في قافلة الأسر والسبي، في شوارع الكوفة. قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أنا ابن المذبوح بشط الفرات من غير ذحل ولا ترات، أنا ابن من انتهك حريمه وسلب نعيمه، وانتهب ماله، وسبيت عياله، أنا ابن من قُتل صبرا، وكفى بذلك فخرا. أيها الناس ناشدكم بالله هل تعلمون أنكم كتبتم إلى أبي وخذعتموه واعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة، وقاتلتموه وخذلتموه، فتبأ لما قدَّمتم لأنفسكم، وشوهاً لرأيكم، بأية عين تنظرون إلى رسول الله (ص) إذ يقول: قتلتم عترتي وانتهكتم حُرمتي فلستم من أمتي. رحم الله أمراً قبل نصيحتي وحفظ وصيَّتي في الله وفي رسوله وأهل بيته، فإنَّ لنا في رسول الله أسوة حسنة».

ولما تنادى الحاضرون لنصرته، رد عليهم قائلاً: «هيهات أيها الغدرة المكره حيل بينكم وبين شهوات أنفسكم أتريدون أن تأتوا إليَّ كما أتيتم إلى أبي من قبل؟ كلا وربِّ الرَّاقصات، فإن الجرح لم يندمل، قتل أبي عليه السلام بالأمس وأهل بيته معه، ولم ينسني ثكل رسول الله صلى الله عليه وآله وثكل أبي وبني أبي، ووجده بين لهاتي ومرارته بين حناجري وحلقي، وغصصه تجري في فراش صدري، ومسألتي أن لا تكونوا لنا ولا علينا». ثم قال شعراً:

ولا غرو أن قتل الحسين فشيخه	لقد كان خيراً من حسين وأكرما
فلا تفرحوا يا أهل كوفان بالذي	أصيب حسين كان ذلك أعظما
قتيل بشاطئ النهر روجي فداؤه	جزاء الذي أرداه نار جهنما

ثم قال (ع) «رضينا منكم رأساً برأس فلا يوم لنا، ولا يوم علينا».

* الحلي: نفس المرجع، ص ١٠٨-١١١.

ملحق رقم ١٣ *

نص الخطبة التي ألقاها زين العابدين، علي بن الحسين في مجلس يزيد بالقصر الأخضر بدمشق، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

«أيها الناس، أُعطينا ستاً وفضلنا بسبع : أُعطينا العلم والحلم والسماحة والفصاحة والشجاعة والمحبة في قلوب المؤمنين . وفضلنا بأنّ منّا النبي المختار محمد (ص)، ومنّا الصديق، ومنّا الطيار، ومنّا أسدُ الله وأسدُ رسوله ومنّا سيّدة نساء العالمين فاطمةُ البتول، ومنّا سبطا هذه الأمة، وسيدا شباب أهل الجنة فمن عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي :

أنا ابن مَكَّةَ ومنى، أنا ابنُ زمزم والصفاء، أنا ابنُ من حمل الزكاة بأطراف الرداء، أنا ابن خير من انتزر وارتدى، أنا ابنُ خير من انتعل واحتفى، أنا ابنُ خير من طاف وسعى، أنا ابنُ خير من حجَّ ولَبَّى، أنا ابنُ من جُمِّلَ على البراق في الهواء، أنا ابنُ من أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فسبحان من أُسرى، أنا ابن من بلغ به جبرئيل إلى سدرة المنتهى، أنا ابن من دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، أنا ابنُ من صلّى بملائكة السماء، أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى، أنا ابنُ محمد المصطفى، أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتى قالوا لا إله إلا الله، أنا ابنُ من بايع البيعتين، وصلّى القبليتين، وقاتل بدر وحنين، ولم يكفر بالله طرفة عين، يعسوب المسلمين، وقاتل الناكثين، والقاسطين والمارقين، سمح سخي، بهلول زكي، ليث الحجاز وكبش العراق، مكّي مدني، أبطحي تهامي خيفي عقبي، بدريّ أحديّ، شجريّ مهاجريّ، أبو السبطين، الحسن والحسين، علي بن أبي طالب، أنا ابن فاطمة الزهراء، أنا ابن سيّدة النساء، أنا ابن بضعة الرسول . . . » .

وقد قطع يزيد الخطبة على زين العابدين خوف القُتنة لاستسلام الناس للبكاء حينما عرفوا الحقيقة، فسكت عن الكلام وهو على المنبر، فلما قال المؤذّن : الله أكبر قال علي بن الحسين : كَبُرْتُ كبيراً لا يقاس، ولا يدرك بالحواس، ولا شيء أكبر من

الله، فلما قال: أشهدُ أن لا إله إلا الله، قال علي: شهد بها شعري وبشري، ولحمي ودمي ونحِّي وعظمي، فلما قال: أشهدُ أن محمداً رسول الله التفت علي من أعلى المنبر إلى يزيد وقال يا يزيد: محمد هذا جدِّي أم جدك فإن زعمت أنه جدك فقد كذبت وإن قلت إنه جدِّي لم قتلت عترته؟».

وبعد فراغ المؤذن تقدم يزيد وصلى الظهر.

الهوامش:

* فتوح ابن أعثم ٢٤٧/٥ — ٢٤٩، أيضاً، مقتل الخواري ٦٩/٢ — ٧١ عن العسكري: نفس المرجع، ص ١٦٥ — ١٦٦ (الخطبة موجزة).

ملحق رقم ١٤ *

نص الخطبة التي ألقاها الإمام زين العابدين، علي بن الحسين (ع)، في أهل المدينة حين استقبلوه خارج المدينة، بعد عودته من رحلة الإستشهاد بكر بلاء:

«الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، بارئ الخلائق أجمعين الذي بعد فارتفع في السموات العلى وقرب فشهد النجوى. نحمده على عظام الأمور وفجائع الدهور وألم الفجائع ومضاضة اللواذع وجليل الرزء وعظيم المصائب الفاطعة الكاظة الفادحة الجاثمة. أيها القوم، إن الله وله الحمد ابتلانا، بمصائب جليلة وثلمة في الإسلام عظيمة، قتل ابو عبد الله الحسين، عليه السلام، وعترته وسبي نسائه وصبيته، وداروا برأسه في البلدان من فوق عالي السنان. وهذه الرزية التي لا مثلها رزية. أيها الناس فأني رجالات منكم يُسرُّون بعد قتله؟ أم أية عين منكم تحبس دمعها وتضنُّ عن انبهاها، فلقد بكت السبع الشداد لقتله، وبكت البحار بأمواجها، والسموات بأركانها، والأرض بأرجائها، والأشجار بأغصانها، والحيتان ولجج البحار والملائكة المقربون وأهل السموات أجمعون.

يا أيها الناس، أيُّ قلب لا يتصدع لقتله؟ أم أي فؤاد لا يحنُّ إليه؟ أم أيُّ سمع يسمع هذه الثلمة التي ثلمت في الإسلام.

أيها الناس، أصبحنا مطرودين مشردين مذودين وشاسعين عن الأمصار، كأننا أولاد ترك وكابل من غير جرم اجترمناه ولا مكروه ارتكبناه، ولا ثلمة في الإسلام ثلمناها، ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين. إن هذا إلا اختلاق، والله لو أن النبي تقدم إليهم في قتالنا كما تقدم إليهم في الوصاية بنا لما زادوا على ما فعلوا بنا، فإننا لله وإنا إليه راجعون من مصيبة ما أعظمها وأوجعها وأفجعها وأكظها واقطعها وأمرها وأفدحها، فعند الله نحسب فيها أصابنا وما بلغ بنا، فإنه عزيز ذو انتقام».

* الحلي، المرجع نفسه، ص ١٣٨-١٤٠.

فهرست المصادر

أولاً: المصادر الأولية :

أ- المخطوطات :

١ - الأبشيهي ، أبوالبقا محمد بن أحمد الخطيب : المستطرف من كل شيء مستطرف .

٢ - الأصفهاني ، آغا محمد رضا القمشاهي : بيان في خلافة النبي .

٣ - البخاري ، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل : الجامع الصحيح ، مجلدان ، ثلاثون جزءاً .

٤ - الحائري ، محمد الموسوي البوشهري : اللؤلؤة العالية في الرد على الفرق الغالية .

٥ - الحلي ، علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس : اللهوف على قتلى الطفوف .

٦ - الخوي ، أحمد بن محمد بن علي : أطباق الذهب .

٧ - الصّغاني : مشارق الأنوار النبوية من صحاح الأخبار المصطفوية .

٨ - العاملي ، بهاء الدين محمد : زبدة الأصول .

٩ - العاملي ، تاج الدين بن علي : التتمة في تواريخ الأئمة .

١٠ - الكبداتي ، محمد مؤمن بن محمد سعيد : مشكاة المصابيح .

١١ - المفيد، أبو عبد الله محمد بن محمد: تصحيح اعتقاد الإمامية.

١٢ - ملا علي، محمد: تكفير المكفرين.

ب - الكتب المنشورة.

١ - إبراهيم، حافظ: الجزء الأول من ديوانه، الناشر محمد أمين دمع، بيروت، لبنان، ١٩٦٩ م.

٢ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ٤ مجلدات (٢٠ جزءاً). دار الفكر، تاريخ ومكان النشر غير مدونين.

٣ - ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكريم، محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب بعز الدين، المتوفى سنة ٦٣٠ هـ، الكامل في التاريخ، مجلد ١، تاريخ ما قبل الهجرة، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

٤ - ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج (٥١٠ - ٥٩٧ هـ): صفة الصفوة، حققه وعلق عليه محمود فاخوري، خرّج أحاديثه د. محمد رواس قلعة جي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

٥ - ابن حجر، أحمد الهيثمي: الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، شركة الطباعة الفنية المتحدة، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م.

٦ - ابن حنبل، أحمد بن محمد: المسند، ج ١، ٢، ٣، ط ٣، دار المعارف للطباعة والنشر، مصر، ١٣٦٨ هـ - ١٩٦٥ م.

٧ - ابن طولون، شمس الدين محمد، نوادر المخطوطات (الأئمة الإثني عشر): ٩٥٣ هـ - ١٥٤٦ م، مؤرخ دمشق، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م.

٨ - ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة (جزءان)، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، بيروت، لبنان، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

٩ - ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ١ . حققها وضبطها وشرحها ووضع
فهارسها مصطفى الشعار ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي ، مطبعة مصطفى
الباني الحلبي وأولاده بمصر . ١٣٥٥ - ١٩٣٦ .

١٠ - البلاذري : انساب الأشراف ، القسم الرابع ، ج ١ ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ -
١٩٧٩ م . دار النشر غير مذكورة .

١١ - الذهبي ، الحافظ المؤرخ شمس الدين بن أحمد بن عثمان : تاريخ الإسلام :
السيرة النبوية ، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، ط
٣ ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

١٢ - الطبري : الحافظ محب الدين أحمد بن عبد الله : ذخائر العقبى في مناقب
ذوي القربى ، دار المعرفة للطباعة والنشر . بيروت - لبنان ، تاريخ النشر غير
مذكور .

١٣ - العسقلاني ، الحافظ أحمد بن علي بن حجر : (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ) . صحيح
البخاري ، ج ١ ، دار المعرفة ، بيروت - لبنان ، تاريخ النشر غير مذكور .

١٤ - مناظرة بين الغروي والحروي ومجادلتها في أمر الخلافة حال اجتماعها بمرقد
الإمام علي بن موسى الرضا ، في مدينة مشهد بإيران ، نقلاً عن نسخة طبع العراق ،
ط ٣ ، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ .

١٥ - النسائي ، الإمام الحافظ النقاد أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب ، كتاب
خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . تصنيف أبي إسحاق الحويني الأثري ،
دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

١٦ - الواقدي ، محمد بن عمر بن واقد المتوفى سنة ٢٠٧ هـ : كتاب الردة ، رواية
أحمد بن أعثم الكوفي ، المتوفى سنة ٣١٤ هـ ، تحقيق الدكتور يحيى الجبوري ، ط ١ ،
دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .

ثانياً : المصادر الثانوية :

أ- العربية :

- ١ - الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر بن أحمد، الملل والنحل، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١٣٩٥ - ١٩٧٥ .
- ٢ - الأمين، السيد محسن : أعيان الشيعة : مجلد ١، ٢، ٣، ٤، ٧، ٨ دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .
- ٣ - البحراني، السيد هاشم الحسيني التوبلي، المتوفى سنة ١١٠٧ هـ أو ١١٠٩ هـ : الإنصاف في النص على الأئمة الاثني عشر من آل محمد (ص) الاشراف، صحّحه وترجمه فارس سيد هاشم رسولي محلاتي، جانجانه علمية، ١٩٦٦ م .
- ٤ - البياضي، الشيخ زين الدين بن محمد علي بن يونس العاملي، النباطي، المتوفى عام ٨٧٧ هـ، الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم، صحّحه وحققه وعلق عليه محمد الباقر البهودي، المكتبة المرتضوية، مطبعة الحيدري . تاريخ النشر غير مدوّن .
- ٥ - الشرقاوي، عبد الرحمن : علي إمام المتقين، (جزءان) . مؤسسة الوفاء، ط ١، بيروت، لبنان، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- ٦ - الجزائري، السيد نعمة الله الموسوي : الأنوار النعمانية، ج ١، مطبعة شركة جان به، تبريز، إيران، تاريخ النشر غير مدوّن .
- ٧ - الحسيني، هاشم معروف : سيرة الائمة الاثني عشر، القسم الأول، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .
- ٨ - الحسيني، محمد : الإمام الشهيد محمد باقر الصدر، دار الفارابي، بيروت، ط ١، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م .

٩ - الرزكلي، خير الدين : الأعلام، مجلد ١، ٣، ط ٦، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٨٤.

١٠ - الشيرازي، السيد حسن : كلمة الإمام الحسن، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، ط ١، رمضان ١٣٨٥هـ، ط ٢، شعبان ١٣٨٦هـ.

١١ - العسكري، العلامة السيد مرتضى : معالم المدرستين، قيام الإمام الحسين ضد الإنحراف عن سنة رسول الله (ص)، المجلد الثالث، قسم الدراسات الاسلامية، مؤسسة البعثة، مطبعة الاتحاد، طهران، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

١٢ - القرماني، أبي العباس أحمد بن يوسف بن احمد الدمشقي : كتاب أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، عالم الكتب، بيروت، لبنان، تاريخ النشر غير مدوّن.

١٣ - الكاشي، الشيخ عبد الوهاب : مأساة الحسين بين السائل والمجيب، ط ١، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٩٧٣.

١٤ - المجلسي، الشيخ محمد باقر: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الائمة الأطهار، ط ٢، المصححة، ج ٢١، ٢٨، ٣٧، ٤٠، ٤١، ٤٥، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان. ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

١٥ - جرداق، جورج : علي وعصره، ج ٤، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٠.

١٦ - خالد، خالد محمد : أبناء الرسول في كربلاء، ط ٢، مطبوعات الشعب، القاهرة/ ديسمبر ١٩٧٧.

١٧ - عوضين، ابراهيم (الدكتور) : ديوان الخنساء : تحقيق د. إبراهيم عوضين، ط ١، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٨- يماني، محمد عبده (الدكتور): علموا أولادكم محبة آل بيت النبي، ط ١،
١٤١٢ هـ - ١٩٩١، ط ٢، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، دار القبلة للثقافة الإسلامية،
جدة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت - لبنان.

ب - الأجنبية

- ١

Jihad and Shahadat: (struggle and Martyrdom in Islam), Edited by
Mehdi Abedi and Gary Legenhausen, The Institute for Research and
Islamic Studies (IRIS).

- ٢

Batatu, Hanna: Iraq's Underground shia't Movements:
characteristics, causes, and Prospects, a paper submitted to a Sym-
posium on "Iraq contemporay state".
Which was held at the University of Exeter, United Kingdom
between 9 and 12 July

الفهرس

الصفحة	
٥	١ - الأهداء
٧	٢ - التمهيد
١٣	٣ - المقدمة : أ- المرأة في العصر الجاهلي
	ب- مكانة المرأة ودورها في ظل دولة النبوة .
	٤ - الفصل الأول : خديجة بنت خويلد .
٤٣	رائدة النضال الأولى للمرأة الرسالية في دولة النبوة
	٥ - الفصل الثاني : فاطمة الزهراء بنت محمد (ص) .
٦٣	رائدة النضال الثانية للمرأة الرسالية في دولة النبوة
	٦ - الفصل الثالث : زينب بنت علي بن أبي طالب (ع) .
١٦١	رائدة النضال الثالثة للمرأة الرسالية في دولة النبوة
	٧ - الفصل الرابع : نماذج لنضال المرأة الرسالية .
٢٦٥	في دولة النبوة لمجموعة من النساء في فترات مختلفة
٣١٥	٨ - الخاتمة العامة
٣٢١	٩ - الملاحق
٣٤٩	١٠ - فهرست المصادر

ABSTRACT

The purpose of this book is to focus on the role of "AL MARRA'A AL RESALYYA"* in the formation of the Islamic history and how the spiritual realm of the prophethood took shape through the ages. "al-Mar'a al-Risaliyya" is not merely a believer OF ISLAM or a righteous figure; within her perspective and inspite of her varied position, she has had the power to shed the light on the spiritual continuity of the prophecy education from one historical stage to another. Thus, the research will attempt to give a presentation of the origin of the early prophecy education which characterized the individual merits of the selected examples. This, however, will clarify the women's roles in revival of the spiritual influence during any transistory period in which secular rulers violated the Islamic faith.

Undoubtedly, there were many highly but the successive led to the definition of the prominent roles which contrebutte effectually to the revival of Muhammadanism spirit.

Accordingly, this study consists of preface, introduction, four chapters, conclusion, appendices and bibliography.

The introduction of this stuoy is devoted to the recognition of the social position of the pre-Islamic woman and how it has been reformed after the emergence of Islam.

The earliest educational methods, on which the beginning per-

sonality of the had been built, are discussed in the first chapter. The early merits of the prophecy by which al-Sayyida Khadija* has been recognised have also been surveyed in this chapter.

Chapter two deals with the major socio-prophetical applications which have been applied by the Prophet's daughter Fatimatu al-Zahra'. The primitive establishment of the early shapes of the spiritual realm of the prophethood are the subjects of this chapter.

Chapter three emphasizes the contributions of the Prophet's granddaughter zaynab alongside her effective attitudes after the tragedy of brother al-Husain and his companions in Karbak.

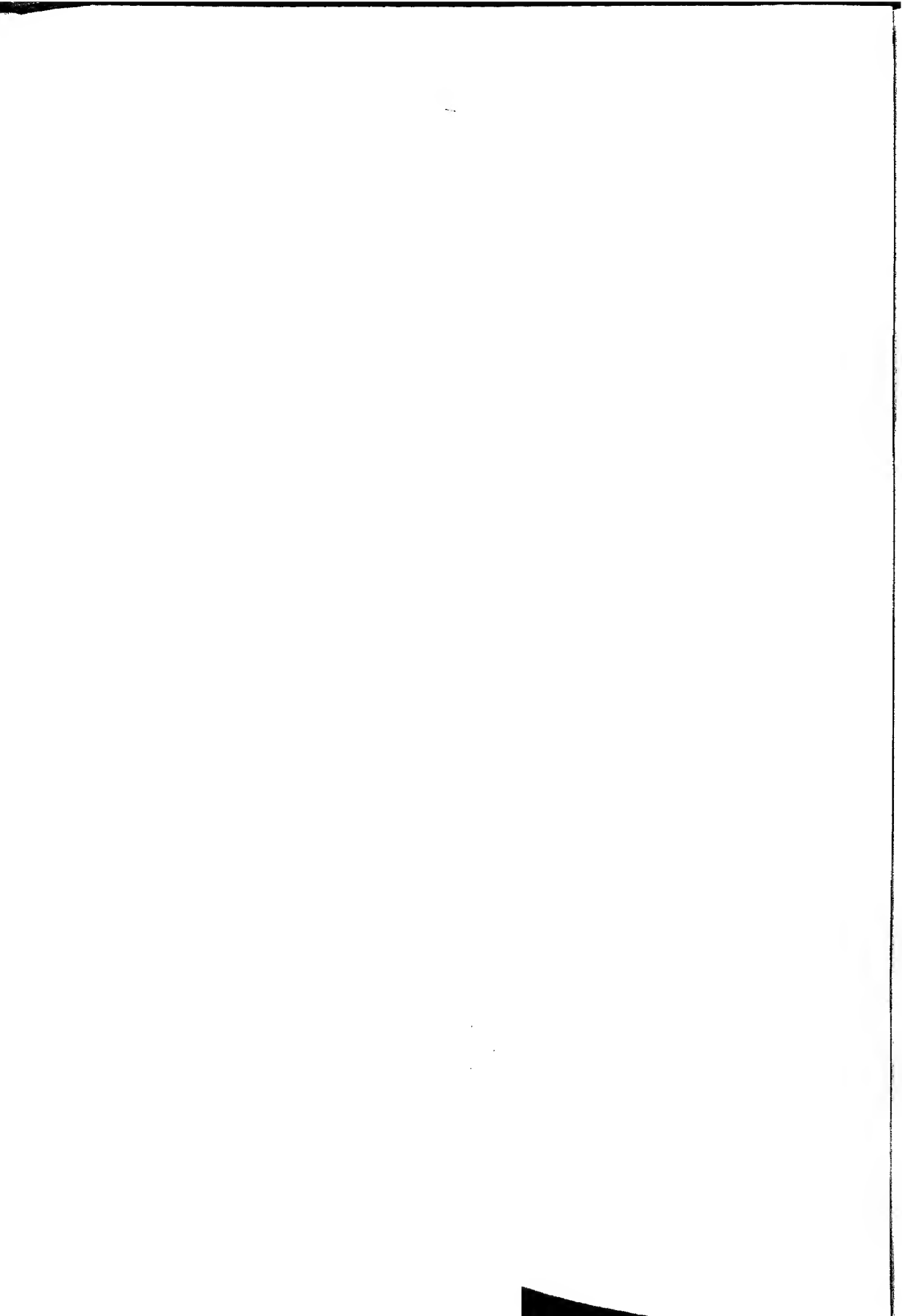
Chapter four deals with the roles of ten ideal women who contributed to the revival of the prophethood spirit through the Islamic history.

The conclusion has summarised the results and the suggestions to which the modern educationalists and the contemporary women can refer to improve the principles of the spiritual applications.

The appendices include text of a number of public speeches for the Prophet's relatives such as Fatimatu al-Zahra', while the bibliography has categorised the primary and secondary sources, and the majority of this research depends on the primary sources.



The Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliothèque de l'Université



207
C902

هذا الكتاب

لم يكن الحديث عن دور المرأة، في التاريخ الإنساني، طفرة أو معجزة أو ظاهرة تقتحم حياة بعينها أو عصراً بذاته، فلقد امتلأت شروح الأحداث بمواقف النساء وبطولاتهن، بل وقد يجد المتتبع لمسار التاريخ سطوة للمرأة في الأحداث يعجز شجعان الرجال عن الإتيان بها، إلا أن أهمية هذا الكتاب تكمن في تعيين رسالية المرأة المسلمة، أولاً، ودورها في تاريخ دولة النبوة ثانياً. وهذه حدود جعلت البحث يتجاوز أطر الأحداث العملية للتاريخ، متخطياً إلى الآفاق الروحية لمواقف الرساليات من النساء، فاحصاً ومتلصقاً بعقب النبوة وشذاها فيها، متدبراً هيئة تلك المواقف كاشفاً عن عليّة الاستعداد الدائم للفداء والتضحية، عازماً من ثم كيف حافظت تلك الهيئة وذلك الاستعداد على توالي النسب الروحية لعبير النبوة عبر عصور التاريخ، رغم الزوابع والاختناقات التي حاول مثيروها متعمدين إطفاء نور النبوة في الأرض والتحول بالمجتمع إلى حكم دنيوي عضوض لا يكون للإسلام فيه أثر سوى الاسم.

إن التعارف على دلالة مصطلحي «تاريخ دولة النبوة» و«تاريخ دولة الخلافة» وبيان دورة المرأة في أحداث الأول منهما يكشف عن أهمية أخرى للكتاب، باعتبار الدلالة الأولى تشير إلى ما طرأ على حجم الأثر الروحي الذي قضى بديمومة روح الإيمان النبوي في نفوس المسلمين عبر عصور التاريخ؛ في حين تشير الدلالة الثانية إلى مسار الحكم أو السلطة الذي انتظم بأحداث الفرسان وخطط قواد الجيوش وشدة الأمراء وعنفهم، أو فاعلية ما تصالح عليه المستبدون من الحكام «بجنود العسل».

إن إنكار المؤمنات الرساليات ذلك التعسف وحرمانهن وتضحيتهن وفداءهن للإسلام وحدوده، وتلذذهن بنتائج مواقفهن، بالنتائج المتمثلة بخلق الأمل في إحياء ذكر الله وروح النبوة في المجتمع، كشف عن معالم شخصية المرأة الرسالية وعرض لأهمية الاقتداء بسلوكها واستمداد مبادئ تربية بناتنا وأخواتنا في الوقت الحاضر والمستقبل.

لقد توالى نفحات النبوة بمواقف اللواتي تربين في حجر الرسالة المحمدية وارتوين من منبعها الأول، الأمر الذي جعل النماذج المختارة من النساء الرساليات لشروح البحث وتحليلاته من تلك الشجرة الخالدة، فكان توالي فداء ذلك النسل الطيب كشفاً للأحداث التي يهتز لها ضمير الإنسان في جميع العصور، وتوهجاً لنور النبوة في مختلف العصور المظلمة ومحطات الصراع التاريخية. إن النماذج الرسالية التي اعتمدتها هذه الدراسة ملكت من الفاعلية الروحية والتأثير النفسي الدائم ما جعلها حية متوهجة معطاءة لكل مبادئ التربية للمرأة الرسالية في الحاضر والمستقبل.